

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الدراسات العليا التاريخية

بجواز من الله . جرت المناقشة على ما ذكره

السنة دتمت التسويات .

د. محمد عبد اللطيف البجاري . د. محمد سعيد محمد . د. أحمد بن محمد

جمهورية العراق

الدكتور نافذ الأندلسي والسرداوي

في مطلع العصر الحديث

رسالة مقدمة من

نبيل عبد الحفيظ رضوان

لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الحديث

إشراف

الدكتور نافذ الأندلسي / محمد عبد اللطيف البجاري



١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

المُقَدِّمَةُ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، وبعد :-

جعلت الدولة العثمانية الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام ، الركيزة
الكبرى لوجودها ، والمنطلق الأول فى بنى دولتهم ، فأقاموا
دولتهم على الدعامات التشريعية الاسلامية وعاشوا ضمن النظم الاجتماعية
الاسلامية ، واقتبسوا نظم الحضارة الاسلامية . فهم بذلك قدموا خدمة كبرى
للاسلام ، وبذلوا ما فى وسعهم لنشر لوائه وأستطاعوا أن يدافعوا عــــن
المسلمين وعقيدتهم مدة تجاوزت أربعة قرون ، ويعتبر ذلك فترة زمنية
ليست بالقصيرة مقارنة بالدول الاسلامية السابقة .

ومع تلك الصفحة المجيدة للدولة العثمانية ، وصفا كثرة من مؤرخى
التاريخ الحديث ، تاريخ الدولة بمفاتيح لا تليق بتلك الاعمال التى قدمها
السلطين على مدى السنوات الطويلة ، كما وصفوها بأنها كانت من وراء التدهور
الذى احاط بالعالم الاسلامى مندفعين فى كتاباتهم بدوافع شتى تأصلت جذورها
فى عصور الإستعمار ، مما جعل كتاباتهم تتبعد كل البعد عن الحقيقة .

لقد آن الأوان لاعادة تقويم وكتابة التاريخ العثمانى على الوجه
الصحيح ، وعلى المؤرخ أن يدخل ميدان الدراسة العلمية التاريخية العميقة
وهو خالى الذهن من أية أفكار مسبقة ، وأن يمعن فى دراسته تحقيقا ودرسا
وتنقيبا وتعديلا ، وذلك للوصول الى الحقيقة ووضع الأمور فى
نصابها الصحيح ، وقد قام بتوجيه هذه الدعوة عدد من الباحثين والمهتمين
بالدراسات العثمانية . (١)

(١) ليلى صباغ : نحو تقويم جديد للحياة الفكرية فى البلاد العربية فى
المرحلة الاولى من الحكم العثمانى ، مجلة اوراق ، عدد (٣) ، ١٩٨٠م .
، احمد عبد الرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى ، المقدمة .

من هذا المنطلق كان اختياري لموضوع الرسالة " جهود العثمانيين — لانقاذ الأندلس واسترداده في القرن العاشر الهجرى / السادس عشر ميلادى " فبالإضافة لكون الموضوع حديثا فى فكرته وجديدا فى اضافته ، فقد كان ايضا تصحيحا لافكار عديدة سبق وأن وضعها بعض المؤرخين ، ورددها من أتسى بعدهم من دارسين ، وبذلك جاءت الرسالة فى حد ذاتها تأريخ وتصحيح .

قسمت الرسالة الى ستة فصول وخاتمة ، وسبق ذلك التعريف بطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ، ثم اتجاه الفتح لأوربا ومحاولة اختراقها من شرقها الى اقصى جنوبها الغربى ، ثم جاء الفصل الاول بعنوان " شبه جزيرة أيبيريا فى أواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، تناولت فيه كيف نشأت الدولة الحديثة فى البرتغال واسبانيا ، ثم قيام دولة اسبانيا الموحدة ، ثم انتقلت بالحديث الى ما سمي بحروب الاسترداد المسيحية ، ثم تعرضت لسقوط غرناطة ٨٩٢هـ / ١٤٩٢م .

وفى الفصل الثانى أوضحنا كيف كانت الدولة العثمانية فى مفتـرق الطرق ، وفى البداية تحدثت عن أهمية التقدم شمالى الدانوب ، والدوران حول البحر الاسود ، ثم أوضحت عوائق الزحف العثمانى فى وسط أوربا ، وفى وقت توالى فيه استنـجاد غرناطة بالدولة العثمانية ، كما تعرضت بالحديث عن وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وتهديد الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى لأول مرة فى التاريخ ، ثم تحول التجارة العالمية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

اما الفصل الثالث فقد خصى للكلام عن شارل الخامس والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والاستعمار الاسبانى فى امريكا الوسطى الجنوبية وأثر تدفق الفضة على اسبانيا فى حروبها ضد المسلمين ، وكيف أدى ذلك الى ضراوة تلك الحروب ، الا أن ظهور البروتستنتية فى شمال أوربا أثرت فى نشاط شارل الخامس مما أدى الى نشاط الكاثوليكية كحركة

مضادة للبروتستنتية ، وظهور الروح الصليبية ، ثم نالت اهداف شارل الخامس الصليبية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والجيوب الصليبية على الساحل الافريقى العربى الشمالى قسما وافرا .

ثم انتقلنا بعد ذلك للجهاد البحرى الإسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وصدى حروب الاسترداد فى العالم الإسلامى ، وكيف كانت الروح الجهادية سائدة فيه ، ونتيجة لذلك فقد رأت الدولة العثمانية أن تقيم نظام بيلربك فى الجزائر ، لتضمن مواصلة الجهاد فى الحوض الغربى للبحر المتوسط لتصل منه للاندلس ، الا أن الخصميين فى تونس، وبنى زيان فى الجزائر والسعديين فى مراكش ، كان لهم دور بارز فى اعاقه تقدم الدولة لاسترداد الأندلس .

لم يعبأ العثمانيون بتلك العوائق بل كثفوا جهودهم لاستعادة الأندلس وهو ما تحدثنا عنه فى الفصل الخامس ولسلطنا الاضواء على دور البحرية العثمانية فى عصر سليمان القانونى فى الجهاد البحرى ، ثم خطة استعادة الأندلس فى عهد صالح ريس بيلربك افريقية ، ثم أدوار حسن بن خير الدين فى ذلك ، لياتى بعد ذلك قلع على الذى قام بجهود كبيرة ومضنية فى سبيل استعادة الأندلس ، بناء على تعليمات السلطان العثمانى .

امام تلك الجهود المكثفة التى قامت بها الدولة لاسترداد الأندلس نمت عوامل مضادة ، وتحولات خطيرة ، أوضحتها فى الفصل السادس ، من تلك العوامل المضادة الصراع بين العثمانيين والصليبيين فى البحار العربية بالإضافة الى موقف المصفيين الشيعة فى ايران من الدولة العثمانية كل هذا جعل الدولة تحول اهتمامها من أوروبا الى الميدان الجنوبى، خصوصا بعد معركة ليبانتو التى دمر فيها الأسطول العثمانى الرئيسى ، مما أدى الى أن تغير الدولة فى سياستها نحو الشمال الافريقى ، فحولته الى نيابات ثلاث فى الجزائر وتونس وطرابلس ، وركزت الدولة اهتماماتها فى

الدفاع عن شبه الجزيرة العربية لتأمين مكة والمدينة .

ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة والنتائج ، وهنا يتجلى منهجنا الخاص فى الاهتمام بالخاتمة ، كاهم جزء فى الرسالة لأنها تحتوى على النتائج والإضافات الجديدة ، ولأنها فى حقيقة الأمر هى عبارة عن جهد الطالب ، ومقياس مقدرة الباحث فى مجال الربط والتحليل والاستنتاج ، لذلك يقل التوثيق فيها بالنسبة لفصول الرسالة الأخرى ، ولعله من الملاحظ أن الرسالة تخلو من العناوين الفرعية ، وأنها جاءت وحدة فكرية واحدة من بدايتها الى النهاية عملاً بالمنهج العلمى فى الرسائل العلمية .

كان هدفى من وراء ذلك هو إبراز اهتمام الدولة العثمانية بالخطوة التى وضعتها لاسترداد الأندلس ، وهو هدف سامى للعثمانيين ، غاب عن كثير من الباحثين ، كما هو تمحيص لمسار كثير منهم .

ولعل أهم المشكلات التى واجهت البحث فى بداية العمل هى قلة المصادر والمراجع التى تعالج فكرة الرسالة وتغطى جوانب خطتها ، مما تطلب منى القيام بعدة سفريات الى الخارج بحثاً عن تلك المصادر والمراجع ، فقممت بزيارة لمكتبات الجزائر والمغرب وتونس ، ثم خصصت لى جامعة أم القرى رحلة أخرى لزيارة الارشيف العثمانى باستانبول ، بالإضافة الى زيارة عدة أماكن فى لندن ومن ضمنها مكتبة الدراسات الشرقية بالمتحف البريطانى .

وأخيراً أرجوا أن تكون رسالتى جزء من خطة لتغطية جوانب هامة فى التاريخ الإسلامى الحديث ، تلك الخطة التى اضطلع بها قسم التاريخ الإسلامى بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، وقد بدا لى من اطلاع على كثير من المصادر والمراجع التى تناولت تاريخ الدولة العثمانية أن الذين كتبوا وأرخوا لها كانت كتاباتهم تقليدية أكثر منها موضوعية فهى مجرد سرد للأحداث ، وذكر سيرة السلاطين ، لذلك جاءت تلك الكتابات

وكانها مجردة من الروح والفكرة ، مما أضفى على التاريخ العثماني صفحة الركود والجمود ، كما أن معظم الكتابات جاءت سطحية بعيدة عن العمق نتيجة عدم فهم طبيعة الدولة العثمانية ، أو عدم الانتباه لذلك ، ولذلك كتبت رسالتى هذه فى ضوء هذه النقاط جميعا .

وأننى أنتهز هذه المناسبة لأشكر جامعة أم القرى والمسئولين فيها وأخص بالشكر الأستاذ / الدكتور عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية الذين سهلوا لى الكثير من الصعوبات ، كما لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل الى استاذى / المشرف الدكتور محمد عبد اللطيف البحرأوى لما غمرنى به من أفضال كثيرة ، كما أشكره على ارشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة ، والتى أفادت البحث كثيرا .

والله الموفق والمستعان ،،،،،

تغییر

الدولة العثمانية واوروبا

- ١ - طبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد .
- ب - فتح اوروبا واختراقها من شرقها الى اقص جنوبها الغربى .



قام بعض المحاربين التركمان ، من اقارب السلاجقة ، وبدافع الجهاد المقدس ، باحتلال المقاطعات الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية حتى نواحي بحر ايجه غربا . وبعد المعركة الحاسمة التي انتصر المسلمون فيها عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م على جموع البيزنطيين المحتشدة قرب بحيرة وان شرقي تركيا ، والتي عرفت باسم ملاذ كرو ، حيث هزم جيش بيزنطة ، وأسر أمباطورهم (رومانوس الرابع) ، واكتسب القائد التركي الب ارسلان شهرة واسعة عمت ارجاء العالم الاسلامي ، عند ذلك تمكنت القبائل التركمانية المسلمة تشبيبت اقدامها في آسيا الصغرى ، واحتلت شرق ووسط الاناضول .

كان من ضمن القبائل التي سكنت الاناضول اثر تلك المعركة ، قبيلة قباى اسلاف العثمانيين ، وظهر ارطغرل بن سليمان شاه ، الذي عاد بعد وفاة أبيه في بلاد العجم ، ليتسلم زمام الأمور ، وشاهد ارطغرل في طريقه جيشين مشتبكين في قتال عنيف ، فناصر احدهما ، ثم علم فيما بعد ان الذي دعمه ، كان جيش علاء الدين سلطان قونية التي تأسست عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م . وكافأ علاء الدين ارطغرل أرضا قرب بروسه ، وعندما توفي ارطغرل حكّم أكبر أبناء عثمان والذي برز كأمير في شمال غرب الاناضول ، على رأس قوة تنزع الجهاد ضد بيزنطة في تلك المنطقة . (١)

تعددت النظريات بعد ذلك حول كيفية نمو إمارة الغازی عثمان ، تلك الإمارة الصغيرة ، التي سخرت نفسها لقيادة الجهاد المقدس ضد المسيحية لتتكون بعد ذلك دولة قوية وفي مدى زمني قصير ، وهناك نظرية أكدت بأن دخول تلك الإمارة الاسلام ، واتحادها فيما بعد مع المسلمين كان وراء نمو تلك القوة في زمن قصير ، اما العلماء المسلمون الملمون بمصادر التاريخ فانهم يوافقون على تلك النظرية ، الا انهم يطالبون بالبحث عن بداية تكوين الدولة العثمانية ، والتطورات السياسية والثقافية للاناضول خلال القرنين

السابع والثامن الهجرى ، الثالث عشر والرابع عشر الميلادى .

تطورت الأوضاع فى المشرق الإسلامى بعد الغزو المغولى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وكانت النتيجة الفورية للغزو المغولى ، الهجرة الجماعية للقبائل التركية المتنقلة ، والمتميزة بالقوة ، وقد قدمت هذه القبائل فى البداية من وسط آسيا الى ايران والأناضول الشرقى (١) حيث المراعى الغنية والبيئة الأكثر ملائمة .

بعد ذلك ظهر عاملان عرضيان ساعد فى الاندماج التركى فى العالم الإسلامى جعلنا من الاتراك قوما مميزين عن الشعوب الإسلامية الأخرى ، وساهما بطريقة قاطعة فى النجاح العسكرى والسياسى التركى فى المشرق الإسلامى ، احد تلك العوامل ، ان الاتراك عندما بزغوا فى بادئ الأمر كعنصر هائل فى الإسلام ، فانهم اعتنقوه على المذهب السنى . وكان العامل الثانى هو المفهوم الإسلامى للجهاد الذى شنه الغزاة الاتراك أبطال الايمان ، الذين شكلوا ببسالتهم فى المعارك المقدسة عبر حدود الإسلام دورا نبيلًا ، وكان هذا الدور ملائما تماما لتقاليدهم الحربية (٢) .

وازداد المسلمون الاتراك فى مناطق الحدود الإسلامية ، وحث زعماء تلك المناطق الرجال على الغزو ضد البيزنطيين ، على انه جهاد اسلامى وتجمع هؤلاء المحاربون حول زعماء غازون ، وصارت غاراتهم على الاقاليم البيزنطية اكثر ضراوة ، وقام هؤلاء الزعماء الذين نظموا الجماعات التركية المولعين بالقتال بتأسيس امارات مستقلة فى الاناضول الغربى انتزعوها من البيزنطيين وذلك بعد ٩٥١هـ/ ١٢٦٠م . (٣)

1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.5 .

2- Paul Coles :The Ottoman Impact on Europe P.P. 13-14.

3- Halil Inalcik : IBFD P.60.

كانت مثالية فكرة الجهاد عاملا هاما فى تأسيس وتطوير الدولة العثمانية
فمجتمع امارات الحدود صاغه اطار فكرى خاص اشبه بفكرة الجهاد المستمر
والتوسع الدائم غربا ، فالجهاد كان واجبا دينيا فى هذا المجتمع يتطلب
الجهد والتضحية ومن ثم تكيفت جميع الفضائل الاجتماعية فى مجتمع الحدود
مع مثالية فكرة الجهاد .

كان الهدف من وراء الجهاد اخضاع عالم الكفر (دار الحرب) وليس
تدميره ، وأقام العثمانيون دولتهم على اساس توحيد الأناضول الاسلاميَّة
والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، وبالرغم من أن الحرب المقدسة كانت المبدأ
الاساسى للدولة ، فان الدولة العثمانية برزت فى ذات الوقت كحاميَّة
للكنيسة الأرثوذكسية وملايين المسيحيين الأرثوذكس ، فقد ضمن الاسلام حياة
وممتلكات المسيحيين واليهود بشرط الطاعة ودفع الجزية ، وسمح الاسلام
لهم بمراسمة شعائرهم الدينية الخاصة ، ومع وجود العثمانيين فى مجتمع
الحدود ، واختلاطهم بحرية مع المسيحيين ، فانهم طبقوا مبادئ الاسلام
تلك باكبر قدر من الارحية والتسامح ، وتابع العثمانيون سياسة ضمان
الاستسلام الاختيارى وكسب ثقة المسيحيين قبل اللجوء الى الحرب ، وذلك خلال
السنوات الاولى من تأسيس الدولة . (١)

طبق العثمانيون المبادئ الاسلامية ، فكانت حماية الفلاحين قد شكلت
مصدر ايراد للدولة ، لذلك فانها تعتبر أحد العناصر المشجعة لاتخاذ
موقف التسامح مع الفلاحين ، كما أن الواردات من الجزية قد شكلت جزءا
كبيرا من ايراد الدولة ، تماما مثل الخلافة الاسلامية على عهد الراشدين
وهكذا تعين على الدولة العثمانية ان تكون دولة حدود حقيقية ودولة
متحررة من النزعات الاقليمية ، تعامل جميع العقائد والأجناس دون تمييز
وتوحد البلقان المسيحية الأرثوذكسية والأناضول الاسلامية فى دولة واحدة . (٢)

(١) ابراهيم شحاتة حسن اطار العلاقات المغربية العثمانية ص ٨٠، ٧٩

فكرتها الأساسية هي ان الاسلام كله فى حالة حرب دائمة ومستمرة مع المسيحية
 جمعاء لا يستثنى من ذلك الا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتى تدفع
 الجزية . (١)

كان الفتح المتواصل قانون حياة المجتمع التركى وبزغ السلاطين داخل
 التاريخ كزعماء قوم رحل من الغازين ، والدولة كلها عبارة عن معسكر واسع
 وكان السلاطين فيها قواد ميدان نشيطين ، يغادرون مركزهم ومعهم الجيش فى
 كل ربيع ، ويحاربون طوال الصيف . (٢)

اراد العثمانيون ان تكون دولتهم دولة اسلامية ، فاستندت احكامهم
 على الشريعة الاسلامية مع روح العصر ، الذى كان يضع الدين فوق كل اعتبار
 آخر وعمل مؤسسو الدولة على تغذية العاطفة الدينية الاسلامية المستقلة
 فى نفوس العثمانيين ، رغبة فى الافادة منها فى دفع حركات التوسع العسكرى
 الاسلامى فى أوربا بوجه خاص ، وأملا فى القيام بالدور الذى قام به العرب فى
 صدر الاسلام ، وكان الاتجاه الدينى ملحوظا فى النظم العثمانية التى وضعوها
 واستنبطوها من الشريعة الاسلامية .

كان من مظاهر الاتجاه الدينى فى سياسة العثمانيين تشجيع التصوف
 حتى قيل فى هذا الصدد. أن حياة المجتمع قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق
 الصوفية ، أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة ، وكان من أهم هذه الطرق
 الصوفية النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، وقد انتشرت فى الاناضول
 ثم انتقلت مع نمو الدولة لانحاء اخرى ، وكان السلاطين فى مجموعهم يقربون
 اليهم علماء الدين والاتقياء . (٣)

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة عام ، ص ٦٠ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.34 .

(٣) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ، ص ١٩، ٢٠، ٢١ .

وفى هذا الصدد تزوج مؤسس الدولة العثمانية الغازى عثمان من ابنة
احد المشايخ الصوفييين . (١)

كانت تلك هى الاسس والمعانى السامية التى وضعها العثمانيون لتكون
منطلق حياتهم وبداية تكوينهم وسار عليها مؤسس الدولة وتبعهم بقية
السلطين .

قام الغازى عثمان بعد ان وضع اسس الدولة بفتح قلعة قره حصار
الواقعة فى بلدة أفيون والقريبة من قونيه وذلك سنة ٦٨٨هـ الموافق سنة
١٢٨٩م فكافاه الملك علاء الدين على ذلك بمنحه لقب بك وأقطعه كافية
الأراضى التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة وأن يذكر اسمه فى خطبة
الجمعة .

أغار التتار سنة ٦٩٩هـ الموافق ١٣٠٠م على بلاد آسيا الصغرى ، وتوفى الملك
علاء الدين آخر السلاطين السلجوقيين فى قونيه ، فأنفتح المجال لعثمان ،
فاستأثر بجميع الاراضى المقطعة له ولقب نفسه (بادشاه عثمان) (٢) ،
وطد عثمان سلطته على أساس العدالة وما لبث أن وسع رقعة دولته التى وصلت
الى بينى شهر وبذلك صار على مقربة من بروسة و نيقية ، أهم المدن اليونانية
فى غرب الاناضول ، وما لبثت بينى شهر أن صارت قاعدة لحكم عثمان وبذلك
توفرت له القاعدة . للانطلاق صوب الغرب (٣) ، ولما كانت دولة قرمان أقوى
الدول التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة . بحيث كان الاصطدام بها محفوفاً
بالمخاطر فقد رأى عثمان التوسع صوب الغرب ، حيث كان البيزنطيون غنيمة
سهلة ، فبدأوا بتحرير الجزء الصغير الاسيوى من ربقة البيزنطيين ، بينما

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ .

(٢) محمد فريد بك نفس المرجع ، ص ١١٨ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى ، فى اصول التاريخ العثمانى ، ص ٣٧ .

كانوا يقضون على الإمارات الأخرى فى الأناضول (١).

ارسل عثمان من قاعدته الحصينة فى بنى شهر الحملات ضد المدن اليونانية المجاورة ، وأستولى على عدد من الحصون ، قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته ، فدمر بثينيا ، وبعد ذلك لم يجزء اليونانيون على الخروج من أسوار نيقية ، ثم تقدم صوب الساحل ، وقلد أمراء ايدين وصاروخان الذين قامت أساطيلهم بغزو الجزر اليونانية ، وبالتدريج اقترب من بروسة ونيقية وشيد بجوارهما قلعتين مكنانه من ضرب الحصار عليها ، بالإضافة الى تخريب الحقول ، والاستيلاء على المواشى والعبيد وعرقلة الاتصالات التجارية . (٢)

واصل عثمان فتوحاته وكسب الاراضى بالتدريج مستغلا حالة الفوضى والاهمال المسيطرين على الاراضى البيزنطية بالأناضول ، وحدث أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذى كان يهدد نيقية عاصمة البيزنطيين السابقة . (٣)

فرض الغازى عثمان حصارا على نيقية (ايزنيك) سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م فبعث الإمبراطور البيزنطى جيشا من المرتزقة قوامه ألف رجل ، فأوقعه عثمان فى كمين وهزمه فى بافيون (Baphaeon) فى صيف تلك السنة ، وكان لهزيمة الجيش البيزنطى صدى واسع فى أرجاء المعمورة ، فقد ذاعت شهرة الغازى عثمان فى الآفاق ، كما وصفت المصادر العثمانية والبيزنطية كيفية اندفاع المجاهدين من كل أنحاء الأناضول ، وأخذت إمارات الحدود الأخرى اسم عثمان وصاروا معروفين باسم العثمانيين .

عقب ذلك الانتصار اقيمت الإمارة العثمانية ، وكان نموذج الغزو والجهاد عنصرا هاما فى تأسيس وتطور تلك الإمارة ، واستجاب المجتمع فى إمارات الحدود

(١) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ٦٥ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٦ .

لنموذج ثقافى محدد ، اذ انه أفهم بالمثل الاعلى للجهاد المستمر ، والتوسع الدائم لدار الاسلام حتى يغطى العالم اجمع . (١)

سار عثمان بعد ذلك على هدى وايمان عميق بالدين الاسلامى وبنى سياسته على مشورة فقهاء المسلمين وحكم الناس حكما عادلا مستمدا من تعاليم الاسلام ووضع عثمان نفسه مجاهدا فى سبيل الاسلام . (٢)

" بعث الغازى عثمان الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى ، يخبرهم بين ثلاثة أمور ، الاسلام أو الجزية أو الحرب ، فاسلم بعضهم ، وانضم اليه ، قبل البعض دفع الجزية ، واستعان الباقون على السلطان عثمان بالتتسار واستدعواهم لنجدتهم ، لكن لم يعبأ السلطان عثمان بل هب لمحاربتهم جيشا جرارا تحت أمرة ابنه أورخان ، ومعه عدد ليس بقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسه ميخائيل صديق عثمان الذى اختار الاسلام ديناً ، وبعد حروب كبيرة تشنت شمل التتار " . (٣)

عزم الغازى عثمان على فتح بروسه ، فأنشأ بالقرب منها قلعتين ، وعقد لواء ذلك لابنه الغازى أورخان فى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، وبعد خروجه من مدينة ينى شهر مر باطره نوس ، ولما تقابل مع حاكمها أراد القبض عليه ففُـر من وجهه الى أن وقع من صخرة فمات وبذلك أمكن الاستيلاء على مدينة بروسه (٤) واستمر أورخان بن عثمان الى والده . يخبره بالنصر الذى حققه ، وما لبث أن توفي عثمان فى سن السبعين ودفن فى بروسه ، العاصمة الجديدة للدولة الناشئة ، وكان سقوط بروسه خطوة هامة الى الامام بالنسبة للعثمانيين ، الذين تحولت املاكهم من امارة حدود يسكنها الرعاة الى دولة اسلامية ، ذات عاصمة وحدود ، وسكان مستقرين ووسائل تطوير جيش نظامى

(١) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.6 , 7 .

(٢) محمد عبد المنعم الراقى : الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن

العربى ، ص ٨٥ .

(٣) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

يدافع عنها ويوسع رقعتها وإدارة تشرف على شؤون الحكم . (١)

كانت الاناضول عشية تولى اورخان بن عثمان مقسمة لعدد من الامارات التى قامت بعد انقراض السلاجقة ، فكان آيدين بك ، وصاروخان بك ، ومنتشا بك ، وكرميان بك ، وحמיד بك ، وتكه بك ، وقره سى بك ، وهم جميعا من أحفاد السلاجقة حكاما على ممالك صغيرة ، يخشون على انفسهم من أولاد قرمان وكان أولاد اسقنديار حكاما مستقلين بجهات قسطنطون ، وكانت بقية الممالك الاخرى تحت تسلط بعض عشائر التركمان فكان بمرعش أولاد ذو القاورية وباطنة أولاد رمضان ، وكان من بين هؤلاء حكومة السلطان أورخان ، التى اكتسبت قوة ومكانة خصوصا بعد استيلائهم على مدينة بروسه ، التى جعلها أورخان مقرا لحكومته . (٢)

لم يلتفت السلطان اورخان لتلك القوى ولم يتحرك لملاقاتهم بل رغب فى تطوير دولته فى شتى المجالات الإدارية والمالية والعسكرية ليتمكن من بناء صرح اسلامى قوى (٣) خاصة وان دولته على الحدود مع الدولة البيزنطية ، بمعنى آخر انها دار حرب .

سن اورخان القوانين والانظمة بمساعدة رجال حكومته منهم قاضى بروسه ، وضرب السكة العثمانية ، وجعل للمأمورين والأمرأة وأصناف الجنود وطبقات الأهالى ملابس مخصصة ، كما رتب العساكر النظامية ووضع لهم قانونا للترقية ، بعد ان كانت جيوشه المؤلفة من الفرسان التركمان ومن استطاع من الرعية على الحرب لا نظام لهم ، فأنشأ لذلك طائفة الانكشارية ، وصار حسب ما رآه وزيره يباخذ كل سنة العدد الممكن من أولاد النصارى ، ويجمعونهم ثم يعلمونهم آداب الاسلام ومتى بلغوا السن الملائم أدخلوهم ضمن أوجاق

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول الجار ، ١٦ ، ص ٤٨٨ .

(٣) على حسون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

الانكشارية ، كما انشا اورخان منصب الوزارة ، فعين آخاه علاء الدين باشا فكان اول وزير فى الدولة . ألفت أورخان بعد ذلك الى الاراضى المفتوحة فقسمها الى قسمين وهما خاص وتيمار ، فكانت ايرادات التيمار لرجال الحرب والخاص للخزينة السلطانية والأمراء العائلة الملوكية ولأعيان الحكومة ولم يكن هذان القسمان كالجفالك لان أراضيها كانت عبارة عن حقول يتمصرف أربابها بالحرث والزرع ويعطون ما عليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج الانتقال من يد الى اخرى الى المتصرفين فى قسمي الخاص والتيمار وكان يتعين على اصحاب التيمارات بالنسبة لحاصلات تيماراتهم أن يدرب كل واحد منهم فارسا او فارسين او اكثر ويعلمه استعمال السلاح ، ومتى وقعت الحرب اجتمع هؤلاء الفرسان تحت لواء الأمير المعينون معه ، ثم يذهبون تحت قيادته الى ميدان القتال ، واطلق على هذا الصنف من الجنود اسم سباهية التيمار وقد خدموا الدولة خدمة جليلة . (١)

وضع اورخان شعارا لدولته فى المسجد الجديد فى بروسه ، مؤكدا سياسة الدولة فى الغزو المتواصل وكان الشعار هو سلطان بن سلطان ، الغازى بن الغازى ومن خلال ذلك الشعار يتضح ان حكم اورخان كان حاسما فى مرحلة الانتقال من قوم رجل الى دولة مستقرة . (٢)

بعد ان استقرت اسرالدولة على تلك النظم الحديثة ، وجه أورخان اهتمامه نحو الفتوحات ، ففي سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م أعلن حربا على بلاد الروم والتى صادف خلالها وفاة حاكم ازميد مركز اقليم قوجه ايلي ، فانتقلست ادارة المدينة الى ابنته التى تصل اليها الامدادات العسكرية من القسطنطينية ولما حاصر تلك المدينة الغازى عبد الرحمن ، كاتبته الفتاة المذكورة سرا فاستولى على قلعتها ، وارسل الفتاة مع الغنائم الى السلطان اورخان ، الذى عقد نكاحها على الغازى عبد الرحمن لكونها اعانت الدولة ، ومازال يتقدم

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

اورخان فى فتوحاته حتى حضر بنفسه فى سنة ٥٧٢٨هـ / ١٣٢٧م ، و حاصر ازميـد نفسها ، وارسل القاكدين قرة على وايغور الب مع جنود لفتح قيون حصار وفى اثناء القتال اصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة فسقط ميتا من سور القلعة ، وبذلك استولت الجيوش العثمانية على القلعة المذكورة ،وبعدها سلمت يلاقونية حاكمة ازمير (نيقوميديا) المدينة الى السلطان أورخان فأركبها هى وجنودها ومن يريد من اهالى المدينة السفن وارسل الجميع القسطنطينية وذلك بناء على رغبتها وبذلك صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية . (١)

تقدم اورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة ، واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة ، كان يقودها الامبراطور آندرو نيكوس الثالث فى ٥٧٢٩هـ / ١٣٢٨م، عندها تخلت بيزنطة عن بذل جهود خاصة بتنظيم المقاومة العسكرية فى الاناضول أو حتى تعزيز الحاميات المتبقية فى بعض المدن . (٢)

قام اورخان بعمليات عسكرية هامة ومن اهمها الاستيلاء على ————— ازنك (Iznik) ، نيقية (Nicia) فى ٥٧٣١هـ / ١٣٣٠م (٣)، وكان فتحها على يد سليمان بن السلطان أورخان ، ولما تم فتحها وأصلح مبانيها حول السلطان بعض كنائسها الى مدارس ومساجد ، وعين للتدريس باحدى تلك المدارس العالم الشهير داود القيصرى ولما كانت هذه المدينة فى ذلك الوقت من اعظم المدن بتلك النواحي اتخذها السلطان اورخان عاصمة له . (٤)

استولى اورخان على ما تبقى من الاراضى البيزنطية فى شمال غرب الاناضول لسد الفراغ الذى خلفه البيزنطيون ، مما جعل دولته اقوى امارات التركمان فى المنطقة خاصة وقد تعزز مركزها باعتبارها زعيمة الجهاد ضد

-
- (١) اسماعيل سرهنگ : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٤٨٩ .
 - (٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .
 - (٣) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .
 - (٤) اسماعيل سرهنگ : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٤٨٩ .

العثمانيين (١)، وكان من حسن سياسة العثمانيين فى هذه الفترة انهم اتجهوا بفتوحاتهم غربا نحو الدولة البيزنطية لبسط نفوذهم بعد ذلك فى اوربــــــــــــا وبعجــــــــــــة من البلقان ، تمكن العثمانيون فيما بعد من التوسع فلا حة مطلقا للآراء التى كانت سائدة فى اوائل القرن العشرين عــــــــــــن ان العثمانيين جنس تركى مسلم قهر شبه جزيرة آسيا الصغرى ثم اتجه الى اوربا واسقط الدولة البيزنطية ، اذ مما لا شك فيه ان العثمانيين كانوا مسيطرين على البلقان كله قبل ان يمتد نفوذهم شرقا حتى قونيه . (٢)

افتتح سليمان بن اورخان سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م بلاد مدونى وكمليك ، وفى اثناء ذلك ارسل قيصر الروم مجموعة من الهدايا للسلطان اورخان ، وعقد بين الطرفين هدنة لمدة عشرين سنة وبموجبها صارت نواحي هانياس ، وايدنجق ، وباليكسى ، وبرغمة ، وقره سى ، وميخايج ، وكرماستى ، من املاك الدولة العثمانية ولم يتبقى للروم بالاناضول غير مدينة الاشهر وقلعة بيغا . (٣)

عزز اورخان مركزه بالتوسع على شواطئ بحر مرمرة ، منتهزا فرصة الهدوء النسبى مع المسيحيين فضم امارتى بمرخان وقره سى ، مما جعل العثمانيين على مرمى البصر من جنائى القلعة التى عبر الدردنيل ، كما سيطر على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة مما سهل عليه العبور الى اوربا حين تسنح الفرصة . (٤)

اشتغل السلطان اورخان بعد ان عزز موقفه فى الاناضول ، بترتيب شئون الدولة ، وفتح المدارس وانشأ العمران وبنى الجوامع والتكايا ، فمن اشاره انه أسس مدرسة عالية فى مدينة برؤسه واخرى فى مدينة ارزنيك وأجزل العطايا للشعراء والعلماء فأضاف بذلك خيرات السلم الى فتوحات الحرب . (٥)

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥-٤٦ .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١٧ .

(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

(٥) محمد فزيد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ .

كان العبور من الاناضول الى اوربا مهمة صعبة للعثمانيين ، ذلك لان بوغان الدردنيل فى ايدى المسيحيين ومن ثم فان اى قوة ينزلها العثمانيون فى الاراضى الاوربية ، لم يكن فى استطاعتها الاستمرار من دون ان ينالها الكثير من ضربات البيزنطيين ، لكن اماره كارسى (Karesi) الواقعة على الجانب الشرقى للدردنيل قد حلت المشكلة للعثمانيين .

ان النزاع حول عرش كارسى فى عام ٩٥٢هـ / ١٣٤٥م اعطى السلطان اورخان فرصة ضم هذه الامارة وان جنود كارسى الذين دخلوا فى خدمة العثمانيين — بدأوا بدورهم تعهد الفتح عبر الدردنيل واعدوا عدتهم لهذه المهمة الجريئة .

عقد السلطان اورخان فى عام ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م اتفاقية تحالف مع يوحنا الخامس كانتاكوزينوس (Cantacuzene) احد المطالبين بالعرش البيزنطى وتزوج من ابنته تيودورا ، هذا التحالف قد مد العثمانيين بفرصة التدخل فى الشئون المحلية والاشتراك فى حروبهم (١) خاصة بعد ان استطاع كانتاكوزينوس الانتصار على خصومه ووصله للعرش البيزنطى بفضل مساعدة العثمانيين (٢) .

تحركت الدولة العثمانية فى عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م داخل القارة الاوربية كغزاة مستقلين ومستوطنين ، ففتحوا الساحل الاوربى من بحر مرمرة ، وشددوا هجماتهم على ترانيا (Thrace) وموريا (Morea) (٣) ، أصدر السلطان اورخان امرا الى ولده الامير الفازى سليمان باشا ، بالاستعداد والزحف على بلاد الروملى فى الجنوب الشرقى لاوربا ، فجهر الجيوش وتقدم بها فى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م حتى وصل الى قلعة جناق بساحل غربى آسيا على مضيق الدردنيل ، وعقد هناك مجلسا مع اشهر قواده ، فاتفقوا على عمل حملات (اكلاك) للعبور بها ، وبعد انشائها ركبوا عليها ليلا ، وعبروا بها الدردنيل الى ساحل الروملى (٤) وصارت شبه جزيرة غاليبولى (Gallipoli) قاعدة

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.20 .

(٤) اسماعيل سرهتک : مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

للزحف العثماني الجديد ، اذ أسس العثمانيون اول موطئ لهم فى اوربا ، وظل هذا الاتجاه شابتا طوال ما يزيد على قرنين ، كما ظل سلاطين الدولة العثمانية مصممين على السمة الاوربية لفتوحاتهم على الرغم من الاخطاء والصعوبات التى واجهتها الدولة الا ان ذلك لم يترتب عليه اى تغيير ملحوظ للسمة الاوربية فى الفتوحات العثمانية . (١)

استولى سليمان بن اورخان فى سنة ٧٥٨هـ / ١٢٥٧م على قلعة جيمبك (Tzympe) ، فى الوقت الذى كان فيه كونتاكوزينوس مشغولا بصراعه مع صهره حنا بالبولوجسى ، بحيث لم يتفرغ للتصدى للقوات العثمانية بل ان الامبراطور البيزنطى طلب مساعدة السلطان ضد خصمه ومن ثم اتاحت الفرصة لارسال مزيد من الجنود العثمانيين ، لتعزيز قوات سليمان التى وصلت اقدام العثمانيين فى اوربا (٢) ، ومن اجل تقوية رأس الجسر العثمانى فى جيمبك (Tzympe) فى اوربا نقل سليمان بن اورخان مسلمى الاناضول الى اوربا لاسيما البدو منهم ، الذين فى امكانهم التوطن بسهولة فى الاراضى الجديدة. فنشأت قرى تركية جديدة وانتظمت الحدود تحت القيادة العامة لسليمان فى اطار قطاعات ادارية ثلاثة (ميسرى ويمنى ووسطى) يقوم على كل منها سيد غازى واستمرت الغارات العثمانية واتسعت مساحة المبد العثمانى (٣) ، على مدى السنوات التالية ، وهذا ما سنلاحظه فى ثنايا الفصول التالية .

فلما فتحت القسطنطينية وتمركزت الدولة فى البلقان واتخذت القسطنطينية عاصمة للدولة ، كان معنى ذلك ان العثمانيين قوة شابتة الدعائم فى شرق اوربا ، وكانت خطة العثمانيين بعد ذلك هى اختراق اوربا من شرقها الى جنوبها الغربى لاختضاع اوربا للإسلام ونشر الاسلام فيها بدلا من التوسع فى عالم اسلامى سابق ، وكان الغرض من ذلك ايضا هو الوصول لاندلس برا باختراق اوربا وانقاذ دولة الاسلام فيها .

-
- (١) محمد عبد المنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .
 (٢) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .
 (٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ .

الفصل الأول

(الفصل الاول)

مممممممممممممممممممممم

" شبه جزيرة ايبيريا فى اواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى "

أ - الدولة الحديثة فى البرتغال واسبانيا .

ب - قيام دولة اسبانيا الموحدة .

ج - حروب الاسترداد .

د - سقوط غرناطة فى عام ٨٩٢هـ / ١٤٩٢م .

مممممممممممممممممممممم

كان المجتمع الاوربي الاقطاعى ابان العصور الوسطى ، قد قدم الطبقة الحاكمة من المحاربين الاحرار كما قدم نموذجا ثقافيا اكثر جاذبية ، وملاءمة لاغراضهم عن قيصرية ومركزية العالم البيزنطى (١) ، وكانت طبقة النبلاء العالية والاشراف والامراء من ذوى الدماء الفرنسية واشراف اسبانيا ، والامراء من العائلات الايطالية القديمة نادرا ما اعتمدوا على طرق اقتصادية بحتة ليزيدوا من قيمة شراء عائلاتهم بل كانوا اكثر المستفيدين من الرعاية الملكية، حيث لم يمكن لحكم ملكى اوربى ان يعمل بدون تدعيم وتعزيز خدمة طبقة النبلاء فى المراكز الحربية والادارية العليا وهذه الخدمة كان يجب ان تكافأ بسخاء ، وبصورة تليق بكل من المعطى المستفيد (٢) وحتى ١٥٠٠م ، كان غالبية الاوربيين يعيشون فى الريف فى مزارع خاصة او فى مدن ريفية صغيرة كما كانوا عليه فى اغلب فترات العصور الوسطى ، وباستثناء بعض الحالات الشاذة ، فان طبقة الفلاحين لم يكونوا عبيدا. كما كانوا عليه فى الماضى حين اكتمل النظام الاقطاعى ، بل اخذوا يتحررون بصفة قانونية ، ومن ثم اصبحوا قادرين على التصرف فى بيع املاكهم اذا رغبوا فى مغادرة قراهم والكثير من هؤلاء الفلاحين لم يعملوا باعمال المزرعة للعيش والرزق ، ولكن لانتاج محصول عينى كالصوف والكتان وآخرين عملوا فى غزل الصوف ونسج القماش وتشكيل وطرق المعادن ليس فقط لاحتياجهم واحتياجات زملائهم القرويين ، ولكن ايضا للبيع فى الاسواق المحلية والاجنبية المنظمة ، وفى اغلب اوربا فان المجتمعات القروية ظلت بحالة جوهرية على جاليتها الأصلية ، فالاشراف والاقطاعيون استمروا فى تطبيق نظمهم المعروفة على طبقة الفلاحين ، فى الحصول على الايجارات المستحقة لهم من الفلاحين والعقوبات والخدمات الخاصة (٣) ، كانت هذه الحالة قبيل مطلع العصور الحديثة .

وعندما عبرت النهوة جبال الالب ، نجدها قد تغيرت الى حالة عملية بدلا من فنية ، كما انها اصبحت انتقادية ، وتحلت بطابع ادبى وفلسفى جديد .

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P. 80 .

2- H.G.Koenigsberger and George L.Mosse : Europe in the sixteen Century P.42 .

3- IBID P.P. 12 - 22 .

ومن ثم بدأ التمرد ضد العصور الوسطى في عدة مجالات وقدمت كل دولة شيئاً مساهمة منها في العالم الجديد (١) واخذ الاقطاع بنظامية السياسى والاجتماعى ينتحول الى ممالك مطلقة فى فرنسا واسبانيا كما تطورت معه الفلسفة المدرسية الماثلة فى نظام العصور الوسطى فى التفكير لتصبح علما حديث وتعلوما على يد علماء ومفكرين (٢) ومن ثم شهدت سنوات النصف الثانى من القرن الخامس عشر تطورات كبيرة فى شبه الجزيرة الايبيرية أثرت على مستقبل هذا الاقليم وسكانه كذلك على مستقبل العرب الموجودين فيه والمغاربة فى كل شمال افريقية وكانت اوربا تمر فى ذلك الوقت بمرحلة تطور واضحة ساعدت على اضمحلال سلطة ونفوذ النظام الاقطاعى ونمو وظهور القوميات الحديثة التى ارتبطت بسلطة الملك من ناحية وارتبطت بأبناء الطبقة الوسطى ، وطبقة رجال المال والإعمال من ناحية أخرى وكانت الحروب الصليبية قد ساعدت فى القضاء على عدد كبير من النبلاء وعلى سلطتهم ونفوذهم ولصالح التاج فى بلادهم وكانت كذلك قد ساعدت على نشأة نظام الضرائب المباشرة واللازمة للانفاق على الحملات الموجهة ضد المسلمين ، وزادت هذه الضرائب من تدعيم مركز الملوك (٣) ، ومع نشأة الدولة الوطنية الحديثة فى الامم الموحدة اتجهت هذه الدول نتيجة لشعورها بقوة مركزها وانطواء شعبها تحت راية واحدة الى محاولة التوسع وبسط سيطرتها على غيرها من الامم والشعوب التى تأخر تكوينها وكانت اقل تنظيماً سواء فى داخل اوربا او فى خارجها ولهذا اتجهت الدول الموحدة فى اوربا الى توسيع املاكها داخل القارة كما حدث فى ايطاليا عندما نشب الصراع الفرنسى الاسبانى المعروف بالحروب الايطالية (٤) ، بينما اتجهت دول شبه الجزيرة الايبيرية الى نحو ما سمي بالاسترداد ، ومن ثم التوسع خارج اوربا وذلك بحكم موقعها الجغرافى .

وكانت البرتغال التى تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية بين موانئ البحر المتوسط وشمال غرب اوربا ، مما جعلها أقرب للسواحل

1- J.M.Thompson : Lect on Foreign History P.48 .

2- IBID P.84 .

(٣) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ٧ .

(٤) غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، ص ٨ .

الافريقية حيث اعطاها ذلك اهمية استراتيجية وتجارية تجلى ذلك فى العاصمة لشبونة التى كانت مركزا لتجارة غرب افريقية المستوردة الى غرب اوربـا وهذا بدوره وفر الاموال اللازمة التى ساعدت ملوك البرتغال على توجيه اجزاء البلاد الداخلية جعلتهم يعملون باستمرار من اجل الكشف والارتياح^(١)، فشغل الملوك من بيت أفيس (Avis) فى ذلك (٢) خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولتصبح البرتغال نصيرة المسيحية وراعيها ضد الاسلام لتكون روح الحروب الصليبية مستمرة بل وتزدهر ايضا مكتسبة قوة على قوتها فى شبه الجزيرة الايبيرية خلال الفترة المذكورة . (٣)

كان هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) يحلم منذ طفولته بتقويض مراكز الاسلام فى اى مكان يستطيع ، فافتتح مغامراته ضد الاقطار العربية والاسلامية بالهجوم على سبته (Ceuta) (٤) سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م ، وكان فتحها عملا من اعمال الحروب الصليبية التى سوف تشمل العالم كله وتهدد الاسلام من حدوده الجنوبية لاول مرة فى التاريخ (٥) واعتبر هنرى هذا النجاح عبارة عن مرحلة اولى من اجل الاستيلاء على مراكش . (٦)

بعد ان ثبت البرتغاليون اقدامهم فى سبته وبعد تحصينها اتجهت انظارهم الى طنجة واعدت حملة قوامها ثمانية آلاف جندي ووصلت الحملة الى سبته فى ٢٧ اغسطس ، وانقسمت الى قسمين برئاسة الامير (D. Henrique) الذى سلك الطريق البرى نحو طنجة ، والقسم الآخر رأسه الامير (D. Fernando) وسلك الطريق البحرى ، وذلك حتى يطبقوا على المدينة من الجهتين .

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٥ .

(٣) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٤ .

(٤) سليم طه التكرينى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ، ص ٤٠ .

5- J.H.Elliot : Imperial Spain 1469-1716 P. 46 .

(٦) عبد القادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٧ .

ومع بداية حكم دون مانويل دعم وعزز البرتغاليون امبراطوريتهم بالفتح والاستيلاء على اجزاء من المغرب واحتلال جزر الاطلنطى واكتشاف الساحل الغربى لافريقيا ، فاستلم قلاع سبته التى سبق وان فتحت فى عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م ، والقصر الصغير ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م ، و مليلاة وطنجة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م ، وعمل محاولة للامتداد ذلك ببناء قلعة (Graciosa) عند مصب نهر (Lukkus) ولكنه ثبت انه غير عملى ، وعندما انسحب البرتغاليون شيد سلطان مدينة العرائش قلعة لحماية المصب ، وتحت حكم مانويل اضاف البرتغاليون الى الفتوحات فى المغرب الشمالى سلسلة من القلاع على ساحل الاطلنطى ، ولكن هذه القلاع كانت فى الاصل مراكز استولوا عليها ، وعززت وقويت بغرض تأكيد الحقوق التجارية البرتغالية .

وبلغت قمة التوسع البرتغالى عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م عندما حارب (Nuno de Ataide) فى مراكش ، واتجه بعيدا . وبنى قلعة فى المعمورة واعد حملة هجوم على فاس هزمت وقتل فى العام التالى اثناء غارة قرب مراكش (١) اما بالنسبة لاسبانيا فكانت هى اهم قوة فى اوربا فى هذا الوقت ، وكانت قشتالة هى اهم اقليم فى اسبانيا وقد لعبت سلسلة من الارث والزواج على تجميع الاقاليم واستقطاب الدول لدى ملوك اسبانيا وقد عرفوا كيف يديرون دفعة سياستهم فى هذا العصر (٢) وسرى كيف ساعد الميراث والمصاهرة فى الفترة التالية على تكوين الدولة المركزية الموحدة ، واثار ذلك على الوجود الاسلامى داخل شبه الجزيرة الاسبانية ، وخارجها فى الشمال الافريقى ودل صراع اسبانيا النصرانية على غرناطة ، على مدى اصرار الاسبان وتعصبهم وعنقهم بالنسبة لمسلمى غرناطة ، ولم يكن يخفف من هذا سوى احداث داخلية شغلت بعض الاوقات .

ساهمت اقاليم عديدة فى شبه الجزيرة الاسبانية بمهاراتها الخاصة فى سبيل تحقيق هدف واحد وهو الاتحاد ومن ثم حروب الاسترداد ، وتمكنت قشتالة بذلك من تحقيق نتائج حاسمة خلال العصور الوسطى ، واكتسب اهل قطلونيا وأراغون الخبرة الواسعة فى المغامرات التجارية والاستعمارية فى شمال افريقيا والشرق وأنشأ اهل جزيرة مايورقة مدرسة هامة لاعداد الخرائط توصلت الى وسائل متنوعة لرسم خرائط الارض المجهولة . (٣)

1- H.V.Livernmone : A new History of Portugal P.P.135-136.

(٢) جلال يحيى ، وجاد طه : مرجع سابق ذكره ، ص ٦٦ .

3- J.H.Elliott: Imperial Spain P.45 .

فى الوقت الذى بدأت فيه البرتغال نشاطها الاستعمارى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، كانت اسبانيا تتكون من مملكتى قشتالة وأرغوان كما اشرنا من قبل ، وكانت قشتالة بحكم موقعها الجغرافى تتجه نحو المحيط الاطلسى ، وكانت بحكم دورها فى الصراع مع المسلمين تهتم بما يجرى فى المغرب ، اما مملكة أرغوان فقد كانت بحكم امتلاكها جزر البليار ومقلية وسردينيا ، ولوجود احد أفراد أسرة أرغوان الحاكمة على رأس حكومة مملكة نابولى ، اخذت أرغوان تتجه نحو البحر المتوسط ، لذلك كانت سياستها تهدف الى تأمين طريق بحرى آمن بين اشبيلية ومقلية الغنية بالحبوب وكان لابد لها من اجل تحقيق ذلك ايجاد نقاط ارتكاز على سواحل شمال افريقيا (١) لذلك كانت مصالح المملكتين مختلفة لكن كان يجمعهم عامل واحد وهو عداؤهم للإسلام والمسلمين سواء المتواجدين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، او فى شمال افريقية لذلك كان من الإجدى للممالك المسيحية داخل اسبانيا النصرانية ان تتحد لمواجهة الوجود الاسلامى فى المنطقة .

وكان قد تولى على عرش أرغوان يوحنا " خوان الثانى " الذى سعى فى أن يزوج ابنه فرديناند " الخامس " من ابنة عمه ايزابيلا القشتالية التى كانت سترت ملك قشتالة ، فأخذ ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها ، الا ان اختيارها وقع على فرديناند ابن عمها الذى سيرث مملكة أرغوان ، ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة (٣) مثل (Joan Beltraneja) خال ملك البرتغال الفونسو الخامس ، والذى عارض فى ترشيح ايزابيلا لتكون ملكة لقشتالة ، بعد ان رشحها الفونسو لثرت ابنه هنرى الرابع (٤) وتمت مراسم الزواج فى وادى الوليد سنة ٨٧٤هـ / ٤٦٩م . (٥)

(١) محمد خير الدين فارسى : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٤ .

(٢) عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ، ص ٢٥٩ .

(٣) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ، ص ١٦٠ .

4- J.M. Gomez : Aconcise History of Spain P.265 .

(٥) شكيب ارسلان : نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة سنة ١٤٧٩هـ/١٤٧٤م، وبعد ذلك بخمس سنين وفى سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م ، ورث فرديناند عرش اراغون ، بعد ان توفى والده. خوان الشان (١) عندها ضم فرديناند الكاثوليكي مملكته اراغون وبلنسية وقطالونيا وصقلية وميورقة الى قشتالة وهكذا بينما كانت هذه الممالك النصرانية تتحد كانت الممالك الاسلامية تزداد تفككا (٢) وكان ذلك من عوامل فشل الابقاء الاندلسي ، كاد يقع بين الزوجين الكاثوليكين فى اول الامر الشقاق والاختلاف ، لكون فرديناند كان يزعم انه هو الملك الوحيد ، ولا يوجد رجل سواه من سلالة اترك دوترا ستامرا ، بينما تزعم ايزابيلا ان انتقال الامر للنساء معروف فى عادات مملكة قشتالة ، وهى اقرب وريثة الى آخر ملك فلها الحق وحدها فى الملك وقرر فرديناند العودة الى اراغون وهنا اخذت ايزابيلا تقدم له البراهين مقرونة بالرجاء بأن ما تدعيه هذا ضرورة لمصلحة ابنتهما ، على فرض انهما لم يزرعا ذكرا ، ثم وعدت ايزابيلا فرديناند بأن يحكما سويا بدون ان تخالفه فى شيء ، وان تقدم اسمه على اسمها فى الاوامر ولكن لها وحدها الحق فى تنصيب الحكام والولاة (٣) وهكذا بدأت ايزابيلا حكمها بخطوات وثيقة وسرعان ما بدأت المعارك الطاحنة فخاض مساعدوا الامير معركة (Albuera, Toro) وبعدها وقعوا معاهدة (Trujilla) سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م (٤) .

توصلت اسبانيا بهذا الزواج وذلك الاتفاق الى توحيد الوحدات الادارية فيها وذلك بضمها الى بعض ووصلت الى وحدتها الوطنية فى عهد فرديناند وايزابيلا ، ولكن هذه الوحدة القومية كانت مرتبطة فى شبه الجزيرة اليبيرية بصفة دينية وهى الصفة الكاثوليكية ، وعمل هذا العمل مع طبيعة معركة الاسترداد على الوصول الى حالة عداوة مستمرة مع المغاربة ، وكانت معركة تاريخية بين الاسبانيين من جهة والمسلمين من جهة اخرى ، استخدم الاسبانيون

(١) عادل سعيد بشتاوى : الاندلسيون المواركة ، ص ٩٨ .

(٢) شكيب ارسلان : ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٢ .

(٣) شكيب ارسلان : نفس المرجع ، ص ١٦١ .

كل شدة. ممكنة وكل تعصب يمكن تصوره (١) وكان الإيبيريون عامة قد سيطر عليهم الخوف من الحركة الإسلامية الممثلة في قوة الدولة العثمانية وحركة الجهاد ، خاصة بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية (٢) وحاولت القيادات الموجودة في شمال افريقيا ارسال النجادات للمسلمين في الاندلس ، لكن هذه النجادات لم تؤد الى نتيجة حاسمة لها قيمتها امام نمو قوى الكاثوليك في النواحي العسكرية والاقتصادية في مقابل زيادة ضعف الامارات الإسلامية في بلاد المغرب سواء من الناحية الاقتصادية او الحربية .

استمرت فترة الاتحاد بعملية اصلاح اسبانية واسعة ، كأنها انعكاسا لطموحات ايزابيلا في بناء مملكة قوية ، وما كان ذلك يكتمل لديها دون اخراج الاندلسيين من غرناطة والقضاء على وجودهم في اسبانيا ولتضمن ايزابيلا القضاء على أية معارضة حقيقية لها بين النبلاء وعلية القشتاليين ، اذ كانت اقاليم شبه الجزيرة الايبيرية تعود لقتال بعضها بعضا احيانا فور انتهاء المعارك مع المسلمين (٣) بالإضافة الى الوضع الامنى في الاقاليم الاسبانية اذ كثرت الاعمال اللصوصية وقطع الطرق وما كانت تخلو كورة من عبثهم وفسادهم (٥) وكل ذلك اعتبرت ايزابيلا ان تجديد الحرب مع الاسلام سبيلا الى ما لا يمكن توحيده في السلم ، ولطالما لجأت الدول الى شن الحرب على دول اخرى لمجرد تحويل الانظار عن ضعف داخلي معين . (٦)

كان الضعف الموجود في اسبانيا يتمثل في مجموعة من المشاكل الداخلية وهذه صاحبت عمليات حروب الاسترداد بما اشتملت عليه من ضغوط ادارية وازمات اقتصادية ، نتيجة لسيطرة الدولة على الموارد الاقتصادية ، حتى تتمكن من

(١) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٠ .

(٢)

3- H.V.Livermore : A new History of Portugal P.126 .

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ . (٤) يقصد بالكورة اقليم .

(٥) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٦) عادل سعيد بشتاوى : نفس المرجع ، ص ٩٨ .

القيام بتنفيذ عملياتها الحربية ، ولذلك اضطرت القيادة الاسبانية الجديدة والمتحالفة مع الكنيسة الى توجيه انظار سكان شبه الجزيرة نحو الخارج، واخذت ترفع من درجة حماسهم حتى ينسوا بوعسهم ، لذلك يصعب على اى مؤرخ ان يصف حركة الاسترداد بانها حركة تحرر ، اذ ان اوضاع اسبانيا فى ذلك الوقت كانت تبعد كل البعد عن معنى الحرية ، حتى فى علاقة الحاكم والمحكوم . (١)

وكان فرديناند وايزابيلا فى محاولة مستمرة للسيطرة ، وكان تاريخها عبارة عن فترة ممتدة من النشاط الادارى الصبور والحازم حتى اضطر المجتمع الاسبانى الى الوحدة لان الحرب المليبية فى البحر المتوسط ضد المسلمين ، كانت تستنفذ الوقت والنشاط المالى وهى عوامل جوهرية لهذه الاهداف والمشاريع، وحيث ان الحكومة انشغلت بضغط وطلبات الحرب لذلك اضطرت ان ترضى بالواقع الممكن فى حين تركت مشاكل الدولة المحلية العميقة دون ان تمس . (٢)

وكما قدما فقد هيا اقتران فرديناند ملك اراغون وايزابيلا ملكة قشتالة لاتحاد اسبانيا ، ولكن لم يدمج المملكتين معا ، فقد ظل لقب ملوك اسبانيا موجودا ، ولم يكن فرديناند ملكا على قشتالة الا بوصفه زوج ايزابيلا وكانت صور الاثنين تظهر على العملة والاسلحة والرايات ، وقد افادت قشتالة وحدها من ضم غرناطة ومن الكشوف الجغرافية ، ولكن لم يكن هناك سياسة اسبانية داخلية فقد كانت هناك سياسة اسبانية خارجية واحدة يوجهها فرديناند الذى نجح فى اشارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة وشبه الجزيرة الإيطالية (٣) بينما احتفظت اراغون بتقاليد التوسع الاستعمارى فى جزر الباليار وسردينيا ومالطة وناپولى وصقلية (Sicily) ، ولم تشترك قشتالة معها كثيرا فى هذا المضمار (٤) بينما نجد فرنسا قد قامت بمحاولات لبسط سيطرتها فى شمال ايطاليا ولتكون منافسة لاسبانيا لتنعكس مصالح الاثنين فى البحر المتوسط (٥)

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P.129 - 130.

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤ - ١٥ .

4- Paul Coles : IBID P.P.129-130.

5- Stanford Shaw : A History of Ottoman Empire P.69 .

ومع هذا تمكن فرديناند من تسخير ثروة ونشاط قشتالة للأغراض الارغوانيسية ، ومواصلة حرب ناجحة ضد فرنسا للهيمنة على ايطاليا الشمالية ، وقد غُرس استراتيجية طويلة المدى للفتح الايطالى ، كمبدأ. ارشادى للسياسة الاسبانية الخارجية ، وورث هذه الاستراتيجية شارل الخامس ، وتابعها بنجاح لدرجة انه فى اوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر كانت غالبية شبه الجزيرة الايطالية فى يد الاسبان ، او تحت التأثير الاسبانى ، وفى نفس الوقت بلغ الهجوم العثمانى الجرىء والافريقى الشمالى ضد العالم المسيحى نسبة هائلة ، وهددت الاساطيل العثمانية بمجاهدو الجزائر باكتساح البحر المتوسط لاخلاله من التجارة المسيحية (١) وستعرض لذلك بالتفصيل فى الفصول التالية .

لتحقيق الهدف الصليبي استخدمت اسبانيا العنف وسفك الدماء وحمل المسلمين على التنصير وتدمير قرى ومدن المناوئين منهم ، وارتكب الاسبان جرائم بشعة فى حق الحضارة والعلم ، باضطهاد الحضارة الاسلامية ، وحرق كتب العلماء ومصاحفهم ، مع ان حضارة المسلمين كانت النور الذى اخرج اوربنا من ظلمات العصور الوسطى الى العصر الحديث (٢) وشعرت اسبانيا بالقوة نتيجة لهذه الاعمال ضد المسلمين فى غرناطة وسرى ذلك فيما بعد .

اشرنا الى اهمية الزيجات السياسية والمصاهرة فى تاريخ شبه الجزيرة الاسبانية ، وان ايزابيل ابنة فرديناند وايزابيل تزوجت من الفونسو امير البرتغال ، ولما توفى تزوجت عمانويل الذى ارتقى عرش البرتغال ١٤٩٥/١٤٩٥م ، وعند وفاتها تزوج عام ١٤٩٨/١٤٩٨م ، اختها ماري (٣) اما الاميرة جوان ابنة فرديناند وايزابيل فقد تزوجت الامير فيليب امير بورندى وابن الامبراطور مكسيميليان امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وانجبت شارل الخامس اما الاميرة كاترين فقد تزوجت امير ويلز ، وكل ذلك اعطى اسبانيا مكانة كلاسيكية وشيئا من العالمية والوطنية (٤) واستغلت ذلك فى التغلب على كثير

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.124 .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٣ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

4- J.M.Gomez: Aconcise History of Spain P.269.

من مشاكلها وتحقيق اهدافها سواء في شبه الجزيرة اليبيرية او في خارجها ، كما لاحظنا من وضع قشتالة يدها على جزر الكنارى بعد معاهدة ١٤٧٩م/١٤٨٨م والذى تنازلت فيها البرتغال لقشتالة عن تلك الجزر مما اثر في توجيه قشتالة انظارها للمحيط الاطلسى وكان هذا شيئا بالغ الاهمية في تاريخ فتوحاتها عبر البحار نظرا لما تتمتع به جزر الكنارى من موقع جغرافى له قيمة كبيرة ، اذ جعلت منها مركزا مرحليا ضروريا للطريق الى العالم الجديد ، ورست الحملات الاربع بقيادة كولومبس امام اربيل الكنارى وهكذا تشكلت الحلقة الكاملة بين الاسترداد في اسبانيا واكتشاف امريكا . (١)

وكان اهل قشتالة قد اكتسبوا خبرة واسعة تجارية وبحرية خاصة خلال القرنين الخامس والسادس عشر ، فنشطت حركة الميسينا (Mesta) ورواج ، تجارة الصوف ببلاد شمال اوربا ، وتسبب ذلك في تطوير موانئ شمال اسبانيا مثل سان سيبستيان (San Sebastian) ولاريدو (Laredo) وسانت ندير (Santander) وكورونيا (Corunna) والتي سبق وان اتحدت في عام ١٢٩٦هـ / ١٢٩٦م في رابطة واحدة تحت اسم هيرمنداد دي لاماريس ماس (Hermandad de las Marismas) بهدف حماية مصالحها التجارية الداخلية والخارجية ، كما نمت مدينة اشبيلية وتجار بلاد البحر المتوسط لمناقشة المشاريع الجديدة وتأسيس شركات جديدة والاعداد لمغامرات كبرى وكانت المدينة بمثابة برج اوربا لمراقبة شمال افريقيا والاراضى الواسعة عبر المحيط الاطلسى . (٢)

ولكل هذا قرر فريدناند وايزابيلا في اسبانيا ان يعضدوا خطة كولومبوس وكان هذا ليس بسبب ان ناصح فريدناند وايزابيلا وخبراءهم قد اقتنعوا فجأة بصفة مناقشات وجدل كولومبوس ، ولكن بسبب ان وزير الخزانة الملكى لويس سانتانجل (Luis de Santangel) قرر ان يمدد بجزء من الامداد

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.46.

2- IBID P.45.

المادى والضرورى ، فانضم سانتانجل وارتبط مع مجموعة من الممولين من جنوة الذين يعملون عبر اشبيليه وراقب تمويل مجموعة سانتا هرمانداد (Santa Hermandad) المؤسسة المسئولة عن النظام المدنى فى قشتالة . (١)

لقد اكتشفت امريكا ، ولكن لم يكن اكتشافها عن طريق محاسن المصـدف بل كانت شبه الجزيرة الايبيرية احسن دول اوربا فى استعدادها لتنتشر عبر البحار فى اواخر القرن الخامس عشر ، بالرغم من قيام قشتالة بفتح العالم الجديد واستعماره ، ويعتبر هذا الانجاز من اهم انجازاتها السائدة الا أنه تم على اساس ايجرى مشترك (٢) وهو الهدف المشترك لضرب المسلمين وتجارتهـم للوصول الى مناطق التوابل فى الهند عن طريق الغرب .

وفى ١٥ جمادى الاولى ٩١٠هـ / نوفمبر ١٥٠٤م توفيت ايزابيلا فى (Medina del compa) وكانت وصيتها تدل على حنكة سياسية جديرة بالملاحظة (٣) فاوصت زوجها فرديناند بمتابعة الحملة المليبية ضد الكفار " المسلمين " فى المغرب والاستمرار فى الابتعاد عن ساحة الصراع فى اوربا ، واستجاب فرديناند لوصية زوجته فكانت بعض الحملات على الشمال ، ولكن معظم جهوده تركت على منازلـة الفرنسيين مستخدما الساحة الايطالية لذلك الصراع ، وحقق فرديناند انتصارا كبيرا على الفرنسيين فى ايطاليا . (٤)

وكانت ايزابيلا قد تركت عرش مملكة قشتالة لابنتها جوان ، التى كانت مصابة باختلال عقلى ، واصبح زوجها فيليب نائبا لها حتى يبلغ اكبر ابنائها سن الرشد ، وكان فرديناند يطمح فى حكم مملكة قشتالة ولكنه حاول ان يتجنب حربا اهلية قدر الامكان حتى لا يوءثر ذلك فى مواجهة الاسلام والمسلمين وفى ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، كان موت فيليب المفاجئ فرصة لفرديناند لحكم مملكة قشتالة

1- Don O'Sullivan : The Age of Discovery P.27 .

2- J.H.Elliatt: Imperial Spain P.44.

3- J.M.Gomez : Aconcise History of Spain P.273 .

(٤) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

مرة أخرى (١) وكانت آخر سنوات حكمه ، الذى كرس جهوده فيها لوقف توسع الفرنسيين فى اوربا ، ودعم ممتلكات اراغون فى البحر المتوسط ، وضم مملكة نافارا الى سلطانه متزعا بأن مملكة نافارا تحاول التآمر عليه — الفرنسيين فسير اليها جيشا سنة ١٥١٢ (٢) وفى عام ١٥١٦هـ/١٥١٦م توفى فريدناند تاركا اسبانيا لحفيده شارل الاول ابن الاميرة جوانا ، التى تزوجت من الامير فيليب ، كما ورث شارل الاول المقاطعات الألمانية المملوكة لاسرة الهابسبرج من جده لوالده ماكسيميليان عام ١٥١٩هـ/١٥١٩م حيث تم اختياره فى نفس العام امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وكانت المصاهرات داخل الاسرة الحاكمة قد تسببت فى نتائج هامة ، أثرت على تاريخ اوربا كله حتى قيام الثورة الفرنسية ، وجعلت من اسرة الهابسبرج قوة عالمية (٣) وذلك بعد وصول شارل الاول الى عرش اسبانيا ، الذى ينتمى لاسرة الهابسبرج ، وكثير من المعاصرين تخيلوا فى ذلك الوقت أن شارلز يهدف لجمع هذه السلسلة من الاملاك التى ورثها فى مملكة يحكم بها غرب اوربا — وفى الحقيقة لم يفكر شارلز فى اى من هذه الافكار العظيمة ، ولم يستطع خلق نظام واحد لجميع الولايات التى يملكها ، ولو نجح فى ذلك لاعتبرت الولايات ذلك تدخلا ومنعا لحرياتها حتى لو كانت شخصية ، كما استطاع ان يعطى لشخصيته حرية التحرك ، ولكن فى محاولة للحفاظ على كل ما ورثه من املاك وجد نفسه فى صراع مستمر على كل الحدود . (٤)

وهكذا اتحدت الممالك الاسبانية المسيحية وبعض من اجزاء القارة لتوجه قواتها الى العالم الاسلامى وليبدأ الصراع بين الاسلام والمسيحية من اجل السيطرة على غرب البحر المتوسط بعد ان كانت الهيمنة الاسلامية فى اسبانيا

1- J.M.Gomez : Aconise History of Spain P.273 .

(٢) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ .

3- G.Clark :Early Modern Europe P.42 .

4- IBID P.43 .

تلك الهيمنة التي جعلت من البحر كله بحيرة اسلامية ، لكن قيام الدولة العثمانية وتقدمها في جنوب شرق اوروبا قد حفظ للاسلام هيمنته في الحصن الشرقي للبحر المتوسط ، واصبح واضحا ان الصراع العالمي آت لا ريب فيـــــــــه بين هاتين الهيمنتين ، الاسلامية في شرق المتوسط والصليبية في غرب هـــــــــذا البحر .

...

بدا. لنا ان ظهور قشتالة على الساحة الاوربية كان من خلال النضال الذى خاضته الممالك الشمالية فى شبه الجزيرة اليبيرية ضد الاندلسيين على مدى عدة قرون ، حتى تحولت معه الى آلة قتال ، لا تستطيع ان تضمن استمرار قوتها او وحدتها ، اذا لم يتوفر لها التوسع على حساب القوى الاخرى . (١)

وكان لانتشار حركة الاسترداد فى اواخر القرن الثالث عشر الى مدينة طريف (Tarifa) على مضيق جبل طارق ، قد وفر لقشتالة ساحة بحريا ثانيا على المحيط الاطلس عاصمته اشبيلية ، بعد ان استولى عليها فريدناند الثالث للمرة الثانية عام ١٢٤٦م / ١٢٤٨م ، وتأسس مركز تجارى راسخ فى اشبيلية شمل كثيرا من النبلاء المرموقين المتطلعين الى امكانيات جديدة للشراء التجارى (٢) ولعبت الكنيسة القشتالية دورا حاسما فى حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الاندلس على مر القرون ، وليمتد الصراع بين النصرانية والاسلام ، وترتب على ذلك انتقال الحرب الى العدو المغربية فى منتصف القرن الثالث عشر وبعده (٣) والتي كانت امتدادا للفكرة الاساسية التى تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية فى شبه جزيرة ايبيريا نحو الجنوب الاندلسى وتصورت تلك الممالك ان انتقال الحرب مع المسلمين الى المغرب يعنى متابعة للحملات الصليبية . وفى الفترة بين سنتى ٦٥٠-٦٥٢م / ١٢٥٢-١٢٥٤م اى بعد احتلال القسم الاعظم من الاندلس وضع الفونسو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بموافقة الكنيسة فى روما ، ولكن التخوف من القيام بهجوم اندلسى معاكس أدى الى تأجيل الحملة حتى ٩٥٩م / ١٢٦٠م فأرسل الفونسو ثلاثين سفينة هاجمت مدينة سلا بغرض احتلالها ، ولكن لم يستمر الهجوم طويلا اذ قرر الفونسو صرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربية ، والاهتمام بانهاء مملكة لبلبة فى غرب الاندلس (٤) حتى استطاع ان يفتحها بعد سنتين ١٢٦٧م ويطرده سكانها ، وسقطت مدينة مرسية للمرة الثانية سنة ١٢٦٥م / ١٢٦٦م واعتبر ذلك التاريخ نهاية

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٢ .

2- J.H.Elliatt: OP.CIT P.45 .

(٣) عادل بشتاوى : نفس المرجع ، ص ١٧٨ .

(٤) عادل بشتاوى : نفس المرجع ، ص ١٣١ .

(٥) عادل بشتاوى : نفس المرجع ، ص ٢٠٥ .

استكمال الممالك الشمالية المسيحية للاندلس ، وما تبقى من ممالك اسلامية في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية كان خاضعا للجزية ، ومع انتهاء هذه المرحلة مرحلة التوغل الكبير في الجنوب الاندلسي ، انصرفت اراغون الى بناء امبراطوريتها في البحر المتوسط ، وتركت عملية استكمال فتح الاندلس لملوك قشتالة (١) وهذه كانت قد رسمت خلال العصور السابقة تقليدا عسكريا لخوض حرب صليبية ، اكتسبت من خلاله امبراطورية عبر البحار في القرن السادس عشر واحرزت عن طريقه الخبرة البحرية التي صارت هي الاساس للتحرك للاستيلاء على الاراضي عبر البحار (٢) ومن ثم اخذت زمام المبادرة في الحرب الصليبية في العصور الحديثة .

كانت كلمة فتح بالنسبة لاهل قشتالة تعني اساسا تثبيت الوجود الاسباني وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة وكان هذا النوع من الحرب قد اختبر في اسبانيا في عصور سابقة واعيد اختباره في شمال افريقيا وعلى الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من امكانيات نجاحه منذ البداية وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ، وقلة الغنائم ، اذ قدمت افريقيا بعكس الاندلس للمحارب القليل مما يسترعى انتباهه ، وذلك لان هدف المحارب في هذا الوقت هو الحصول على مكافآت مادية بمجهوده الشاق بدلا من المكافآت الروحية ، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية في افريقيا انخفاضاً سريعاً (٣) .

وكانت اسبانيا التي نشأت وترعرعت اثناء قيام دولة المسلمين بالاندلس والتي استمرت تقايل المسلمين طيلة قرون عديدة ، قد قامت على اسس دينية صرفة . وكانها تربت بين جدران الكنائس وقد اشعل رجال الدين من قساوسة وروهبان جذوة الحماس الصليبي للشعوب الايبيرية المختلفة ، حتى الخاضعين

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ .

2- J.H.Elliatt : OP.CIT P.44 .
3- IBID P.44 .

لحكم المسلمين، فجمعوا الشعب مستعملين كل وسائل الترغيب والترهيب، حول هذه الدول، مقابل ائهم تسلموا فيها زمام السلطة واشرفوا على سائر الامور. (١)

وكان اللون الدينى الذى اعطاه المسيحيون لحركتهم الخاصة باعادة غزو الاندلس واسترجاعه من الحكم الاسلامى سببا أساسيا فى ان تتبلور المعركة فى شكل صراع دينى بين الصليب والهلال ولم يتورع الاسبانيون عن الاصرار على هذا اللون المسيحى لحركتهم حتى يصلوا الى ضمان الحماس الشعبى اللازم للتغيرات الهائلة المنتظرة. (٢)

وفى غمرة الصراع ما بين العالمين الإسيوي والأوربي وفى زحمة ابتهاج العالم الاسلامى لسقوط القسطنطينية على يد السلطان العثمانى محمد الفاتح كانت اوربا ممثلة بدولتى اسبانيا والبرتغال تعيش حلم تأسيس الامبراطوريات فى الشرق واعادة سيرة الاسكندر الاكبر بعد الف وثمانمائة سنة (٣) ، لم تجد الجيوش العثمانية عناء فى البداية عند فتح القسطنطينية ولا فى هزيمة العرب والبلغار والالاق والبغدان ، تلك القوى التى اتحدت مع بعضها عندما تقدمت الى اورنة ، ولكن الحرب اصبحت بعد ذلك اكثر صعوبة عندما توجس خيفة سيميمسون ملك المجر عندما فقدت الصرب والبلغار استقلالها ، وهنا التجأ الى البابا ، الذى استجاب لندائه فأعلن اشارة الخطر فى اوربا ودعاها الى اتحاد مسيحي ضد الغزاة المسلمين ، فكانت هذه الحرب بداية حروب صليبية حديثة متواترة ، ظل البابوات يحرضون عليها مدة قرنين و نيف ويشتركون عسكريا وبحريا فى معظمها . (٤)

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٠ - ١٨٠ .

(۳) قدری قلعبی : الخلیج العربی ، ص ۳۴۷ .

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٧٢ .

وكانت حركة الاسترداد فى قشتالة قد توقفت تقريبا خلال الاضطرابات الإهلية فى النصف الاول من القرن الخامس عشر ، إلا أن سقوط القسطنطينية اشغل السدول المسيحية مرة أخرى واستجاب هنرى الرابع ملك قشتالة بدافع الواجب لنـدائـ البابا نحو اقامة حركة جديدة باستئناف حركة الإسترداد . (١)

وكان الاسبان والبرتغاليون يتلقون الدعم من اوربا ويقاتلون المسلمين فى الاندلس بغية اخراجهم منها تحت راية الصليبية ، حتى تمكنوا من ذلك ، وكان على العثمانيين الذين كانت دولتهم فى اوج قوتها أن يقاتلوا من جهة الشرق ليخففوا الضغط على المسلمين فى الاندلس ولردع الصليبية لتقليل هجماتها على بلاد المسلمين (٢) ومحاولة منهم للوصول من شرق اوربا الى جنوبها الغربى لإنقاذ الاندلس .

ان ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصورا على المشرق وانما شمل غرب البحر المتوسط كذلك ، فشارت بين المسلمين فى الإندلس والنصارى فى الشمال حروب طويلة هى التى عرفت بحروب الاسترداد (Reconquista) وهذه الحروب اتصفت بشدتها وقسوتها ، ولا تقل شرستها بل تزيد عما دار فى الشرق بين الاسلام والمسيحية ، بل كانت الروح الدينية فيها اوضح واغلب من تلك التى قامت فى المشرق (٣) ، ويمكن ان نقول ان هذه امتداد لتلك ، لقد اعطت الحروب ضد العرب والمسلمين البرتغال دفعة دينية قوية حتى ان الملك يوحنا الاول صرح بان الميدان الحقيقى الذى يكسب فيه افراد البيت المالک الفخـر هو ميدان الحرب ضد المسلمين فى المغرب ، وانه سيمنح اكبر وسام فى بلاده ، وسام السيد الاعظم ، لمن يحارب فى هذا الميدان ، ونال هذا الشرف ابنه الامير هنرى الابن الثالث للملك الذى تصدى لهذه المهمة ، كما اوضحنا من قبل ، وكان لاغداق الملك عليه بالرتب من دوافع استخفافه بالمخاطر فى سبيل تحقيق الهدف الذى

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.34 .

(٢) على حسن : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٣ .

(٣) حسين موءنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

اعلن عنه الملك البرتغالى وفى هذا المجال اشار الضابط البرتغالى (فاسكو دى كا افيلو) مؤرخ الاستعمار البرتغالى فى هذه الفترة الى الروح السائدة بين الشباب البرتغالى عامة يومئذ قال :

" ان الشباب البرتغالى كان يعتقد ان المسلمين اذا التجاؤا من شبه جزيرة الاندلس الى الشمال الافريقى فان الواجب يحتم على المسيحيين ان يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل ان يتعقبوهم حيث وصلوا " . (١)

وكان الامير هنرى قد ترأس جماعة عرفت باسم " جماعة المسيح " ونواة هذه الجماعة بعض الفرسان الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقيب المسلمين لهم ، فلجأوا الى البرتغال وكانوا بطبيعة الحال يتوقون للانتقام من المسلمين ، وهو نفس هدف الامير هنرى ، الذى صرح بانه يعمل عملا يتقرب به الى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية فى سواحل افريقيا الشمالية وبين الوشنيين الإفارقة وظلت هذه الجماعة من بعده تسهم اسهاما خطيرا فى اشغال الروح الصليبية الاستعمارية وكان الامير هنرى قد راودته فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولى على سواحل افريقيا الشمالية لتصل الى مصادر الثروة التى كانت تعتبر الاساس الذى يستند عليها المسلمون لتدعيم جيوشهم وكانت هذه الخطة تتجه اولا الى الوصول الى غانة التى ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين (٢) ولقد بحث البرتغاليون عن مناجم الذهب الواقعة فى غانة (Guina) والعبيد والعاج بعد احتلالهم سبتة (Ceuta) (٣) اذ كانت تقع على الحدود للتجار الذين كانوا يأتون من الجنوب عبر الصحراء ومعنى هذا اختلاط الروح الاستعمارية بالحركة الصليبية اختلافا تاما فى العصر الحديث ، ولما كانت ثغور المغرب تعتبر هى المنافذ الرئيسية لهذه التجارة وتلك الثروة ، فقد رأت الصليبية ان تقطع على المسلمين هذه التجارة ، وبذلك

(١) شوقى عطا الله : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) شوقى عطا الله : نفس المرجع ، ص ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ .

تكون قد استنزفت مصادر قوة البلاد الاسلامية فى شمال افريقيا ، كذلك امتدت هذه الاهداف الصليبية الى نشر المسيحية بين سكان المناطق الواقعة خلف السواحل الايبيرية واستخدامهم بعد ذلك لتحقيق المشروعات الصليبية .

تطورت خطط الصليبية البرتغالية الى مدى اوسع من ذلك ، فكان التفكير فى الوصول الى بلاد الحبشة المسيحية ، وهى مملكة ذاعت شهرتها وملأت الاسماع فى اوربا ولكن ظل موقعها غير محدود بالضغط (١) حتى زار الاحباش اوربا فى منتصف القرن الخامس عشر ، اذ اشارت الوثائق البرتغالية انه فى سنة ١٤٥٦هـ / ١٤٥٢م وصل جورج رسول يوحنا القس . (٢)

كان الغرض من الوصول الى الحبشة هو عقد حلف مع هذه المملكة المسيحية ليتعاونوا فى تطويق بلاد المسلمين واحتلال مكة والمدينة ومحاولة استرداد بيت المقدس ، ويمكن بذلك ايضا الوصول الى بلاد المشرق التى تدر على المسلمين فى الشرق ، الممالك فى مصر والشام والحجاز ، ارباحا طاقا لـ من جراء احتكار السفن العربية نقل هذه البضائع حتى موانئ البحر المتوسط اضافة الى الضرائب التى تجبى عليها . (٣)

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى اصبحت البرتغال قلعة المسيحية الكاثوليكية فى شبه الجزيرة الايبيرية وان الاسلام كان بالنسبة للبرتغال كما رأينا كابوسا يرغبون فى ازالته ، وهكذا طبع البرتغاليون على التعصب وعدائهم للاسلام والعرب ، وبنزعتهم الصليبية التى جعلتهم لا يستولون على بلد اسلامى الا محو آثار المسلمين منه محوا ، وكانت البرتغال قد برزت على المسرح الصليبي بعد سلسلة من الحروب الصليبية شنتها على المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، ما جعلها تتخذ من شن الحرب عليهم ومعاداتهم محورا لسياستهم العامة . (٤)

(١) شوقى عطا الله : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ .

2- H.V.Livermore : A new History of Portugal P. 128 .

(٣) شوقى عطا الله : نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(٤) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

اما بالنسبة لاسبانيا فقد توغلت ستة حملات عسكرية داخل مملكة غرناطة بين اعوام ٨٦٠-٨٦٢هـ/١٤٥٥-١٤٥٧م ، الا انها خاضت معارك لا تذكر ، ولم تحقق نتائج هامة واعتبر الملك هنرى الرابع ملك قشتالة الحرب الصليبية ذريعة مبدئية لجباية الاموال من الرعية ، وتحت الاشراف البابوى ، ومع كل ذلك لم يكن الحماس الحقيقى للحرب الصليبية متوفرا لدى البلاط الملكى ، ولا بين شعب قشتالة ، الذى كان قد اجبر فى عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م ، على مغادرة اراضيه باعداد غفيرة للاشتراك فى الحرب الصليبية ضد العثمانيين (١) اثر سقوط القسطنطينية اذ كانت الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة الايبيرية فى هذه الفترة فى حالة من الخوف والفرع من هذه القوة القادمة من الشرق والتى لابد من أن يتمدى لها العالم المسيحى ، وهناك ايضا ممالك اسلامية فى شبه الجزيرة الايبيرية يجب ان تنتهى ، ويستردوا اراضيها .

وعندما اعتلى فرديناند وايزابيلا العرش ، واتحدت المملكتان كما اشرنا كانت فكرة الحرب الصليبية عندها قائمة على اختلاف انواعها الدينية والشعبية والعاطفية ، كلها تساهم فى تجديد القوى الحربية ضد غرناطة اكثر من غيره ، فى بلد مجتمعه وراء حكامه ، واندماج التاج مع الشعب فى انجاز يرفع اسم اسبانيا عاليا فى العالم المسيحى . (٢)

وبعد ان تحررت اسبانيا من طاعون الحرب الاهلية ، وبعد ان استتب الوضع الداخلى ، بدأوا فى فتح مملكة غرناطة حيث استغرقوا فى ذلك عشرة سنوات من ٨٨٦-٨٩٧هـ/١٤٨١-١٤٩١م . وبدأ الهجوم فى عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م فسقطت أولا الجمه (AL Hama) وواصل المسيحيون فتوحاتهم الا انهم صدوا فى مدينة لوشه (Loja) فى نفس السنة .

وكان ابو عبد الله بن الامر قد خاض معركة طاحنة فى مدينته

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.34 .

2- IBID P.34 .

اللسانة (Lucena) سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ، وانتصر في تلك المعركة ، ولكنه
 قام بعد ذلك بمحاربة منافسه وخاله في نفس الوقت الزغل ، عندها انتهرز
 المسيحيون الفرصة فاحتلوا مدينة لوشة (Loja) عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٦م ، والقلعة
 (Malaga) ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م ، ووادي آش (Guadix) ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م ، ومدينة
 بسطة (Basa) في نفس السنة . (١)

وكانت العلامات المميزة لهذه الحرب الارض الجبلية الغير مناسبة
 لتحركات سلاح الفرسان وكان جونز الودي قرطبة (Gonzala de Cordoba)
 قد اكتسب خبرة ثمينه في حروبه في ايطاليا وكانت هذه الحرب حرب حصار
 برز فيها دور المدفعية وسلاح المشاة (٢) ، ويجب ان لا ننسى الدور الاساسي
 الذي قام به البابا في مدينة روما من اجل حمل البلاد المسيحية قاطبة
 على وضع امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من اجل ابعاد
 المسلمين عن بلاد الاندلس ومن اجل اخضاع بلاد الشمال الافريقي للحكم والدين
 المسيحي اخيرا ، فالبابا على رأس المسيحية قد اصدر امره لكل المسيحيين بان
 يستمروا في دفع الضريبة الصليبية (Crusada) لملوك اسبانيا
 من اجل الحرب ، وقد جمع القساوسة والرهبان اموالا باهظة في ذلك السبيل ، بل
 انهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينه حتى يزودوا الجيوش المسيحية
 بالمال والعتاد . (٣)

وكانت حرب السنوات العشرة ٨٨٧-٨٩٧هـ / ١٤٨٢-١٤٩٢ م ، والتي شنها الملكان
 الكاثوليكيان فرديناند وزوجته ايزابيلا هي طاعة للامر الصادر لهما من البابا
 في روما والذي سبق وان فرض على المسيحيين ضريبة الصليبية ، وبعد حروب
 ووقائع كانت سجلا وتغلبت العزيمة الاسبانية والقوة المسيحية على عوامل

1- J.M.Gamez: Aconcise History of Spain P.266.

2- J.H.Elloitt: Imperial Spain P.34 .

(٣) احمد توفيق المدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ .

الانهيار والاضمحلال التي سادت المسلمين فى غرناطة . (١)

كما كان سلاح المشاة الاسباني يتكون الى حد ما من المرتزقة والمتطوعين الوافدين من جميع القارة الاوربية وجزء منه الحرس الوطنى المجند من داخل قشتالة والاندلس الذين امتازوا بقوة واسعة فى تحمل الحر والبرد ، جعلتهم جنودا مهيبين على ارض المعارك فى اوربا والعالم الجديد وفى حرب غرناطة حيث امتاز بالهجوم المفاجئ والمناوشات المستمرة محققا هذه الانجازات بفضل التدريب على القتال الحربى الفردى والذى أوغل فى الابداع فيه . (٢)

واعد المسيحيون خطة حربية هجومية لانهاء الوجود الاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وتضمنت المرحلة الاخيرة من الخطة قطع كل علاقة الاندلس بالعدوة الافريقية ، والتي كانت تمد المجاهدين فى مملكة غرناطة بكل وسائل الدفاع ، وذلك عن طريق الاستيلاء على الشواطئ الجنوبية ، وبالفعل تم تطوير مملكة غرناطة عندما احتلوا مالقة (Malaga) والمنكب (المنيكار) والمرية كما تضمنت الخطة المسيحية على تشجيع الانقسامات الداخلية عند المسلمين وذلك بممالاة جانب من المتنازعين على جانب حتى انتهى الامر بانقسام المملكة الاسلامية الصغيرة الى شطرين ، الانحاء الشرقية فى وادى آش (Guadix) وبحكمها محمد الزغل والانحاء الغربية ويحكمها ابو عبد الله محمد بن على ابن الاحمر فى غرناطة ، وبذلك تمكن فرديناند من القضاء على الإمارة الشرقية على انفراد قبل ان يتوجه بكل قوته نحو غرناطة . (٣)

واندفعت بعد ذلك الجيوش الاسبانية لتصفية آخر الممالك الاسلاميــــــــــــة
الاندلسية .

وكان السلطان المملوكى الاشرف قايتباى قد بعث بعدة رسائل موجهة الى

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ .

2- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P. 34 , 36 .

(٣) على حسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

البابوية فى عهد انوسنت الثامن والى فرديناند وايزابيلا ، يطالب فيها باجلاء المسيحيين عن مملكة غرناطة ، ولا يوءذى المسلمين ، وسارت السياسة الاسبانية فى طريقها المرسوم ، واكتفى كل من فرديناند وايزابيلا باجابة السلطان المملوكى بانهما لا يستطيعان ترك ارض الاجداد فى يد الاجانب ومع ذلك فانهما لا يفرقان بين رعاياهم فى النواحى الدينية ^(١) ، وكان الاسبان فى ذلك الوقت فى مستهل حياة وطنية جديدة ، فلم يكتفوا بتحرير شبه الجزيرة الايبيرية من الفاتحين القادمين من افريقيا والشرق ، ولكنهم القوا بانفسهم فى حماس عارم الى العمليات التجارية والتوسع فى احتلال البلدان ، وانتهوا بالضرورة الى احتلال سواحل افريقيا الشمالية ، تلك السواحل التى يبين التاريخ انها كانت دائما عرضة لاحتلال من كل شعب يتطلع الى التفوق والسيادة على غربى البحر المتوسط ^(٢) ، وهكذا لم يكن باستطاعة الممالك فى مصر والشام تقديم اى عون مادى لانقاذ الاندلس او استرداده ، مما جعل هذا العبء يقع على العثمانيين دون غيرهم .

كان تدخل الاسبان فى شمال افريقيا امتدادا للحرب مع المسلمين ، تلك الحرب التى يطلق عليها الاسبان حرب الاسترداد (Reconquista) ولم يكن الشمال الافريقى فى نظر الاسبان نقطة الوشوب لاحتلال اسبانيا فقط وانما كان ايضا السند العسكرى القوى للمسلمين - آخر عملية الاسترداد عسدة . قرون بالرغم مما كان عليه مسلمو اسبانيا من ضعف وتمزق ^(٣) ، وامتدت حروب الاسترداد وظلت فى شمال افريقيا قائمة حتى بعد وفاة فرديناند وايزابيلا التى تركت فى وصيتها ما يلى :

"... اننى ارجو الاميرة ابنتى (جوانا) ، والامير زوجها (فيلييب)

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٦ .

(٢) اتورى روس : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١ ، ص ١٣٩ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .
عبدالعزیز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣ ، ١٩٠١ .

وآمرهما باطاعة وصايا أمنا المقدسة طاعة تامة ، وإن يكونا حماتهما —
والمدافعين عنها حسبما يقتضى واجبهما ، والا يكفيا عن متابعة فتح افريقيّة
ومحاربة الكفار فى سبيل الإيمان ... " (١).

ولكن تلك الحروب فى الشمال الإفريقى لم تستمر طويلا ، وبالتالى لم يكتب
لها النجاح ، اذ ظهرت قوة جديدة فى المنطقة وقفت لحروب الاسترداد، وللمحاولات
المسيحية وقفة صلبة ، وذهبت الى ابعد من ذلك اذ قامت بمحاولات جادة لاسترداد
الاندلس، كانت تلك القوة هى الدولة العثمانية .

...

(١) محمد خير فارسى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

كان الفرق بين سقوط مرسية اول معقل اسلامى واستسلام غرناطة ٢٢٦ سنة والتساويات حول سبب وجود هذه الفجوة التاريخية الكبيرة من خمود توقد لاحتلال الشمالى للاندلس ، فبعض المؤرخين يرى ان قشالة لم تكن القوة الكافية للاستمرار فى التوغل فى منتصف القرن الثالث عشر ، اذ افتقدت الممالك الشمالية الى الوحدة التى تمكنها من استكمال احتلال الجنوب ، ويذكر البعض الآخر ان السبب الذى يكمن وراء ذلك فى الجزية التى كانت قشالة تحصل عليها، والرغبة فى المحافظة على تلك المملكة الاندلسية ، لانها كانت الطريق الوحيد لانتقال ذهب افريقيا الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهناك من يقول ان خمود القشتال فى الجنوب الاندلسى يعود الى انتهاء فترة الحماس الدينى الذى وضع خلال الحملات الصليبية الاولى ، او ان الهجوم على غرناطة كان سيؤدى الى العودة لدق طبول الحرب فى المغرب، وفتح صفحة جديدة من الحرب المتنقلة دائماً عبر العدو^(١) ، وهناك بالطبع من يذكر بان غرناطة كانت تملك من القوة ما يمكنها من وقف تقدم قشالة^(٢) ، ومما لا شك فيه كان للموقع الذى تتمتع به مملكة غرناطة اثر قوى فى تاخر سقوطها ، اذا تقع فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الايبيرية ، التى قد تبدو منقطعة حيث البحر من الجنوب، والعدو من الشمال لم يدعها تعيش طوال سنيها وحيدة، بل كان المسلمون فى المغرب لا يتأخرون عن تقديم المساعدة لآخوانهم فى غرناطة ، ولظالما جاهدوا صفا واحدا لصد الخطر ، ولا يبخلون بتضحية ، استجابة لآخوة الدين ، ورغبة فى نصرتهم مجاهدين ، بالإضافة الى ذلك انه عندما قامت حروب الاسترداد فى شبه الجزيرة الايبيرية ، هاجر كثير من المسلمين الى غرناطة ، وكان هؤلاء لديهم خبرات واسعة فى صناعة الاسلحة ، علاوة على انهم كانوا رجال حرب للدفاع عن عقيدتهم فصموا على الوقوف والاستعداد للتضحية ، مما زاد جيش غرناطة قوة على قوته^(٣) ، كل تلك العوامل ساعدت مملكة غرناطة على الوقوف امام حروب الاسترداد هذه الفترة الطويلة ثم تجددت الحرب مع غرناطة فى اواخر القرن الخامس عشر ، خاصة بعد سقوط القسطنطينية ، فحثت الكنيسة فى روما مملكة قشالة والممالك المسيحية الاخرى فى اوربا على التضامن لتحقيق انتصار

(١) العدو هو الممالك الاسلامية فى المغرب العربى .

(٢) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٣) عبد الرحمن على الحجى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥١٩ - ٥٢١ .

جديد على المسلمين في الاندلس ، فقدمت الكنيسة في روما كل الدعم لغشتالة واراغون والبرتغال الذين كانوا يبرون في وجود مملكة غرناطة في شبه الجزيرة الايبيرية خطرا عليهم ، خاصة اذا استعملها العثمانيون كراس حرب للتعامل في اوربا من ناحية الغرب بعد ان حققوا نجاحا كبيرا في الشرق او على الاقل الخشية من اتفاق اهل غرناطة مع العثمانيين لنقل الحرب بين المشرق واوربا ، وضرب الجبهة الغربية للنفاذ الى الممالك الاوربية فـ في الشمال (١) ، ولنا هنا ان نتساءل ماذا كان يحدث لو صمدت غرناطة حتى انضمام الجزائر للدولة العثمانية ؟ ربما ساعد ذلك الدولة العثمانية للقيام بدور هام ورائد بالنسبة لاندلس .

ازدادت ضراوة الهجوم الاسباني استفحالا على الاندلسيين الذين فقدوا المساعدات من شمال افريقيا (٢) وكتب العلماء المسلمون والوزراء لاستنهاض الهمم والعزم في كل الاقاليم الاسلامية فكتب الكاتب الرئيسى أبو عبد الله بن زمك " اعلموا اننا نذكر لكم ما لا يغيب عن اديانكم واحسابكم ، ان هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده اليها ، وحضهم عليها ، فالايات في المصاحف مسطورة ، والاحاديث مشهورة ، لبيع النفوس فيها من الرحمن ، فبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الديان ، ينزل الله فيها الملائكة الموسمين . وتفرح الحور العين وتسبح الرحمة من رب العالمين ، ويباهى الله ملائكته بالمجاهدين ، وقسود تضافرت على ذلك النصوص وكفى شرفا الفوز بمحبة الله في قوله (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، فينبغى فيه الاستفصاء من سالف الذنوب ، وتطهير السرائر والقلوب ، واجتماع الأيدي والكلمة فـ في مرضات علام الغيوب " .

كما كتب ذو الوزارتين ابو عبد الله بن الخطيب في الحث على الجهاد والترغيب خطابا جاء فيه " ايها الناس ، رحمكم الله ، اخوانكم المسلمون قد دهم العدو - قصمه الله - ساحتهم ، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم ، وزحفست

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ - ٩٨ .

، عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ، ص ٥٥٠ .

(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربى فى سبعة قرون ، ص ١٨٥ .

اختارت الملكة القشتالية ايزابيلا فتح باب الحرب مع غرناطة ، كانت تتصددى لسكان ماتزال مآسى النزوح عن الاوطان ماثلة فى عقولهم ، ومقاتلين يعرفون ان غرناطة ملاذهم الاخير بالاضافة الى ان اهل غرناطة لم يفقدوا الامل بان المدد من خلف العدو سيتوفر اذا ساءت الامور ووصلت مرحلة خطيرة ، مما زاد فى صلابتهم التى عززتها تحصينات عسكرية كبيرة وبراعة فائقة فى القتال ولكن توفر هذه العناصر المهمة لدى السكان فى غرناطة قابلها توفر امكانيات هائلة لايزابيلا وزوجها فرديناند سواء من ناحية الجيوش او الخبرات العسكرية او المبالغ التى وظفت للقضاء على غرناطة (١) التى خاف رجالها فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات ، وتشتيت الشمل ، فقرروا الاستسلام بعد مقاومة عنيفة للاسبان ، ورضوا ان يكونوا من رعايا الدولة الاسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم واحترام عقائدهم ، وعواذهم ، والمحافظة على اموالهم وممتلكاتهم (٢) ، اذ نصت معاهدة الاستسلام على " . . . ان من شاء البقاء عنده اقام فى ظل الامان مكرما ، ومن اراد الخروج الى بر العدو أنزل باى بلاد شاء منها ، من غير ان يعطى كراء ولا مغرما ، واطهر للمسلمين العناية والاحترام . . . " (٣) ، كما نصت المعاهدة على تسليم القلاع والحصون والمدافع للسلطات الاسبانية ولكن الاسلحة الفردية تبقى فى حوزة الاندلسيين وان تظل لغتهم قائمة ، ويلبسون ملابسهم المعتادة . (٤)

دخل فرديناند وزوجته ايزابيلا غرناطة ، بعد توقيع وثيقة الاستسلام وسط موكب كبير بعد ثمانية قرون من الوجود الاسلامى ، وقدم آخر ملوك بنو الاحمر ابو عبدالله مفاتيح الحمراء (AL Hamra) الى الملكين الكاثوليكين وارتفع المليب والعلم الملكى على اعلى ابراج القصر ، وبعد

-
- (١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
 - (٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .
 - (٣) احمد بن محمد المغربى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ .
 - (٤) عادل بشتاوى : نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

ذلك بثلاثة شهور وفى حوالى ١٨ جمادى ثان ٨٩٧هـ / ١٧ أبريل ١٤٩٢م، وبعد الانتهاء من حركة حروب الاسترداد وقع الاتفاق فى مدينة سانتا (Santa) مدينة المعسكر المسيحى والتى تبعد عن غرناطة بستة اميال على شروط مشروع الرحلة الاستكشافية التى قام بها كريستوفر كولومبوس والتى كانت بمثابة قربان شكر وتجديد نذر لقتالة وهى الحرب ضد الكفار وكان سقوط غرناطة واكتشاف امريكا نهاية وبداية فى وقت واحد فقد انتهى سقوط غرناطة وحروب الاسترداد بينما شكل اكتشاف امريكا بداية مرحلة جديدة وهى مرحلة الاستعمار الكبير عبر البحار^(١) اذ ظنت اسبانيا ان نهب العالم الجديد سيضمن لها موارد كافية بعد ان ادت الحرب المنظمة ضد المسلمين الى تعرضها لازمة حادة فى ادارتها والى اضطراب فى امورها المالية حتى اشرفت على الإفلاس ، غير ان التشايط الاسلامى فى البحر من جهة والمنافسة مع الدول الغربية من جهة ثانية اثر على استفادة اسبانيا من هذه الموارد .^(٢)

بدأت موجة الاضطهادات العنيفة ضد السكان بعد دخول فريديناند وايزابيلا مدينة غرناطة مباشرة ، فقد اصدرت السلطات الإسبانية اولى قراراتها فى هذا الشأن فى جمادى ثان ٨٩٨هـ / مارس ١٤٩٦م ، والذى يقضى بأن يغادر اليهود الذين لم يتنصروا اراضى قشتالة خلال اربعة شهور ، ويعاقب المتخلفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصيرهم^(٣) وقامت السلطات الإسبانية بسلب اليهود وقد قدر عدد المغادرين منهم حوالى ٨٠٠ ألف ، واستقر جماعة كبيرة منهم بازميز ، وجماعة فى استانبول ، والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا من قبل السلطات الإسبانية ومحاكم التفتيش .^(٤)

لم يجن التاج الملكى فى الواقع من سقوط غرناطة والاجراءات السابقة الا بالقليل من الغنائم ، اذ نصت بعض شروط الاستسلام عليها ، اذ تولت

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P.33 - 37 - 49 .

- (٢) بسام العيسى : الجوائر والحملات الصليبية ، ص ٥٧ .
 (٣) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٥ .
 (٤) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٢ .

الهيئات الدينية الإسلامية عائدات بعض الممتلكات الموقوفة على الأغراض الدينية وأعمال الخير ، بينما تم التنازل عن الضرائب المستحقة والمخصصة لمصاريق القصر الملكى الى الملك أبو عبد الله الذى حصل على ضيعة فى منطقة البيوراس (AL Piyorras) ، كما نهبت الجيوش المسيحية الزاحفة بعض الاراضى مما تسبب كل ذلك فى ضعف العائدات للبيت الملكى . (١)

ألف الملكان الكاثوليكيان فريدناند و ايزابيلا حكومة من الأشخاص ذوى الخبرة والمقدرة ، وجعلوا سياستهم هى تكوين وحدة وطنية متحدة تحت سيطرة حكومة واحدة . (٢) ، إذ كانت تلك الحكومة مكونة من هوناندو دى زافارا (Hernando de Zafara) سكرتير وكاتب الملكان فريدناند و ايزابيلا والكونت تنديلا (Tendilla) وهو واحد أعضاء اسرة مندورا (Mendoza) الذين كانوا على غرناطة منذ بداية القرن الخامس عشر ، والمعروف بحروبه ضد المسلمين وهوناندو دى تالافيرا (Hernando de Talavera) كبير الاساقفة فى غرناطة والذى ساهم بروحه واهتمامه بالدراسات العربية واضطر لاقامة الملبان والمناجر فى الشوارع والبياديين والكنائس (٣) ، كما حرص تالافيرا على دوام احترام شروط وثيقة الاستسلام التى ضمنت حرية المسلمين بالتمسك بعقيدتهم ، كما تأثر بالانجازات العربية والثقافية واهتمامهم بالاعمال الخيرية ، ولم يلجأ الى استعمال القوة فى اعتناق المسيحية ، وكان قد اتبع سياسة الاندماج التدريجى وكان يقول فى ذلك سوف نبنى اعمالهم الخيرية (٤) ، حققت تلك السياسة التى اتبعها تالافيرا نجاحا يسترعى الانتباه الا انها تسببت فى قيام معارضة شديدة من زملائه ، الذين احتجوا عليه ببطء بنسبة المعتنقين ، وطلبوا فى اتباع المزيد من القوة لهذه السياسة . (٥)

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.38 .

(٢) محمد قشتيليو : محنة المورييسكوس فى اسبانيا ، ص ١٧ .

(٣) محمد قشتيليو : المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .

4- J.H.Elliott: IBID P.39 .

5- IBID P.40 .

طلب الملك ابو عبد الله بن الاحمر ان ينسحب مع ذويه الى بلاد المغرب فتخرج فريدناند وايزابيلا من ذلك حرجا كبيرا ، خشية ان يطلب مددا من الشمال الافريقي يأتى به لنجدة المسلمين واسترداد الاندلس ، الا ان الراهب خيمينس اقنع الملكين الكاثوليكين بأنه لا خطر البتة من وراء هذا الانسحاب الى المغرب لان حالة الخلاف والشقاق السائدة والمستحكمة الحلقات بالبلاد الافريقية الشمالية لن تسمح لاهلها البتة بالاقدام على مثل هذا العمل (١) ، ثم سمح فريدناند وايزابيلا للملك عبد الله بمغادرة البلاد ومعه ستة آلاف من المسلمين متجهين الى افريقيا (٢) فذهب غالبيهم الى بلاد المغرب الاقصى والى تونس وطرابلس ، اما ملكها ابو عبد الله بن الاحمر فاستوطن فاس (٣) الذى كتب الى ملكها برسالة بليغة ، من انشاء الفقيه الاديب ابى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلي وسماه بالروض العاطر الانفاس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس .

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعبا لما مثله يرعى من الذم
بكاستجرنا ونعم الجار انت لمن جار الزمان عليه جور منتقم (٤)

وفى خريف ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م ، توفى ابو عبد الله بن الاحمر ، وبقيت بعض الاسر المالكة فى غرناطة الذين عينوا فى الادارة الملكية للحصول على رضائهم ، وبذلك الملكان الكاثوليكيان قصارى جهدهم فى بناء ابراج مراقبة على السواحل

(١) احمد توفيق المدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٨ .

2- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 39 .

(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٤) شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ التلمسانى : مرجع سبق

ذكره ، ج ١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

الاسبانية بالإضافة الى تخصيص دوريات خفر السواحل ، لاييقاف محاولات استرداد الاندلس ، واتصال غرب الشمال الافريقى باخوانهم الموجودين فى اسبانيا والذين رفضوا الانضمام الى الحكام الاسبان . (١)

انتهت ايزابيلا وزوجها فريديناند عملية احتلال غرناطة ، واعادوا توزيع سكانها ، وسافروا الى قطلونيا للتفاهم مع فرنسا فى بعض المسائل السياسية وكلفوا الحكومة الثلاثية الجديدة ، والمؤلفة من الاشخاص الذين سبق ذكرهم هرناندو دى زافرا (Hernando de Zafara) ، والكونت تنديلا (Tendilla) وكبير الاساقفة هرناندو دى تالافيرا (Hernando de Talavera) ، كلفوهم بمعاملة المسلمين معاملة توءى الى ادخالهم فى المسيحية شيئا فشيئا وعمل كل مجهودات فى هذا السبيل الرئيسى الدينى (٢) ، فنظمت الكنيسة فرقا تبشيرية من رهبان وراهبات للقيام بنشر المسيحية ، اذ كانت الفكرة السائدة عندهم ان المسلمين سيدخلون فى الديانة المسيحية افواجا وبدون صعوبات (٣) كما اقتضت مهمة الحكومة الثلاثية ضمان الامن العام ، ودعم سيطرة التاج الاسبانى على المملكة المقهورة ، الا ان هذه المهمة كانت صعبة فى منطقة البوحاراس (Al Pagaras) التى كان يسكنها قطاع الطرق ، لذلك تم تعيين احد القواد على تلك المنطقة ليحقق فيها الامن والاستقرار (٤) ، وهكذا مضت اسبانيا فى سياستها تجاه مسلمى الاندلس ، للقضاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الاسلام ذلك ان نشوة النصر التى اجتاحت اسبانيا قد الهبت العواطف وطففت على منطق العقل وهو منطق الذى احاطه رجال الكنيسة بقدسية تحكمت فى كل القرارات التى اصدرها رجال الدولة السياسيين ، واصبحت اسبانيا توءم بان عليها واجب

1- J.H.Elliott : Imperial Spain P.39 .

(٢) محمد قشيتليو : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٣) محمد عبده . حتامله : التمييز القسرى لمسلمين الاندلس ، ص ٧١ .

4- J.H.Elliott : IBID P. 39 .

تطهير ارضها من المسلمين والاسلام التى تخشى منه ومن شبحه ،خصوصا بعد نجاح العثمانيين السريع فى اوربا وافريقيا وآسيا (١) ،وشيوخ خطنهم لاسترداد الاندلس .

مضت سبع سنوات ثقيلة واهل غرناطة يحاولون التأقلم مع هذا الواقع الجديد الذى فرضته سلطات الاحتلال الاسبانية ، منذ ان رفع العلم الاسبانى والصليب المسيحى فوق برج قصبة الحمراء فى ١٤٩٢/٨٨٩٨ م . فاستولى نبلاء قشتالة على قسم كبير من اراضى غرناطة ، كما تحولت المساجد الى كنائس ، ومنع الاذان والوضوء علنا ، وبذلت الحكومة الاسبانية والكنيسة كل الجهود لاقناع المسلمين باعتناق النصرانية وقطع صلاتهم بتاريخهم وحضارتهم (٢) هذه الاعمال كلها مخالفة لاتفاقية الاستسلام ، وضعت معنويات المسلمين ، وفقدوا الامل فى الحصول على مساعدات شمال افريقيا ، واخذ القشتاليون يزاحمون المسلمين على الارض ، ثم على لقمة العيش ، وترددت الامور من سوء الى اسوأ ، ثم اندلع الغضب دفعة واحدة ، وكان سبب اندلاعه الكاردينال خيمينس رئيس اساقفة طليطلة الجديد ، الذى وافق عليه البابا الاسكندر السادس ١٤٩٥/٨٩٠ م ، بعد ترشيحه من ايزابيلا وفريدناند ، وكان منصب رئيس اساقفة طليطلة يشمل ايضا منصبين آخرين لا يقلان اهمية الاول مستشار قشتالة والثانى كبير اساقفة المملكة ، لذا فقد كان منصب خيمينس الثالث فى الاهمية بعهد فريدناند وايزابيلا . (٣)

جنحت الكنيسة وبتأثير من خيمينس الى سياسة العنف والمطاردة وادعنت السياسة الاسبانية لوى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود موءدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ، وحاولت السياسة الاسبانية من جانبها ان تسخ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحرير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمى غرناطة الى السلطان سليمان

القانونى ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (٢) ، ص ٣٧ .

(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٩ .

(٣) عادل سعيد بشتاوى : نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

خرقها نصا نصا ، وسلب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعا . (١)

كانت مشكلة قد واجهت الملكان الكاثوليكيان وبالاخص ايزابيلا بالنسبة للاندلسيين فى غرناطة ، فهى لا تريد ان تقدم على عمل ضد اهل غرناطة فتخسر بذلك المعاهدة فيعيرها ملوك اوربا ، بأنها الملكة التى لا تستطيع الالتزام بقسم ادته وقت قبولها تسليم آخر المدن الاسلامية ، كما انها انتظرت وقت طويلا ريثما يتمكن الاسقف هرناندو دى تالافيرا (Hernanda de Talovera) من تنصير المسلمين ، ولكن دون جدوى ، فهى تملك غرناطة ولكنها لا تملك ثقة اهلها ولا ولائهم ، ولم يكن من السهل على متعصبة مثل ايزابيلا ان تقبل وجود شعب لا يدين بالكاثوليكية فى الممالك التى تحكمها ، ولا سيما وان لقبها ١٤٩٤/٩٠٠م ، اصبح الملكة الكاثوليكية . وهى ايضا حققت هدفها عندما اضطهدت اليهود أولا ثم اجبرتهم على مغادرة البلاد فى وقت لاحق ، واذا عملت ذلك مع اليهود ، فليس هناك ما يمنع تطبيق نفس الاجراء مع المسلمين ، حتى لو جاء ذلك على حساب تفويض دعائم الاقتصاد الغرناطى وتشريد اهل تلك المملكة ، وهى ان خرقت المعاهدة لاسباب سياسية او اقتصادية استحققت لوم ملوك اوربا ولكن لو استطاعت اجبار اهل غرناطة على القيام بعمل ما ضد الدولة ، فان من الممكن وقتها الغاء المعاهدة . على اساس ان اهل غرناطة كانوا البادئين بذلك ، ولو استطاعت خرق المعاهدة . على اساس دينى فليس هناك من يستطيع انتقادها فى ارجاء المسيحية ، لانها ستحقق بخرق المعاهدة . بموافقة كنيسة روما نصرا للمسيحية وهجوما اخيرا على المسلمين الذين يهددون امن الدولة وسلطة الكنيسة والدين المسيحى الكاثولىكى . (٢)

كان الملكان الكاثوليكيان يخشون فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ سياسة القوة والعنف مع المسلمين لان الامن لم يكن قد توطد بعد فى المناطق

(١) عبد الله عنان : نهاية الاندلس ، ص ٣١٤ .

(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع . سبق ذكره ، ص ١١٠ .

المفتوحة ، ولأن المسلمين لم يئزرع سلاحهم تماما ، وقد يوءى الضغط الى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ، ويتقدم المسلمون بالعون لآخوانهم الاندلسيين وانتهى الامر الى الخفوع لرأى الكنيسة ، واستدعى الكاردينال خيمينيس الى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين فوفد عليها فى سنة ١٤٠٥هـ/ شهر يولييه ١٤٩٩م، ودعا اسقفها دى تالافيرا (De Talavera) الى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وامر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم الى اعتناق المسيحية ، واغدى عليهم الهدايا فاقبل بعضهم على التنصير وتبعهم جماعة كبيرة من العامة واستعمل الوعد والوعيد والبذل والارغام فى تنصير بعض اعيان المسلمين (١)، وقد وصف صاحب نفع الطيب ذلك بقوله " ثم ان النصرى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة ، الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م . وبعد امور واسباب اعظمها واقواها عليهم انهم قالوا : ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصرى ان يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك (٢) .

لم يكتف الكاردينال خيمينيس بهذه الحركة الارهابية ، التى انتهت بتوقيع التنصير المفصوب على عشرات الالوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربرى شائن ، اذ امر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من اهل الى غرناطة وارباضها ونظمت اكادسا هائلة فى ميدان باب الرحلة ، اعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الادب والعلوم المزخرفة بالذهب والفضة مثل مؤلفات (AL Jafair) ، واضرت النيران فيها جميعا ، وهكذا ذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجى عشرات الالوف من الكتب العربية ، وهى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الاسلامى فى الاندلس . (٣)

كان التعصب الدينى قد افقد خيمينيس القدرة على تصور اى مسلك آخر مع اهل غرناطة سوى الطريق المملوء بالتعذيب ، واجبار المسلمين على التعميد

(١) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ص ٣١٥ .

(٢) احمد بن محمد المقرئ التلمسانى : مرجع سبق ذكره

ج ٤ ، ص ٥٢٧ .

(٣) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٣١٦ .

ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وحضارتهم ، كان ايضا لا يريد الاعتراف بأن سياسته في غرناطة اخفقت في تنصير المسلمين ، أمراته لم ينجح الا في اقناع الاندلسيين بأن الاستمرار في تحمل احوال مثل تلك التي فرضها لا يمكن ان يدوم ، وعشا حاول تالافيرا (Talavera) والكونت تنديلا (Tendilla) اقناعه بالعدول عن سياسة الارهاب وتحذيره من مخاطرها في تأليب مشاعر اهل غرناطة ، ووصل الامر ذروته حين حرق خيمينيس كل ما تقع ايدي عماله من نسخ القرآن الكريم ، وبينما كان خيمينيس يرسل بعض جواسيسه الى البيازين لالتقاط اخبار اهلها وذات يوم بعث بثلاثة منهم الى الحى لسبب غير معروف ، فوقع صدام بينهم وبين بعض اهل غرناطة قتل على اشرها اثنان من العمال وفر الثالث وكانت تلك نقطة التحول (١) ، الا ان المطران هوناندو تالافيرا (Talavera) المعروف بالوداعة دخل ريش البيازين بالسكينة والانس برفقة عدد من حاشيته بدون سلاح ، واستفسر القوم عن شكاوهم وتقبلها منهم وهذا روعهم واعاد طائر الامن الى وكره وجب الدماء يومئذ (٢) ، ووعدهم برفع شكوتهم لفردناند وايزابيلا وفي اشبيلية سرد الكونت تنديلا (Tendilla) للملكيين الكاثوليكين ما حدث في غرناطة في ريش البيازين ، اما خيمينيس فقد ذكر الملكة ايزابيلا بانها حاملة لقب الكاثوليكية ، ولا يمكن ان تقبل بوجود رعايا يدينون بدين غير المسيحية الكاثوليكية والا انتقدتها الكنيسة وملوك اوربا ، وبلغها كذلك ان الاندلسيين لا يمكن ان يستمروا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحيين وان الاندلسيين ما كانوا ليثورا عليه لولا نجاحه في تنصير الكثيرين منهم ، فخشيت ايزابيلا ان يستفحل خطر الاندلسيين فيهددون امن الدولة واستقرارها واتباع اللين مع اهل غرناطة ، بعد انتفاضتهم فـرى ريش البيازين .

اخذت ايزابيلا وزوجها فردناند برأى خيمينيس ، فاما ان يقبل الاندلسيون بالتنصير او يجرى ترحيلهم الى العدو . (٣)

-
- (١) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٣ .
 - (٢) لوشر و ستودارو : حاضر العالم الاسلامى ، ج ٢ ، ص ١٤ .
 - (٣) عادل سعيد بشتاوى : نفس المرجع ، ص ١١٦ .

قرر الملكان الكاثوليكيان تغيير نهج سياستها في شتى المجالات
وانشأ لمتابعة ذلك محاكم التفتيش، كما اصدروا امرا يقضى بمنع المسلمين
من الدخول الى غرناطة حتى لا يختلط بالمسلمين الموجودين فيها فترتفع روحهم
المعنوية (١) فخرج المسلمون رجالا ونساء واطفالا هائمين على وجوههم
الارض، لا يحملون معهم الا الشيء القليل، والتجأوا الى جبال البشـرات
(AL Pujarros) التى بقيت فى ايدي المسلمين ولكنها معترفة
بسلطان الإسبان ، بينما فضل الآخرون البقاء واصبحوا يعرفون باسم
المواركة او المورسكيون (Los Moriscos) التى تعنى بقايا
العرب المسلمين. (٢)

ثار المورسكيون سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م فى جبال البشـرات التى تقع
على منحدرات سيرانيقادا. (Saerra Neveda) المزمجمة
بالسكان ، مما جعل فرديناند يتقدم بنفسه داخل المنطقة و سحق ذلك العصيان
(٣) ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، بعد قتل الدوق الونزو دواغيلار القائد الاسبانى ، فازداد انتقام
الاسبان من المسلمين ، فهجم كونت طنذيلة على قوجار وهدم كونت سرين مسجدا
على مسلمين التجأوا اليه برفقة نساءهم واطفالهم ، وامسك الملك فرديناند
الطريق على الفارين من الجبال (٤) الذين اتجهوا باعداد كبيرة الى ممالك
القرصنة فى شمال افريقيا (٥) واشهر المدن التى نزل بها الغرناطيون مدينة
شرشال ، فاعادوا بناء عدد من دورها وجددوا القلعة ، ووزعوا الاراضى
بينهم ، ثم صنعوا كثيرا من السفن الملاحية ، واشتغلوا بصناعة الحرير ، بعد
حصولهم هنالك اعدادا كبيرة من اشجار التوت الابيض والاسود ، فعاش الغرناطيون

(١) محمد عبده حتامه : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

(٢) احمد توفيق المدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ .

، محمد قشيليو : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

3- G.H.Elliott: Imperial Spain P.40 .

(٤) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٦ .

5- Paul Coles : The Ottoman Impeact on Europe P.156 .

في رخاء دائم حتى أصبح عدد المنازل المقامة مائتين ألف بيت (١) كما سكنوا مدينة تنس ومستغانم ومدينة الجزائر ودلس وبجاية وعنابة ، وقد وجد هؤلاء المسلمون المهاجرون في الجزائر أرضا تشبه أرضهم في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأهلا كأهلهم ، فاستوطنوا وأسهموا في الحياة الاجتماعية باندخال عنصرين رئيسيين ، الأول الكفاح ضد الإسبان في البحر والشغور دفاعا عن النفس ، لاسترداد مملكتهم في شبه الجزيرة الأيبيرية ، والثاني نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين (٢) .

ان عملية اخماد ثورتى البيازين والبشرات السابقة ، كلفت خزينة الدولة في عهد الملكين الكاثوليكين مبالغ طائلة ، اذ شارك في اخماد هاتين الثورتين نحو ١٣ ألف فارس وخمسين ألف من المشاة والفي قطعة من المدفعية وبلغت الديون الإسبانية مبلغا كبيرا ومن اجل هذه الثورات المتواصلة استقدم الملكان الكاثوليكيان الخبراء والعلماء من جميع انحاء اوروبا ، وخاصة فرنسا وإيطاليا وألمانيا لادخال تحسينات على المدفعية ، وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والطلقات النارية والبارود وشتى انواع الاسلحة في ذلك الوقت وطلبت الحكومة الإسبانية المواد من الخام من صقلية وبلاد الفلانديس والبرتغال وتولى هذه العمليات والإشراف عليها القنصل فرنسيسكو خيمينيس دى مدريد القائد الأعلى لسلح المدفعية الذى قدم خدمات جليلة في ثورة البشرات (٣) التى استمرت حتى ١٥٠٠هـ/١٥٠٠م .

ان ما حدث في غرناطة من محاولة تنصير للمسلمين حدث في باقى البلاد والنواحي الأخرى الإسبانية ، بعد اخماد الثورتين السابقتين في البيازين والبشرات ، وكذلك المرية (AL Meria) وبسطة (Baza) ، ووادى آش (Guadix) ففي ١٥٠٠هـ/١٥٠٠م عمت محاولات التنصير سائر انحاء مملكة غرناطة ، على ان هذه الحركة التى نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية ، والتى لم

(١) الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا ، ج٢ ، ص ٣٤ .

(٢) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الشقافى ، ج١ ، ص ١٤٢ .

(٣) محمد عبده . حتامله . مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

تدخر فيها اساليب الوعود والوعيد والاغراء والاكراه (١) كان الغرض منها ان يقطع المسلمون صلتهم بالقوى الاسلامية الاخرى ولا سيما القوة العثمانية الفتية ، والتي اخذ خطرها يزداد على نواحى اوروبا من اجل استرداد الاندلس

كان الاغراء بالتنصير يتخذ احيانا شكل هبات ومنح جماعية لبلدية او منطقة باسرها ، كما حدث بالنسبة لاهل وادى الكرين (الاقليم) ولانخرون والبشرات ، فقد اصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوما بابرء سائر اهاالى النواحى المذكورة الذين تنصروا او سيتنصرون من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكين لصالح العرش ورفعها عن منازلهم واراضيهم وسائر املاكهم المنقولة والشابطة وهبتها لهم والغاء ضريبة الرأس المفروضة عليهم لمدة ستة سنوات ، والغائهم للغرامة التى فرضت عليهم من جراء ثورتهم وقدرها خمسون الف دوقية ، بالاضافة الى منح وبرايات اخرى تضمنها المرسوم المشار اليه ، كما صدر مرسوم مماثل الى المسلمين القاطنين بحبيهم المسى المواركة (Moreria) بمدينة بسطة (Boza) باعفاء الذين تنصروا منهم او يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكين ، وتحريرهم منها بالنسبة لانفسهم او منازلهم واموالهم الشابتة والمنقولة من ايام التنصير والا يدخل احد منازلهم دون رغبتهم ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وان يعفوا عن سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ، وان تحترم جميع العقائد والمحررات التى كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاةم ، وان يعامل المنتصرون منهم كسائر النصارى الاخرين فى بسطة (Boza) ، ولهم ان ينتقلوا وان يعيشوا فى اى مكان آخر من اراضى مملكة قشتالة دون قيد او عائق ، الى غير ذلك من المنح والامتيازات ، وصدر اخيرا مرسوما بالغفو عن سكان حى المسلمين (Moreria) بغرناطة والقرى الملحقة بها بالنسبة لجميع الذنوب والاطغاء التى ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، ولا يتخذوا فى شأنها اى اجراء سواء ضد اشخاصهم او املاكهم . (٢)

(١) محمد عبدالله عنان : مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٩ .

(٢) محمد عبدالله عنان : نفس المرجع ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

" وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى واماكن كذلك منها بلغيق وآندرشى وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلًا وسبيًا ... ثم بعد هذا كله كان من اظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويملى فشد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقبض الله لهم ناصرا ... " ، ويصف الحالة تلك المقرئ فى كتاب ازهارالرياض " .. فلو رأيتم ما صنع الكفر بالاسلام بالاندلس واهليه ، لكان كل مسلم يندبه يبيكيه فقد عبث البلاء برسومه ، وعض على اقماره ونجومه ولو حضرت من جبر بالقتل على الاسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ، لانساکم مصرعه ، وساءكم حفظه ، وسيوف النصارى اذ ذاك على رؤوس الشذمة القليلة من المسلمين مسلولة وافواه الذاهلين محلولة وهم يقولون : ليس لاحد بالتنصر ان يمتطى ولا يلبث حينًا ولا يهمل ، وهم يكابدون تلك الاحوال ، ويطلبون لطف الله فى كل حال . (١)

تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الاندلس فى جميع انحاء العالم الاسلامى فذكر ابن اياس فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ (اغسطس ١٥٠٠) عقب محنة التنصير " ... وفيه جاءت الاخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الاندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا من دخل فى ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على انفسهم من القتل ثم شار المسلمون شائيا ، وانتصفوا عليهم بعض الشئ ، واستمر الحرب شائرا بينهم .. والامر لله تعالى فى ذلك " (٢)

(١) شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) محمد بن احمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الكتاب ٦ ،

كان استخدام الشدة من قبل المسيحيين ضد المسلمين معناه اضطراب عدد من المسلمين

تحت الضغط الى التظاهر بقبول التعميد والدخول في المسيحية ، خاصة امام هياج الرأي العام لغزاة الاندلس الجدد المتعصبين (١) وكان قبول ذلك ظاهريا اذ كان الموريسكيون اقوى الناس ايمانا ، متمسكين بعقيدتهم الاسلامية وعوائد اجدادهم القديمة سواء ما كان منها ديني او اجتماعي ، كما يعتبرهم المسيحيين اعداء لدينهم حتى لو تنصروا واصبحوا يشاركونهم في عقيدتهم فكان تنصيرهم صوريا ولم يتخلقوا قط باخلاق النصارى سواء من هم يعيشون بين اظهرهم في مدن ماثولة بالسكان وغالبيتهم نصارى قداماء ، ومن يعيشون داخل احياء خاصة بهم في مدن النصارى فكان موقفهم من النصارى موقف تهكم واستهزاء بمعتقداتهم فما الكتب العربية والالهيادية ، التي مازالت تتداول سرا بين ايديهم الا دليلا على تمسكهم بالاسلام وعواثده (٢).

طلب الموريسكيون في هذا الوقت العون والمساعدة من حكام المغرب ، ولكن هؤلاء كانوا منقسمين في مشاكلهم الداخلية والخارجية مع نفس الاسبان والبرتغال الذين استولوا على بعض قواعد بحرية في الشاطئ المغربي لتكون نقاط ارتكان لهم في البحر الابيض المتوسط ، لمواجهة الدولة العثمانية التي تتطلع لاسترداد الاندلس ، فلجأ الموريسكيون الى مهادنة النصارى واخفاء الاسلام وصاروا يمهدون السبيل لقرصنة المغاربة والعثمانيين في الدخول والخروج الى اسبانيا وكانوا يقومون بعبادتهم الاسلامية سرا ، وكانت لهم الثقة في العرافين يبعثون فيهم الامل ويبشرونهم بعودة مجدهم الغابر (٣) ، بمساعدة القوة الناشئة العثمانيين ، والتي كانت استراتيجيتهم نشر الاسلام في انحاء اوربا .

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٢) محمد قشيليو : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) محمد قشيليو : المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

الذين ارداد خطرهم في البشرات ، فأصدر الملكان الكاثوليكيان امرا ملكيا خلاصته " انه لما كان الله قد اختارهم لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فانه يحظر وجود المسلمين فيها، فاذا كان بها بعضهم فانه عليهم ان يتصلوا بغيرهم خوفا من ان يتأخر تنصيرهم او بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا ايمانهم ويعاقب المخالفون بالموت او مصادرة الاموال . (١)

ومع بداية سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢ كان جميع من في قشتالة وليون يعتبرون منصرين بموجب المرسوم الذي اصدرته الملكة ايزابيلا ، وخيرت فيه المسلمين بين الانضمام الى الكنيسة او الارتحال الى الشمال الافريقي وازافت الكنيسة بذلك الى رعيته حوالى نصف مليون منصر بالاسم وحولت مساجدهم الى كنائس او ازيلت ، ومنع الاذان والملاة (٢)، أما من اراد البقاء على الاسلام فقد خرج بطريق البحر ، شريطة ترك ابنائه وبناته الذين لم يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى لا ينجبوا اولادا في بلاد الاسلام يكونون خطرا على اسبان ، كما اجبرت السلطات الاسبانية المسلمين الساكنين في ليون وقشتالة مغادرة البلاد ، وحددوا لهم الطريق الذى يسلكونه للارض الاسلامية ، ولكن لم ينفذ هذا الامر لانهم قبلوا المسيحية خاصة اهالى اقيلا وسمورة ومدريد ووادى الحجاره وطليلة ولكن هؤلاء ايضا كان دخولهم للمسيحية ظاهريا من اجل البقاء في الوطن . (٣)

اعترف ملوك اسبانيا بحتمية الاستمرار في تطبيق هذا القانون فلاحقتهم الكنيسة عن طريق ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش ، فصدرت املاك المسلمين وحرم عليهم التكلم باللغة العربية ، واجبروه على ارتداء الالبسة الوطنية ومنعوه من التردد على الحمامات ، وامروهم بفتح منازلهم ايام الحفلات وايام الجمعة والسبت ، وعدم التسمية باسماء عربية . (٤)

(١) محمد عبدالله عنان : مرجع سبق ذكره ص ٣٢٤ .

(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣١ .

(٣) محمد قشيليو : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٤) عبد الجليل التميمي : مرجع سبق ذكره ، عدد (٣) ، ص ٢٧ .

بذلك يظهر للعيان مدى قوة التعصب الكنسى ضد المسلمين ، فلو دققنا النظر فى محاكم التفتيش التى ظهرت فى شبه الجزيرة الايبيرية ، والتسلى كانت فاتحة لسياسة القمع الهائلة التى وضعت لاستئصال الاسلام من الاندلس تلك المحاكم التى ذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين ، علاوة على المخالفين للمذهب الكاثوليكي .

وانتهى بذلك امر المسلمين بالاندلس سياسيا ، واصبح امر البلاد بين الاسبان الذين اقلوا الثغور بعد ذلك على من بقى من المسلمين ، واخذوا يتفنونون فى انواع التعذيب واشتد الامر على المسلمين فى ذلك شدة لا توصف ولم يقتصر العدو على ذلك بل تتبع بدافع الحق الدينى والسياسى معا اثر الاسلام والمسلمين حيثما كان ، واخذ يجوب البحار مهاجما لسواحل المغرب محدثا فيها النهب والدمار ، ومتحفظا لكل ما يظفر به من الاموال والانفس وامست بعض الأماكن من سواحل المغرب لعصابات من قراصنة الدول الاوروبية وبذلك تكون الحروب الصليبية قد انتقلت من المشرق الى المغرب (١) .

من خلال ذلك تبين ان المسيحية وبتعليمات من الكنيسة فى روما قد حرصت على اسقاط غرناطة وشدت فى ذلك ، اذ ان الوجود الاسلامى فيها يشكل خطرا كبيرا على المسيحية ، خاصة وان الدولة العثمانية فى المشرق قد حققت نجاحا فى شرق وجنوب شرق القارة الاوروبية ، فهى تريد ان تطبق على اوروبا من الشرق والغرب ، فأرادت المسيحية ان تفوت ذلك على المسلمين ولا يمكن تحقيق ذلك الا باخراج المسلمين نهائيا من شبه الجزيرة الايبيرية .

الفصل الثاني

(الفصل الثانى)

الدولة العثمانية فى مفترق الطرق :

- أ- أهمية التقدم شمالى الدانوب والدوران حول البحر الأسود .
- ب- عواقب الزحف العثمانى فى وسط أوروبا .
- ج- استنجد غرناطة بالدولة العثمانية .
- د - وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى - تهديد الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى لأول مرة فى التاريخ .
- هـ - تحول التجارة

قامت الدولة العثمانية على اساس اسلامى قوى ومتين ، وأخذت على نفسها عاتق نشر الاسلام وحماية المسلمين فى جميع انحاء المعمورة ، وقد اتبعت فى سبيل ذلك شتى انواع الطرق والاساليب ، ومنها الجهاد .

والمتتبع لطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ، يجد الدولة فى امتدادها انها كانت تمتد تجاه اوربا وذلك رغبة منها فى ضم القسارة الاوربية للدولة حتى يصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية ، وعندما قامت حروب الاسترداد فى شبه الجزيرة الايبيرية وذلك فى فترة لاحقة ، نجد ان الدولة العثمانية تشدد فى هجومها على الدول الاوربية لان خطتها كانت تقوم على اساس اختراق اوربا من اقصى شرقها الى اقصى غربها لانقاذ الاندلس واسترداده وظلت الدولة العثمانية تتابع تنفيذ تلك الخطة على مدى قرون عديدة .

فى عهد السلطان مراد الاول ، تركزت الفتوحات الاسلامية فى اقليم تراقيا ، وبلغت اوجها بفتح مدينة اورنة فى ٧٦٢هـ (١٣٦١م) ونظرا لاهمية موقعها الجغرافى ووجودها على ملتقى ثلاثة انهر واشرافها على طرق وممرات القوافل العسكرية ومركز انطلاق نحو توسع اوربى افضل ، فقد جعلها السلطان مراد مقرا للقيادة العسكرية (١) وكانت اورنة تعتبر الحصن الرئيسى بين القسطنطينية والدانوب .

تحرك السلطان مراد الاول عبر وادى نهر ماريتزا واحتل فيلبه ، واجبر الامبراطور البيزنطى على قبول السيادة العثمانية (٢) وتوالت الفتوحات حتى اصبحت القسطنطينية محاطة من ناحية اوربا باملاك العثمانيين وانعزلت عن باقى الامارات المسيحية ، فاضطرب لهذا الوضع الملوك المسيحيون وطلبوا من البابا اوربانوس الخامس ان يتوسط لدى ملوك اوربا الغربيين ليساعداهم

(١) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩ .

(٢) على حسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .

فى محاربة المسلمين ،خوفا من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان
فلبى البابا استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين
وحرصهم على محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحى من الفتوحات
الاسلامية . (١)

وعقد لازار ملك الصرب اتفاقية سنة ٧٩١هـ (١٣٨٨م) مع ملوك الانفلاق
وامراء دالمالشيا ،وملك المجر وملك البلغار وتحزبوا جميعا لمحاربة السلطان
اذ لم يرغبوا فى انتظار وصول المدد اليهم من اوربا ، وتقابلت الجيوش (٢)
المسيحية والمسلمين فى سهل قوصرة (Cossora) وحملت بيـــــ
الطرفين معركة كبيرة ،انهزمت فيها جيوش المسيحيين ،وبهذه الهزيمة فقد
الصربيون (٣) استقلالهم ، وكذلك البلغار (٤) وبلاد الرومللى وآسيـــــ
المصرى قبل ذلك (٥) واصبح بذلك نهر الدانوب الحد الشمالى للدولة
العثمانية .

وفى اثناء انشغال السلطان بايزيد الاول فى الاناضول فى الفترة
٧٩٢ / ٧٩٥هـ (١٣٨٩ / ١٣٩٢م) هدد النفوذ العثمانى فى البلقان امام مقاومة
المجر ،الافلاق (Wallochias) فى بلغاريا الدانوبية ودوبروجـــــ
ما وضع مملكة بلغاريا المضطربة فى موقف لا يحسد عليه . (٦)

وامام هذا الموقف البلقانى الصعب ،امر السلطان بايزيد
الاول بمتابعة الحروب فى اوربا ودعا بزحف عام على طول حدوده الشمالية
والشمالية الغربية ووصلت غارات قواته السريعة الى حدود الاراضى الالمانية

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣٠ .

(٢) على حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦ .

(٣) الصرب مملكة فى اوربا يحدها شمالا النمسا والمجر ومقاطعة اسكلافينا
وبلاد رومانيا ويفصلهما عن بعضهما نهر الطونة " الدانوب " شرقا ولاية
البلغار وجنوبا ولاية سلانيك وغربا ولاية البوسنة العثمانية .

(٤) بلغاريا يحدها شمالا نهر الدانوب الذى يفصلها عن رومانيا وشرقا البحر
الاسود وجنوبا جبال البلقان التى تفصلها عن بلاد الرومللى ،ومن الجنوب
الشرقى بردزرين ،ومن الشمال الغربى بلاد الصرب .

(٥) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،ج ١ ،ص ٤٩٢ .

(٦) ابراهيم شحاته حسن : ' اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٩١ .

وفى ١٣٩٣م (٧٩٦هـ) استكمل احتلال بلغاريا وزود قلاع الدانوب بحاميات قوية بعد تقوية تحصيناتها (١) .

كما دعا يازيد جميع الامراء التابعين للبلقانيين بما فيهم البايولوجى الى فيريا سنة ١٣٩٤م (٧٩٧هـ) لتجديد روابط الولاء ، ويعدها بدأت سلسلة عملياته العسكرية بحصار القسطنطينية (٢) عندها اورك امبراطور القسطنطينية الخطر ، وخاف من تقدم السلطان يازيد مع شعوره بعدم مقدرة ملوك اوربـا الذين استجار بهم ان يتصدوا له ، ارسل جملة هدايا يستجلب بها رضا السلطان متعهدا بدفع جزية سنوية معينة ، وعجل بدفع جزية سنة مقدما ، ووافق بان يسكن المسلمون القسطنطينية وان يكون لهم بها مسجد وقاض يحكم فى امورهم . (٣)

ثم قام بايزيد بحملته الكبرى عام ١٣٩٥م (٧٩٨هـ) التى وصل بها حتى سلاطيان على نهر الدانوب ، ودخل الافلاق (Wallachia) وهزم ملكها (مرسيا فى ارغيش (Argesh) ، ثم زحف السلطان بايزيد على نيقوبولوس واعدم الملك البلغارى شيشمان بتهمة الخيانة وانحياز له العدو .

وفى خلال هذه المعارك زالت عدة أسر حاكمية ، ومن ثم اتجه بايزيد الى تكوين الدولة المركزية بدلا من دولة الإمارات التابعة ، وبدا ذلك جليا بعد التخلص من بلغاريا كمملكة حاضرة حيث تعهدت الدولة العثمانية المسئولية المباشرة فى الدفاع عن منطقة الدانوب ضد المجر . (٤)

كان ذلك بمثابة تهديد جديد للمسيحية ، وقوبل ذلك باعداد حملة دولية صليبية تعتبر من اكبر التكتلات الصليبية التى واجهها العثمانيون فى القرن

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٣ .

(٢) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٩١ .

(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٤) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ، ص ٩١ .

الرابع عشر (١)، كما رمزت تلك الحملة الى ذروة الصراع بين العثمانيين والمجريين للإستيلاء على الدانوب السفلى، كما ظهر اهتمام البندقية بهذا الصراع حتى انها استخدمت اسطولها لقطع الاتصال بين الأناضول والبلقان عبر المضائق، كما ظهر من هذه الحملة الصليبية الفاشلة، انها كانت بالنسبة لفرسان غرب اوروبا مجرد مغامرة صليبية (٢) لقيت نهايتها عند مدينة نيقوبوليس (Nicopolis) على نهر الدانوب في سبتمبر عام ١٣٩٦م (ذو الحجة ٧٩٩هـ) ومن اهم نتائجها توطيد اقدام العثمانيين في البلقان (٣) كما رفعت ايضا وبشكل كبير من مكانة العثمانيين فى العالم الإسلامى، وكان النصر العثمانى فى اوروبا هو فى الواقع بمثابة نصر للمسلمين اينما كانوا.

بعد ذلك ابطأ الزحف العثمانى فى القارة الأوروبية قرابة نصف قرن وذلك بسبب انشغال الدولة العثمانية مع تيمورلنك عام ١٤٠٢م (٨٠٥هـ)، ولكن لم يستمر ذلك طويلاً فقد تمكن العثمانيون من إعادة بناء الدولة ولم يأت عام ١٤١٥م (٨١٨هـ) حتى عادت الدولة الى وضعها السابق فى روميللى ————— والاناضول .

غير ان هذا لم يتم دون عقبات، فقد أثبتت الحروب الداخلية فى الأناضول والبلقان أن الامر يدعو الى أسلوب المصالحة أكثر من أسلوب القوة العسكرية مع القائمين على قبائل الأناضول، أو على الأقل يدعو الى ايجاد التوازن بينهما، وقد نجح السلاطين العثمانيين فى ذلك .

وقام السلطان مراد الثانى بمصالحة أمير القرمين، وعقد هدنة مدتها خمس سنوات مع ملك المجر، وأعاد الولايات التى كان قد أخذها تيمور، ثم

-
- (١) عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، ص ٣٨ .
 - (٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره، ص ٩٢ .
 - (٣) عمر عبدالعزيز عمر : نفس المرجع، ص ٢٨ .

استرد بلاد القرم بعد وفاة أميرها (١) بعد ذلك اتجه نحو أوروبا وفتح مدينة كولمبار (Kucero) الواقعة على شاطئ الدانوب الأيمن ، وأجبر ملك المجر على توقيع معاهدة . يتخلل فيها عما يكون له من البلاد على شاطئ نهر الدانوب الأيمن ، بحيث يكون هذا النهر فاصلاً بين العثمانيين والمجر . وفى ١٤٣٠م (٨٣٤هـ) أعاد السلطان فتح مدينة سلانيك ، ثم وجه اهتمامه إلى ألبانيا وأدخلها تحت حكمه وفى ١٤٣٣م (٨٣٧هـ) اعترف أمير الأفلاق (فلاد) بسيادة الباب العالي تخلصاً من الحرب (٢) .

تغيرت الأوضاع فى أوروبا بعد وفاة ملك المجر سجمند ١٤٣٧م / ٨٤١هـ ، إذ ازدادت هجمات المجرىين بقيادة حنا هنيادى على القوات العثمانية ، فتصدى فى البداية للمحاولات العثمانية للتوغل فى ترانسلفانيا ، ثم قاد هنيادى جيوش الحلف المسيحى الكبير الذى تكون فى ذلك الوقت لمواجهة العثمانيين لخراجهم نهائياً من أوروبا والقضاء على فكرة الوصول لاندلس وكان الحلف المسيحى يتكون من بلاد المجر وبولندة . والصرب وبلاد الأفلاق (Wallachia) ودوقية براجانديا وجنوة والبندقية والبابوية والامبراطورية البيزنطية وبينما أبحر أسطول من السفن الإيطالية والفلمنكية نحو مضيق الدردنيل وحلف هنيادى جنوباً على رأس الجيوش المسيحية ، فعبر نهر الدانوب ، وطرد العثمانيين من الصرب وهزمهم فى شمال نهر هايموس وجنوبه فاضطرت الدولة العثمانية إلى طلب الصلح فعقد صلح سيزجردن (يونيه ١٤٤٤م) (ربيع الأول ٨٤٨هـ) تنازل بموجبه السلطان عن بلاد الأفلاق ، وأن يرد إلى أمير الصرب مدائن سمندريه وأن يهادن المجر مدة عشر سنوات ، إلا أن المجرىين لم يراعوا شروط الهدنة فاغاروا على بلاد البلغار ، فقاد السلطان جيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة واردة (Varna) الواقعة على البحر الأسود واشتبك الجيشان فقتل ملك المجر لاد سلاس ، وهاجم العثمانيون معسكر المجر

(١) على حسون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٢) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) محمد عبدالمنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٨ .

واحتلوه بعد قتال شديد كان ذلك فى نوفمبر ١٤٤٤م (شعبان ٨٤٨هـ) (١) وحقق بذلك العثمانيين اهدافهم التى رغبوا فى تحقيقها فى المرة الاولى .

قاد هينادى عدة جيوش اوروبية فهاجم جنوده الروملى وبلاد الصرب وذلك ليعيد لنفسه ما فقد من الشرف فى وقعة دارنة ، فجمع السلطان مراد الثانى قواته والتقى مع هينادى فى وادى قوصره (Cassooro) (فى اكتوبر ١٤٤٨م) (فى رمضان ٨٥٢هـ) وكانت هذه الوقعة الثانية . ثم انهزم هينادى وفر من ميدان القتال بعد ما لحقته خسائر كبيرة (٢) ونتج عن ذلك ان خرجت بلاد المجر لمدة عشر سنوات على الاقل من قائمة الدول التى تستطيع القيام بعمل حربى هجومى ضد العثمانيين . (٣)

وارتقى محمد الثانى سلطنة الدولة العثمانية عام ١٤٥١م (٨٥٥هـ) فرسم لنفسه خطة ، ليضم بها بقية المناطق فى الاناضول والبلقان ، فيبعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م (٨٥٧هـ) وجه محمد الفاتح همته الى تعزيز سلطته فى شمال شرقى شبه جزيرة البلقان والتى كان المجرىون لايزالوا يتهددونها ، لهذا قرر القضاء على استقلال الصرب حتى يوفر لنفسه قاعدة ثابتة يستطيع منها محاربة المجرىين . (٤)

وكانت الخطة الاساسية للتقدم العسكرى طوال عهد محمد الثانى هى محاربة المسيحيين وذلك من اجل منع توحيد المقاومة القادمة من العالم الغربى وكذلك من اجل الحصول على اراضى جديدة واستمرار التقدم نحو الغرب .

وكان محمد الثانى قد استطاع ان يشير الشقاق بين الجمهوريات الايطالية وذلك بمنحها امتيازات تجارية جديدة فى دولته . ففى عام ١٤٥٤م (٨٥٨هـ)

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٥٠٥ .

(٣) محمد عبدالمنعم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ .

(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧١ .

منحت البندقية حقا خاصا بمقتضاه تدفع ٢٪ رسوم جمركية على السلع التى تدخل او تباع فى دولته وان يكون لها ممثلين تجاريين مقيمين فى استانبول مقابل دفع جزية سنوية مقدارها ٢٠٠.٠٠٠ مائتين الف دوكة ذهبية كما منحته جنوه منافستها الاولى حقوقا مماثلة فى القرم (Crimea) وجزر بحر ايجيه مقابل جزية .

وعرف السلطان محمد الفاتح وهو يفكر فى المناطق التى يمكن ان يتوسع فيها مستقبلا ، عرف المغانم الهائلة المتاحة فى الشمال والغرب والمناطق المطلة على شمال البحر الاسود والتى اصبحت تشكل فراغا سياسيا بعد انحلال القبائل الذهبية (Golden Horde Empire) والتى سيطرت مدة قرنين من الزمان على الاراضى الممتدة من اوكرانيا حتى وديان نهري الدون وال فولجا . (١)

وكان فتح القسطنطينية دلالة السياسية لا العسكرية ، فمع ان محمد الثانى امكنه بناء اسطول قوى حاصر به المدينة ، واصبح بعد ذلك نواة القوة البحرية العثمانية ، الا انه كان واضحا انه يقابل دولة فت فى عضدها السنبون ومزقتها الخلافات المذهبية العقيمة ، اما الدلالة السياسية للفتح ، فهى انه اثبت ان روحا جديدة بدأت تتجتاح العالم الاوروبى فقد انقضى عصر العصبية الدينية او على الاقل خفت حدته ولم يعد لرجال الدين سطوة فى توجيه دفعة السياسة الاوروبية ، وحل محل ذلك عصر جديد قائم على اساس آخر . (٢)

وابحر الاسطول العثمانى فى سنة ١٥٥٤م (٨٥٩هـ) فى البحر الاسود ، واجبر جميع الحكومات على سواحله وهى مستعمرات جنوة ومملكة ترابزون والبغدان (Moldavia) على الاعتراف بالسلطة العثمانية (٣) وكان الهدف من ذلك

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P. 62 .

(٢) محمد عبدالمنعم الراقى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ - ٩٠ .

3- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.27 .

تقوية علاقات الدولة مع التتار ، ومهما يكن من امر فإن اهتمامات السلطان محمد الفاتح الأساسية تنصب على غرب البلقان ، حيث كانت من الناجية الحربية ضعيفة على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتي ، إذ كانت تشكل قناة يمكن للهنگاريين أو لى حملة صليبية محتملة عبورها ، وبالمثل كان من الممكن نقل الحكام المستبدين من بيزنطة الى البندقية لتكون لهم قاعدة يقومون منها بمحاولة جديدة لطرد العثمانيين من أوروبا ، ولدرء هذه الاخطار قام محمد الثانى بعدد من العمليات فى الفترة من ١٤٥٤ - ١٤٦٣م (٨٦٠ - ٨٦٨هـ) لبيط حكمه المباشر على الدانوب وبحر ايجيه وبذلك يقيم خطا عسكريا دفاعيا قويا . (١)

ادت حملتان فى ١٤٥٤ - ١٤٥٥م (٨٥٩ - ٨٦٠هـ) الى تحطيم بلاد الصرب وقام العثمانيون باحتلال الجزء الجنوبى من البلاد وبذلك ضمنوا وللمرة الاولى الاتصال بمقدونيا ، كما غنموا السيطرة على مناجم الذهب والفضة فى (Norobord) الامر الذى وفر فيما بعد الكثير من المال اللازم للتوسع الاقتصادى للدولة العثمانية (٢) ، كما اصيب هونيداء اثناء المعارك ثم توفى بعدها ، ارسل السلطان محمد الفاتح حملة سنة ١٤٥٨م واستغرق العمل فى ذلك مدة سنتين (٣) ووجد العثمانيون بعدها الانظمة المالية والتشريعية وادخل تغيير بسيط فى الادارة (٤) ، وفى سنة ١٤٥٦م (٨٦١هـ) وبعد ان قبل أشرن الثالث (Aaron III) منذ سنتين الطاعة للدولة العثمانية منح السلطان تجار اللغدان (Moldovia) امتياز لتجارتهم ، اذ صرح لهم استعمال سفن التجار (Akkeman) والمتاجرة الحرة فى ادرنه وبورصة اسطنبول .

وكانت تجارة اكريمان (Akkremon) وكيلىا (Kilia)

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.63 .

2- IBID P.63 .

(٣) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

4- Stanford Show : IBID P.63 .

قد جلبت الازدهار لامازة البفدان (Moldova) في القرن الخامس عشر
 وكان الطريق التجارى القديم من كافا (Caffa) وكيلىا (Kilia)
 الى بولندا. يمر عبر البفدان ، وباءت محاولات بولندا للسيطرة على البفدان
 (Moldova) ، وكيلىا بالفشل ، اما بالنسبة للعثمانيين فان السيطرة
 على المينائين وكافا ضرورة اقتصادية اكثر منها ضرورة سياسية . (١)

بعد ذلك حكم البفدان (ستيفان الاكبر Stephen the Great)
 (١٤٥٧ - ١٥٠٤م) (٨٦٢ - ٩١٠هـ) فاستولى على ميناء الدانوب
 كيلىا (Kilia) واخذ يتدخل فى الشئون السياسية للافلاق (Wallachia)
 كخطوة اولى لاختضاع البحر الاسود والقرم ، وكان صراعه مع العثمانيين فى ذلك
 الوقت قاصرا على المنافسة من اجل السيطرة على الامراء الضعاف فى الافلاق.
 وفى النهاية اعترف (Vladiva) بالعثمانيين مثل المجريين واعترف به اميرا
 على الافلاق (Wallachia) ووعده السلطان محمد سنة ١٤٦٠ (٨٦٥هـ) بان يبعد
 المغيرين العثمانيين ، طالما ستيفان لا يحاول توسيع املكه ، ويستجمد الافلاق
 (Wallachia) استطاع محمد الثانى ان يلتفت للاناضول ، وبذلك اصبح
 ساحل البحر الاسود عدا طرابزون البيزنطية خاضعا تماما للسيطرة العثمانية . (٢)

تحالف (Vlad) فى سنة ١٤٦١م (٨٦٦هـ) مع المجريين وهاجم العثمانيين
 فى الداخوب ، ورد الفاتح فى السنة التالية بغزو الافلاق (Wallachia)
 وعزل (Vlad Drakul) وعين بدلا منه (Radul) وهكذا قلل
 السلطان العثمانى من التهديد المجرى . (٣)

-
- 1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P. 129 .
 - 2- Stanford Show : History of Ottoman Empire P. 64 .
 - 3- Halil Inalcik : IBID P.27 .

وفى هذا الوقت قام السلطان محمد الفاتح بفتح اجزاء من بلاد اليونان واقليم المورة (١) ولم يكن محمد الثانى مستعدا فى ذلك الوقت لإخضاع البوسنة اخضاعا تاما ولكنه كان يشجع المغيرين على شن هجمات خاطفة فى شمال نهر الدانوب داخل هنغاريا وجنوب النمسا وكذلك على طول سواحل دالماشيا (Istria) .

وبحلول عام ١٤٦١م (٨٦٦ هـ) كانت الرغبة الأساسية لدى محمد الثانى هى تسوية مشاكله فى اوربا لكى يستطيع التركيز لوضع الاسس للسيطرة على الاناضول اذ انه بعد ان تم له اخضاع الصرب واليونان كانت البانيا فى الغرب فقط هى التى تسبب له متاعب حقيقية . (٢)

كانت كرممان قد بسطت نفوذها مرة اخرى فى وسط الاناضول كما اخذت فى اشارة القلاقل وتدير الثورات ضد العثمانيين وكان نجاح العثمانيين فى البلقان ايضا يثير رعب البندقية ومثلها جنوه مما جعلهما مشجعان لتلك الطموحات فى الشرق حتى تقلل من التهديد العثمانى لها ، لذلك شعر محمد الثانى بالحاجة الملحة لاستكمال احكام سيطرته على طول ساحل البحر الاسود لكى يحيط اى تقدم يمكن ان يحرزه اعدائه بفعل التحريض الاوروبى .

وكى بداية فى ابريل ١٤٦١م (رجب ٨٦٦ هـ) استخدم السلطان محمد الفاتح اسطوله الذى تم بناؤه حديثا ليربط ما بين الهجوم البرى والهجوم البحرى ، والى اكتسحت بالترتيب على اقليم اماسرا (Amasra) ، ثم قندار (Candar) ثم اراضى التركمان نفسها واخيرا طرابزون البيزنطية . (٣)

كان نشاط البندقية مصدرا آخر للمتعاب الموجهة ضد العثمانيين ، حيث

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

2- Stanford Shaw : History of Ottoman Empire P.63 .

3-

IBID

P.64 .

انه خوفا من التوسع العثماني على طول سواحل الادرياتيک استطاعت البندقية
 ترغم سكاندريچ (Scanderbeg) على انتهاء تحالفه مع السلطان
 ويستأنف الهجمات على الحاميات العثمانية في الشمال (فبراير ١٤٦٢) حمادى
 الثانى ٨٦٧ هـ) وتعاون ملك البوسنة الجديد ستيفان توماسفك (Tomasevic
 Stephen) (١٤٦١ - ١٤٦٣ م) (٨٦٦ - ٨٦٨ هـ) مع سكاندريچ على التخلص
 من الخضوع لسيادة العثمانيين وقبول الحماية الهنغارية واحتلالها فــــى
 ١٤٦٢ / ٨٦٧ هـ .

ورد محمد الثانى على ذلك بغزو البانيا وارغام سكاندريچ على توقيع
 معاهدة سلام جديدة ، وان يوقف هجماته فى ١٢٧ أبريل ١٤٦٣ ، وترك ذلك للسلطان
 حرية التعامل مع البوسنة التى قهرها خلال الفترة الباقية من الصيف بمساعدة
 كبيرة من الاهالى الذين كانوا قد خضعوا للاضطهاد اثناء الوجود الهنغارى . (١)

استغل البابا بيوس الثانى (Pius II) الموقف وضم البندقية وهنغاريا ضد العثما
 فى ١٢ سبتمبر ١٤٦٣ / ٩ محرم ٨٦٨ هـ ، فاذا قدر لهذه الحملة الصليبية الجديدة
 النجاح فان البندقية سوف تحصل على المورة والاراضى اليونانية على طــــول
 الادرياتيک ويمتد سكاندريچ حدود دولة البانيا بالتوسع داخل مقدونيا وتتولى
 هنغاريا حكم بلغاريا والصرب والبوسنة والافلاق (Wallachia) ، وتتعود
 القسطنطينية وما حولها الى الافراد الباقين على قيد الحياة من البيــــت
 الامبراطورى البيزنطى .

وبدأت الاعمال العدائية فعلا فى سبتمبر ١٤٦٣ (محرم ٨٦٨ هـ) عندما
 استولت البندقية على عدد من جزر بحر ايجة واجزاء كبيرة من المورة (٢) ، كما
 اخذ البنادقة يبحثن عن حلفاء لهم فى الشرق ، وفى خريف ١٤٦٣ م / ٨٦٨ هـ فتحوا

1- Stanford Shaw : History of Ottoman Empire P.64 .

2- IBID

P.65 .

باب المفاوضات مع أوزون حسن ، غريم العثمانيين في الأناضول الشرقية . (١)

وبعد ذلك أخذ البابا بيوس الثاني (Pius II) يسعى في تحريض
الامم المسيحية على محاربة المسلمين حربا دينية (٢) وأبحر اسطول البندقية
متجها الى مدخل الدردنيل واستولى على ليمونس (Lemos) وتينيدوس (Tenedos)
١٤٦٤م (٨٦٩هـ) ، وبذلك حرم العثمانيون من ارسال الموعن للمورة ، وهدد بالهجوم
على استانبول ، وردا على ذلك بدأت الترسانات الضخمة في استانبول ببناء اسطول
كامل جديد بينما كان العمل يجرى في انشاء قلعتين قويتين تواجه كل منهما الاخرى
على الدردنيل لصد العدو (١٤٦٣ - ١٤٦٤م) (٨٦٨ - ٨٦٩ هـ) ثم قاد الصدر الاعظم
حملة هائلة استعادت المورة وحطمت جيش البندقية (ربيع ١٤٦٤م) (٨٦٩هـ) ، وعندما
علم السلطان بأمر الانتصارات على البندقية قاد جيشا آخر للبوسنة وطرد
الهنغاريين وبدأ في شن الغارات على هنغاريا . (٣)

وفي صيف ١٤٦٥م (٨٧٠هـ) قام السلطان بالحملة الثالثة ضد الصرب وكان الغرض
منها هذه المرة الاستيلاء على بلغراد من الهنغاريين ، إلا ان هذا المجهود لم
يكتب له النجاح ايضا . (٤)

تحرك اسطول البندقية نحو شرق بحر ايجه سنة ١٤٦٩م (٨٧٤هـ) واستولوا على
جزر ليمونس (Lemons) وامبروز (Imbros) وهاجموا بعنف السواحل
الجنوبية للأناضول بالإضافة الى انزال الموعن لكارمان ، وردا على ذلك قام محمد
الثاني في الصيف التالي بقوة بحرية استولت على جزيرة نيقروبونت (Egriboz
Negropont) وهي القاعدة الرئيسية لاسطول البندقية في بحر ايجه ،
وبينما كان البابا والبندقية يحاولان اعداد حملة صليبية جديدة ، أخذ محمد
الثاني يوطد الحكم العثماني في جنوب ووسط الأناضول بتوجيه عدد من الحملات
اليها . (٥)

1- Halil Inalıcık : The Ottoman Empier P. 28. (١)

(٢) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧١ .

3- Stanford Shaw : History of Ottoman Empire P. 65 . (٣)

4- IBID P.63 . (٤)

5- IBID P.65 . (٥)

كان اصرار هنغاريا على البقاء فى بلغراد ، وبناء العثمانيين لقلع جديدة على طول نهر الدانوب اثناء دعمهم للغارات التى يشنها الاكنش (Akinci) على الاراضى الهنغارية نذيراً باقتراب صراع متجدد فى اوروبا فقد استطاع ماثياس كورفينوس (Mathias Corvinus) فى هنغاريا ان يحمل ستيفان الاكبر فى البغدان (Moldavia) على أن يتخلص من السيادة العثمانية ، وأن يبني قوات عسكرية قوية تنافس الحكم العثمانى فى الافلاق (Wallachia) وأدت الطموحات الهنغارية فى مولداڤيا (البغدان) للحرب مع ستيفان الذى انتصر بسهولة واستولى على قلاع كيليا (kilia) وابرايل (Ibrail) وظهر كقائد رئيسى فى المنطقة قادر على ان يركز جهوده ضد العثمانيين دون ان يقلق على مؤخرة جيشه ، ثم قام ستيفان بغزو الافلاق (Wallachia) سنة ١٤٧١م (٨٧٦هـ) . (١)

وجاء تهديد آخر للحكم العثمانى من الاراضى المسكوفية ، التى كان اميرها ايفان الثالث (Ivan ///) قد تزوج صوفيا باليولوجاس (Paleologus) ونتيجة لهذا الزواج فقد اعتبر ايفان نفسه وكذلك الورثة الشرعيين للامبراطورية الرومانية الشرقية وحاول ان يجعل موسكو المركز الجديد للكنيسة الارثوذكسية (٢) .

اما التهديد الثالث للسلطة العثمانية فقد جاء من لوانيا (Lithuania) وبولندا (Póland) التى كان يحكمها (Casimir /V) ٨٥١ - ٨٩٨ هـ / ١٤٤٧ - ١٤٩٢م) ، وكانت املاكه تمتد حتى اوكرانيا (Ukrania) وتحد البغدان (Moladavia) الى الشمال عبر نهر الدنستر (Dniester) الى البحر الاسود شرقا ، لقد تحالفوا مع القبائل الذهبية التى كانت تحكم المناطق الشمالية ، وبينما كان منجلى جيراى (Mengili Firay)

1- Stanford Show : History of Ottoman Empire P.67.

2- " IBID P.67.

ملك تتار القرم سعيدا. بقبول المساعدة على سادته العثمانيين ضد هذه التهديدات فانه لم يكن سعيدا. بالأعمال التي كان يقوم بها محمد الثانى لنشر النفوذ العثمانى على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ، ومن ثم فقد بدأ يتعاون مع موسكو (١) ، على الرغم من تشابك المصالح فان ستيفان المولدافى ، وكذلك البولنديين واللوشانيين والمسكوفيين والقبائل الذهبية وحتى تتار القرم اتفقوا على القيام بعمل مشترك لمنع السيطرة العثمانية على البحر الأسود ، وردا على ذلك ذهب هاويم سليمان باشا من البانيا عن طريق الصرب الافلاق (Wallachia) وفى شتاء ١٤٧٥م (٨٨٠هـ) لينضم الى السلطان فى الهجوم على البغدان (٢) الا انه بسبب جهل العثمانيين بطبيعة تلك البلاد لم يتمكنوا من النصر على البغدانيين ، بل عادوا دون تحقيق أهدافهم ، ونال ستيفان بذلك شهرة ولقبه البابا بحامى حصى النصرانية ، وكان السلطان محمد الفاتح قد افتتح قبل ذلك من البغدانيين كافا (Cafa) وميناء اقدكرمان (٣) ، وحاول العثمانيون فيما بعد منع الايطاليين من دخول البحر الاسود .

صادف محمد الثانى نجاحا اكبر فى القرم اذ استغل فى بداية الأمر المنازعات الداخلية بين اسرة الهانتا (Hanate) لعزل (٤) Mengili Giray) وتولية ابنه (Erminak Giray) مكانه فأكرمه السلطان وعامله بما يليق بمكانته ، ثم نصبه السلطان خانا على بلاد القرم بالنيابة عنه وانعم عليه بالخلع السنية وبالتشريفات المخصوصة ثم تعاون (Erminak) مع حملة بحرية عثمانية فى الاستيلاء على ما تبقى من مستعمرات جنوه على طول السواحل الشمالية للبحر الأسود واصبحت بعد ذلك القرم (٥) ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية سنة

1- Stanford Show: A History of Ottoman Empire P.68 .

2- IBID P.68 .

(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ج ١ ، ص ٥١٦ .

4- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.68.

(٥) القرم هى شبه جزيرة فى جنوب المملكة الروسية باوروبا ، يغمرها شرقا

خليج بوتريد ومن الجهات الاخرى البحر الاسود .

١٤٧٥م (٨٨٠هـ) وانتقلت جميع المنافع التجارية التي كانت في تلك الجهات الى يد العثمانيين . (١)

اعاد محمد الثانى منجىلى (Mengili) نتيجة لدخول كثير من كبار رجال القرم فى خدمة العثمانيين ، وكان من رأيهم أن منجىلى أقدر على قيادة التتار ضد اعدائهم فى الشمال ، وقد تقبل منجىلى بدوره السيادة العثمانية ووافق على ان يوفر المساعدات المالية والعسكرية اللازمة ، وهكذا تأكدت السيطرة العثمانية على تتار القرم واستمرت هذه السيطرة ثلاث قرون وهى توفر للسلاطين ليس فقط قاعدة اخرى للسيطرة على البحر الاسود ولكن ايضا الامداد المنتظم للمحاربين الاكفاء . (٢)

اعطت العمليات الناجمة فى شمال البحر الاسود للسلطان قدرا اكبر من المزايا الاستراتيجية والمتمثلة فى القدرة على مهاجمة ستيفان المولدافى فى شمال وجنوب البحر الاسود ، بينما كان تتار القرم يعملون على جذب اهتمام القبائل الذهبية ، واستطاع هجوم مشترك احتلال شواطئ (Bessarabia) والاستيلاء على اكريمان (Akkerman) محققا بذلك السيطرة على المدخل الجنوبى لنهر الدانوب ، وحاول استيفان تجنب معركة مفتوحة مع العثمانيين باتتباع سياسة حرق الارض ولكنه نظرا لمساعدة الافلاق (Wallachia) قد جعلت من هذه السياسة لا قيمة لها ، فأضطروا لمواجهة السلطان اخيرا فى (Valea Alba) فى ١٧ يوليو ١٤٧٦م (٢٣ ربيع الاول ٨٨١هـ) ، وسيطر محمد الثانى واقتحم البغدان (Moldavia) ولكن ستيفان استطاع الهرب ومواصلة الحكم بعد رجوع العثمانيين الى وطنه على انه فقد مكانته السابقة وكذلك قدرته على تهديد العثمانيين . (٣)

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٥١٦ .

2- Stanford Shaw: A History of Ottoman Empire P.68.

3- IBID P.68.

انتهت الحرب في ولايات الدولة ، وفي شمال البحر الأسود في وقت مناسب تماما ، ليتمكن فيه محمد الثاني من مواجهة التهديدات القادمة من الغرب اذ قام (Matheas Corrinus) بالهجوم على القلعة العثمانية في سمندريا (Semendria) عام ١٤٧٦م (٨٨١هـ) مهدداً بذلك كل الخط الدفاعي في نهر الدانوب ولكن محمد الثاني وصل من البغدان واطمأن بالهنغاريين بهجوم مباشر (١) ، ثم اجتاز اقليم دالماشيا وكرداسيا (٢) ، ثم ركز على البندقية على امل ان يجبرها لقبول صلح باستكمال غزو البانيا وبذلك يكسب موضع قوى لقدمه في الادرياتيک ، وفي ١٤٧٧م حاصرت القوات العثمانية في الادرياتيک ميناء (Lepanto) عاصمة (Scander Beg) وكرايا (Carya) القديمة وكلاهما كانت تحت سيطرة قواد من البانيا بمساعدة من البندقية .

ورد اسطول البندقية بغارات على شواطئ الاناضول الغربية ولكن ذلك توقف عندما ارسل محمد الثاني المغيرين من اهل البوسنة عدة مرات الى شمال ايطاليا محدثين دمارا هائلا في الوديان المواجهة للبندقية ١٤٧٧ - ١٤٧٨م (٨٨٢-٨٨٣هـ) وفي نهاية ١٤٧٨م (٨٨٣هـ) كانت البانيا كلها تحت الحكم العثماني المباشر (٣) ، وتم تنظيمها كولاية عثمانية دائمة ، واصبحت افلونيا (Avlonia) ميناء دوليا تتركز فيه معظم التجارة من غرب اوروبا والدولة العثمانية .

انتقل العثمانيون ايضا الى الجبل الاسود (Montengro) التي كانت قد شيدت في بداية القرن الخامس عشر اثر تمرد على الحكم الصربي في اعالي جبال نهر زيتا (Zeta) التي تحميها مناطق ساحلية في ساحل نهر دالماشيا الخاضعة للبندقية ، واستولى محمد الثاني على الجزء الجنوبي من البلاد .

1- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.68.

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ١٦٦ .

3- Stanford Show : IBID P.P.68 - 69.

من الواضح ان البندقية كانت في حالة تمزق بسبب فتوحات محمد الثاني وقد تم التوصل الى تسوية تعيد المزايا التجارية للبندقية في الدولة العثمانية تاركة لها قوة كافية في الادرياتيک للمحافظة على مواصلاتها البحرية وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة صلح في استانبول في ٢٥ يونيو ١٤٧٩م (٣ ربيع الثاني ٨٨٤هـ) (١)، تعهدت البندقية بدفع قدر من الذهب وتنزلوا عن مدينة كرويا عاصمة اسكندر بك للسلطان (٢)

وكانت هذه اول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون اوروبا اذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك اهم دول اوروبا لاسيما في التجارة البحرية، وما كان يعادلها في ذلك الا جمهورية جنوا (٣).

هكذا كان اهتمام السلطان محمد الفاتح للسيطرة على البحر الاسود حتى يوءمن ظهره ليستطيع ان يتقدم الى وسط اوروبا ثم يجتاز كل ذلك ليحقق هدف دولته فتح اوروبا والوصول الى الاندلس، وتتوالى المحاولات في عهد خلفائه . ففي عهد السلطان بايزيد نجد هناك اصلاحات داخلية كبيرة، لكن هذا لا يمنع السلطان مواصلة الاستراتيجية العثمانية الوصول للاندلس التي كانت تان من المعاملة المسيحية في هذا الوقت، كما اوضحنا من قبل فقام السلطان بالضغط على الجبهة الشرقية في اوروبا حتى يخفف عن المسلمين في الاندلس، وكانت الخطوة الاولى في السياسة الحربية الجديدة لبازيزيد ارسال المغيرين من الصرب والبوسنة على طول سواحل دالماشيا حتى راجوسا (Ragusa) ثم عبر الدانوب داخل تمسفار (Temesvar) والاراضي الهنغارية الاخرى، وقد حققت تلك الغارات الكثير من اهدافها وادت بالتحديد الى فتح هوزيجوفينا (Herzegovina) عام ١٤٨٣م (٨٨٨هـ)، ولكن ظلت المناطق الساحلية في (Craina) في يد البندقية (٤).

1- Stanford Show : . OP.CIT P.69.

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٥١٧ .

(٣) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٥ .

4- Stanford Show : . IBID P.72 .

ثم اختار بايزيد الافلاق (Wallachia) لتكون اول ميــــدان
 لعملياته الحربية حيث كان ستيفان المولدافي اخذ يناوئ الدولة ومنها
 انشاء طرق مواصلات مباشرة حول البحر الاسود تربط بين اراضي الفتوحات
 العثمانية الجديدة. في القرم ، وكان بايزيد يشعر ايضا ان فتح البغــــدان
 (Moldavia) من جديد يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب
 مع هنغاريا وتمكنه من السيطرة على مداخل الدانوب ليوقف القراصنة
 المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الاسود ، ثم يشنون الغارات على الملاحة
 والسواحل العثمانية .

كان ستيفان هو الذي اوجد السدافع لنشوب الحرب ، اذ انه بمجرد علمه
 بتمرد جيم قام بغزو الافلاق (Wallachia) ثم عبر الدانوب ، وقاد
 عددا من الغارات داخل بلغاريا ، مهددا لمكانة السلطان ونفوذه على اراضيه
 في اوربا ، ورد بايزيد على ذلك بارسال المغيرين الى البغــــدان
 (Moldavia) وقام بهجوم برى وبحرى في وقت واحد . (١)

لم يخش السلطان بايزيد اى تدخل من جانب الهنغاريين حيث كان
 (Mathas Corvinus) لايزال مشغولا في وسط اوربا ، ودخل
 بايزيد البغدان بقوات من الاراضي المفتوحة في الافلاق (Wallachia)
 واستولى على (Killia) على الدانوب في ١٤ يوليو ١٤٨٤م (١٠ رجب ٨٨٩هـ)
 بينما استولت قوات تثار القرم على اكريمان (Akkerman) في
 (Bessarabia) على نهر (Dniester) محققا بذلك
 السيطرة على شواطئ غرب البحر الاسود ومداخل نهري الدانوب والدينيستر ،
 بينما استغل قائد تثار القرم (Mevgili Giray) حملة مشتركة
 مع العثمانيين في مولدافيا الإستيلاء على الساحل الشمالى الغربى للبحر
 الاسود من البولنديين واللوشنيين وفقدت مولدافيا وهنغاريا مركزهما
 التجارى مع وسط وشمال اوربا عن طريق البحر الاسود وبالتالي وقعت هذه

التجارة وكذلك رخاء الأراضى الممتدة عليها تحت السيطرة العثمانية ، واسرع ستيفان بالاعتراف بسيادة بايزيد ، وعاد السلطان بدون مزيد من الفتوحات ، وسرعان ما نقض ستيفان هذه الإتفاقات وحاول استعادة القلاع فى ١٤٨٤م (٨٨٩ هـ) ومرة اخرى فى ١٤٨٦م (٨٩١ هـ) ولكن دون جدوى ، وتم اعتراف هنغاريا وبولندا اخيرا بحكم بايزيد على المنطقة بمقتضى معاهدات جديدة ، وجعل النجساج فى مولدافيا العثمانيين على اتصال مباشر مع بولندا. ولكن اقتحام تتار القرم للأراضى البولندية ، اجبر البولنديين على التركيز على التتار والامتناع عن اى صراع مباشر مع العثمانيين . (١)

نظرا للظروف الداخلية فى الدولة العثمانية ، رأى السلطان بايزيد ان يوقع معاهدة مع البندقية فى ٦ يناير ١٤٨٢م (٢٤ ذو القعدة ٨٨٧ هـ) توقف بمقتضى ذلك دفع الجزية للسلطان وزادت امتيازات البندقية داخل نطاق الدولة العثمانية ورغم ذلك فإن المنافسات فى الإديراتيك وبحر ايجيه والمورة استمرت فى زعزعة العلاقات .

فالبندقية كانت بتشجيع من البابا تتوسع فى بسط سلطانها فى شمال ايطاليا مقابل التزامها بتقديم مساعدات ضد الدولة العثمانية ، وعلى الجانب العثمانى كان التوقف النسبى ضد المسيحيين عدة سنوات قد خلّص بعض التوتر ، ولذلك حاول بايزيد استفزاز البندقية للحرب فى ١٤٩١م (٨٩٧ هـ) قام بطرد الوكلاء التجاريين التابعين للبندقية وفى ١٤٩٦م (٩٠٢ هـ) أغلق الموانئ العثمانية امام تجار الحبوب البنادقة ، لا لعجز فى انتاج الحبوب ولكن فى الواقع من اجل زيادة الضغوط العثمانية ، وفى نفس العام احتلت القوات العثمانية القادمة من البانيا مدينة مونترجو وهى محمية تابعة للبندقية ، كما استولى الاسطول العثمانى سنة ١٤٩٧م (٩٠٣ هـ) على سفينة تابعة للبندقية وكانت تنقل الحجاج المسيحيين الى القدس . (٢)

وردت البندقية على ذلك بابقاء اسطولها فى بحر ايجة ، وشجع ذلك السلطان بايزيد فشىد . اسطول جديد باشراف وقيادة . كمال ريس ، الذى تزعم القراصنة فى غرب المتوسط ، وقام بشن غارات على سواحل فرنسا واسبانيا وعند اتمام السفن وضعت السفن الحربية الجديدة . فى الخدمة وانضموا الى الاسطول من البحارة العثمانيين واليونانيين على طول السواحل تحت قيادته .

استطاع اسطول عثماني كبير الاستيلاء على ليبانتو (Lepanto) سنة ١٤٩٩م (٩٠٥هـ) ووجه ضربة قاصمة للقوة البحرية البندقية فى الادرياتيک وبحر ايجة ، ثم استولى اسطول بايزيد على الموانئ الكبرى التابعة للبندقية فى شبه جزيرة المورة ، كما دمرت الغارات الشديدة . الموجهة من البوسنة كرواتيا (Croatia) ودالماشيا (Dolmita) وسقطت دورازو (Durazzo) فى ٩٠٧هـ / اغسطس ١٥٠١م .

كانت البندقية مستعدة للصلح بسبب تكاليف الحرب الرهيبه ، اضافة الى خسارتها لاسواقها فى شرق المتوسط ، ولطرقها التجارية المؤدية الى البحر الاسود ، وفى نفس الوقت ادت المشاكل الجديدة فى الشرق ، وعدم التأكد من كيفية الحاق الهزيمة النهائية بالبندقية الى موافقة بايزيد على الصلح الذى تم توقيعه فى استانبول ١٤ ديسمبر ١٥٠٢هـ (١٢ جمادى الثانى ٩٠٨هـ) بتوسط بولند (١) .

كانت الحرب انتصارا عثمانيا كبيرا رغم احتفاظ البندقية بعدد من الموانئ فى المورة والبانيا ، واستعادة امتيازاتها التجارية كقوة بحرية كبرى فى البحر الابيض المتوسط ، فالقواعد التى غنمتها من البندقية هيات لها مواقع استراتيجية يمكن استخدامها فى احراز المزيد من التقدم ليس فقط فى شرق البحر المتوسط ولكن ايضا فى غرب (٢) حتى تنقذ الاندلس

وكانت غرناطة فى هذا الوقت قد سقطت ، كما أخذ المسلمون فى الاندلس يعانون شتى الوان التعذيب والاهانة ، وأراد السلطان انقاذ الموقف هناك عن طريق البحر ، فأتخذ لذلك كل الوسائل والطرق . ولكن نظراً لظروف الدولة التى سنتحدث عنها فى الفقرات التالية ، اعاقبت السلطان من تقديم المساعدة الفعلية ولكن لفترة مؤقتة اذ نجد أن الدولة العثمانية تحاول وباستمرار الاقتراب من الأندلس ، فالملاحظ على تقدم الدولة فى الميــــــدان الاوربى ، يجد أن جهاد العثمانيين فى القارة الاوربية كان متشعبا وفى كل مكان منها ، فهو شبه اكتساح عام للقارة ، وكان جهاد الدولة فى كل ناحية فى آسيا وفى اوروبا شرقها ووسطها وجنوبها ، كل ذلك من اجل تحقيق استراتيجية واحدة ، وهو جعل البحر المتوسط بحيرة اسلامية بما فيها ما يسمى بتنفيذ خطة انقاذ الاندلس فى فترة حروب الاسترداد .

...

ان حدود الدولة العثمانية فى مطلع القرن السادس عشر كان يحدها من الشمال حصن بلغراد العظيم وهو مفتاح التقدم الى وسط أوروبا ، وفى اتجاه الشرق واصل العثمانيون فتوحاتهم التى شملت الأفلاق والبغدان ، ووصلت الى اقصى مداها عندما فتحت شبه جزيرة القرم فى شمال البحر الاسود وفى اتجاه الشمال الغربى شملت الفتوحات العثمانية صربيا والبوسنة حتى وصلت الى الساحل الدلماشى وفى اتجاه الجنوب شارفت الممتلكات العثمانية جزيرة رودس الحصينة فى البحر الأبيض المتوسط وهو مفتاح التقدم الى الغرب ، اما حدودها الشرقية فقد اجتوت فى نطاقها ولايتى قره مان وطرابزنده ، كانت تلك الحدود التى وصلت اليها الدولة ، وأرادت ان تكتسح بعد ذلك وسط القارة الاوربية ، الا أنه قامت عدة عوائق امام العثمانيين أعاقت من تقدمهم وبالتالي الوصول الى الاندلس عن طريق البر ، فاضطرت الدولة بعد ذلك أن تنقل عملياتها الحربية الى الميدان البحرى .

ومن هذه العوائق القلائل فى شرق ووسط الأناضول ، اذ انه بعد انهيار امبراطورية تيموريد (Timurid) أفاقت قبائل الخراف السوداء (Black Sheep) دولة كبيرة غرب ايران وشمال العراق ، بينما اقامت قبائل الخراف البيضاء (White Sheep) بقيادة اوزون حسن (Uzun Hasan) وبمساعدة بعض المماليك ملكهم الخاص فى غرب ايران وشرق الأناضول وكانت كارامان مرة أخرى تبسط نفوذها فى وسط الأناضول وهى تثير القلائل وتدبر الثورات ضد العثمانيين ، كما أن النجاح الذى حققه العثمانيون فى البلقان اشار رعب البندقية وجنوة فشعنا بذلك الطموحات فى الشرق حتى يقللوا من التهديد العثمانى . (١)

وقاد محمد الثانى حملة كبرى متوجها الى الشرق ، واعلن فى البداية أن هدفها الأساسى هو قبائل الخراف البيضاء او المماليك الذين كانوا يحتلون

اراضي التركمان ولجاديير (Dulgadir) الواقعة عند منابع الفرات ولكن عندما رفض بير احمد (Pir Ahmed) دعوة السلطان للانضمام الى الحملة ، قام محمد الثاني بغزو الجزء الغربي من كارامان المتمركز في كونيا (Konya) ، وبدأ في اول الامر ، وكان كارامان قد دمرت نهائيا ولكن بير احمد فر الى جبال طوروس ، وقام بتنظيم القبائل المحلية لمقاومة السلطان ، واستعاد معظم الاقاليم بمجرد ان عاد السلطان بمعالجة مشاكله في اوروبا . (١)

بعد ذلك تبني أوزون حسن سياسة اكثر عدوانية ، واصبحت مشكلة كارامان تهديدا خطيرا للسلطة العثمانية ، وأصبح أوزون حسن حاكم ايران والأناضول الشرقية ، عدوا ألد مثل تيمور فتحالف مع أهل البندقية ، وحيث انه كان قد اقام علاقات مع فرسان رودس وملك قبرص ، وبك الانبيا ، كما اقام علاقات مباشرة مع البندقية ، وذلك بأن وعدهم بالزحف على ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر جبال طوروس التي كانت تحت سيطرة القبائل التركية ، كما انزلت سفن البندقية قوة على هذا الساحل مزودة بأسلحة نارية التي كان يرغبها أوزون حسن ، الا انهم اخفقوا في العثور على رجال أوزون حسن . (٢)

ثم قدم أوزون حسن مساعدة عسكرية للصفويين الذين ابتكروا عمامة حمراء للرأس تطوى ١٢ مرة تذكارا للأكمة الشيعة الاثنا عشر يتخذها اتباعهم كعلامة مميزة وقد عرفوا فيما بعد باسم " الروءوس الحمراء " وقد حاول خلفاء أوزون حسن كبح جماح الصفويين مما أدى الى انهيار دولتهم ايضا ، ولكن اسماعيل احد ابناء اخر الصفويين استطاع الهرب الى ايران ومعهم سبعة من قبائل الروءوس الحمراء مكنته من القضاء على صفار الأيرانيين الذين كانوا قد خلفوا قبائل الخراف البيضاء وآل تيمور ، واصبحت لهم السيطرة على البلاد كلها لمدة عقد من الزمان .

1- Stanford Show : OP.CIT : P.65.

2- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.28.

ولما كان اسماعيل مصراً على استعادة نفوذ الصفيين في الأراضي العثمانية في شرق الأناضول ، فقد ارسل المئات من الدعاة الذين نجحوا في نشر رسالة بين البدو الرحل وقد فسر العثمانيون تلك الرسالة الدينية المخالفة للتعاليم الإسلامية بمعناها الحقيقي ، وهو أنها تهديد سياسى كما كان تصرفهم متفقاً وهذا التفسير ، اذ انتفضوا لمواجهة الصفيين ليس فقط بسبب الخطر العسكرى ولكن ايضا لأن رسالتهم الدينية كانت تشكل تهديداً موحها بصفة اساسية للتعاليم الإسلامية .

واستمر دعاة الصفيين يمارسون نشاطاتهم بين تركمان الأناضول ، وخاصة في الجنوب الغربى حيث كان اتباعهم يتميزون بالعنف ، واستطاع الشاه كولو (Kulu) وهو من الصفيين ان يستغل الغضب السائد بين التركمانيين ليعتزم تمرداً هائلاً في الأناضول (Antalia) في ربيع ١٥١١م (٩١٧هـ) كما حصل على تأييد الآلاف من الجنود العثمانيين الذين ارسلوا لخماد التمرد وارسل كولو دعاته المقربين ، وذلك بعد ان اعتبر نفسه خليفة لاسماعيل في جميع انحاء الأناضول ، وكان المتطرفون منهم يصفون زعيمهم بأنـه " المهدي " الذى ارسله الله لانقاذ البشرية .

وبعد سقوط معظم جنوب شرق الأناضول في ايدي المتمردين ارسل بايزيد جيشاً بقيادة كبير الوزراء هاديم على باشا ، واستطاع العثمانيون ان يوقفوا المتمردين نهائياً بالقرب من قيصريّة وذلك في جمادى ثانى ٩١٧هـ / اغسطس ١٥١١م وقتل الشاه كولو . (١)

وكان ظهور الدولة الصفوية كقوة خطيرة مناوئة للعثمانيين ، فالدولة الوحيدة التى برزت في الشرق في مطلع القرن السادس عشر كقوة يعمل حسابها كانت دولة الصفيين في ايران بعد ان أخضعت كافة الاقاليم التى كانت تكون من قبل الامبراطورية التيمورية ، وظهرت على المسرح كقوة مضادة للدولـة

العثمانية ، الا ان فرق المشاة للجيش الصفوى لم تكن قد تطورت ولم تكن قد تدربت على استخدام اى نوع من انواع الاسلحة الحديثة شأنها فى ذلك شأن القوات المملوكية (١) ومهما يكن من امر فان ظهور الصفويين فى المشرق كان عائقا لتقدم العثمانيين فى الغرب ، لان مجهود الدولة كان موزعا فى الشرق والغرب وبالتالي يقلل من قوة الهجوم تجاه التقدم فى وسط اوربا .

وكان فشل الصليبيين فى المشرق ، واحتلال العثمانيين للقسطنطينية وتهديدهم لاوربا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح ، وظهور سيادة العثمانيين البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بالاضافة الى النجاح الذى احرزته القوات المسيحية على المسلمين فى الاندلس دافعا بالاسبان والبرتغاليين على متابعة الغزو واكتساح الاسلام والمسلمين فى القارة الافريقية باذلين جهدا كبيرا لارضاء البابوية (٢) فأحتلت اسبانيا مراكزا عديدة فى الشمال الافريقى لتكون منطلق لها تهاجم بها العثمانيون ، اما البرتغاليون فأخذوا على عاتقهم احتلال نقاط ارتكاز لهم فى سواحل غرب افريقيا ليصلوا منها الى الاماكن المقدسة الاسلامية والوصول الى القدس تنفيذا للخطة الصليبية كما كانت البابوية تنتظر من ملوك اسبانيا والبرتغال اعلان حرب شاملة ضد المسلمين بافريقيا لا تتوقف الا بالقضاء على الاسلام بها ، ونشر المسيحية وكانت السيطرة على تقليديا له دور حيوى فى مجالات الصراع السابقة بين الاسلام والمسيحية مع اختلاف واضح فى هذه الفترة ، وهو ان تلك السيطرة كثيرا ما حاولت الجبهة المسيحية تنفيذها عن طريق الشمال ابتداء من آسيا الصغرى ونهاية بسواحل المغرب العربى فى طنجة ، بحيث مثلت سواحل البحر المتوسط الذى يطل عليه العالم الإسلامى ثلاث جهات ، وفى آسيا الصغرى كان العثمانيون يرمون بأنظارهم نحو الزحف على اوربا ، اما المغرب العربى فقد توزعت جهوده ما بين الحفاظ على الاندلس وبين رد هجمات الاسبان والبرتغاليين عليه ، واخيرا جبهة المماليك فى مصر والشام ، اما فى هذه

(١) محمدعبد المنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٣ .

(٢) محمد العمروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ص ٢٦١ .

(٣) محمد بو شارب : مقالة بعنوان وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة الملجة ،

الفترة فقد حاق الخطر بجنوب العالم الاسلامى ، لهذا كان من الطبيعى ان يكون هناك نوع من التبديل والتغيير فى حالة وقوع السيطرة وما جد فى هذه الفترة عقيب (١) السيطرة هو ظهور خطة اقتصادية جديدة تبعا للهدف الذى من اجله خرج البرتغاليون.

ولم يكن تهديد البرتغاليين للاماكن المقدسة الاسلامية محدودا. بوصولهم الى البحر الاحمر ، بل ان هذا التهديد كان ضمن مشروعات برتغالية ضد العالم الاسلامى منذ مطلع العصر الحديث ذلك ان الافكار فى تلك الفترة كانت متجهة نحو البحث عن امبراطورية القديس يوحنا الخرافية ، والتعاون معه لجعل مصوع قاعدة لشن الحملات على مكة ، وبصرف النظر عما فى هذا المشروع من استحالة الا أنه يعرفنا على نقطتين هامتين وهما مدى الحقد الصليبي الذى كان يبيته البرتغاليون للمسلمين ، اضافة الى نقطة هامة اخرى وهى ان الخروج نحو بحار العرب الجنوبية قد اتسم بصفة صليبية اكثر منه صفة تجارية فى بدء انطلاق البرتغاليين (٢).

واقتنع الامير هنرى بهذه الفكرة فى الاتصال بملك الحبشة المسمى الذى تكاثرت الاخبار عن تحمسه للمسيحية (٣)، واخذ فى وضع الخطة الاستراتيجية الكبرى التى تطوق جناح الاسلام (٤)، فاذا سائر السواحل الافريقية ، واتصل بهذا الملك المسمى المسيحى ، فانه يسهل التعاقد والتحالف معه ضد المسلمين ، وبذلك يمكن استرجاع بيت المقدس عن طريق الشرق والجنوب بعد ان فشلت المحاولات عن طريق الغرب والشمال ، وبعد ان فقد الصليبيون الامل التى كانوا يعقدونها على المغول الذين مهرم الاسلام فى بؤسته واصبحوا مسلمين (٥).

ونزل البرتغاليون الاراضى المغربية المطلة على سواحل الاطلسى ، وكان ذلك من العوامل التى مهدت الطريق فى سبيل استكشاف المجهول من سواحل غرب

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) غسان على رمال : نفس المرجع ، ص ١٠٣-١٠٤.

(٣) محمد العمروسى المطوى . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦١.

(٤) ك.م. باننيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٥) محمد العمروسى المطوى : نفس المرجع ، ص ٢٦٢ .

افريقيا حيث تم تقسيم رحلاتهم الكشفية إلى مرحلتين ارتبطت كل مرحلة فـى نهايتها بأهداف معينة تمكن البرتغاليون من تحقيقها (١) . ومن سواحل غرب افريقيا اتجه البرتغاليون نحو الداخل، يستفسرون عن مملكة الحبشة، ولم يجدوا الإجابة على ذلك فاضطروا الى الإلتفاف حول افريقيا عن طريق البحر .

وفى عام ١٤٥٤م (٨٥٨هـ) تلقى هنرى الملاح من البابا نيقولاس الخامس تفويضا بأن له الحق فى جميع الكشوف التى يكتشفها حتى بلاد الهند وفيما يلى شذرات من ذلك المرسوم ذى الأهمية الكبرى، وهو اول مرسوم يحدد الإحتكار البرتغالى ببلاد المشرق :-

(إن سرورنا العظيم اذ نعلم ان ولدنا هنرى امير البرتغال ، اذ يتوسم خطى والده العظيم الملك يوحنا ، واذتلهمه الفيرة التى تملأ الانفس كجنـدى باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية ، القادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة ... وسيستطيع فى الوقت نفسه أن يدخل فى الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الان يد الإسلام ويدخل اسم المسيح فى نطاق علمهم " (٢) .

وفى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى اصدر البابا كاليكستوس الثالث مرسوما بابويا ثانيا يوزكـد المرسوم السابق وبذلك تمكن هنرى من الحصول على شـيء كان يعد فى القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً لا سبيل الى منازعته فيه ، فضلا عن إعلانـه لغايته السياسية والدينية ، والشـيء الوحيد الواضح فى المرسوم البابوى والذى كان له أثر قوى فى السياسة هو المزج بين الدافع الروحى الى فتح أراضى الوثنيين من أجل المسيح ، وبين الحميصة المتعصبة بالدعوة الى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف . (٣)

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٥ .

(٢) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

، سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ، ص ٤٠ .

(٣) ك.م. بانيكار : نفس المرجع ، ص ٢٨ - ٢٩ .

وكان البرتغاليون أثناء كشفهم للقارة الإفريقية ، يبحثون عن التوابل والذهب ولكنهم أيضا كانوا ملهمين بالرغبة فى البحث حتى اليوم عن المجتمعات المسيحية المجهولة (١) فالغرض والهدف الأول من رحلات الاستكشاف هو نشر الدين وتحويل الوثنيين الى المسيحية ، ولما كان الدين فى أوروبا مرادف للحياة الاجتماعية ، فكان من المفروض ان يشمل التحويل الحياة الاجتماعية أيضا حتى تشبه الحياة الأوروبية ، فى الأول كان التدين بالمسيحية ومعرفة اللغة البرتغالية مؤهل الرجل الإفريقى (٢) اما بالنسبة للشعور المغربية فكانوا ينظرون إليها بمنظار مخالف وهو القضاء على التجارة المغربية ، والقضاء على القرصنة ، ومنع غزو جديد للبرتغال ، والبحث عن اراضى جديدة . (٣)

وأراد ملك البرتغال يوحنا الثانى البحث عن القديس يوحنا فأرسل اثنين من أتباعه هما (Frey Antonia) ، (Man of the House Manterio) وعندما وصلوا الى القدس التى رغبوا فى ان تكون نقطة انطلاق ، الا انها لم يتمكنوا من اكمال الرحلة ، وعاد الى لشبونة مخبرين الملك انه من الصعب تنفيذ هذه المهمة دون معرفة اللغة العربية (٤) .

وخرج بارثليموديان لإكتشاف المرحلة ما قبل الأخيرة من عبور رأس العواصف الذى أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثانى رأس الرجاء الصالح تيمنا بالكشف الجديد (٥) ولعل التسمية أيضا تيمنا باستعادة الاماكن المقدسة المسيحية ، وعلى الرغم من كل المحاولات لم يتمكن البرتغاليون من الإتصال الفعلى مع مملكة القديس يوحنا المسيحية الا بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح (٦) .

ولما كانت الدولة العثمانية هى الدولة الإسلامية القائمة بالفتح فى اوروبا

1- Reger Locrev : Habsburg & Bourbon Europe P.30 .

2- Sir Goeorge Clark : Early modern Europe P.63 .

(٣) محمد بوشارب: مرجع سبق ذكره ، عدد (٣٠٢) ، ص ٣٨٠ .

عدد (٣٧٢) ، ص ٣٨٠ .

(٤) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ .

(٥) فاروق عثمان اباطة : عدن والسياسة البيطانية فى البحر الاحمر ، ص ٣٥ .

(٦) نوال حمزة صيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج ، ص ١٧٢ .

باسم الاسلام ،فقد رأى سلاطينها الالتفات الى الشرق والجنوب ،والاسراع بحماية
الاماكن المقدسة الاسلامية بما فيها القدس ،ومن ثم رأى العثمانيون وجوب فتح
مصر ،الذى كان فى اعتبارهم الخطوة الاساسية لتكوين الجبهة الاسلامية .(١)
تخلفت مملكة اراغون عن قشتالة بعض الشئ فى مناهضة المسلمين وذلك بسبب
انشغال ملكها بيدرو الثانى فى تنظيم شؤون مملكته ،وما ان استقر فى عرش
مملكته حتى سير حملة الى جزر البليار ،ثم وجه عنايته بعد ذلك الى بلنسية
وحاصرها فارسل اميرها ابو جميل زيان وزيره ابن الابار القضاى الى ملك تونس
الحفص أبى زكريا يحيى الحفص يستغيث به والقى بين يديه قصيدته التى
مطلعها : _____ :

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى مناجاتها درسا (٢)

وانهالت بعد ذلك قصائد الاندلسيين على الملوك الحفصيين ،يستفزون همهم
لاسترجاع الاندلس ومن بين تلك القصائد ،قصيدة لأبى زكريا يحيى الحفص :

نادتك اندلس قلب نداءها	واجعل طواغيت الصليب قدأها
صرخت بدعواتك العلية فأجيبها	من عاطفتك ما يبقى حسابها
واشدو بحباك جرد فيلك ازرها	تردد على اعقابها ارزأها

الا ان الحفصيين كانوا غير قادرين على خوض معركة الدفاع عن الاندلس وانقاذها
عسكريا ،وكان الشمال الافريقى يعاني من الانقسام بين حكامه وشعوبه (٣) لذلك
كانت هذه الميحات من الاندلسيين فى هذا الوقت تذهب سدى ،ولا تحقق اهدافها
ولم يصل للاندلسيين اى اعانة مادية من قبل حكام الشمال الافريقى
المسلمين تساعدهم لانقاذ الموقف المتدهور هناك (٤) .

اخذت بعد ذلك المدن الاسلامية تتحول تباعا الى مدن نصرانية واخذت الكثرة
المسلمة تتحول بسرعة الى اقلية تعيش فى ظل الحكم الاسبانى فى ذلة وخضوع .
(٥)

- (١) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية ، ص ١٢ .
- (٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٣) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨-٧٩ .
- (٤) محمد الهادى العامرى : نفس المرجع ، ص ٧٩ .
- (٥) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٩٣ .

تطورت الاحداث فى شبه الجزيرة الايبيرية فى مطلع العصور الحديثة ، فأصبح اهتمام الاسبان ينحصر فى توحيد اراضيهم ، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصا بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفريدناند ملك أراغون (١) ، فاندفعت الممالك الاسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة فى تمفية الوجود الاسلامى فى كل اسبانيا ، حتى يفرغوا انفسهم ويتركوا اهتمامهم على المملكة الاسلامية الوحيدة غرناطة ، التى كانت رمزا فقط للمملكة الاسلامية الذاهية . (٢)

وفرضت اسبانيا اقصى الاجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتدميرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الايبيرية .

نتيجة لذلك لجأ المسلمون - المورسكيون - الى القيام بثورات وانتفاضات فى اغلب المدن الاسبانية والتى يوجد بها اقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية واخذت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الاسبانية التى اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهة اخرى كان من الطبيعى ان يرنوا المورسكيون بانظارهم الى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لانجادهم ، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم اليهم للعمل على انقاذهم مما يعانون من ظلم ، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التى عاشت فى الارض فسادا . واحلت لنفسها كل انواع العقوبات وتسلطها عليهم (٣) ، ولما كانت الدولة العثمانية تتقدم فى اوربا الشرقية فى هذا الوقت وحدثت تأثيرات على مصير الامراء الغربيين كل ذلك اعطى للعثمانيين اشعاعا وهيبه ، ومنحها وزنا سياسيا وعسكريا كبيرين على سائر اوربا من اجل هذا وجه اهالى غرناطة سفارة الى استانبول فى منتصف سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م من اجل لفت نظر السلطان

(١) عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص ١٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٩ .

(٣) عبد الجليل التميمي : مرجع سبق ذكره ، العدد (٣) ، ص ٣٨ .

العثماني محمد الفاتح الى حالة المسلمين بالاندلس طالبين تدخله لانقاذهم (١)
ولكن كان في حكم الاستحالة ان يستجيب السلطان محمد الفاتح لهذه الاستغاثة (٢)
نظرا لانشغاله بالفتح في الجبهة الاوروبية .

وكانت اخبار الاندلس قد وصلت الى المشرق فارتج لها العالم الاسلامي (٣)
وبعث الملك الاشرف بوفود الى البابا وملوك النمرانية يذكرهم بأن النصاري
الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حين أن أبناء دينه في المــــــدن
الاسبانية يعانون اشد انواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص
تجاه رعايا المسيحيين ، اذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل
المسلمين عن اراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما اخذ من اراضيهم (٤) ، ولم
يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الاشرف
ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الاسلامي في الاندلس ، وجددت رسائل الاستنجد
لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي شهدت الدولة في عهده استقرار
داخلي وتمت في حالة بناء وتعزيز للفتوحات ، فوصلته هذه اذ جاء في افتتاحيتها
" الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، واعلى كلمتها ، ومهد اقطارها ، واعز
انصارها ، واذل عدائها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك
الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، قامع اعداء الله
الكافرين ، كهف الاسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محيي العدل ، ومنصف
المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في ارضه ،
القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامى الذمار ، وقامع
الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، مولانا ابو يزيد ، لازال ملكه موفور
الانصار ، مقرون بالانتصار ، مخلص المآثر والاثار ، مشهور المعالي والفخار ،
مستأثرا من الحسنات بما يضاعف الله به الاجر الجزيل ، في الدار الآخرة ، والثناء

(١) عبد الجليل التميمي : مرجع سبق ذكره ، العدد (٣) ، ص ٣٨ .

(٢) عبد العزيز الشتاوي : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩٠٢ .

(٣) عبد الجليل التميمي : نفس المرجع

(٤) الأمير شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره .

الجميل ، والنصر فى هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختمة بفضائل الجهاد ،
ومجرد على اعداء الدين من بأسها ، ما يروى صدور السحر والصفاح ، والسنة
السلاح باذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخير مفارقة
الارواح للاجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم
الاشهاد .^(٢)

ووصلت رسالة جاء فيها بعد الدباجة قصيدة وصفية

الحالة التى كان يعاني منها المسلمون ، وما تعرض له
الشيوخ والنساء من هتك للاعراض وما يتعرض له المسلمين فى دينهم
مطلعهم :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالقرب فى ارض غربة
احاط بهم بحر من الردم راخر وبحر عميق ذو ظلام ولجة

كانت هذه هى رسالة الاستنجاد التى بعث بها المسلمون فى الاندلس ، لانقاذ الموقف^(٢)
هناك وكان السلطان بايزيد يعاني من المشاكل التى تمنعه من ارسال المساعدات ،
بالاضافة الى مشكلة النزاع على العرش مع الامير جم ، وما اثار ذلك من مشاكل
مع البابوية فى روما وبعض الدول الاوربية وهجوم البولنديين على مولدافيا
والحروب فى ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد
ضد الدولة العثمانية من البابا يوليوس الثانى (// Jules) وجمهورية
البندقية والمجر وفرنسا ، وما اسفر عنه هذا التحالف^(٣) من توجيه القوة
العثمانية لتلك المناطق ، ومع ذلك حاول السلطان بايزيد تقديم المساعدة

(١) شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ التلمسانى : ازهار الرياض فى اخبار عياض
جا ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

2- Stanford Shaw : A History of Ottoman Empire P.76 .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ،
ص ٩٠٣ .

اذ تهاورن مع السلطان المملوكى الأشرف لتوحيد الجهود من اجل مساعدة غرناطة ووقعوا اتفاقا بموجبه يرسل السلطان بايزيد اسطولا على سواحل صقلية بإعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا ، وأن يجهر السلطان المملوكى حملات أخرى من ناحية افريقيا (١) وبالفعل ارسل السلطان بايزيد اسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الاسبانية ، وقد اعطى قيادته الى كمال رايس الذى جسم العرب فى الاساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر (٢) ، كما شجع السلطان بايزيد القراصنة العثمانيين بابداء اهتمامه وعطفه عليهم ، وكان المجاهدين العثمانيون قد بدأوا فى التحرك لنجدة اخوانهم المسلمين (٣) ، وفى نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من المسيحيين ، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء القراصنة المسلمين اثناء تشييد الاسطول العثمانى ، ودخلوا فى خدمته بعد ذلك اخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة فى غرب البحر المتوسط ويتشجع من هؤلاء القراصنة (٤) .

كما بعث المورسكيون استغاثتهم الثالثة الى سلطان المماليك ، باعتبار وجود القدس تحت سيطرته والتي كان يعيش فيها مجموعة كبيرة من المسيحيين ، ووضحوا ما وصلت عليه حالتهم بعد سقوط غرناطة ، ودعوه ليتوسط لدى الملكين الكاثوليكين حتى يحترما معاهدة الاستسلام ، فارسل سلطان المماليك قانصوه الغورى وفندا لاسبانيا ، وهدد بانه سيجبر النصارى المقيمين فى بلاده على الدخول فى الاسلام قسرا ، اذا لم تراعى المعاهدة ، فوافدت اسبانيا سنة ١٥٠١م (٩٠٧هـ) لسفير بيدرو مارتير دى انقليريا رئيس كاتدرائية غرناطة الذى اقنع السلطان الغورى بأنهم يعاملون المورسكيون معاملة حسنة ، وان لهم نفس الحقوق والواجبات التى يتمتع بها الاسبان (٥) .

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٦ .

، الامير شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ، ص ٢١٣ .

(٢) عبد الجليل التميمي : مرجع سبق ذكره (العدد ٢٤٠٢٣) ، ص ١٩١ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤ .

4- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.76 .

(٥) محمد عبده حتامله : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

كما بعثوا اول نداء بالاستغاثة الى المغاربة ، ذلك ان المغرب اقرب البلدان الاسلامية اليهم ، الا انهم لم يحظوا باى جواب منهم ، فقد كان اهل المغرب فى وضع سئ ضعيف مفكك فلم يستطيعوا اجابة هذا النداء ونجدة الاندلس (١) ، ونتيجة لهذا الوضع الذى كان يسود المغرب العربى ، فقد تشجع ملك اسبانيا فريديناند على تحقيق اطماعه يغزوها ، فاحتل عددا كبيرا من المراكز على السواحل المغربية وقد ترجم هذا الاحتلال عن هذه السياسة الاسبانية التى استقطبت اهتمام القصر ورجال الدين والوزراء والجيش ، تلك السياسة الرامية الى توسيع نطاق محاربة الاسلام حتى ارض افريقيا ، وهى احدى الظواهر الاسبانية فى القرن السادس عشر وفى وسط هذه الظروف ظهر الاخوان عروج وخير الدين البحاران العثمانيان ، الذين لعبوا دورا رئيسيا فى تعجيل الاحداث السياسية بالمغرب العربى خلال العقـد الثانى من القرن السادس عشر وكانت حملاتهم فى البحر المتوسط وعلى السواحل الاسبانية لغرض مساعدة المورسكيين ، وكذلك الجزائريين الذين طلبوا منهمـا النجدة وهى ولا شك تعكس مدى نشاطهم . (٢)

واستقبل عروج فى الجزائر كمنقذ عندما طلب اليه المواطنون ان يعمل للقضاء على قلعة الاسبان بالجزائر ، ثم استولى على مليانة ومدينة وتنسس وتلمسان ، ونودى به سلطان على البلاد ، وخلفه فى ذلك اخوه خير الدين ، الذى ادرك ضعف موقفه ، وكانت تعوزه الذخيرة الحربية والاطار العسكرى وليست له صداقات لدى المواطنين ، وكان اهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل فى كوكـو يسعون جميعهم للافلات من قبضة خير الدين (٣) فأدرك خير الدين ببعـد نظره أنه لن يستطيع ان يجابه الموقف بقواه الخاصة ، ولن يتمكن من مجابهة الخطـر الاسبانى ، فيجب عليه ان يعتمد على قوة الدولة العثمانية التى كانت فى اوج قوتها

(١) محمد عبده حتامله : التنصير القسرى لمسلمى الاندلس ، ص ٩١ .

(٢) عبد الجليل التميمي : اول رسالة من اهالى مدينة الجزائر الى السلطان

سليم ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (٦) ص ١١٦ .

(٣) شارل اندرى جوليـان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

وشرعت فى بسط سيطرتها على المشرق الإسلامى وذلك للسيطرة على الجزائر والتغلب على الاسبان (١)، كما قرر الجزائريون فى نفس الوقت ، أن تكون بلدهم جزء من الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، ورأى خير الدين أن يحكم الجرائر مؤقتا ، الى أن يتخذ السلطان سليم الذى كان فى القاهرة قراره لتنظيمها ، ولم يتأخر السلطان فى جوابه ، فقد اعلم خير الدين واهل الجزائر بقبول طلباتهم وأنه قرر أن يشمل الجزائريين والمورسكيين برعايته ، وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية فى الجهاد ضد المسيحية (٢) .

وارسل بعد ذلك محمد بن منصور بن على الحلبى باسم اهالى الجزائر رسالة الى السلطان سليم الاول يحيطه فيها بوضع المغرب العربى المحزن ، ويستنهضه لمساعدته :

" اننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية ، دعاء يبلغه اقصى الامانى ، فان عبيدها بالجزائر يكتبون الى مقامها العالى معبرين ومعترفين لمقامكم العالى بالاجلال والتعظيم ابدًا ، وان رسالتنا هذه لا تستطيع ان تستعرض كل الاسرار ، وان سعادة ايامكم هى فرحتنا ، ونحن لزام اموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا ، مظاهرننا كباطننا مخلص لكم أولا وآخرا فقد اطعنا امركم وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم يرفعون اليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالى .

لقد جرت حوادث جلية ولها اخبار طويلة فى نصر المؤمنين وهزيمة اعداء الله ، ومفادها ان طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الاندلس ، انتقلوا منها الى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد . غير انه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة فى وسط الدائرة ، وبقينا

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٧ .

لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين
واتكلنا عليه . غير ان طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة ادخالنا تحت
ذمته (سلطته) . وقد نظرنا فى الامر ورأينا ان المحن والشدائد تشتت
وان الضرورة تقضى بحق دماء انفسنا وخوفنا على حريمنا واموالنا واولادنا
من السبى والتفريق تصالحنا مع اهل التثليث وانا لله وانا اليه راجعون .

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار الى وهران وبجاية وطرابلس وكان
قصدهم ان يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسرونا ويشتون شملنا فجاء آتذاك
قدم ناصر الدين وحامى المسلمين المجاهد فى سبيل الله اوروج باى مع شلثة
من الغزاة ، فقابلناه بالعرز والاكرام واستقبلناه ، لاننا كنا فى خوف من (من
عدونا) فخلصنا بفضل الله . واوروج باى المشار اليه جاءنا من تونس لانتقاذ
بجاية من يد الكفار وتأهيلها بالمسلمين . فلما وصل الى القلعة وحاصرها
مع المجاهد الفقيه الصالح ابو العباس احمد بن قاضى زلزلوا اركانها وهدموا
بنيانها ، وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجمهم واستولوا
عنوة على برج منها ، واختلال بناينهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين
بالقلعة وقتل الباقون منهم .

لقد حارب المسلمون الكفار اثناء الليل واطراف النهار من طلوع الشمس الى
غروبها ، وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة اوروج القتال ،بقى المشار اليه
يقااتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقائنا غير انه وقع شهيدا
فى حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه اخوه المجاهد فى سبيل الله
ابو التقي خير الدين وكان له خير خلف فقد دافع عنا ولم نعرف منه الا العدل
والانصاف واتباع الشرع النبوى الشريف ، وهو ينظر الى مقامكم العالى بالتعظيم
والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد واعلاء كلمة الله ومناط آماله
سلطنتكم العالية مظهرًا لجلالها وتعظيمها . على ان محبتنا له خالصة ونحن معه
شابتون . وكيف لا نحبه وهو المستنير عن ساعد الجد والاقدام ، ويقود الجهاد معنا
فى سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق وهاج ودليل واضح المنهاج ، ومفاد

كانت فكرة الوصول الى الهند ، تراود اوروبا منذ وقت طويل قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك حتى يردوا على قوة الاسلام ، وينهوا وسطا — المسلمين من تجارة الهند ، وقامت عدة محاولات ، ومن ذلك تلك المحاولة التي قام بها اجولينو دي فيفالدو سنة ١٢٩١م لكشف طريق بحرى الى الهند ، فأبحر من جنوه عن طريق جبل طارق محاذيا للساحل الافريقي . وتمكن الجنوبيون بفضل تشجيع اسبانيا والبرتغال من الوصول الى المحيط الهندى بالدوران حول رأس الرجاء والوصول الى المحيط الهادى عبر القارة الامريكية .

كما اقترح الجنوبيون على الخان أرغون ملك فارس خطة يرمون فيها من ورائها الى تحويل تجارة الافاوية ، مع ملبار الى الخليج الفارسى ، ومن ثم تحمل برا الى موانى شرقى البحر المتوسط ، كما كانت الفكرة تقضى بأن يبني الجنوبيون اسطولا على الخليج الفارسى يفلق البحر الاحمر فى وجه التجارة الهندية ، الا ان ذلك الاقتراح لم يتحقق (١) وتطورت بعد ذلك الاكتشافات ، وتوالت البعثات الاوروبية الى الشرق لمعرفة الاحوال التجارية والبحث عن مسيحيين ، فبعث ملك البرتغال الدوم جوار الثانى جندى وجاسوس بيردواكوفلهام ، ليكون سفيرا له لدى " البريستروجون " المسيحية فى الحبشة ، وفى ١٤٨٨م (٨٩٤هـ) وصل كوفلهام للهند وزار كلكتا .

وفى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى انطلق فاسكو دى جاما من لشبونة بعد ان اوضح الملك يوحنا له اهداف الرحلة والتي تنحصر فى العمل على نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق ضاربا له المثل برضاء الجمهوريات الايطالية نتيجة ثروات الشرق (٢) ، ثم دار حول رأس الرجاء الصالح واحتفل بعيد رأس اول السنة على جزء من ساحل افريقيا الشرقى الذى حوله للمسيحية بطريقه مناسبة (٣) وفوجيء البرتغاليون عندما وصلوا الى خليج مدغشقر اذ بددت مخاوفهم

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٨ .

(٣) Roger Lockyer : Habsbourg & Bourbon Europe , P. 33

هناك ، ولقى البحارة ما لم يكن فى حسابهم حين خرجوا الى البحر ، فوجدوا مرافئ عامرة تطن كغلايا النحل ، ومدن ساحلية عامرة بالناس ، وخرجوا البحارة عندما وجدوا رجلا عبروا المحيط مرات عديدة ، ويعرفون دقات مرافئها (١) .

واصل فاسكو دى جاما رحلته نحو المدن الساحلية لشرق افريقيا ، ولم يخاطر فى اجتياز المحيط الهندى وبدأ يبحث له عن دليل يقوده للهند ، فزار سوفالا وهنا سمع بوجود مرشد فى مالندى يقود سفنه ويعبر المحيط الهندى ، ومن مالندى استعان داجاما بالملاح احمد بن ماجد (٢) .

لقى فاسكو دى جاما مرساه لاول مرة فى ميناء هندي ، ونعنى به كلكتا محققا بتلك الرحلة ثورة فى التجارة المنافسة لمصر والبندقية والدولة العثمانية (٣) واستقبل حاكم الاقليم الزامورين البرتغاليين ، وقد دهش لمجئ البرتغاليين ، وعندما سألهم عن السبب فى مجيئهم اجاب فاسكو دى جاما بايجاز المسيحية ثم البهارات (٤) ، وخاب امل البرتغاليين فى وجود حكام مسيحيين فى الشرق ، ولكن عوضهم عن ذلك سياسة التسامح التى كان يسير عليها سلاطين المغول المسلمين فى الهند واستقروا فى الحال لتحويل بعض من سكان الهند الى المسيحية (٥) واخذ دى جاما يطبق بالقوة ادعاء مولاه انه سيد الملاحة ومولاهما فكان يقطع الطريق دون اى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ويدمرها (٦) اذ كانت سفينة فاسكو دى جاما محملة باكثر من عشرين مدفعاً وكانت تعد قوة ضاربة فى ذلك الزمان (٧) وكان هذا التفوق البرتغالى الحربى عاملا اساسيا فى تطور موقفهم السريع اثناء تلك الفترة ، اذ كانت هذه الاسلحة

(١) باذل دافدن : افريقيا تحت اضواء جديدة ، ص ٢٦٣ .

(٢) بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، ص ١٣ .

(٣) S . B . Miles countries and Tribes of the persian Guly P. 138

(٤) محمد مرسى ابو الليل : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ، ص ١٧٧ .

(٥) Roger Locky: Habsburg & Bowbon Europe P. 36 .

(٦) ك. م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

(٧) باذل دافدن : نفس المرجع ، ص ٣٧٠ .

لم تكن معروفة في الهند في ذلك الحين . (١)

ولما كانت رحلة دي جاما هذه رحلة ارتيادا واستكشافا ، فان همة اقتصر على التماس الاذن له بالتجارة فسمح الزامورين البرتغاليين بذلك ، علاوة على عدم دفع الرسوم الجمركية ، ولاحظ دا جاما وجود العرب بالمدينة وكانت لهم حظوة في بلاط الزامورين (٢) ثم طلب دا جاما من حاكم كلكتا السماح بانزال اربعة او خمسة من رجاله للاستقرار في المدينة ، غير انه فشل في تحقيق تلك المطالب فأتجه بعد ذلك دي جاما الى كنانور وجوا ، وبعد جولة امام هذه المدن وغيرها من مدن ساحل الملبار شح سفنه بنماذج من السلع الشرقية ، ومن ثم رحل الى لشبونة حيث وصلها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ولم يكن حكام مليبار مسلمين " ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة لان اكثر عمادات بلادهم بهم " (٤) وكان المسلمون قد قدموا من مناطق مختلفة وتوطنوا هناك وقاموا باعمال التجارة ، حتى ان اليهود والنصارى المقيمين هناك ، يحسدون المسلمين نظرا لنشاطهم الدينى والتجارى من جهة ونظرا لقربهم الى حكام مليبار من جهة ثانية ، لذلك اخذوا يعادون المسلمين ولكنهم لم يستطيعوا ان يعملوا شيئا ، اذ اصبحت ممالك الدكن وكجارات المجاورة تابعة لسلطين دهللى ، وقوى شأن الاسلام فى الدكن ، فأصبح حكامها سندا للمسلمين المليباريين مما جعل اليهود والنصارى يوءثرون الصمت وعدم اظهار المعاداة حتى وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ونزولهم ساحل المليبار . (٥)

وبعد عودة دا جاما باثنى عشر شهرا غادر بيدرو كابرال (Pedro AL Vares Cabral) على رأس ثلاث عشرة سفينة مسلحة ، وبها الف وخمسمائة رجل ، وذلك

(١) فاروق عثمان اباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ص ٣٦ .

(٢) ك.م. بانتيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١-١٨٢ .

(٤) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين ، ق ١١٢ .

(٥) نصير احمد نور احمد : عصر اكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية فى الهند ص ٢٩٣ .

لتأسيس مراكز تجارية للبرتغال في المحيط الهندي . وفي طريقه بالسواحل الجنوبية للأطلنطي ابحر الى الغرب ورسى على ساحل البرازيل ، وادعى فيها الى سيده ملك البرتغال . ومن هناك اكمل طريقه للشرق . وفي مطلع القرن التالي وصل الى كلكتا وحاول تأسيس مركز تجارى (١) ، وبدأ فى معاداة المسلمين فذكر لعمال الزامورين انه ينبغي منع المسلمين من مزاوله التجارة وان لا يتصلوا بالبلاد العربية ، والفوائد التى يمكن الحصول عليها منهم يستطيعوا الحصول عليها مضاعفة من قبيل البرتغاليين ، الا ان النصرى بدأوا فى مضايقة المسلمين ، فأمر السامرى بمقاتلتهم ، فقتل منهم سبعين او ستين رجل من البرتغاليين ، وركب الناجون منهم مراكبهم هاربين ، ورموا بمدفعيتهم المدينة ، وتوجهوا الى كوش ، الذى كان حاكمها على خلاف مع السامرى فاستقبلهم حاكم كوش وسمح لهم باقامة قلعة وهى اول قلعة بنوها فى الهند كما هدموا المسجد الكائن بالساحل (٢) بعد ذلك رجع كابرال (Cabral) الى البرتغال محملا معه شحنة من الفلفل والزنجبيل وغيره . (٣)

ناقش البلاط نتائج الرحلتين من خلال تقارير دى جاما التى اظهرت ما يلى أولاً : ان العرب الذين كانوا يسيطرون على السواحل التجارية قد تضايقوا من ارسالية التبشير المسيحى التى وصلت مع فاسكو دى جاما فى رحلته الاولى الى كلكتا .

ثانياً : وضع فاسكو دى جاما البلاط البرتغالى امام نقطة هامة وهى مسألة وجود العرب فى الهند ، الا انه لم تكن هناك انباء عن وجود العرب ، ولما كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأسيس مراكز على ساحل افريقيا الغربى بسهولة نظرا لعدم وجود العرب الذين التقوا بهم فيما بعد فى سواحل المحيط الهندي فقد ادرك عمانول ان فرض السيطرة البرتغالية فى الهند يحتاج الى بذل مزيد من الجهد والتنسيق للمرحلة القادمة ، خاصة وانهم كانوا يعلمون علم اليقين بمدى شدة المراسى للعرب وبأسهم ، ولا ينسون انهم ذاقوا الامرين مدة طويلة من الزمان حتى تم اخراج العرب من شبه الجزيرة الايبيرية .

1- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbone P.33.

(٢) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره ، ق ١٤ ١ .

3- Roger Lockyer : IBID P.33.

ثالثا: انه من المستطاع القيام بتجارة رابحة في الهند وبالتالي امكانية تأسيس مستعمرة كبيرة في الشرق .

رابعا: ان سفن العرب التجارية لا تستطيع مقاومة السفن البرتغالية الحديثة والمزودة بالمدفعية (١) وهى السفينة التجارية المسلحة ،والتي لم تكن معروفة من قبل .

اما بالنسبة لبعثة كابرال (Cabral) فقد اظهرت ان البرتغاليين لا يستطيعوا ان يضعوا انفسهم في طريق له قيمته بين الهند واوروبا الغربية بسبب عداة التجار ،وليس هناك اى مساعدة من اى امير مسيحي فحدث ذلك وقلوب كل التوقعات والامال المعقودة . (٢)

من اجل ذلك جهز ملك البرتغال حملة اقوى من الحملتين السابقتين،وحملها الاوامر بان تنفذ بالقوة ادعاءه السيادة على البحار الهندية ،وعين فاسكو دا جاما على الحملة للمرة الثانية ،وكانت الحملة تتكون من خمس عشرة سفينة ،ست منها اعظم حجما واقوى عتادا من تلك التى بلغت المحيط الهندى من قبل (٣) ،ورسا الاسطول عند موزمبيق ،وكان قد تبادل الرصاص مع اهلها فى رحلته الاولى ، ووقف على المرفأ يستعرض قوته ويهدد وينذر (٤) ثم وصل دا جاما الى كيلوا وطلب من سلطانها بقاءه فوق احدى سفنه الراسية فى الميناء وخرج اليه الامير ابراهيم الذى كان فيوقتها يقوم بمهام السلطان ،فابلغته دا جاما ان عليه ان يقبل حكم ملك البرتغال لبلاده كرها او طوعا ،فرفض الامير فقرر دا جاما الاحتفاظ به اسيرا فوق السفينة وعزم على حرق المدينة اذا اصر على رفضه فرفض الامير ووافق على طلبات فاسكو دى جاما وقبل ان يدفع لــــه جزية سنوية باعباره خاضعا للحكم البرتغالى (٥) بعد ذلك وضع دا جاما جزء

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢-١٨٣ .

2- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbone P. 34 .

(٣) ك.م. باننيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ .

(٤) باذل دافدنسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٩ .

(٥) سبنسر ترمينجهام : الاسلام فى شرق افريقيا ، ص ١٤ .

من اسطوله عند مدخل البحر الاحمر لاقلاعه بقيادة فنست سدر (Vincet) ونتج عن ذلك تعرض السفن العربية لهجوم الاسطول البرتغالى فى مياه المحيط الهندى (١)، وخاصة السفن الغير مسلحة والتي تحمل حجاجا الى مكة .

ترك فاسكو دى جاما فنست سدر عند مدخل البحر الاحمر واتجه الى كانانو وكوش ، واجتمع بحكامها لتنظيم اعمالهم التجارية فيها ، ومن هناك اتجه الى كليكتا وياشر بتخريبها بمدفعية اسطوله انتقاما لمقتل وكلاء كيرال التجاريين ، ثم اخذ فى اعتراض السفن الاسلامية المتجولة امام ساحل الملايو وفى تلك الاثناء كان الزاموريين يسعى جاهدا للخلاص من ذلك الخطر فوقعت معركة بحرية امام سواحل كوش لم تات بنتيجة تذكر للزاموريين بسبب ضعف اسلحة سفنه وعدم تهيؤها للحروب بعيدا عن السواحل . (٢)

ويلاحظ على هذه الفترة اهتمام البرتغاليين بتعزيز اساطيلهم فى الشرق بحيث كانت الوحدات البحرية تخرج تباعا دون انتظار ، فأبحر من لشبونة الفونسو دى البوكرك فى ٦ فبراير سنة ١٥٠٣م (٢٤ شعبان ٩٠٨هـ) على رأس فرقة من ثلاث سفن الى كوش للمساعدة فى بناء قلعة ، وخلال اقامته فى الهند استفاد من وقته فى جمع المعلومات لاكمال الخطط المستقبلية لملكه ولتوجيه دولته ، فوضع امام الملك البرتغالى بعد عودته خططا ، ومشاريع ضخمة للاستيلاء والسيادة والتفوق البحرى ، وتهديد المسلمين والاسيويين عامة ، ويمكن القيام بها نظرا للضعف الذى يسود تلك الجهات (٣) ، وبدا الخطر واضحا على الاماكن المقدسة الاسلامية ، ويظهر ذلك من خلال رسالة الملك عمانويل ملك البرتغال المؤرخة بعام ٩١١ - ١٥٠٥م للبابا يوليس الثانى حينما طلب منه البابا ايقاف الحملات الى مياه الهند حتى تتحسن علاقات دول البحر المتوسط مع دولة المماليك فكان جواب الملك عمانويل " انه ليس عازما على المضي فى قتل التجارة المملوكية بل انه سيجاهد فى سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفا لمدافعه

(١) محمد عبد المنعم الراقد: مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٠ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

وجنوده " .

كما اكد للبابا ايضا ضرورة وحدة الدول الاوربية تحت زعامته وضم جهودهم الى جهوده لاستعادة الاراضى المسيحية المقدسة (١) فى القدس، ولتأكيد ذلك هدد البرتغاليون جدة سنة ١٥٠٥م (٩١١هـ)، وكان عمانويل قد اقسم ان يستولى على مكة وان يقوم بنش قبر الرسول فى المدينة المنورة ، واهتز العالم الاسلامى لهذا الخطر القادم ، وخصوصا اليمن باعتباره يقع فى خط المواجهه الاولى على الحدود فى الجنوب . (٢)

وفى عام ١٥٠٥م (٩١١هـ) عين الدوق الميدا (Francisco AL Meida) نائبا للملك فى الهند بعد وفاة دا جاما فى نفس العام ، وعمل دالميدا على اقامة دعائم الحكم الاستعماري البرتغالى فى ساحل ملبار وتوجيه الحملات الحربية الى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة امام البرتغاليين فى البحار الشرقية (٣) ، فاستولى دالميدا على مدينة سفالة (مدينة الذهب) ، ثم اتجه الى كيلوا بعد ذلك وقصفها فى ٢٢ يوليو ١٥٠٥م (١٨ صفر ٩١١هـ) ، ثم ارسل دالميدا الى الامير ابراهيم يسأله عن السبب فى عدم انتظام دفع الجزية ، وانزال العلم من فوق قصره ولم يعط الامير اجابة واضحة على الاسئلة ، فنزل البرتغاليون الى البر ، فهرب الامير عندما اقتربوا من قصره ومعه عدد كبير من اتباعه (٤) .

وكان فرانسيسكو الميدا يميل الى الاعتماد على القوة البحرية الى جانب الاحتفاظ بعدد من الحاميات فى البر ، لهذا نجده عندما وصل الى منصب نائب الملك فى الهند لم يفكر فى الاستيلاء على عدن ضمن خطته ، لانه يرى ان سفالة القريبة من البحر الاحمر كفيلا بان يقوم بمهمة عدن ، وكان يرى عوضا عن الاستيلاء عليها ضرورة شن غارات تخريبية عليها لسلبها لان ذلك معناه عدم وصول التوابل الى اراضى مصر المملوكية (٥) ، وكانت سفالة (Sofala) وقتها مازالت

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ص ١٠٤ .

(٢) فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ص ٣٦-٣٧ .

3- S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf p.140.

(٤) سبنسر ترمنجهام : مرجع سبق ذكره ص ١٤ .

(٥) غسان على رمال : نقـ المرجع ص ١٩٩-٢٠٠ .

مركزا لتجارة الذهب ولذلك اختار البرتغاليون اقرب مكان اليها وهو موزمبيق لى تكون مركزا لحكمهم الاستعمارى الذى امتد الى مملكة مونومباتا فى روديسيا حيث توجد مناجم الذهب ومع ذلك لقى كثير من البرتغاليين حتفهم بسبب الامراض وغيرها اثناء البحث عن تلك المناجم ، الا انهم لم يتمكنوا من العثور عليها بسبب رفض الاهالى التعاون معهم ^(١) ولعل ذلك يفسر مدى اهتمام البرتغاليين بالمعدن النفيس لتغطية الحملات المسيحية ، ولتدعم موقفهم فى تهديد الاماكن المقدسة ، وفرض الحصار الاقتصادى على العالم الاسلامى .

تحركت حملة اخرى من لشبونة فى عام ١٥٠٦م (٩١٢هـ) بقيادة كل من تريستاودى كونه (Tristao de Cunha) والفونسو دى البورك وقد زودت هذه الحملة بتعليمات من قبل السلطات البرتغالية والتي تقضى بالاحتفاظ والتوسع فى المراكز البرية ، وكان البورك يميل الى هذه السياسة ، والتي كانت على النقيض من سياسة فرانسكو الميدا ، كما حمل البورك تفويضا سريا من الملك عمانويل البرتغالى ، لتولى مهام نائب الملك فى الهند بعد ثلاثة اعوام اى فى سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ) خلفا للدوق فرانسكو دى الميدا ، الذى يجب ان يعود الى لشبونة ^(٢) .

كما صدرت التعليمات لدى كونه بالابحار الى سوقطرة والاستيلاء عليها وتشديد قلعة فيها لحماية المسيحيين التى من المفروض ان يسكنوا فيها ، لتكون مخزنا للأساطيل البرتغالية وماوى لها لمواجهة الاسطول المملوكى والأسطول البندقى ولتتمكن البرتغال من حصار البحر الاحمر ، وبعد الانتهاء من بناء القلعة يتوجه دى كونه الى الهند ، ويترك البورك ليهاجم جدة وعدن ويعترض تجارة المسلمين الى لشبونة (Moorish) ^(٣) .

من جهة اخرى ارسل دالميدا حملة سنة ١٥٠٦م (٩١٢هـ) الى سيلان والتي تنمو بالقرب منها اشجار القرفة ^(٤) اذ ادرك الميدا أنه على الرغم من تلك القوة

(١) سبنسر ترمينجهام : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

2- S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 141.

3- IBID P. 141.

4- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon P.35 .

البحرية الكبيرة التي كانت، فانهم عجزوا عن وقف حركة الملاحة العربية ففى المياه الهندية، ولعل ذلك كان سببا فى توغل البرتغاليين الى مصادر تلك التجارة لمنع التجار العرب فى مزاوله نشاطهم. (١)

وتنفذا لخطة البرتغاليين وصل ترستاو دى كونهما فى منتصف ١٥٠٧م (٩١٣هـ) الى سوكو (Soko) ميناء سوقطرة وفرض دى كونهما حصارا على المدينة، ورفض السلطان ابراهيم ابن السلطان كيشين طلب البرتغاليين بالاستسلام، فشن البرتغاليون هجومهم، ودافع اهالى الجزيرة عن قلعتهم بشبات وعزم، ولكن الاسلحة الحديثة كانت اقوى من ذلك العزم، واستشهد سلطان الههه وعدد كبير من رجاله، بعد ذلك اصلى البرتغاليون القلعة واطلق عليها اسم السانت توماس (ST. Thomas) وعين لقيادتها افونسو دى نورونها (Afonso de Noronha) (٢)

وبعد اكمال القلعة، وبناء دير للفرنسيكان لنشر المسيحية كان على دا كونهما ان يضى الى الهند بجزء من الاسطول تاركا البو كيرك بجزء آخر من الاسطول لمواصلة هجومه على عدن وجدة ومضايقة التجارة الاسلامية (٣) غير ان البو كرك ادرك ان الاسطول الصغير الذى خصصه دا كونهما اضعف من ان يستولى به على عدن، وفى الطريق نحو السواحل العربية نصب البو كرك امام عينيه ضرورة مهاجمة كيلهات ومسقط، اذ تشكل هذه المنطقة الى جانب هرمز اهم الاسواق للخليج العربى والمخازن الاساسية له حيث تتركز التجارة الشرقية هناك (٤)، كما انه اذا تمكن من الاستيلاء عليها، فسيعطيه ذلك السيطرة الكاملة على طريق الخليج وسيكون فى ذلك خدمة عظيمة افضل من الحصار الموءقت للبحر الاحمر. (٥)

(١) بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ص ١٤.

2- S.B.Miles : The countries and Tribes of the Persian Gulf P.P.141-142.

(٣) فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ص ٤٠.

، السير ارنولد ويلسون : مرجع سبق ذكره ص ٢٠٤.

(٤) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ص ١٩٧.

(٥) السير ارنولد ويلسون : نفس المرجع ص ٢٠٥.

بدأ البوكرك حملته في اواخر ١٥٠٧م (٩١٣هـ) في البحر بالتصدي للسفن العربية القادمة من البحر الاحمر ، فاجتاز باسطوله جزر كوربا موربا خارج رأس الحد فلى عمان حيث وجد ثلاثين او اربعين سفينة صيد من هرمز واماكن اخرى فاحرقوا هذه السفن (١) بعد ذلك مر البوكرك من امام خورجبراما فدمر بعض سفنها ، وكان يقصد البوكرك بهذه الاعمال في مهاجمة المدن الصغيرة والغير مهمة نشر الخوف بين صفوف سكان الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ، حيث يقبل سكان بعض المدن والتي يرغب البوكرك في احتلالها قبول تبعيتهم لملك البرتغال ، في وقت كان يشعر فيها بنفاذ موانئه (٢) ، ومن خورجبراما مضى البوكرك الى الشمال ، فالتقى المراسي مقابل قليبها ثم كليها مستودع الشحن من الهند ، والمحمية لملك هرمز ، حيث اضرها ودمر معالمها (٣) اما مسقط والتي كانت من اهم الاهداف التي زحف من اجلها ، فقد وصلها بعد عدة ايام من غاراته على كيلها وكوريات (٤) وخرج اليه " نيلان مسلمان " نياية عن حاكم مسقط وتوسلا اليه الا يلحق اي اذى بالمدينة وعبرا عن رغبتهما في ان يصبحوا تابعين لملك البرتغال ، وان يدفعوا الضرائب التي كانوا يدفعونها آنذاك لملك هرمز (٥) الا ان البوكرك غدر بهم وامر رجاله بنهب المدينة وتدمير السفن الراسية في مينائها بالاضافة الى تعذيب الاهالي وقتل الكثير منهم (٦)

عقب سقوط مسقط اتجه البوكرك نحو صحر فاستولى عليها ، واقر حاكمها في مكانه باسم الملك عمانويل شريطة قيامه بدفع الاموال التي كان يدفعها من قبل لمملكة هرمز (٧) ، ومن صحر مضى الاسطول الى خورفكان (Fakkan) (

- (١) سليم طه التكريتي : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ .
- (٢) السير ارنولد ويلسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .
- (٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٨ .
- (٤) مديحة احمد درويش : سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ٢٢٧ .
- (٥) غسان على رمال : نفس المرجع ، ص ١٩٨ .
- (٦) السير ارنولد ويلسون : نفس المرجع ، ص ٢٠٦ .
- (٧) مديحة احمد درويش : نفس المرجع ، ص ٢٢٧ .
- (٨) قدرى قلجى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٥ .

فقاومه السكان، فهوجمت المدينة واحرقت، وقطعت اذان وانوف الاسرى، ثم اتجه الاسطول الى رأس مسندم. ثم مضى الى هرمز مباشرة (١) قاعدة الخليج وهدفه الرئيسى، وبعد حرب قاسية انتصر البرتغاليون وتمكنوا من الاستيلاء عليها وضمها للتاج البرتغالى بعد ان فرض عليها شروط مجففة بحق الهرمزيين، ونتيجة لذلك سيطر البرتغاليون على تجارة الخليج (٢) وباستيلائهم على جزيرة سوقطرة ١٥٠٧م (٩١٣هـ) وعلى هرمز ١٥٠٨م (٩١٤هـ) قد اكتمل حصار البرتغاليين للتجارة الهندية، وحصار المسلمين وتحطيم اقتصادهم (٣).

طلب البورك تحديد مكان فى هرمز لبناء قلعة، فعرضت عليه (قشم - طورمبيك وناباد) ، الا انه اختار رأس مورونا على الجزيرة نفسها، فوضع اساس البرج الرئيسى واسرع فى بنائها ، بقصد الشروع بالذهاب الى البحر الاحمر، لذلك اراد ان يتم البرج، حتى تستطيع القوة البرتغالية ان تدافع عن نفسها بداخله الى ان يعود لهرمز (٤).

كان الاسطول البرتغالى لازال موجودا فى هرمز فى حالة استياء وعدم قناعة مما ادى الى تمرد القباطنة فوصلته تعليمات من فرانسكو دالميدا. نائب الملك البرتغالى فى الهند، بالقدوم للهند فغادر البورك هرمز متوجها للهند ففى نوفمبر ١٥٠٨م (فى شعبان ٩١٤هـ) (٥).

كان المماليك هم اصحاب القوة الاسلامية التى قامت بالجهاد ضد البرتغاليين فى هذه الفترة، على الرغم من شيخوختهم، الا انه لم يكن هناك مجال للفراار او التأجيل، فالعدو على ابواب البحار الجنوبية وقد اغلق منافذ التجارة، كما

(١) السير ارنولدت وبلسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٨ .

(٢) مديحة احمد درويش : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

(٣) احمد عبدالرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى ، ص ٨٢ .

(٤) السير ارنولدت وبلسون : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٥) بدر الدين عباس الخوصى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ - ١٨ .

قام بالتهديد بالدخول في البحر الأحمر حيث الأماكن الإسلامية المقدسة ، والقواعد العسكرية في السويس ، كما أخذ السامري حاكم مليبار في طلب الإغاثة من قانصوة الغوري ، في المبادرة بإرسال قوات لمواجهة البرتغاليين ، فأرسل قانصوه الغوري من أمراثة الأمير حسين الكردي في ثلاثة عشر سفينة من نوع القرايين ، فوصل إلى كوجرات ومنها خرج إلى شيول ، وهناك تقابل مع البرتغاليين ، وانتصر حسين الكردي في هذه المعركة سنة ١٥٠٨م واستطاع أن يستولى على إحدى السفن البرتغالية واضطر القائد حسين الكردي أن يتجه بسفنه إلى ديو بسبب الأمطار وهناك وصلت إليه نحو أربعين سفينة صغيرة من السامري ، وعندما علم البرتغاليون باستقرار حسين الكردي في ديو ، خرجوا في عشرين مركبا ، وباغتوا المماليك هناك وأوقع البرتغاليون الهزيمة بالمماليك والمليباريين ، ورجع البرتغاليون إلى كوش ، وانسحب الأمير حسين الكردي إلى جدة ، أما السلطان الغوري فقد هزته الهزيمة ورأى أن احتياطيه من الأموال والصلاح يتناقص بالتدريج ، في الوقت الذي تزداد فيه قوة البرتغاليين في الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم (٢) ، فطلب السلطان الغوري السلاح من السلطان العثماني بايزيد الثاني ، الذي وعد بإرسال مطلوبه هدية لانقاذ الأماكن الإسلامية المقدسة ، إذ اعتقد كلاهما أن البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا إلى مكة والمدينة ، وبالفعل وصلت سفن المماليك إلى الإسكندرية محملة المعونة العثمانية . (٣)

وتولى البوكرك منصب نائب الملك في الهند سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ) ، الذي قام فوراً بنقل المركز الرئيس للبرتغاليين من كنانور على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الهند إلى جوا ساحل ملبار المطل على بحر العرب ، فدل بذلك على سياسة البوكرك التوسعية نحو فارس وبلاد العرب (٤) والتي سيتبعها بعد قليل فسي تطويق العالم الإسلامي من الجنوب ، وتوفير مراكز بحرية لهم في داخل البحر الأحمر

(١) زين الدين المليباري : مرجع سبق ذكره ، ق ١٦ ب - ق ١٧ أ .

(٢) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٩١ .

(٣) بدر الدين الخوص : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٤) نعيم زكي فهمي : نفس المرجع ، ص ٩٢ .

لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن .

وفى ١٥١٠م (٩١٦هـ) توجه البوكرك الى رأس جراد غوى المقابل لجزيرة سقطرة وانزل بعثة دينية برتغالية محاولة للوصول الى ملك الحيشة ، عوضا عن البعثات التى لم تكن قد وصلت من قبل ، وبانزاله تلك البعثة انقطعت اخبارها تماما عن البوكرك ، ومن المرجح ان البعثة كانت فريسة سهلة للقبائل الافريقية فى جنوب الحيشة . (١)

اخذ السلطان الفورى نتيجة لتوغل البرتغاليين فى البحر الاحمر بوجه عنايته فى اعداد اسطول بحرى شان فى ميناء السويس لخوض معركة المصير التى سيترتب على نجاحها حل ازمته الاقتصادية ، هذا فضلا عن اعداد الاساطيل القوية للدفاع عن سواحل الشمالية فى البحر المتوسط التى كانت تهددها هجمات فرسان القديس يوحنا فى رودس من جهة ، الى جانب تأمر البنادقة (٢) . وقام الامير حسين الكردي ببناء سور ضخّم محصن فى جدة . وطلب من حلفائه امراء الهند المسلمين معونة مالية لبناء ذلك السور ، استجاب السلطان محمد محمود شاه سلطان كجرات ، وقد ذكر للامراء المسلمين فى تبرير هذا الطلب انه طالما ظل البرتغاليون اقوياء وباستطاعتهم دخول البحر الاحمر والوصول الى جدة ، فمعنى ذلك ان بامكانهم تدمير الاماكن الاسلامية فى مكة والمدينة ، واعتقد امراء الهند المسلمون نفس الاعتقاد ، فمنحوا الامير حسين المعونات لبناء ذلك السور . (٣)

الا ان البوكرك توجه بانظاره الى الهند ، فكان امامه خياران ما بين كاليكتا وجوا ، الا انه نظرا للاحداث القديمة التى وقعت بين كاليكتا والبرتغاليين ، والتى تزعمت فيها كاليكتا حركة المقاومة ضدهم ، اضافة الى

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .

(٢) فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ .

(٣) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٨ .

وامر الملك عمانويل بضرورة الاستيلاء عليها اتجهت انظار البورك اليها
لذا خرجت من لشبونة حملة اخرى فيراندو كوتينو (Fernando Coutinho)
للمشاركة فى الاستيلاء على كاليكتا والقضاء على نفوذ الزاموريين ، وفى الوقت
نفسه تدعيم الموقف فى المحيط الهندى خاصة بعد ما بلغت الملك عمانويل انباء
الاستعدادات التى كان يقوم بها السلطان الغورى فى ميناء السويس والمساعدات
العثمانية والاسلامية وهاجم البرتغاليون كاليكتا محاولة الاستيلاء عليها (١)
فاخرجوا المسجد الجامع ودخلوا بيت السامرى زاعمين انهم تملكوها ، وكان
السامرى غائبا لقيامه ببعض الحروب ، الا ان النبار حارب البرتغاليين واخرجوهم
من كالكتا ، قتلوا نحو خمسمائة برتغالى ، وركبوا سفنهم وغادروا كالكتا . (٢)

واتجه بعد ذلك البورك الى جوا (Goa) على الساحل الغربى فى ولاية
بيجاپور عام ١٥٠١م وقد جعلها البرتغاليون عاصمة لمستعمراتهم فى الشرق ، ووضع
البورك خطة للاختلاط بالهنود ومصاهرتهم ، واستخدموا فى الجيش البرتغالى جنودا
من الهنود . (٣)

كان من الطبيعى ان يوءثر سقوط جوا بهذه الطريقة فيما جاورها من
امارات الهند الغربية ، حيث قبلت كالكتا الصلح مع البرتغال بشرط اقامة حصن
لهم على اراضيها ، اما مملكة الفيجايانكر ، فارسلوا وفدا للتهنئة على هذا
الانجاز ، كما رحبوا باقامة حصن فى مدينة بهاتكل بشواطئ بلادهم الغربية (٤)
اما اقليم جو جارات فقد البرتغاليون من استدراج سلطانهم الى احدى السفن
البرتغالية بدعوى عقد اتفاق معه ، وهناك قتلوه غدرا ، وقاموا ببناء حصن
فى ديو ، بعد ذلك غير البرتغاليون طريقة معاملتهم مع الهنود ، وحرمو

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره — ص ٢٠٣ .

(٢) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره — ق ١٧ ب .

(٣) محمد مرسى ابو الليل : الهند وتاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ، ص ١٧٧ .

(٤) غسان على رمال : نفس المرجع — ص ٢٠٤ .

عليهم عبادتهم ، ودمروا معابدهم ، وأقاموا محاكم التفتيش لمحاكمة الزنادقة والمرتدين ، وقد دفع ذلك الهندوس الى هجرة المستعمرات البرتغالية مما ألحق بها ضرا كبيرا . (١)

التفت البورك الى منطقة الملايو والمحيط الهادى ، وكان قسم كبير من تجارة الافاوية تجلب من الجزر الاندونيسية ، وكانت هذه التجارة اذا مرت من خلال مضيق ملقا (Malacca) ، وانطلقت فى عرض البحر حملها تجار العرب الى موانى البحر الاحمر ، ولم يكن فى الامكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندى ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا (٢) بالاضافة الى ان الاسعار فى ملقا لم تكن تزيد عن ربع سعر بيعها فى سواحل الهند ، وبلغ من شدة اهتمام البورك بها تكليفه لوبودى سكويرا بالاقتراب منها لجمع المعلومات متظاهرا بكونه تاجرا مسلما (٣) وكان لوبودى سكويرا قد بلغ ملقا من قبل بعدة سفن صغيرة ، وتلقى من سلطانها اذنا بالنزول الى البر والاتجار هناك كسائر الناس ، ولكن التجار العرب بمدينة ملقا الذين قاسوا الاهوال من شطاط البرتغاليين فى المياه الهندية والعربية ، حرصوا كل الحرص على ان يفسروا للسلطان مطامع البرتغاليين وشدة عداوتهم للإسلام ، ف سحب السلطان اذنه السابق للبرتغاليين محذرا سكويرا بالعودة مرة اخرى (٤) .

وفى ١٥١١هـ ١٥١٧م أخذ البورك مجموعة كبيرة من السفن والجنود للهجوم على ملقا (Malacca) (٥) كمالقى فى جنوده خطبة قال فيها " الخدمة الجليلة التى نقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وباطفائنا

-
- (١) محمد مرسى ابو الليل : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .
 (٢) ك.م. باننيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .
 (٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .
 (٤) ك.م. باننيكار : نفس المرجع ، ص ٤٧ .

شعلة اتباع محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب " . وبعد ذكر خدمة الله والمسيحية تحدث عن خدمة الملك حيث قال " وذلك لاني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (اعنى المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة اثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك " (١) وهاجم البورك مدينة ملقا من يوليو ١٥١١م (جمادى الاولى ٩١٧هـ) ، وبعد مقاومة عنيفة من سكانها ، تمكن البرتغاليون من الاستيلاء عليها ، وقاموا ببناء قلعة وكنيسة ، وكان الاستيلاء عليها بمثابة اكبر انجاز حققه البرتغاليون في سبيل تحطيم السيطرة العربية التجارية ، ذلك ان استيلاء البرتغاليين على ملقا لم يكن يعنى انهم نجحوا في السيطرة البرتغالية فقط على المحيط الهندي ، ولكنه كان يعنى ان المحيط الهادي قد اصبح مجالا لتوسع البرتغاليين ايضا ، وهم الذين حولوا الارخبيل كله ميدانا لصراعهم مع الاسلام والتجارة ، فاندفع دعاة النصرانية لنشر المسيحية ، الامر الذي دفع بالمسلمين لمقاومة هذا الزحف التنصيري عن طريق نشر دعوة الاسلام في ماليزيا وسومطرا ، وجاوا وهى المناطق التى هاجر اليها المسلمون من العرب والهنود الذين ظلوا يقاومون المنافسة الاوروبية (٢) .

وبفتح ملقا اتم البورك بناء صرح الامبراطورية البرتغالية الاوروبية البحرية بآسيا ، وكان خروجه لتشييد امبراطورية تجارية تقوم على اساس مركز ممتاز لا سبيل الى تحديه بالمحيط الهندي ، وكانت الموانى الكبرى على الشاطئ الافريقى ، قد سقطت كلها آنفا تحت سيادة البرتغاليين ، ولكن لم يكن لهم قبل زمانه ببلاد الهند الا موطن قدم في كوش دون وجود اية نقاط منيعة في اى مكان منها للبرتغال ممارسة سلطتها البحرية ، وبما انه تم ضم سومطره ، واصبح هناك سلطان سياسى في هرمز ، وبعد استيلائهم على ملقا تأسس لهم نظام للهيمنة والضغط ظل ثابتا لا يتزعزع ما بقيت لقوة البرتغال البحرية بأوروبا قوة وعزم

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

ولتهيئة الظروف الملائمة للنجاح في تنفيذ هذه السياسة، كان من الضروري قيام قاعدة برية ببلاد الهند تقوم بدور المحور المركزى لقوة البرتغال، وكان فتح جوا واستيطانها، والتطور بها لتصبح مدينة وقصبة كبرى تضم جهازا كاملا للحكم هو الاساس الذى قامت عليه جميع خطط البورك (١).

ادرك البورك ان مركزه فى الهند لن يكون مرضيا الا اذا قوى خـــــــط مواصلاته، فوجه الى الدون عمانويل رسالة سنة ١٥١٢م (٩١٧هـ) قال فيها: " ان اعظم الشور كلها بالنسبة الى جوا على كل حال الاراجيف المستمرة بأن الروم قادمون، ان هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيرا من القلق والاضرابات ما بين المواطنين والمسيحيين على حد سواء فيما بعد بهذه الملاحظات المخربة، اعرض لجلالتكم بكل احترام انه لن يكون هناك ثقة او سلام لرعايا جلالتكم فى هــــــذه الاجزاء، الا بأن نذهب الى البحر الاحمر ونؤكد لهؤلاء الناس ان مخلوقات اسمها الروم ليس لها وجود " (٢)، وبعد ان ارسل البورك هذه الرسالة مباشرة غادر جوا ديجو فريديناند دى بيجا (Diego Fernandes de Bega) لهدم القلعة التى بناها البرتغاليون فى وقت سابق فى سوقطرة، والذى برهن على عدم جدواها، ثم توجه بيجا الى مسقط وهرمز لاختد الضرائب (٣).

وكانت الجبشة فى هذه الفترة مهيأة لى عمل صليبي ضد العالم الاسلامى وليس معنى ذلك انها قد هيات عدتها، وانما كانت على استعداد لان تشترك فى اية عملية يستهدف منها الحاق الضرر بالمسلمين، فأرسلت لذلك فى نهاية عـــــــام ١٥١٢م (٩١٧هـ) ماثيو الذى وصل جوا بالهند، واستقبله نائب الملك الفونسو دى البورك، الذى سر كثيرا لروية مبعوث من قبل القديس يوحنا، وكانت مناسبة سعيدة للبورك الذى كان متلهفا لمعرفة الطريق الذى سلكه ماثيو للوصول اليه وكذلك الاطلاع على كافة الاوضاع الخاصة بالجبشة، وعندما عزم البورك على

(١) ك.م. باننيكار: مرجع سبق ذكره، ص ٤٩.

(٢) السير ارنولد ويلسون: مرجع سبق ذكره، ص ٢١١ - ٢١٢.

الهجوم على البحر الاحمر اصطحب معه ماثيو (١) .

وضع البوكرك نصب عينيه ان مهاجمة الاماكن المقدسة الاسلامية يستلزم انشاء قاعدة بحرية فى مدخل البحر الاحمر ، وحيث ان سوقطرة لا تمثل تلك القاعدة فكر البوكرك فى احتلال عدن ، المدخل الحقيقى للبحر الاحمر (٢) وهال البوكرك ذلك المركز الطبيعى الحصين ، فصمم على الهجوم عليه بواسطة تسلق جدرانها ولسوء حظه كان الماء ضللا ، فاضطر الجنود للوصول الى الاسوار غوصاً ، وفى اثناء ذلك ابتلت ذخائرهم وكانت السلاالم التى استخدموها للرقى قصيرة ، وذلك فشل هجوم البوكرك فشلا ذريعا ، فارتد متكبدا . خسائر جمة فى الارواح والعتاد ، واضطر للاسراع الى جزيرة كمران للحصول على ماء للشرب وللحاجة الشديدة للطعام (٣) ومن كمران فكر البوكرك فى مهاجمة جدة ، وكانت تلك الفكرة بالنسبة للبوكرك حلم يود تنفيذه ، فقد عرف عنه انه كان يطمح انجاز مشروعين من مشاريعه قبل موته المشروع الاول كان يحمل فى طابعه عاملا صليبيا وهو احتلال المدينة المنورة لينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسرق ما فيه ويجعله رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الاماكن المقدسة فى القدس ، اما المشروع الثانى فقد كان اقتصاديا حيث كان يرغب فى تحويل مياه النيل الى البحر الاحمر ليحرم المصريين من الماء العذب ، ويخرب شبكة الرى التى كانت قائمة فيها آنذاك ، ولما كان المشروع الثانى يحتاج الى مهندسين وعمال يستلزم احضارهم من البرتغال لفترة طويلة ، فقد قرر البوكرك تنفيذ حلمه الاول وتأجيل الثانى ، وصمم على النزول فى ينبع بأربعمائة جندي للهجوم على المدينة المنورة ، غير ان الرياح حالت دون الوصول اليها فعاد الى كمران ، وعوض ذلك الفشل بشن حملات تخريبية ضد موانى البحر الاحمر (٤) فهاجم زيلع وبربره ، واستخدم هذه الموانى للاستيلاء على سفن العرب القادمة

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣-٩٤ .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

(٣) محمد عبد اللطيف الجراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

(٤) غسان على رمال : نفس المرجع ، ص ١٠٥-١٠٦ .

من البحر الاحمر وتحطيمها . (١)

وارسل البوكيرك ماشيو الى لشبونة الذى قدم فى اواخر سنة ١٥١٣م (٩٨٩هـ) ، رسالة من هيلانة ملكة الحبشة الى ملك البرتغال عمانويل ، وشكت هيلانة فى رسالتها الاخطار التى تهددها من ناحية مصر ودويلات الطراز الاسلامى ، وأشارت ايضا الى ان تريستان داكنها وهو احد ضباط الملك فى الهند قد ارسل اليها رسولين يسألها ان تمدّه بالطعام والرجال لتساعده فى نضاله ، وانها فى قضية كهذه لن تتوانى ابدا . ولهذا فهى ترسل ماشيو الذى اصدرت اليه الاوامر بان يخبر القائد البرتغالى فى الهند بان لها الرغبة والاستعداد ولتبذل له ما يريد من مونة ورجال ، وازافت هيلانة بانها على علم بان السلطان المملوكى يجمع جيشا كبيرا يهاجم به البرتغاليين فى الهند . ولهذا فلديها الرغبة فى ارسال عدد كبير من الجنود ليقدموا المساعدة عند باب المندب ويمكن ايضا لجنودها ان يصلوا الى الطور او جدة وانها ارسلت اليه كمقدمة ، وأشارت الإمبراطورة الى ان الجيوش البرتغالية اذا اتحدت مع الجيوش الحبشية فهما يكونان قوة كافية لان قوة الحبشة هى قوة برية ، ولكننا ليس لدينا قوات فى البحر ولكنكم انتم الذين تملكون قوة ضخمة فى البحر (٢) وكانت الحبشة من جانبها تتطلع الى مساعدة دولة مسيحية اوربية لتعينها فى حروبها ضد الدويلات الاسلامية المجاورة لها وأهمها مملكة عادل ومملكة آفات ، وهما مملكتان اسلاميتان مجاورتان للحبشة وكانت الحروب بين هاتين الدولتين وبين الحبشة مستمرة طوال القرن الخامس عشر ، وكانت اغلب مراحلها الانتصار الساحق للمسلمين ، وهكذا دخل الصراع المحلى بين الحبشة والقوى الاسلامية فى البحر الاحمر وافريقيا الشرقية فى نطاق الصراع الهائل بين البرتغال والدول الاسلامية . (٣)

واحدثت زيارة ماشيو للبرتغال فرحا كبيرا فى نفوس البرتغاليين ، اذ تحقق حلمهم بروية مبعوث خاص من القديس يوحنا ومعرفة اخباره ، وكان رأى العام

(١) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

(٢) عثمان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤-٩٥ .

(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

يأمل في تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكي والتعاون مع الاحباش لانجساح اطماعهم الصليبية والاقتصادية في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، ووافق المجلس الاعلى البرتغالي على امداد الحبشة بمعونة عسكرية لمقاومة المسلمين ، كما جمع البرتغاليون من ماشيو معلومات كبيرة فيما يخص عقيدة الاحباش الارثوذكسية واطرواخها الاقتصادية والطرق الموءدية للحبشة (١) وكانت الملكة هيلين ملكة الحبشة تعمل من جانبها على سلخ كنيسة بلدها عن كنيسة مصر وربطها بكنيسة روما كجزء من الاتجاه العام في ربط مصير الحبشة بالمسيحية الاوروبية ، وكان هذا امرا بعيد الاحتمال ، او انها كانت مناورة منها لتشجيع ملك البرتغال على التحالف ، وكانت البرتغال في تحالفها مع الحبشة ، يحدوها وبشكل قوى الامل في تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكي . (٢)

وسط تلك الاجواء المعادية للإسلام ، اندفعت الحملات البرتغالية في محاولة لتهديد الاماكن المقدسة الاسلامية داخل البحر الاحمر لاثارة المسلمين هناك ، وهو الامر الذي يؤكد ان اندفاع البرتغاليين نحو البحر الاحمر ، انما توءكده عوامل صليبية اكثر منه اقتصادية ، ووضحت الاماكن المقدسة هدفا من الاهداف العسكرية (٣) لذلك ارسل المماليك الاساطيل الحربية الى البحر الاحمر والمحيط الهندي ، باحكام سيطرتها على اليمن الذي يتحكم في مدخل البحر الاحمر عن طريق باب المنذب لتكون قاعدة لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، واخذ البرتغاليون في المقابل توطيد قواعدهم الحصينة في الهند واشتد ضغطهم على المسلمين هناك (٤)

استقبل البوكرك مبعوث من الشاه اسماعيل الذي يحرض على كسب صداقة البرتغاليين كما وصلت البوكرك اخبار غير سارة عن تحركات شيخ عدن ، وانبياء

- (١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٢) محمد انيس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥ .
- (٣) غسان على رمال : نفس المرجع ، ص ٣٢٧ .
- (٤) نبيل رضوان : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

عن وفاة الحاكم المحلي لهرمز ، الذى عارض بشدة بناء قلعة برتغالية فى الجزيرة لكل ذلك ارسل البورك حملة تحت قيادة ابن اخيه بيرو الذى اسر عدة سفن عربية متجهة الى البحر الاحمر . ووصل الى هرمز بعد ان زار سوقطرة ، وتفاوض بيرو مع ملك هرمز بشأن تسليم القلعة او دفع الجزية المستحقة الا انه أخفق فى تحقيق ذلك وقدم تقريره الى عمه البورك الذى عزم على المضى بنفسه نحو هرمز والبحر الاحمر فقام استعدادات سريعة معلنا انه يفكر فى حملة على " مضاييق ميكا " . (١)

وفى فبراير ١٥١٥م (محرم ٩٢١هـ) غادر البورك جوا على رأس الحملة نحو البحر الاحمر الا ان الاحوال فى الخليج العربى وخاصة هرمز جعلته يتوجه رأسا اليها وان يتخلى عن البحر الاحمر مؤقتا ، وذلك بسبب نقض حاكم هرمز خوجنة عطار بعض نصوص المعاهدة السابقة بينه وبين البرتغاليين برفضه دفع الجزية المقررة عليه ، على الرغم من اعترافه بالتبعية البرتغالية .

ضرب البورك حصاره على هرمز وحاول خوجنة عطار التفاوض معه خوفا من تدمير المدينة ، وما ان بدأت تلك المفاوضات بين الطرفين حتى تجلت صورة اخرى من صور الحقد الصليبي ضد المسلمين ، عندما فاجأ البورك خوجنة عطار بطعنة قتلتة ، وامام هذا الموقف اضطر حاكم الجزيرة سيف الدين الخفـوع للبرتغاليين ، الذين فرضوا عليه قبول الحماية البرتغالية مع السماح لهم باشاء قلعة فى الجزيرة ، واخيرا دفعوا الجزية السنوية المقررة وعين بيرو (Pero) ابن اخ البورك حاكم برتغالى فى هرمز (٢) فى هذا الوقت وصل مبعوث من الشاه اسماعيل الصفوى حاملا معه بعض المقترحات للتفاوض مع البرتغاليين بشأنها ، وقد انتهت المفاوضات الى توقيع اتفاقية هرمز ١٥١٥م (٩٢١هـ) التى اقرت بموجبهـا ملك هرمز حاكما عليها باسم سيده ملك البرتغال ، وتعهد البرتغاليون فى المقابل

(١) السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٣ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٩ .

، سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ، ص ٤٧ .

بمساعدة الفرس على غزو كل من البحرين والقطيف ، كما تعهدوا بالوقوف الى جانب الفرس فى نزاعهم مع العثمانيين ، وكانت فارس قبلت التنازل عن هرمز للبرتغاليين بسبب الهزائم التى لحقت بها على يد العثمانيين فى اغقاب شالديران على امل ايجاد نوع من التفاهم والتعاون بينها وبين البرتغاليين لمواجهة العثمانيين الذين كانوا قد نجحوا فى الاستيلاء على عاصمتها تبريز وعلى امل قيام البرتغاليين بتزويد فارس بالسفن اللازمة لمد نفوذها نحو القطيف والبحرين على نحو ما ورد فى الاتفاقية المذكورة (١) ، بذلك اتم البورك تنفيذ نصف سياسته باغلاق الخليج الفارسى والسيطرة على مدخله (٢) ، عند ذلك قتل البوكيرك فى احدى المعارك البحرية ، وخلفه على الممتلكات البرتغالية لوبو سواريز ١٥١٥م (٩٢١هـ) ، الذى سار فى سياسته مخالفا لسلفه من حيث الشدة والعنف ولكنه كان اشره منه فى احتلاب ثروات البلاد واستغلالها اشع استغلال ، ومع ذلك ظل البرتغاليون متحكمين فى الخليج . (٣)

ظل الامراء الهنود المسلمون يشجعون السلطان الغورى على ارسال حملات بحرية للهند للقضاء على النفوذ البرتغالى الذى اشتدت وطأته ، فارسل الغورى حملة بحرية فى شهر اغسطس ١٥١٥ (رجب ٩٢١هـ) ، التى عرفت حينذاك بحملة الهند وعين الرئيس سلمان العثمانى قائدا . للاسطول على ان يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى نائب جدة . بمجرد وصولها الى هناك ، غير انه لم يقدر لهذه الحملة ان تصل الى هدفها النهائى فى الهند ، واجبرتها الظروف التى واجهتها امام السواحل اليمنية بالاضافة الى الظروف الاخرى على التوقف عند عدن . (٤)

نتيجة لذلك غادر سواريز جوا ١٥١٦م (٩٢٢هـ) الى البحر الاحمر للبحث عن الاسطول المملوكى السابق ولدى وصوله عدن رأى قائد المدينة نفسه ألا قبل له

(١) بدر الدين عباس الخصوصى : مرجع سبق ذكره ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) محمد عبد اللطيف البعراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

(٣) قدرى قلجى : مرجع سبق ذكره ، ص

(٤) فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢-٤٣ .

بالبرتغاليين ، فعرض عليه مفاتيح القلعة ، ورفض سواريز ذلك ، على امل ان يأخذ المدينة فى يوم اكثر ملائمة ، ومضى الى داخل البحر الاحمر ، ولم يجد أشـرا للاسطول المملوكى ، ولدى رجوعه احتل زيلغ الا انه غادرها ، على امل ان يأخذ عدن غير انه قد تحصنت هذه المرة قلاعها وزودت بالرجال ولم يفلح فى السيطرة عليها وبناء على ذلك غادر سواريز الى بربرة (Barbara) وهنا تحطمت اغلب سفنه بفعل الرياح (١) وغادر الى جوا مرة اخرى ، بعد ذلك ركن البرتغاليون فى مراقبة نشاط الاسطول المصرى فى البحر الاحمر وضرورة تحطيم ميناء جـدة وتوثيق الروابط مع ملك الحبشة المسيحى ، رحل سواريز من جوا عام ١٥١٧م (٩٢٣هـ) ، وعندما وصل امام عدن لم يهاجمها بعد فشله فى الحملة السابقة ١٥١٦م (٩٢٢هـ) ، بل طالب حاكمها بعض الامدادات اللازمة للحملة وبعض المرشدين لتوصيله الى جدة ثم ابحر سواريز باسطوله الى باب المندب فى مارس عام ١٥١٧م (ربيع الاول ٩٢٣هـ) حتى وصل الى جدة ، وكان قد وصل اليها قبل ذلك ليقليل الرئيس سليمان الرومى والامير حسين بعد فشلهما امام عدن وساد بينهما خلاف خطير (٢) فتحير من ذلك المسلمون ، " وخافوا خوفا شديدا وكان الامير سلمان ومعه مائتان من العساكر وعدد من الغربان التى جهزها الغورى الى مليبار لحربهم متروكة فيها فرماهم اهلها بالمدافع من البر فاصابت بعض مراكبهم ، فرفعوا شراعهم وارسو فوق العلم خوفا من المدافع ، ثم شردوا فأرسل الامير سلمان وراغهم سنوقيين فيها ثلاثون رجلا فأخذوا منهم غربانا صغيرا فى كمران وفيه اثنا عشر نفرا ووصلوا بهم الى جدة " . (٣)

فى هذه الاثناء انتهى حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) ، وانتقلت مسئولية الدفاع عن الاراضى المقدسة الاسلامية الى سلاطين الدولة العثمانية وحماية الاماكن المقدسة فى الحجاز واستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية ان تقضى على الخطر البرتغالى ، وعلى هذا الاساس شرع العثمانيون فى

(١) السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٧ .

(٢) محمد عبد اللطيف الحراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

، فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

(٣) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره ، ق ٢٢ - ق ٢٢ ب .

بسط سلطانهم على البحر الاحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الافريقى بضم
سواكن ومصوع وهرر (١) وهذا ما نلاحظه فى الفصل الخامس .

(١) نبيل رضوان : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٠ .

كانت تجارة البحر الاسود متوسعة فى المواد الغذائية مثل القمح والسمك والزيت والملح ، اذ تصدر تلك المواد الى الجزر الايطالية ، وكانت تحمل هذه التجارة بوساطة سفن البندقية ^(١) ، وكانت السفن المعدة لنقل هذه التجارة من النوع الاوروبى الشمالى ،والذى طور باضافة سارى آخر او على اشرة مربعة ومثلثة الشكل وهذا ادى بدوره الى توسع الاوروبيين بتجارتهم ، اذ كانت حملتها من ستين الى سبعين طنا ،ومنها طورت السفينة الشراعية الضخمة والتي تحمل حتى الالف طن ^(٢) ، من هنا بدأت الجمهوريات الايطالية تتغلغل فى داخل الحياة الاقتصادية لمناطق اوربا الجنوبية الشرقية من خلال المستعمرات المكتسبة فى البحر الاسود مثل كافا او جزر مثل قبرص ، وكانت تلك التجارة تدار بوساطة طبقة امتلاكية من اهل ايطاليا ، كما ان الجمهوريات الايطالية أنشأت مجمعات تجارية هامة خارجة عن نطاق السلطات القانونية للبلاد ^(٣) ، لذلك اغلقت الدولة العثمانية مجال النشاط التجارى فى وجه الايطاليين ، عندما استولت الدولة على موانئ البحر الاسود الشمالية كافا وازوف ثم كيليكيا واكيرمان وساعدها فى ذلك سيطرتها على الدردنيل ^(٤) . كما ان الصلات الثقافية بين العثمانيين والسكان المسلمين لمناطق شمال البحر الاسود ساعدت على تنشيط الارتباطات التجارية والاقتصادية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقامت الدولة العثمانية بانشاء علاقات تجارية مع روسيا ، شجعها فى ذلك العلاقات الطيبة بين خانات الكريمية والسلاطين العثمانيين والتي كانت حتى الثلاثينات من ١٥٠٠م (٩٠٦هـ) ، زاد اهتمام العثمانيين بالبحر الاسود ليتخذوا من موانئه اماكن آمنة لصناعة السفن ففتحوا طرابزنده وسينوت شرقا ، وكانت التجارة فى تلك الارحاء بيد تجار جنوه ، فتحولت تدريجيا الى العثمانيين ، وهنا ادرك العثمانيون بعد تشييت اقدامهم فى تلك المناطق والمضايق ما للقوة البحرية من اهمية لاسيما ان جمهورية البندقية

1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire the Classic Age P.129 .

2- Roger Lockyr: Habsburg & Bourbone Europe P.28 .

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P. 131-132 .

4- Halil Inalcik : . IBID' . Age P.129 .

5- IBID P.131 .

كانت لهم بالمرصاد فى شرقى البحر المتوسط ، اذ كانت لا تزال محتفظة بعدد من الموانى فى المورة والبانيا ، لذلك وجهت الدولة عنايتها بالاسطول ، واستولوا على جزر بحر ايجة واحدة تلو الاخرى ، وخاصة ما كان قريبا منها من مدخل المضائق ، ومازال العثمانيون يستعينون ببنائى البندقية التى سارعت الى عقد معاهدة دفاعية هجومية سنة ١٤٧٩م (٨٨٤هـ) مع السلطان العثمانى الذى انتزع منها جزيرة يويويا " نجرينت " والبانيا بأكملها ، وارغم البندقية على دفع مبلغ كبير لقاء الاذن لها بالاتجار فى الاراضى العثمانية ، وهكذا اصبحت معظم تجارة بلاد اليونان وجنوب بحر ايجة فى ايدي العثمانيين ، كما امكنت السيطرة على البحر الاسود وسينوب وترابيزون (٢) ، كما تحكم العثمانيون فى الطرق الرئيسية لشبه جزيرة البلقان وبالتالي تحكموا فى تجارتها (٣) ، وبهذا استندت الدولة العثمانية الى ممتلكاتها الاوروبية للمواجهة مع الصليبية فى البحار الجنوبية .

كانت الاناضول تمثل الطريق العام للتجارة الشرقية الغربية ، وتمكن بعض التجار من الجمهوريات الايطالية من مقابلة القوافل من الشرق الاقصى وايران فى باياس (Payas) فى الجنوب ، وطرابزون (Trebizond) فى الشمال كما سافر هؤلاء التجار الى سيواس (Sivas) وكونيا (Konya) ، كما ان هناك طريقا تجاريا قديما يربط تبريز فى ايران بكونيا عبر ارزروم (Erzurum) وارزنكان (Erzincan) وسيواس (Siras) ، ولم تقم الاناضول بربط اوروبا بالشرق فحسب ، بل كانت ايضا نقطة عبور لتجارة الشمال والجنوب بين خانات القبائل الذهبية فى اوروبا الشرقية والاراضى العربية ، وكانت التوابل والسكر واقمشة متنوعة من الجنوب تستبدل بالفراء من الشمال ، وقام الايطاليون بنقل هذه البضائع بحرا ، فى حين يقوم التجار المسلمون بنقلها برا الى كونيا وسيواس ، او من حلب الى قيسيرى وسيواس وسينوب (Sinop) وسمسون (Samsun) ، واصبحت المدن الوسطى للاناضول مراكز تجارية هامة ، الا انه مع سقوط امبراطورية الانحانيون

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٨ .

(٢) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٢ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(Ilkhanid) في إيران في القرن الرابع عشر ، ونهوض الدولة العثمانية في الأناضول ، انتقل الثقل السياسي والتجاري إلى الأناضول الغربية وسبب ذلك تغييرا في نمط طرق التجارة وأصبحت بروسة (Bursa) المركز التجاري والسياسي للدولة العثمانية ، حتى كانت أهم مدينة تجارية في الأناضول ومستودع بضائع التجارة الشرقية والغربية ، كما ارتبطت المراكز التجارية الأخرى في الأناضول مثل بلاتيا (Palatia) والتولووجو (AL Tolougo) ، وإيفريس (Ephesus) وسمرنا (Smyrna) (أو أزمير) ببروسة ، فوصلت القوافل الإيرانية إلى هذه الموانئ عبر بروسة (١) وعندما سيطرت الدولة العثمانية على هذا الطريق عندما توسعت الدولة شرقا ، لم تعد قوافل الفرس تتبع الطرق في تريزون وفضلت الطريق البري إلى بروسة ، وأصبحت المدن أماسيا (Amasya) وتوكات (Tokat) الواقعة على ذلك الطريق البري ذات أهمية اقتصادية وتجارية في الأناضول بعد برعسة ، وكانت تجارة الحرير الفارسي ركيزة تنمية وازدهار بروسة ، بعد ذلك تطورت صناعة الحرير الأوروبي ، إلا أنه زاد أهمية بروسة فأصبحت السوق الدولية لخامات الحرير وعندما توسعت الدولة العثمانية جنوب الأناضول ، انتعش الطريق البري القديم من حلب إلى القسطنطينية ، وكانت أشهر البضائع الهندية والعربية تسلك الطريق المذكور (٢) ، وساعدت تجارة البحر الأسود والبلقان والأناضول الدولة العثمانية في مواصلة فتوحاتها في أوروبا من أجل استرداد الأندلس ، وكانت التجارة السابقة عاملا مهما في تطور البحرية العثمانية وتأهيلها لضرب الأساطيل المسيحية الإيطالية .

وكانت الأراضي الفارسية معبرا آخر من معابر التجارة ، فقد وصل إلى الهند التجار الإيطاليون وعرف الأوروبيون ابن تنج التوابل ، بالإضافة إلى معرفة أسعارها ، وكانت معرفة الطريق السابق من قبل الإيطاليين الغرض منه ، حتى

1- Halil Inalcik: OP.CIT P. 121 .

2- IBID P. 124 .

إذا قطع عليهم الطريق الثانى واغلقت دونهم الاسواق الهندية لوجود دولــــة اسلامية معادية وللحروب التى لا تنقطع ببلاد المشرق، تجلى لديهم تماما عظم الغرض التى تنتظر اية دولة تستطيع ان تجد سبيلا جديدا لبلاد الهند .

اقترح الجنوبيون على صاحب فارس خطة يهدفون من ورائها الى تحويل تجارة التوابل مع ملبار الى الخليج الفارسى ومن ثم تحمل برا الى موانئ شرق البحر المتوسط، وحيث تمكن الجنوبيون من الحلول محل البنادقة، وكانت الفكرة تقضى بأن يبنى الجنوبيون اسطولا على الخليج الفارسى يفلق البحر الاحمر فى وجه التجارة الهندية، على ان ذلك الاقتراح لم يتحقق، ولكن جنوه لم تكف ابدا عن الشغوص بصرها نحو الهند . (١)

وكانت السفن التجارية تسلك طريق البحر الاحمر والخليج الفارسى الى موانئ الشام ومصر على البحر المتوسط فتجمعت فى اسواقها البضائع الشرقية والغربية، ودفع عبء نقل وتوزيع هذه البضائع على عاتق التجار العرب، وتجار الجمهوريات الايطالية (٢)، وهكذا يتضح ان العثمانيين كانوا يخوضون صراعا اقتصاديا الى جانب الصراع من اجل الاسلام ضد الروح المليبية .

وظل البحر الاحمر على مدى العصور عاملا فعالا لربط البلاد المحيطة به وكان طريقا للملاحة فيها ووسيلة للتبادل التجارى، فانتفع كل قطر بما يوجد لدى الآخر، وساعد ذلك على ازدهار الحالة الاقتصادية، وحينما تقدمت صناعة السفن وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقيّة بلدان الشرق الاقصى ازدادت اهمية هذا البحر، فقد ساعدت حركة الملاحة لمراكب الصين فى بحار الجنوب على ازدياد تدفق بضائع الشرق الاقصى الى عدن والبحر الاحمر لانها قديما لم تكن تتجاوز فى ابصارها غربا الشاطئ الجنوبى الشرقى للهند (٣)، وتولى اهاالى

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

، نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص ٣٧-٣٨ .

(٣) اجيبه يونان جرجس : البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربى والصراع العالمى، ص ٢٧ .

مسقط واليمن تلك التجارة ، الذين حافظوا على المعاملة والمواصلات المفيضة .
المثمرة سنوات بعيدة (١) .

ولم يقتصر دور البحر الاحمر والتجار المسلمين على توصيل تجارة ومنتجات هذه المناطق الى المشرق فحسب بل اصبح الممر التجارى ، لتمويل العالم الاوروبى بكل ما يلزمه من هذه التجارة ، وتلك المنتجات . وبالتالى اثر ذلك على بلاد الشرق الاوسط وأهالى المنطقة ، الذين جنوا ثروات طائلة سواء من دور تاجر البحار نفسه او خلال دور الممر التجارى والوسيط (دور المكوس والرسوم الجمركية) فظهر الازدهار فى هذه المنطقة واثار ذلك بالتالى فى العلوم والفنون والاداب ، بل انها اصبحت اكثر مناطق العالم ازدهارا ورفاهية . (٢)

كانت السواحل المغربية المواجهة للطلسى مناطق غنية بالاسماك ، وهذا ما يحتاجه الاوروبيون بالاضافة لكميات الذهب التى تجلبها القوافل المغربية من مناطق افريقية مجهولة تقع جنوبى المغرب ، وكان لهذا المعدن النفيس اغراء خاص بالنسبة للاوروبيين سواء بالنسبة فى اقتنائه او لاهميته فى التبادل الاقتصادى (٣) لذلك ازدهرت المناطق الشمالية لافريقيا من جراء تلك التجارة ، واثار بدوره على الحياة الاقتصادية للسكان .

وقامت عدة مراكز تجارية رئيسية فى غرب افريقيا منها ارجيوم (Arguim) ميناء (Mina) ، وكانت هذه المراكز عامرة بالتجار والوسطاء التجاريين ، وقدم اليها سكان القرى المجاورة ، واصبحت مزدهرة . (٤)

ادرك الاوروبيون فى هذه الفترة بان سيطرة المسلمين على طرق التجارة فى

1- S.B.Miles : Countries and Tribes of Persion Gulf P. 138 .

(٢) اجيه يونان جرجس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

(٣) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ص ٣٨ .

4- H.V. Livermore : A New History of Portu Gulf P. 136 .

البحر الاسود والاناضول والخليج الفارسى والبحر الاحمر والشمال الافريقى هى سرقوة المسلمين ومن هذا المنطلق كان اندفاع البرتغاليين والاسبان كل فى طريق حسب توجيهات البابوية ، وان كان لهذا الاندفاع الشديد اهداف فان من بين تلك الاهداف ما ادى الى انتقال المواجهة من البر الى البحر كاسلوب من اساليب المواجهة بين العالم الاسلامى والعالم المسيحى .

وظهر خطر البابوية ، عندما اصدر البابا اوامره الى جميع البلاد المسيحية الاوروبية ان تضع كل امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من اجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم والدين المسيحى ، بحيث صبغت الحروب الاسبانية فى افريقيا بالمبغضة الملبية الحقيقية ، لدرجة ان الكنيسة الاسبانية ارادت فى كثير من الاحيات اعتبار هذه المعركة خاصة بها ، ونحن عندما نقول ان تحويل التجارة كعامل اقتصادى لهدم العالم الاسلامى فالتقصيد هنا ان هذا فسى حد ذاته عامل دينى ، لان هدم الاقتصاد الاسلامى معناه هدم لقوة الممالىيك والعثمانيين اصحاب السلطة على الطرق التجارية وعنصر حيويتهم حتى يتمكنوا فيما بعد من التغلغل الى داخل المشرق العربى ، والحصول على المنتجات الاستوائية والشرقية دون الحاجة الى وساطة المسلمين . (١)

وقامت حركة الاستكشافات البحرية فى غرب اوربا ، ونجحت هذه الحركة فى العثور على طريق حول رأس الرجاء الصالح (٢) وبدأت البرتغال فى تنفيذ خططها لتحويل التجارة الشرقية ، كما اخذت فى وضع الاستراتيجية لذلك ، واقتضت تلك الخطة اقامة قواعد فى المحيط الهندى وهنا اختلفت فيها الاراء :

هل تكون فى تلك القواعد البحرية لتعزيز الاساطيل المنتشرة على طول الخط التجارى من الهند الى لشبونة ، او يلجئون الى قواعد برية معززة بحاميات عسكرية .

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ص ٢٠-٢١ .

(٢) اجيه يونان جرجس : مرجع سبق ذكره ص ٢٧ - ٢٨ .

شانيا : سد مداخل الخليج الفارسى عن طريق إقامة نقط ارتكاز فى تلك المداخل لمنع التجارة ومن ثم مهاجمة البحار الداخلية .
ثالثا : إقامة قواعد على سواحل افريقيا الشرقية لتأمين ذلك الطريق التجارى الطويل الى لشبونة . (١)

واستولى البرتغاليون على سوقطرة وجوا وهرمز بعد ذلك ، ثم سيطروا على سفالة وموزمبيق وهاجموا زيلع وبربره لكى يتم تحويل الطريق التجارى تماما الى رأس الرجاء الصالح (٢) واتبعوا لتحقيق ذلك وسيلتين ، فالاولى عن طريق اعتراض السفن الاسلامية بكافة انواعها فى عرض البحر سواء كانت متجهة الى البحر الاحمر او الخليج او خارجة منها . اما الوسيلة الثانية فكانت عن طريق تخصيص دوريات مسلحة للتحول امام تلك المداخل السابقة الذكر (٣) ولم يكتف البرتغاليون بذلك وانما اخترقوا مناطق تصدير التوابل ، لتؤكد سيادتهم على منابعها فكانت القرفة تنمو فى سيلان فاستولوا عليها ، اما بالنسبة للمواد الاخرى مثل الفلفل الذى تزرعه جاوا (Jawa) وسومطرة ، والشوم الذى يقدر بثمن باهظ عن بقية التوابل كان يجمع فى مولكس (Molucus) ، اما منتجات بربينو (Borneo) فكان جوز الهند ومشتقاته وكل المنتجات السابقة تصل من تلك المناطق عن طريق البحر عبر مضيق ملقا (Malakka) الذى يفضل شبه جزيرة ملايو عن سومطره (٤) ، لذلك قاموا باحتلال تلك المناطق ابتداء من ملقا .

ولما كانت المكاسب لا تحقق عن طريق جلب بضائع الغرب وشراء البضائع الشرقية بالمقابل وذلك لان التجار الاسيويين كانوا يدركون جيدا كيفية استغلال التاجر الذى يأتى من بعيد ويكون فى عجلة للعودة الى بلده ، فكانوا يشترون بأبخص الاسعار ويبيعون له بضائع باعلى الاسعار ، فطن البرتغاليون لهذه الحقيقة

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠-١٨١ .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

(٣) غسان على رمال : نفس المرجع ، ص ٢١٦ .

فأقاموا مخازن على الشواطئ لتخزين بضاعتهم حتى تحين الفرصة للبيع بأسعار مناسبة (١)، ومنحت الحكومة البرتغالية تصاريح للسفن الإسلامية، وكان البرتغاليون في بداية الأمر يراعون هذا التصريح فلا يتعرضون للسفن التي تحمله، ثم تطور الأمر وأصبحت المراكب البرتغالية تمارس أعمال القرصنة في البحار، ولم يعهد التصريح إلا إجراء شكلى فما إن تخرج السفن الإسلامية إلى عرض البحر حتى يهاجمونها حتى لو كانوا حاملين تصاريح (٢) وأجبر البرتغاليون التجار المسلمين على الاتجاه إلى هرمز ودفع الضرائب على تجارتهم، وعلى الرغم من أن تحركات التجار العرب وتنقلاتهم بين موانئ المحيط الهندي أصبحت محفوفة بالمخاطر. إلا أن البرتغاليين تعمدوا وبصورة مركزة على محاولة قفل كافة الأبواب أمام التجار العرب والاستيلاء على كافة المراكز التجارية التي يلجأون إليها، كما أحسوا بوطأة البرتغاليين الذين عمدوا إلى محاولة دفع المسلمين إلى بحارهم الداخلية وإغلاقه عليهم، والدليل على ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا إلى كاليكتا وبدأوا في اعتراض السفن الإسلامية أمام السواحل الهندية هاجر معظم التجار العرب والافارقة متجهين إلى ملقا وسيلان لنشر الإسلام، التي ما لبثت أن تعرضت للغزو البرتغالي (٣).

عندما علمت البندقية بأن البرتغاليين أفلحوا في الدوران حول رأس الرجاء الصالح وتعطلت السفن الإسلامية في الوصول للبحر المتوسط، فكروا في فتح قناة عبر برزخ السويس ولكن هذا لن يحيى تجارتهم، حتى بالمنافسة مع رأس الرجاء الصالح، لأن الطرق البرية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسي سيتحكم عليها البرتغاليين ولن يسمح للبنادقة أو لغيرهم بتنفيذ ذلك (٤).

1- Sir George Clark : Early Modern Europe P.62 .

(٢) نوال حمزة صيرفي : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٩ .

(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١١-٢١٧ .

4- Sir George Clark : IBID P. 74 .

ازداد خوف البنادقة من ان يفقدوا دور الوساطة التجارية الذى كان يلعبونه فيما يتعلق بالتجارة الشرقية ، واخذوا فى حث المماليك فى القاهرة على القيام بجهد مشترك ضد البرتغاليين الذين شكلوا خطرا على مستقبل المدن الايطالية كما طالبوا بخفض المكوس التجارية (١) المفروضة على البضائع الشرقية .

وكانت مصر قد اصبحت بضربة اقتصادية شديدة نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وحرمانها من تجارة الشرق الغنية (٢) ، فتوقفت العوائد والرسوم الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانئ مصر والشام والحجاز (٣) ، وبدأ الفقر يخيّم على المنطقة ، واثّر على مستوى المعيشة فانصرف الناس عن العلوم والفنون الى البحث عن قوت يومهم ، اذ انه من المعروف أن العرب قد نجحوا نجاحا بالغا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى بحارهم الجنوبية ، وكان ذلك كفيلا بأن يقودهم نحو نهضة كبيرة وقوية ، كما اخذت السفن الايطالية تنقل من الوصول الى موانئ مصر والشام ، واخذت توجه انظارها الى لشبونة وخربت الكثير من الطرق التجارية البرية والتى زاعت شهرتها الافاق ، بما كانت عليه من طرق معبدة وحراسة دائمة وخدمات متوفرة ، وتوقفت القوافل البرية التى كانت تغدو بين الشرقين الادنى والاقصى ، وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق واصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك (٤) واصيبت موانئ السويس والاسكندرية والبصرة وطرابلس لبنان وكلها مراكز للتجارة مع الخليج العربى فى الصميم ، كما ان المشاكل المالية والاقتصادية المترتبة على الضغط البرتغالى جعلت من الصعب بالنسبة للمماليك ان يبنوا اسطولا بجهودهم الخاصة لمواجهة البرتغاليين (٥) كما تغيرت الظروف العامة فى المنطقة ، وفى الوقت الذى لم يجد فيه الفلاح مناصا من العمل فى هذه الظروف الصعبة ، حاول

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs Vol . 2 P. 83 .

(٢) محمد عبد اللطيف البهراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ .

(٣) فاروق عثمان اباطة : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

(٤) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

، غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢-٣٣٣ .

(٥) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

الحكام والمسيطرون ان يحافظوا على مستوى معيشتهم ولم يجدوا سوى الارض والفلاح امامهم وسيلة للحصول على ما يلزمهم من موارد. فزاد العبء اضعافا مضاعفة على الفلاح، ولم تسمح له الظروف بالتحرك او التملل، واستمر في فقره وعجزه عن مواجهة الامراض والابوئة وانقطعت صلته بالعالم، وبدأوا رحلة على طريق التخلف والخضوع للتحكم وللاقطاع والاستغلال. (١)

قرر السلطان الغوري نتيجة لذلك ارسال بعثة برئاسة الاسقف ماوروس دي سان برناديو (Mourus Disan Bernadina) رئيس دير جبل صهيون بيست المقدس ومعه راهبان الى ملوك اوربا وبابا روما للوقوف على الاحوال السياسية بصفة عامة، وحث البابا على اقناع البرتغاليين بوقف اعمالهم العدوانية ضد مصالح السلطان في الهند، ووصل ماوروس الى البندقية في ١٥٠٤م (٩١٠هـ) ومعه خطابات للدوق لطلب مساعدات حربية للسلطان المملوكى لمقاومة البرتغاليين في مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكى اسبانيا والبرتغال والبابا وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الاسقف ماوروس، الذى عرض طلب السلطان المعونة الحربية والتأييد الادبى لدى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية في الهند او ارسال اسلحة للسلطان لمقاومة البرتغاليين فى حالة فشل المفاوضات لوقت اعتدائهم، واعلن ماوروس كذلك استياء السلطان فى موقف الملك القطلونى من المسلمين فى الاندلس والمضاربة فى الشمال الافريقى، واجبارهم على ترك دينهم او الموت، ورد السناتو على مبعوث السلطان بأن الاضرار التى لحقت السلطان قد اصاب البندقية، واعتذر عن الكتابة للبابا ولملك البرتغال حتى لا تنتهم البندقية بمساعدة المسلمين (٢) وكانت البندقية قد هداها تفكيرها فى هذا الوقت الى مشروع تجارى جديد يدور حول استخدام الطريق البرى من ايران الى تركيا، وارسلت البندقية بعثة دبلوماسية الى ايران لمفاوضة الشاه حول هذا المشروع، لكن الدولة العثمانية قبضت على هؤلاء الرسل وهم فى طريقهم الى ايران. (٣)

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٢) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٧-٧٨ .

(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ١٢٣ .

واصل مانيوس رحلته وقابل البابا فى روما الذى انزعج من تهديدات السلطان للمسيحيين والاماكن المقدسة المسيحية واسرع بارسال مانيوس ومرافقيه الى فردناند الخامس ملك قطلونيا وعمانويل ملك البرتغال ، وهناك اوضح الاسقف لهما مضمون مهمته ، فارسل عمانويل خطابا للبابا يطمئنه ، وان لا يلقى بالا لتهديدات السلطان لانه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ هذه التهديدات ، كما ان لا يستطيع القيام بأى عمل تعسفى ضد المسيحيين فى بلاده او ضد الاماكن المقدسة المسيحية لانه يجنى من ورائها رسوما طائلة فى مواسم الحج ، واذاف انه فى حالة تنفيذ السلطان لتهديداته فان الاسطول البرتغالى سيدخل البحر الاحمر ويهاجم الاماكن المقدسة الاسلامية كاجراء مضاد وفى نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الدينى والاوروبى فى صراعه مع المماليك . (١)

اتبع البرتغاليون بعد ذلك من قواعدهم المكتسبة بافريقيا الشرقية وآسيا سياسة متأنية ، وفى المدى القصير سياسة ناجحة للغاية فى ازالة جميع المصالح الاسلامية من تجارة التوابل ، وكتب معاصر مبعوث برتغالى " ضيق الخناق على محمد فلا يستطيع ان يتقدم الى الامام بل يفر بقدر استطاعته ... ، والحقيقة ان محمد سوف يدمر ، ولا يستطيع ان يفر عن ذلك ... " (٢) .

تدفقت التجارة الشرقية على لشبونة العاصمة البرتغالية ، وطاف مبعوثهم فى اسواق اوروبا لاستمالة شركاتها التجارية الى لشبونة ، وتنازلوا عن الكثير من ارباحهم وعن الرسوم الجمركية تشجيعا لوصول تجار اوروبا الى اسواقهم وخطوا خطوة لتدعيم مركزهم التجارى فى شمال اوروبا بتوزيع المنتجات الشرقية بانفسهم وخاصة فى الاراضى الالمانية وبنفس الاسعار امعانا فى هدم تجارة مصر . (٣)

ادرك البرتغاليون جدوى فصل البندقية عن دولة المماليك فى سبيل ضرب

(١) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ص ٧٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.107 .

(٣) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٧٢ .

اقتصادها، خاصة وانها لم تكن تتورع عن تقديم اى عون يحتاجه الممالىك^(١)، فأرسلوا وفدًا للبندقية، يعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار لتسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من اسواق لشبونة على ان يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم فى اسواق اوروبا كما كانوا يفعلون، بدلاً من اصرارهم على ارتياد اسواق مصر المرتفعة الاسعار والتي بدأ ينضب معينها، ولكن كبرى البندقية وعظمتها منعها من الاستجابة لهذا النداء، حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ولكنها فى الوقت نفسه لم تغفل ارسال مبعوثيها الى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات الهند المباشرة ومواعيد مغادرتها وقدمها، ومراقبة مشروعات البرتغاليين المستقبلية، ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد.^(٢)

من خلال ذلك اتضحت اهداف البرتغال الاقتصادية، وبصورة ادى ضد مصر من خلال ما دار من مناقشات بين البنادقة والبرتغاليين، حددوا فيه اهداف بلادهم الاقتصادية ضد مصر والتي تتلخص فى النقاط التالية :

أولاً : الضرب على ايدى التجار العرب والمصريين والاقبال من ثروتهم وبالتالى حتى يتمكنوا فى الانتقام منهم سياسياً ودينياً، ثانياً : فتح باب جديد لشراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته، ومن هنا نرى ان المشروع الكاثوليكية كانت تسيطر على كافة المشاريع البرتغالية فى المشرق الاسلامى، لان المذهب الكاثوليكي هو اقدم المذاهب المسيحية الاوروبية، والذي حمل الراية التقليدية فى حقد الاوربيين على الاسلام، وباعتبار البرتغاليين انهم انفردوا بالامر فى المشرق، فقد ظهر عليهم ذلك الحقد الدفين من خلال ما قاموا به من مجازر ومذابح اينما حلوا.^(٣)

وازدادت البضائع الشرقية فى البرتغال، وقام اتصال مباشر مع المنتجين للتوابل، وافتتحت اسواق جديدة للبضائع الاوروبية وكانت المبادلات التجارية

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية، ص ٧٢ .

(٣) غسان على رمال : نفس المرجع، ص ٢٢٠-٢٢١ .

(١) مدفوعة بالذهب الخالص والفضة ، التي بدورها ساعدت على امتداد التجارة مع الشرق كما تدفقت بضائع الارض الجديدة. واخذت القوة الاقتصادية دفعة كبيرة ، ومن اهم تلك الاشياء التبغ والبطاطس ، بالإضافة الى السكر وفوق كل ذلك كانت هناك بضائع اشرت تأثيرا مباشرا على الحياة الاقتصادية مثل المعادن النفيسة (٢) تضاخمت الارباح لدى البرتغاليين نتيجة لتدفق البضائع الشرقية وبضائع الارض الجديدة فى الأمريكتين بالإضافة الى التدابير الاقتصادية التى اقيمت ضد العالم الاسلامى كل ذلك ادى الى قيام نشاط رأسمالى كبير ، بالإضافة الى قيام البيوت المالية والمجتمع المالى بدلا من المجتمع الزراعى والاقطاعى ولعل ذلك مؤشرا واضحا لقيام العصور الحديثة وانتهاء العصور الوسطى ليس ذلك فى البرتغال وحده وانما يضاف اليها غرب اوروبا .

وافتح الملك البرتغالى مستودعات تجارية تمونها لشبونة، ومن ثم تقوم بتوزيعها على كافة الدول الاوروبية ومن اهم تلك المستودعات هى أنشورب فى الاراضى المنخفضة وانتشورب اشتهرت ، بمهمة توزيع التوابل على السواحل الشمالية لاوروبا ، وبلغ من ثراء البيوت المالية بها ان عمدت الى مد البرتغال بالاموال اللازمة لاعداد الحملات الى الهند ، اما انفرس فقد اشتهرت بانها اكبر مركز تجارى فى اوروبا ، ذلك ان لشبونة كانت تعتبر المخزن الرئيسى ، اما انفرس فكانت بالنسبة للبرتغاليين السوق الرئيسية لتوزيع تلك الاطنان الكبيرة التى كانت تصل الى ارفعة ميناء لشبونة .

قامت الحكومة البرتغالية لتدعيم الخطة الاقتصادية بوضع نظام دقيق لتجارتهم ، فكانت هناك حكومة دول الهند وهيئات مكلفة بالادارة الاقتصادية فى لشبونة ، التى كانت تشرف على تحديد الاسعار للسلع المصدرة واصبحت تجارة بعض السلع خاصة بالتوابل احتكار لملك البرتغال ، ولا يحق لاحد المتاجرة بها دون تصريح برتغالى بعد دفع الضرائب ، حيث تصل الى لشبونة ومنها توزع

1- H.G.Koenigs Berger and Georg Mosse : Europe In the Sixteen Century P. 46 .

2- Sir George Clark : Early Modern Europe P. 74 .

الى اوروبا . (١)

انتهى نتيجة لذلك دور رجال البندقية والعرب كموردين للسوق الاوروبى على الرغم من خبرتهم الطويلة وامتلاكهم لطريق قصير فى البحر الاحمر والخليج الفارسى ، فاعتقد الخبراء فى البداية ان التوابل ستلتف اثناء الرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح ، الا أن البرتغاليين الذين تورطوا فى حروب بحريّة لا آخر لها مع العرب فى المحيط الهندى وجدوا ان ما فوق رؤءوسهم يتصاعد وفى النهاية تحول النصر الى حقائق صعبة من الكفاءة البحرية والتجارية . (٢)

امتدت الامبراطورية البرتغالية ، واستقرت فى الارض التى امتلكها فاستهلكت الثروة التى جمعوها ، فقد عانى الملك البرتغالى من ذلك ، اذ كان مسؤولا عن دفع مرتبات الجنود والموظفين الاداريين وموظفى الجمارك والمحاسبين والذين يشكلون اساس هيئة الموظفين البرتغالية ، وكانت اعباءهم جسيمة مما اضطر الملك البرتغالى الى تخفيض مرتباتهم ولكن هذا شجع الموظفين البرتغاليين على الاشتغال فى تجارة السوق السوداء فتستروا على التهريب حتى يوفروا العملة لهم ، ومع الايام الاولى كان الثراء الشخصى الهدف الرئيسى للذين يديرون دفة الامبراطورية ولا يستطيع التاج ان يفرض بطريقة عملية سلطنة على الموظفين المخففة رواتبهم والمنتشرين على نصف العالم (٣) ، وبصفة عامة كان لتحول التجارة عبـر رأس الرجاء الصالح اثره الفعال فى ازدهار امم وانهيـار امم ، والواقع انه كان ازدهار لاوروبا التى انتقلت من العصور الوسطى الى الحديثة ، وكان ازدهارها فاق العالم الاسلامى قبيل تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، وفى السابق كانت سلع الهند تاخذ طريقها عبر الخليج الفارسى والبحر الاحمر ، وما ان تصل الى موانئ الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكوّن السلع قد بيعت باضعاف سعرها من مصدرها ، واصبح الفرق هنا ان البرتغاليين هم اول من تلقى ارباح وصول

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

2- H.G.Koenigs Berger and George .L.Mosse : Europe in the sixteenth Century P.47 .

3- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon Europe P.38 .

التجارة الى موانئهم ومن ثم قاموا بتوزيعها فى اوروبا بأسعار مخفضة
اقل كثيرا من اسعارها خلال العصر المملوكى .

بهذا العرض استكشفنا ان الدولة العثمانية كانت فى هذا العصر من
تاريخها فعلا فى مفترق الطرق ، وبدأ لنا حجم التحولات والاضطرابات الطائفة التى
تعرض لها العالم الاسلامى وخاصة على حدوده الجنوبية ، وكان على العثمانيين
ان يضعوا خططهم لاسترداد الاندلس ، خلال ذلك الخضم من التطورات التاريخية
التي انتقل فيها التوازن الدولى من البر الى البحر .

...

الفصل الثالث

(الفصل الثالث)

" شارل الخامس والامبراطورية الرومانية المقدسة "

- أ - الاستعمار الاسباني في امريكا الوسطى والجنوبية - تدفق الفضة على اسبانيا .
- ب - اثر ظهور البروتستنتية في شمال اوروبا .
- النشاط الكاثوليكي المضاد - الروح الصليبية .
- ج - الجيوب الصليبية على الساحل الافريقي الغربي الشمالي .
- د - اهداف شارل الخامس الصليبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

كانت جنوة قد استولت على مدينة جيغل فى اواسط القرن الرابع عشر، ووضعت بها حامية، وجعلت منها مركزا للتبادل التجارى بين ايطاليا وافريقيا، ثم تضاءل اهمية المركز التجارى شيئا فشيئا، وتغلب اهل البلاد على الحامية. (١)

بدأ السباق البحرى (الجهادى - القرصى) بعد ذلك على السواحل المغربية وقد تعلق اساسا بالمقاومة الاسلامية المغربية بالاندلس، حتى انه كان احد الاسباب التى وقفت وراء احتلال البرتغال لسبته (٢)، وكانت مدينة سبتة تتحكم فى المضيق كمركز لاغاشة دول الاسلام بالاندلس، كما كانت من الناحية التجارية المركز الاول فى هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من اجل المرافئ الاسلامية الشرقية والاندلسية وغيرها فكان الاستيلاء عليها يسهل لعب البرتغال الطامعين فى الاسواق الخارجية، ثم بدأت اساطيل البرتغال تحاول تحقيق تلك الاهداف، فتوجهت صوب سبتة التى اشتبكت مع رجالها فى حرب مستميتة، سقطت بعدها المدينة بين ايديهم، ورفعوا بها علمهم وتركوا بها حامية، وكما هو معهود فى البرتغال فى اقامة التحصينات الفولاذية فى مواقعها من البلاد التى تتعرض لاحتلالها، فقد اقاموا تحصينات دفاعية فى سبتة اثر احتلالهم لهما. (٣)

كان احتلال البرتغاليين لهذا الموقع الاستراتيجى الهام امرا بالغ الخطورة للمسلمين، لان احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الاسباب التى اعاقت سكان شمالى افريقية عن تعزيز القوات الاسلامية فى الاندلس عن طريق بوغاز جبل طارق، ولذلك حرص البرتغاليون والاسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ثم احتل البرتغاليون مدينة طنجة فى غربى سبتة لاحكام الحصار حول المعبر الجنوبى لشبه جزيرة ايبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق. (٤)

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦ .

(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٥ .

(٣) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة، ص ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٩ .

(٤) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠ .

ازدادت حركة النزول البرتغالي عنفا ، فجهر الملك البرتغالي الافرغونش الخامس اسطولا كبيرا ونزل بالقصر الصغير بين سبتة وطنجة (١) ثم استقل البرتغاليون الاضطرابات الداخلية في المغرب وتمكنوا من اخذ اصيلا عنوة معززين بأربعماية وسبع وسبعين سفينة وثلاثين ألف رجل واضطر محمد الشيخ الوطاس الى عقد اتفاق يقضى باقامة هدنة مدتها عشرون سنة تقضى بعدم الهجوم على المراكز البرتغالية المحصنة وتلقب ملك البرتغال بعد ذلك بلقب :

(Rei de Portugal Ados Al Garves Daqueuse dalem mor en A frie)

ولم يتمكن السلطان الوطاس رغم حزمه من بسط نفوذه الا على جهة فاس ، اذ خرج على طاعته البربر في الجبال واصحاب الطرق الدينية في الجنوب ، ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس في مقاومة الكفار ، واعترف القشتاليون للبرتغاليين بمقتضى اتفاقية بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء " جزر كناريا بما فيه مملكة فاس ، كما مكنوهم من احتكار التجارة ورغم فشلهم الذريع في الاستيلاء على جزيرة لكوس (Loukkos) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الاربعة في سبتة والقصر الصغير وطنجة واصيلا (٢) ، وهكذا نجحت البرتغال في التطور بهذه العلاقات من معالم الصفحة التاريخية (الجهادية - الطليبية) الى معالم الجاذبية الاستعمارية في معاملاتها التجارية والسياسية مع شيوخ القبائل والسلطات المغربية وظهرت معالم هذه السياسة واضحة عندما عقدت الاتفاقية السابقة مع محمد الوطاس ، كما طبقت البرتغال وبنجاح ذلك الاسلوب من المعاملات في الجنوب المغربي ، واتخذت من علاقاتها التجارية بالقبائل حول ازمور واسفي واكادير مدخلا اساسيا لفرض حمايتها السياسية والعسكرية على شيوخ هذه القبائل ، ومن ثم مقدمة للتوسع في سلسلة جيوبها الاستعمارية في هذه المدن الساحلية . (٣)

ازداد انحلال دول شمال افريقيا وتفاقم الامر اثر الخلافات بين الجزائر والمغرب وتونس وبين سكان الجبال والسهول ، وبين السكان الاصليين والوافدين

(١) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٣ .

(٢) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج٢ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٠ .

الجدد من الاندلس، وفي الواقع كانت شمال افريقيا ارضا غير مناسبة للحرب، كما ان سكانها كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحديثة، فاستغل الاسبان تلك الخلافات الداخلية وامكانياتها في الاخذ بنصيبهم في الشمال الافريقي. (١)

كانت هناك عوامل اخرى دفعت الحكومة الاسبانية الى تأسيس جيوب صليبية على سواحل شمال افريقيا، ونتيجة ازدياد الروح الوطنية بين الاسبان بعدما ان تمكنوا من القضاء على الدويلات العربية في الاندلس واخراج العرب منها ورغبة الاسبان في مطاردتهم للتنكيل بهم ومطاردة معتنقي الاسلام اينما وجدوا علاوة على ذلك فان الاسبان ورثوا الحضارة العربية، التي كانت قائمة في بلادهم وعرفوا التكتيك العربي بعملهم في السفن العربية وبسبب ذلك تمكنوا من اكتشاف امريكا وادى هذا الى شعور الاسبان بالقوة والسيادة، كما رغب الاسبان في احتلال قواعد في الشمال الافريقي لامتلاك الموانئ والاسواق التي يستطيعون منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد اليها عن طريق القوافل من وسط افريقيا، ولمزامحة المدن الايطالية جنوة والبندقية والتي استغلت واختكرت التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة. (٢)

توفرت لدى الاسبان ومن قبلهم البرتغاليين الاسباب الكافية لمحاولة مد نفوذهم الى المغرب وقد عزز من هذا الاتجاه الاوضاع الداخلية في البلاد، اذ كان الحكام في تلك البلاد في حالة من الضعف والعجز لا تسمح لهم بمقاومة تذكر للتعديلات البرتغالية والاسبانية. (٣)

جهزت اسبانيا بضغط من الكنيسة، وتشجيع من الراهب خيمبئس اسقف طليطلة جيشها واسطولها لغزو المغرب العربي، وبادر البابا باصدار قرارا يعطى به الولاية لملك اسبانيا على كامل الارض التي يفتحها بهذا الغرض، كما سبق

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 41 .

(٢) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، ص ١٥٩ .

(٣) ب . ج . ٠ روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ص ٣٨ .

وان اصدر البابا نفسه اسكندر الرابع عهدا يبارك به الصليبية الاسبانية بافريقيا ، عندما بدأ التفكير الجدى فى احتلال المغرب العربى (١) كما سمح البابا بمدامة جباية الضرائب لتغطية تكاليف تلك الحرب . (٢)

تم الاتفاق بين اسبانيا والبرتغال على تقسيم شمال افريقيا وذلك بمقتضى معاهدة توردي سيلاس والتي قسمت بمقتضاها المغرب الى منطقتين الاولى تقع شرق حجر باديس ويتولى الاسبان فيها بمهمة الاستيلاء عليها ، والثانية تقع غرب هذه النقطة وقد تركت للبرتغال (٣) ، وكانت تلك المعاهدة قد طبقت فيها النظرية الاستعمارية وهى ان كل طرف لا ينازع الطرف الاخر فى وصوله للهند وهى من سمات العصور الحديثة ..

كان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل الشمال الافريقى واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خضعتهم المعاهدة السابقة بكامل مملكة فاس بالتخلي عنها لقائدهم ، وبعد استقرار الامور فى اسبانيا احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) بدون اية مقاومة ، ومن هناك تتبع الاسبان تفاقم الصراع بين الوطاسيين والاشراف السعديين . (٤)

اهملت اسبانيا الجبهة الجديدة ضد الاسلام فى الشمال الافريقى لفترة مؤقتة واكتفت فى البداية بالاستيلاء على مليلة وكان الاسبان قد خافوا ان يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، ويستردوا مجدهم السابق ، وكان خوفهم على الاخـص ان تمتد يد المساعدة الاسلامية من الشمال الافريقى لاولئك المسلمين المقاومين الذين قوض الاسبان سلطاتهم ، ولجأوا الى جبال البشرات بدينهم وايمانهم وعزمهم يزودون عن الاسلام بسلاحهم حتى الموت . (٥)

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ - ٨١ .

2- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 41 .

(٣) محمد بن عبدالسلام ابن عبود : تاريخ المغرب ، ج٢ ، ص ١٥ .

، صلاح العقاد : المغرب العربى ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤) شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٢٥٥ .

(٥) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ٨٤ - ٨٥ .

قامت الإنتفاضة الاولى للمسلمين فى منطقة البوشرات ، وبمجرد قيامها تيقنت اسبانيا بالخطر الداهم عبر شمال افريقيا واشعل ذلك الشعور الدينى الى قيام حماس الاوروبيين ونشأة متطلبات جديدة لاقامة حرب صليبية ضد الاسلام ، وسانسد الاساقفة الدينيين الملكة هذا الشعور، الا انه لم تتخذ اية خطوة ايجابية حتى وفاة ايزابيلا ولم يبق سوى تنفيذ وصيتها الاخيرة الى زوجها وهى ان يكرس جهوده فى فتح افريقيا وعلى ما اسمنه حرب الايمان ضد العرب . (١)

توالى الهجمات المسيحية على الشمال الافريقى وصارت الحالة تدعو الى اليأس فكانت فى اشد الحاجة للانقاذ لاسيما وقد تجددت الدعوة فى اوربا الى اتحاد المسيحية لتجديد الحرب الصليبية وتنفيذ وصية ايزابيلا . (٢)

قامت حكومة مدريد بأول محاولة لتنفيذ تلك الوصية واختير ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر لنزول اولى هذه الحملات الاسبانية ، ويبدو ان اختيار هذا الميناء كان رداً على غارة قام بها بحارته على شاطئ بلنسية (٣)، علاوة على ذلك اهمية الميناء التجارية ، اذ كان من عادة سفن البندقية ان تلجأ الى المرسى الكبير عند تلبد الجو ، وترسل بضائعها فى قوارب الى وهران واذا كان الجو صحواً قصدت ساحل وهران مباشرة (٤) كما يعتبر ميناء المرسى الكبير قاعدة استراتيجية لها اهميتها فى عملية تسهيل الهجوم على وهران من قبل الاسبان . (٥)

اجرت الحملة الاسبانية من مالقة ٧ ربيع الاول ٩٠٩هـ / ٣ سبتمبر ١٥٠٥ م ، متوجهة نحو الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط ورسى تجاه المرسى الكبير الذى احتلته فى ١٤ ربيع الاول / ٩ سبتمبر، ثم كانت بعدئذ معركة قريبة مرغيين

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P. 41 - 42 .

(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربى فى سبعة قرون ، ص ١٨٦ .

(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره، ص ١٧ .

(٤) الحسن بن محمد الرزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣١ .

5- J.HElliott: Imperial Spain P. 42.

الواقعة على بعد خمسة عشر كيلو متر من وهران ،وانهزم الجيش الاسباني ،وفسر الى المرس الكبير ومعتصمين بأسواره ،ثم توالى الحروب والهزائم الاسبانية على السواحل المغربية (١)، واتجه اهتمام الحكومة الاسبانية وعلى رأسها القائد (Cisneros) الى الاوضاع الداخلية والحروب الايطالية . (٢)

وجه فرديناند الكاثوليكي ملك الارغوان اهتمامه الى الحروب الايطالية لان مسألة افريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية بالنسبة له وعندما ظهر الكساد على الشؤون الايطالية بعد ١٥٩٥هـ / ١٥٠٩م ،كان على فرديناند ان يتدخل وبشكل حازم في افريقيا ولكن بعد دراسة حساب وضعية الخزينة والتلا تسمع بتدخلات حربية لا مغنم منها ،لذلك لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها ،ولا يمكن فهمها بدون ربطها بسياسة اسبانيا العامة . (٣)

كانت سواحل اسبانيا عرضة لغزوات المسلمين ،والتي كانت تنطلق بصفة خاصة من وهران والجزائر وبجاية ،ولذلك كانت تخرج المراكب الاسبانية تغزو سواحل افريقيا الشمالية وتنهبها ،وكان احتلال الشمال الافريقي قد بدا شيئا ضروريا لاسبان ،تدعو اليه اسباب سياسية واقتصادية ،وفي نفس الوقت اسباب دينية . (٤)

تولى بيدرو نافارو (Pedro Navarro) قيادة الاساطيل الاسبانية فقام بالاستيلاء على حجر باديس (Penon de Velez) الواقعة في سواحل المغرب الاقصى سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ،وفي العام التالي هاجم وهران ونجح في اقتحام اسوارها بسهولة لخيانة القاعدين المسؤولين عن حراسة وهران ،ثم قام الاسبان بارتكاب اعمال وحشية اشرف عليها الكاردينال خيمينس اسقف طليطلنة بنفسه فقتل اربعة آلاف وارس ضعف العدد ،وقام بتحويل مسجدين الى كنائس وعيّن دون ديجو قائدا عاما لمدينة وهران والمرسى الكبير ومملكة تلمسان ويدل ذلك على ان الاسبان كانوا مصممين على احتلال تلمسان ،ولكن النفقات الكثيرة حالت دون

- (١) عبد الرحمن الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ،ج٢ ،ص ٢٠٣ .
- (٢) J.H.Elliott: Imperial Spain P. 42 .
- (٣) شارل اندري جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٢٢٤ .
- (٤) اتوري روس : ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١م ،ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٥) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥ .

توسيع دائرة الاحتلال^(١)، وكانت الدولة الزيانية فى تلمسان قد بلغت اذل العمر حيث لم يعد نفوذها يتجاوز اطراف المدينة، بينما تكونت امارة قبلية متعددة فى شرق المغرب الاوسط وجنوبه، لا تهتم بغير التطاحن فيما بينها، لذلك لم يجد الاسبانىون صعوبة فى الاستيلاء على اهم الموانى المرسى الكبير ووهران ومن بعدها تنس وبجاية والجزائر ومستغانم^(٢)، وكان سقوط المرسى الكبير ووهران خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتان الشعب طرد الملك ابا حمود وعينوا احد اعمامه واعمام ابيه ابي عبد الله المدعو ابا زيان، ولم يعد تجار البندقية يقصدون وهران لكونها مليئة بالجنود الاسبان، فطلب منهم اهل تلمسان أن يأتوا الى هنيين.^(٣)

انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الدعوة الى الولاة والروءساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الفاشم والعودة باللائمة على مشايعى الاسبان من بنى عامر الذين ساعدوا فى الاحتلال الاسبانى وهذه قصيدة الشيخ ابي العباس احمد بن القاضى تخبى بذلك :

فمن مبلغ عنى قبائل عامر	ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمى من صناديد راشد	يتيجانهم مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم فى الغرب من كل ماجد	طويل القنا اهل الوفاء والمغافر
وظلحة والاحلاف فى غرب هذه	وشيوخ سويد بل وكل مفاخر
وشيوخ بنى يعقوب والكمى الفتى	بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام فى كل موطن	وفى كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم	وغيرهم بالله ما صبر صابر ؟
ويا معشر الاتراك يا كل عالم	وكل ولى حافظ لك وأمر
اناشدكم بالله ما عذر جمعكم	لدى الله فى وهران امر الخنازرو الخ ^(٤)

وهكذا تتجدد الاستغاثة مرة اخرى بالدولة العثمانية القائمة

-
- (١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .
 (٢) محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ، ج ١ ، ص ٣٨ .
 (٣) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩ .
 (٤) عبد الرحمن محمد بن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

بافتوحات الاسلامية لانقاذ معقل آخر من المعازل الاسلامية ، وفى هذا الوقت كانت الدولة تواجه الخطر المصوفى فى الشرق ، علاوة على ذلك تريد ان تؤمن ظهرها فى الدانوب ، وتعزز فتوحاتها فى شرق اوربا .

تسبب احتلال ساحل افريقيا فى عامى ٩١٥ - ٩١٦ هـ / ١٥٠٩ - ١٥١٠ م فى زيادة الخلافات بين فرديناند وسينروس (Cisneros) فى التوغل داخل افريقيا حتى مشارف الصحراء الكبرى وتأسيس دولة اسبانية موريتانية فى افريقيا بدافع من روح الحرب الصليبية ، ومن ناحية اخرى لم يبد الملك الكاثوليكى اهتماما كافيا للمسألة الافريقية ، واخذ فى الاعتبار القيام باعمال حربية لحماية ايطاليا وقطع سينروس (Cineros) كل اتصالاته مع الملك ، وانسحب الى جامعة الكالا (Al Cala) سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م ، وسيطرت بعد ذلك سياسة فرديناند حتى نهاية حكمه . (١)

اخذ الاسبانىون فى ارهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب الباهظة على مكاسبهم التى تأتاهم عن طريق البحر ، كما فعلوا كذلك بسائر السواحل الجزائرية فضاقت الجزائريون بهؤلاء الاسبان ذرعا وسئموا من هذه الاهانة والذل (٢) ولكن لم تكن لديهم المقدرة للمقاومة .

قام الجزائريون بتسليح انفسهم واغاروا على الجزر الاسبانية ميورقة ومنورقة ووصلوا بغاراتهم الشواطئ الاسبانية نفسها ، لذلك ارسل الملك الكاثوليكى اسطولا كبيرا لحصار الجزائر ، فشىدوا قلعة كبيرة فى جزيرة مقابلة تماما لمدينة الجزائر وكلف القائد بيدرو نافارو احد قواده بتشيد برج (Penon) ويقوم بقذف المدينة بالمدفعية ، فاضطر اهل الجزائر بايفاد سفارة الى اسبانيا تطلب الهدنة مقابل بعض الخراج ، فقبل الملك

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 42 .

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ج٣ ، ص ٣٩ .

الكاثوليكى ذلك ،وعاشوا فى السلم بضعة اشهر (١) .

كان البجائيون اناسا طيبين يميلون الى المرح والموسيقى لاسيما الامراء منهم الذين لم يشهروا الحرب على احد ،وقد ظهر ضعفهم واضحا عندما جاءهم الكونت بيدرو نافارو ببعض سفن النقل فى ٢٣ رمضان ٩١٥هـ /يناير ١٥١٠م ،فروا الى الجبال المجاورة حاملين معهم كل ما يملكون دون ان يبداوا مقاومة ،واخذ الكونت بيدرو نافارو المدينة ،وشيد قلعة اسبانية فى موقع هام ،كما حصن القلعة القديمة المجاورة للبحر .(٢)

احدث سقوط بجاية فى البلاد الاسلامية اسى عميق لقرب العهد بين سقوطها وبين نكبة وهران وساد القسم الشرقى من البلاد نوع من الهلع والخوف وبادر السلطان الحفص بتونس ابو عبد الله عم المتوكل باسترضاء الملك الاسبانى والتقرب اليه واعلن تبعيته لاسبانيا ،كما فعل ملك تلمسان فى السابق عندما سقطت وهران وتعهده بدفع جزية سنوية للملك الاسبانى ،كما تمكن الملك عبد الله ملك بجاية الشرعى والذى سبق وان خلع من مغادرة سجنه ،وسار به البعض الى انصاره ثم قابله بيدرو نافارو واعلن الولاء لاسبانيا ،وقرر بيدرو نافارو ان يقسم صف المسلمين وان يضرب بعضهم ببعض بمساعدة الملك عبد الله ،فهاجم المسلمين فى بعض المعاقل وتمكن الاسبان من المسلمين (٣) ،ثم قام الاسبان بنهب بجاية ونقل جميع النفائس والمغانم الى اسبانيا فى ثلاثين مركب ،كما هدموا منار قصر اللؤلؤ الذى يعتبر من اعظم آيات فن المعمار الجزائرى ،وحطموا قصر الكوكب والمسجد الجامع .(٤)

صارت بجاية مدينة خالية من سكانها الاصليين ولا يوجد بها الا رجال الحامية الاسبانية والمبعدين من اسبانيا والغير مرغوب فيهم ،الى جانب الملك عبد الله

-
- (١) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٣٨ .
 - (٢) الحسن بن محمد الوزان : نفس المرجع، ج٢، ص ٥١ .
 - (٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٦ - ١٢٩ .
 - (٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

الذى لا يملك من الملك الا اللقب، ويتولى امر الحاكم العام، وبجانبه ممثل العدالة القاضى الاسبانى (Al Cade) وهو اشبه بمعاون الحاكم، وهناك المشرف على الادارة المحلية المسمى الفيدير (Al Vudor) ومن مهامه وظيفته تسلم الفنائم والاسلاب التى تؤخذ اثناء الغارات على المسلمين والارسال بها الى التاج الاسبانى كما اعلن الملك الاسبانى حمايته للتجارة الاسبانية مع بجاية وفرض ضريبة مقدارها ٥٠ ٪ على الاقمشة الصوفية المستوردة. من بجاية اذا لم تكن صادرة الى مرسى برشلونة، كما اعلن الملك الكاثولى ان يجب ان تكتفى بجاية بمواردها الاقتصادية وان لا تتلقى اى اعانة مالية من اسبانيا، سواء لدفع اجور الجيش او مرتبات الموظفين او للقيام باعمال دفاعية فكانت تلك الموارد عبارة عن الجزية والاتاوات التى فرضها الاسبان على امراء وشيوخ المسلمين، وكانت تلك الموارد تكفى من الناحية النظرية لقيام الادارة المحلية بما هو مطلوب منها ولكن من الناحية العملية كان الامر مخالفا للواقع اذ ان المسلمين لم يكونوا يقبلون التعهد بدفع الجزية الا من اجل التخلص من الضيق وبصفة مؤقتة، فاشتدت الفاشقة بالاسبان الى درجة فادحة. (١)

صارت اسبانيا اثر تلك العمليات سيدة الموقف دون منازع، فيما بين بجاية شرقا ووهران غربا ومخرة الجزائر وسطا ثم ان القيادة الاسبانية التى كانت تنفذ برنامجا دقيقا من اجل الاستيلاء على المدن الساحلية قد اخذت تضيق الدائرة فاحتلت مدينة عنابة وسلك الاسبان نفس الطريق فى السلب والنهب وانتهاك الحرمات ثم ترك بها حامية لحراستها. (٢)

وهكذا تمكن الاسبان خلال بضعة سنوات من السيطرة على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الاوسط وكان بإمكانهم الاعتماد عليها للسيطرة على المغرب الاوسط كله مستغلين حالة الضعف والتمزق السائدة فيه، لكنهم لم يفعلوا وظل احتلالهم ناقصا مقصورا على السواحل. (٣)

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره، ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع، ص ١٤١ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره، ص ٢١ .

لم تكن مطامع الإسبان لتقف عند حد عناية وما حولها من المدن الساحلية بل كانت ترغب فى ان تمتد سيطرتها الى ابعد من ذلك الى مملكة بنى حفص، فسار بدرو نافارو بعد ان وُجد اموره فى مدينة بجاية وما حولها على رأس اسطول يرتاد الساحل التونسى لى يجد نقط الضعف الذى تمكنه من النزول والتى يتخذ منها مركز لعملياته المقبلة ، لكن سكان مملكة بنى حفص التونسية كانوا قد اخذوا فى تعمير الثغور الساحلية وحراستها ، بعد ان انهالت نكبات وهران وبجاية فغير بدرونا فارو من خطته ورأى احتلال مدينة طرابلس الغرب ثم يتقدم نحو الشمال على الاراضى التونسية والذي يكون بين طرفى كلابية ، وكان اهل طرابلس يتمفنون بالكفاح والملاحة . (١)

اتجه الاسطول الاسبانى الى جزيرة غوزو (Gozo) بمالطا ، وانضم اليه بعض المالطيين بصفة مرشدين ، ذلك لمعرفة بطرابلس وتولى الارشاد والبحرى المرشد المالطى جوليا نوأبيلا (Guiliono Abela) ، وكانت الحملة مكونة من ستين سفينة وحوالى مثلها مراكب شراعية ، وفى مالطا انضم اليها خمسة سفن مالطية مسلحة تسليحا جيدا ، وكان عدد الجنود حوالى خمسة عشر ألف جندي اسبانى وثلاثة آلاف ايطالى ، ومجموعة من المغامرين . (٢)

رسا الاسطول الاسبانى فى ميناء طرابلس ، ورتب الكونت بيدرو نافارو جيشه ثم فتح نيران مدافعه على المدينة ، وتمكن الاسبان من احتلالها ، ودخلوا الجامع الكبير فقتلوا فيه اكثر من الفى شخص ثم هاجموا القصر حيث اسروا والى المدينة وبعض الزعماء . (٣)

اشار احتلال طرابلس بهجة خاصة فى ايطاليا ، ودعا مندوب البلاط البابوى فى بولونيا فرانثيسكو اليدوسى (Francesesco Alidosi) (المسيحيين الى

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) اتورى روسى : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١م ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيرا عن فرحتهم وبهجتهم ، كما تبادل دوق البندقية التهاني مع ملك اسبانيا ، وفى روما نظم موكب دينى احتفالا بسقوط طرابلس ، وكان استقبال هذا النبا عظيما يتناسب مع ما كانت تتمتع به طرابلس من سمعة باعتبارها مدينة غنية وقوية بحصونها ، وقد شجع ذلك ملوك اسبانيا على ان يدفعوا بحملاتهم نحو افريقيا ، ويبدو ان الحماس قد سرى الى الملك الكاثوليكي نفسه ، فرغب ان ينهض بنفسه الى قيادة حملة تهدف الى توسيع رقعة انتصاراته (١)

استاء المسلمون لسقوط طرابلس وقابله الطرابلسيون المقيمون فى الاسكندرية بعمل عدائى ضد الاسبان . (٢)

ورغبة فى ضمان استمرار السيطرة الاسبانية على طرابلس واتخاذها قاعدية للعمليات الحربية القادمة فى افريقيا نهض الكونت على الفور الى حملة ضد جزيرة جربة وبعد ان استلم دعما قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة ديغو دى فييرا (Diego de Vera) غادر طرابلس فى ٢٢ جمادى الاولى ٩١٦هـ / ٢٨ اغسطس ١٥١٠م على رأس حملته وترك لحماية طرابلس والدفاع عنها حامية مكونة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الكولونيل ساماينجو (Samanyego) وبالمومينو (Palumbino) وقد حمل الكونت بدرونافارو معه اثنى عشر الف جندي ولحقت فى جربة سبعة عشر سفينة اسبانية بقيادة دون غارسيا دى توليدون (Garcia de Taledo) وعلى ظهرها ثلاثة آلاف رجل ، وجرت المعركة فى جو شديد الحرارة وانتهت الى كارثة حين اخذت القوات المسيحية تتهاافت فى فوضى وتشتت على احدى الابار . (٣)

لم تضعف هزيمة جربة من شان الانتصارات الاسبانية ، اذ ظلت المراسى التى لم تعرف الاحتلال خائفة من ان ينالها ما نال المرسى الكبير ووهران وبجاية وطرابلس ، وعرضت تنس دلسى وشرشال ومستغانم دفع الاتاة (٣) ، كما عرض الوفد الجزائرى ٩١٧هـ - ١٥١١م ، على مجلس سرقسطة (Saragossa) تسليم اكبر جزر الجزائريين الصخرية للاسبان حتى يقيموا عليها معقلا يبحرس تجارتهم ويضمن حرية مواصلاتهم البحرية ، ويجعل مدينة الجزائر نفسها تحت رحمة مدافعهم . (٤)

(١) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

(٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٣) شارل أندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٤) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

وهكذا وضعت اسبانيا لنفسها موضع قدم في افريقيا ، كانت عبارة عن نقط ارتكاز امامية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة ، كما شيدت سلسلة من القلاع على طول الساحل الشمالى لافريقيا ، ولكن تحول الاحداث فــــــى ايطاليا جعلت فرديناند يهمل فى تمديد دفاعاته الافريقية والاستيلاء على الاجزاء الداخلية للمغرب وهذه الفرصة التى فقدتها لم تتكرر مرة اخرى (١) ولجأ الاسبان بعد ذلك الى الخمول ، واكتفوا بالاستيلاء على الشريط الساحلى الضيق مما تسبب في قيام القرصنة البربرية انطلاقا من القواعد المقامة على امتداد الساحل (٢) ، وعاشت القلاع والحصون الاسبانية فى حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسبانى ، وكانت حياة الجند شاقة جدا لانهم كانوا لا يجدون دائما ما يسد الرمق ، ولا يتقاضون مرتباتهم بانتظام ، ولجأوا الى نهب مواشى القبائل الرحل ، وبلغ يأس الجنود مبلغا جعلهم يفكرون فى ان يتحولوا الى مسلمين . (٣)

وهكذا حرص الاسبان على إخضاع سواحل شمال افريقيا ، لتتم لهم السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ولكى يقارعوا الاساطيل العثمانية التى صارت لها السيادة فى حوض الشرقى (٤) ، وحتى يدافعوا عن سواحلهم من المجاهدين المسلمين الذين حرصوا على امداد اخوانهم فى الاندلس ، واستمر الامر كذلك حتى مجيء شارل الخامس الى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ورأى فى وجود الجيوب الصليبية فى الشمال الافريقى حماية للحدود الجنوبية لامبراطوريته ، لذلك سارت سياسته على نفس النهج السابق ، لتحقيق اهدافه ، وهذا ما نلاحظه فى الفقرة التالية .

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs Vol.1 P.93 .

2- J.H.Elliott: OP.CIT P.42 .

(٣) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٣٢٥ .

(٤) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره

شهدت سواحل غرب البحر المتوسط فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى صراعا اسلاميا صليبيا اتسم بطابع جديد ، حيث انتقلت المواجهة من البر الى البحر ، ونشأ عنه قيام الطرفين بشن الغارات البحرية كل ضد الاخر ، وهو ما عرف عند الاوربيين باسم القرصنة ، والواقع ان ما كان يقوم به المسلمون لا يمكن ان نسميه بالقرصنة ، وانما بحركة الجهاد الاسلامى الذى تتطلبه الاوضاع الجديدة. هناك ، ونتيجة لاضطراب العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدويلات المسيحية ، كذلك رغبة الاسبان فى تحرير انفسهم من خوفهم من فتح جديد للاندلس ، ومن هنا فانه لا يمكن تفسير ما قام به المسلمون الا انه رد فعل لما قام به سكان شبه الجزيرة الايبيرية من اضطهادهم واجبارهم على قبول التعميد والدخول فى المسيحية ، الامر الذى قوبل بالمقاومة من قبل مسلمى شبه الجزيرة الايبيرية واضطرت اعداد كبيرة منهم الى الهروب بدينهم .

وكانت الاوضاع فى غرب البحر المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الاسلامى ، لان اسبانيا كانت ترى ان اهم ما يربط ممتلكاتها الساحلية هو ضرورة وجود عدد من الاستحكامات والقواعد البحرية الساحلية حتى تتمكن من التحرك والسيطرة ، الامر الذى أدى الى قيام المجاهدين فى شمال افريقيا بمهاجمة موانئ السواحل الاسبانية باستمرار والحاق الضرر بسفنها واقتصادها ، كذلك كان جبل طارق يمثل نقطة التقاء تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ميدانا هاما لتكثيف حركة الجهاد وقد تمكن هؤلاء المجاهدون فى بعض السنوات من اقفال طريق الملاحة فى جبل طارق ومنعوا سفن جنوة من الوصول الى الاراضى المنخفضة فى شمال غرب اوربا ، وقد تكونت نتيجة لذلك مجموعة من المراكز البحرية الاسلامية امتدت من جربة الى مراكش ، شملت تونس ، بنزرت ، بجاية ، الجزائر ، وهران سلا ، الرباط ، وجهزت كل مجموعة اسطولا خاصا بها للتجول فى البحر المتوسط ، حيث وجهوا اهتمامهم نحو تخريب ممتلكات العدو ، وسبوا ما استطاعوا من رجال ونساء ومد يد العون والمساندة للمتكوبين من مسلمى

الاندلس^(١)، الذين ما ان استقر بهم المقام بعد ذلك في المدن الافريقية حتى اخذوا يعملون على الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم من ديارهم^(٢) بتهيز سفن القراصنة لمهاجمة السفن والسواحل الاسبانية^(٣).

وكان المغرب في هذه الفترة يعيش وضعية تفكك سياسي، بلغ حدا من التدهور والانحلال لم يصل اليه قط قبل ذلك، فالدول القائمة فيه شاخت واخذ زمام الامور يفلت من يدها تاركا المجال فسيحا للفتن الداخلية والباب مفتوحا للهجمات الخارجية، وزاد من سوء حظ هذه البلاد انه تدرت في هذا الدرك السحيق، في وقت كان الغرب المسيحي يعيش نهضة كبيرة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وقد فتحت له الكشوف الجغرافية آفاقا واسعة في امريكا، والشرقين الاوسط والاقصى، وجعلت الثروات الطائلة تتكدس بين يديه، الامر الذي اغرى الدولتين المسيحيتين في شبه الجزيرة الايبيرية بالانقضاض على افريقيا الواقعة في طريق المستعمرات الجديدة، خاصة المغرب الكبير الذي مازال رجال الكنيسة، والملوك المتعصبون يدعون الى اكتساحه والقضاء على سكانه^(٤) ولتحقيق ذلك يجيب استعمال جند كثيف يعيش على البلاد المحتلة، فيخفف عن اسبانيا بذلك غائلة الخصاصة ومن المغرب العربي يقع الاتصال برا بافريقيا الوسطى وقد شاع يومئذ وذاع عنها انها بلاد التبر، وان خيراتها لا تنفب لها معين، زد على ذلك ان الاستيلاء على سواحل المغرب العربي يقضي القضاء المبرم على القرصنة الاسلامية التي نشأت على ضفافه، والتي كانت تقابل العدوان بالعدوان وتستعيد لهؤلاء المنكوبين من مسلمي الاندلس بعض ما اخذ منهم ظلما وعدوانا.

ان التمكن من احتلال المغرب العربي، يجعل الخوض الغربي من البحر المتوسط بحرا اسبانيا بحتا، خاصة وانها كانت تملك الساحل الجنوبي

(١) غسان على رمال: مرجع سبق ذكره، ص ٣٩-٤٠.

(٢) محمد العمروسى المطوى: مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٢.

3- Stanford Show: OP.CIT P. 96.

(٤) عبد الرحمان تشانجى: المسألة التونسية والسياسة، ص ٢٥-٢٦.

محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج ١، ص ٣٧.

الغربي من ايطاليا ، وتملك اهم الجزر التي فيه صقلية ، وسردينيا ، كورسيكا ، الباليار ، فهي بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه ، وتحتمى بذلك سياسة (بحرنا) الرومية (١) ، وبدت تلك الحروب حربا صليبية ، لكن بأهداف واسلوب جديدين ، فوجدت تلك الحرب تشجيعا من الدوائر التجارية الناشئة في غرب اوروبا والتي كانت تهدف الى السيطرة على التجارة العالمية وطرق ووسائل نقلها واشتركت رغبات رجال المال والاعمال الاوروبية الناشئة مع آمال الكنيسة في السيطرة على الشواطئ الافريقية ثم النفاذ الى داخلها حيث يمكن للحركات التبشيرية ان تؤدى دورها في خدمة المسيحية في نفس الوقت الذى يمكن فيه تحقيق الاهداف التجارية . (٢)

ركزت اسبانيا والبرتغال حملتهم الصليبية في عنف على المسلمين واخذت تقتفى آثار مسلمى المغرب في حرب صليبية صاخبة مبيدة في الجزائر والمغرب وتونس وتوغلت البرتغال في المغرب ولم يجد مقاومة تذكر لانهايار المغرب في هوة سحيقة من التفكك حتى ان بعضهم توسط في فداء الاسرى وحاول ان يعقد معاهدة مع البرتغال مقابل المحافظة على حياتهم وممتلكاتهم فى هذه الحرب الصليبية الفاشمة . (٣)

تطورت الاوضاع في اسبانيا وردد ملكها فرديناند في آخر حايته القول بأن حلمه تحقيق السلام في اوروبا والانطلاق بحملة صليبية كبيرة لاحتلال مصر التي كانت من اهم المراكز للقوة الاسلامية في تلك الفترة ثم الاتجاه بعد قهر مصر الى القدس لاحتلالها هي الاخرى ، ولظالما حشد فرديناند الجيوش واكثر من بناء السفن لايهم الناس بأنه يريد غزو الساحل المغربى قبل ان يعدل عن رأيه في اللحظة الاخيرة ويوجه جيوشه وسفنه لمقاتلة الفرنسيين في ايطاليا ، (٤)

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٨-٨٩ .

(٢) محمد عبدالمنعم الراقى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .

(٣) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

(٤) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٢ .

كانت تلك الاحداث تسير فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدعى
نفوذها البحرى فى شرقى البحر المتوسط لتنفيذ الجزء الثانى من خطتها لاسترداد
الاندلس .

كان عام ٩٢٥هـ / ١٥١٩م بداية حلقة جديدة فى تاريخ العالم اكتملت
استمرار التقدم والتفوق العثمانى ، وفى تلك السنة كان كلا من شارل وفرنسا
مرشحين لوراثة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكلاهما وعد باستخدام جميع
القوى فى مناهضة العثمانيين ، وقد رأى النخبون فى شارل انه انسب من
فرانسوا فى تحقيق هذا الهدف مما تسبب فى اندلاع الحرب بين الملكيين
المسيحيين واثناء هذه الحرب امكن للسلطان العثمانى سليمان القانونى
ان يستولى على بلغراد بوابة وسط اوربا وتبعها بالاستيلاء على رودس مفتاح
شرق البحر المتوسط من ايدى فرسان القديس يوحنا (١) ، وبذلك ضمن السلطان
سليمان الحصول على قاعدة يستطيع ان يوجه منها عملياته مباشرة ضد شارل
الخامس ، وحتى يكون الهجوم اكثر دقة كان لدى السلطان قائد له اهمية كبرى
هو خير الدين باربروسا باعتباره تابعاً للسلطان ، وباسم الاسلام وجه خير
الدين كفاحه فى غرب البحر المتوسط حيث كان القائد لقوة جديدة . (٢)

اراد شارل تأمين الجناح الايمن للامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان
يعتبر طرابلس الغرب احدى عميئه على العالم الاسلامى اذ كانت تعطى بعض الحماية
المقلية الاسبانية وللملاحه المسيحية فى وسط اوربا ، كما احتاج شارل ان يربط
املاكه فى ايطاليا باسبانيا (٣) ، وحتى يوفى ذلك أبدى الامبراطور شارل
الخامس ترحيبه بطلب الوفد الذى بعثه رئيس فرسان القديس يوحنا بمنحهم
جزيرة مالطا ، بشرط ان تتولى المنظمة - فرسان القديس يوحنا - مهمة الدفاع

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٧ .

2- John Lynch : Spain under the Hsbsburgs Vol .1 P.93 .

(٣) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ اقدم العصور ، ص ٩٠ .

عن قلعة طرابلس ومدينتها .

ترددت المنظمة في قبول العرض بالحاق طرابلس ضمن سيطرتها ، الامر الذى كان شرطا ثقيلا مقرونا بمنح مالطا ، وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس سنة ١٥٢٤/٩٣١م رئيس فرسان القديس يوحنا ، بعدم قبول هذه المهمة الثقيلة ، ومع ذلك فقد كان لابد من الاذعان لارادة الامبراطور ، وعدم اضاعه الفرصة التى تهيء للمنظمة تنظيما يتلاءم مع تقاليدها واهدافها وقد استغرقت المفاوضات مدة طويلة حتى امكن الاتفاق النهائي ، وذلك لتوالى بعض الاحداث التى اذهلت شارل الخامس وصرفته عن التفكير فى طرابلس ، وهى الحروب الايطالية ، واخيرا وقع الامبراطور مرسوم التنازل عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا فى كاستيل فرانكو بولو نيبيتري (Costel Franco Bolognese)^(١) من خلال ذلك تتضح عدم مقدرة الامبراطور شارل الخامس فى تأمين الجناح الايمن لامبراطوريته اذ مضى فى هذا الوقت لتدارك الاوضاع فى ايطاليا ، ووسط أوروبا نتيجة ظهور البروتستنتية وازدياد نشاطها ، كما أن الهجوم الاسلامى فى وسط اوربا وشمال افريقيا قد خفف نشاطه وذلك للالتفات الى الخطر البرتغالى القادم من الجنوب ، الذى ازدادت حدته على الاماكن المقدسة الاسلامية اذ بدأت البرتغال فى احتلال المراكز الاستراتيجية فى البحار الجنوبية للوصول الى مكة والمدينة ثم القدس ، وهنا كان مفترق الطرق بالنسبة للدولة العثمانية التى أخذت توءم الاماكن المقدسة بدروع واقية ، وتفع الخطر لذلك والامبراطورية الرومانية المقدسة التى انشغلت بالاصلاح الدينى ثم الحروب الدينية ، ولكن لفترة مؤقتة ، اذ أن الدولة العثمانية لم تلبث ان تعود لنشاطها فى البحر المتوسط لتنفيذ سياستها لاسترداد الاندلس .

(١) اتورى روسي : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

، كان فرسان القديس يوحنا قبل ذلك قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبي الى جزيرة رودس بعد طردهم مع فلول الصليبيين فى عهد دولة المماليك البحرية ، بعد ذلك طردهم السلطان سليمان القانونى عندما استولى على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م . ٩٢٩هـ .

احتد النزاع الدينى فى اسبانيا وازداد شراسة ،ولما كانت المملكة الاسبانية تضم عدداً من السكان المورسيكيين الذين تعرضوا فى عهد قريب لمهانات عديدة نتيجة لحروب الاسترداد المسيحية ،وحيث أن الحكومة الاسبانية كانت متحفزة من أن المد العثمانى فى وسط اوربا والشمال الافريقى الذى سوف يشجع الاقلية الاسلامية الموجودة فى اسبانيا الى التحول من الاستياء الى التمرد العلنى ،لذلك اسرع شارل فى العمل ضد العثمانيين المتقدمين (١) ، فصدر أوامره فى ١٦ جمادى الاولى ٩٣١هـ / ١٢ مارس ١٥٢٤م بتنصير المورسيكيين وعهد لتنفيذ ذلك للمفتشين ،كما أمر بتحويل المساجد الى معابد نصرانية واخذ العشر من المسلمين والذى كان يدفع للمساجد وحوله للكنيسة ،وأخذ المفتشون فى مضايقة المورسيكيين بكثرة الرقابة ،وسوء المعاملة ،ثم اجبر المورسيكيون على مغادرة احيائهم الخاصة بهم الى المدن الكبرى حتى يضمن انهارهم فى بوتقة المجتمع المسيحى والكنيسة (٢) وليفتت اجتماعاتهم حتى يسهل مقاومتهم .

دعم شارل الخامس نشاط محاكم التفتيش فى هولندا للقضاء على البروتستنت ،نظرا لأن المحاكم تلك كانت تعتبر امتدادا طبيعيا لسلطة شارل كما كانت كذلك ايام الملوك السابقين ،وفى البداية كان شارل لا يعبير اهتماما كبيرا لتلك المحاكم باعتبار ظروف تربيته البعيدة كل البعد عن التعصب الكاثوليكي ، إلا انه عندما شعر بخطر المسلمين فى اسبانيا ،وتقدم البروتستنة فى المانيا واحتمال تأثير ذلك على الدخل الهائل الذى كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التى فرضها على الهولنديين ،اهتم شارل بالمحاكم التفتيشية وشجعها على زيادة نشاطها (٣) وظلت اسبانيا قوة محاربة فى القرن السادس عشر بمدى اكبر من أية دولة أوروبية ،وقاومت المورسيكيين فى حروب طويلة

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.126 .

(٢) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

وكانت اسبانيا تعتبر شن الحملات على الوشنيين والمسلمين والمخالفين للكاثوليكية مهنة نشطة وتقليداً مقدساً^(١)، وكان شارل الخامس من رجال الدولة الموصوفين بالعناد، وكان يميل للحماس الصليبي ولم يضع استراتيجية واقعية الا بعد وصوله لخبرة طويلة وحادة من الحرب الفاشلة ضد العثمانيين فى بداية القرن السادس عشر، وكانت الاستراتيجية هو نظام التحصين الذى اكتسبه شارل من اخيه فرديناند عندما حصن هنغاريا .^(٢)

دعمت الدولة العثمانية قبضتها فى شبه جزيرة البلقان وسوريا ومصـــــر والتحموا مع القوى الاسلامية فى الشمال الافريقى، وبزغوا كقوة بحرية مهاجمة، نتيجة لذلك صارت ايطاليا معرضة وبصورة متزايدة للهجمات الاسلامية، وفى الوقت نفسه تم ادماج الكثير من شبه جزيرة نابولى وصقلية وجنوا وميلانو فى النظام الامبراطورى الاسبانى، ومع الصراع بين الدولة العثمانية والاسرة الهابسبرجية فى البحر المتوسط، وضعت ايطاليا فى الخط الامامى من العمليات الحربية، وصارت البندقية وانكونا وميسينا ونابولى وجنوا النقاط الأكثر حساسية للاتصال الاوروبى بالعالم العثمانى .

وبالدبلوماسية الحذرة، استطاعت البندقية أن تغلت من آثـــــار الحروب الايطالية المدمرة، وظلت مستقلة عن الممتلكات الداخلية الواقعة خلف جبال الالب .^(٣)

وكانت البندقية بشكل خاص عرضة للفتح العثمانى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولمواجهة تلك الازمة احتاجت البندقية موارد ادارية بشرية لادارة تجارتها الواقعة تحت السيطرة العثمانية

-
- | | | |
|-----------------|--------|----------|
| 1- Paul Coles : | OP.CIT | P. 125 . |
| 2- | IBID | P. 100 . |
| 3- | IBID | P. 131 . |

وكانت حكومة البندقية أكثر الحكومات الإيطالية عقلانية ، وفى نفس الوقت متقدمة بدرجة كبيرة فى تقنيات التجارة والنقل والحرب البحرية والدبلوماسية والجاسوسية ، وكانت استجابة مقاومة البندقية للضغط العثماني ماهرة ومركبة وكان نمو القوة العثمانية يشكل مشكلة خطيرة لحكومة البندقية ، ومع ذلك استغل البنادقة قدرتهم لخدمة العثمانيين مرارا وتكرارا فى سبيل الاعتراف بممتلكاتهم ، وضمان أمن تجارتهم ، وعلى سبيل المثال عندما اقترح السلطان العثماني سليمان القانوني الهجوم على املاك شارل الخامس فى ايطاليا ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) ، كان السلطان قلقا للحصول على معلومات الاجراءات الدفاعية الاسبانية ، وعندما استقبل سفير البندقية فى القسطنطينية بالارة بهذه الكلمات " أكتب فوراً الى سيدك أنه يمكن الكشف عن ما تفعله الأسماك فى قاع البحر وايضا يمكن لنا معرفة الاسطول الذى تعدده اسبانيا فى موانئها ^(١) " وبذلك اثبت البنادقة بأنهم يخدمون أى جهة فى سبيل تحقيق مصالحهم الاقتصادية ولا ينبغي لأى قوة أن تعتمد عليهم .

من ناحية أخرى كانت جنوة تعتبر المفتاح الاستراتيجي لاطاليا وذلك بالنسبة لفرنسا واسبانيا لذلك كانت تقع دائما تحت حماية احدى تلك القوات العظمى ، وكانت كلتا الدولتين فرنسا أو اسبانيا معرضتين للضغط العثماني ، لذلك كانتا فى اغلب الاوقات متصادقتين تحت الزعامة الاسبانية الهابسبرجية ولو على مضي لمقاومة الضغط العثماني فى القرن السادس عشر. ^(٢)

كان شارل الخامس حتى أوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر لا يستطيع الرد على الهجمات البحرية الاسلامية ، وذلك لضعف الامكانيات البحرية والحربية لديه ، وعدم الحصول على تعاون من اراجون وكاتلونيا ، وهو شرط أساسى للتفوق البحرى الاسباني فى غرب البحر المتوسط ^(٣) فلما حصل

1- Paul Coles : OP.CIT P.131,132,133.
 2- IBID P.131 .
 3- John Lynch : OP.CIT Val .1 P.97 .

شارل الخامس على مساعدات بحرية من جنوا بعد ان تحالف معها حديثا ،ظهرت قيمة تلك الامدادات والمساعدات فى نجاح الاسطول الاسبانى فى خليج كورنث عام ١٥٣٩ هـ / ١٥٣٢ م ، حيث كان قادرا على الاستيلاء على ميناء باتراس (Patras) ،واستولى على كورون (Coron) فى جزيرة موريا (Morea) ولكن كان ذلك الاستيلاء مؤقتا ،وكان لتلك الحملة تاثير فى تحويل اهتمام السلطان وتخفيف الضغط على الجبهة الشرقية فى النمسا ، كما ركـز السلطان على الشمال الافريقى اذ عين خير الدين بربروسا قائدا عاما للاسطول العثمانى بجانب لقب البيلربكيه فى الجزائر ،وبدأ سليمان ينشد تحالفا أكثر تقربا مع فرنسا للسيطرة على البحر المتوسط .(١)

اقام اندريا دوريا روابط ثابتة واساسية بين بلدة جنوة واسبانيا التى كانت فى حاجة ماسة الى سفن حربية لتتولى عبء الدفاع البحرى من العثمانيين ، مما أدى الى اتاحة الفرصة للمقاولة البحرية ،وكانت البحرية الايطالية بقيادة اندريا دوريا ضمانا لسيادة شارل الخامس فى شبه الجزيرة الايبيرية والايطالية ، كما كانت وسيلة للدفاع الأول عن العالم المسيحى من الهجمات الاسلامية ،وكان نواة هذا الاسطول الجنوى السفن المسلحة المملوكة لشخص اندريا دوريا والموجرة لاسبانيا ، اذ كان متعهدا بحريا فى ذلك الوقت وكان ابحار السفن المسلحة قد غطت سطح البحر المتوسط ،ومتنفسبالجهود حرب البحر المتوسط ضد العثمانيين السنوات الوسطى من القرن السادس عشر وهى الفترة الحرجة بالنسبة لاسبانيا وكان اندريا دوريا مسؤولا عن تنظيم الرحلات البحرية بين اسبانيا وايطاليا ،كما قام بامداد السفن بالبحاريين ومرافقة تلك السفن لحمايتها ،وكان تأمين السفن قد ظهرت أهميته عندما كان دور دوريا كرجل مرور ،منظم الحركة والمراقبة من بالاماس (Palmas) الى سافونا (Savona) ،ومن جنوه الى برشلونة ومن جنوه الى ايفوس مورتيس (Aigues Mortes) الى برشلونة ومن جنوه الى

اسبيرا (Spezia) الى الجزائر ومن برشلونة الى سافونا وجنـــــوا
وكان نقل الوحدات العسكرية الاسبانية مهمة اخرى شاقة تقوم بها سفن دوريا
المسلحة (١).

كان مجهودا كبيرا من شارل الخامس ومن اسبانيا . لولا نمو القوة
البحرية العثمانية وتهديدها الذى اقترب من سواحل نابولى وصقلية بل
واسبانيا نفسها ، ولقطع تلك الجبهة البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط
قرر شارل تشييد قاعدة اسبانية بين الجزائر والقسطنطينية ، وبالفعل كان
تحقيق ذلك فى تونس ، الا أنه لم يتابع ذلك النجاح لعدم امتلاكه للقوة
البحرية اللازمة لذلك ، مما اتاح المجال لخير الدين بارباروسا فى تنظيم
غارات جديدة ضد جزر البليار وساحل فالينسيا وسواحل ايطاليا الجنوبية
حاول شارل أن ينظم هجوما على العثمانيين بواسطة انجاز حلف مسيحي مع
البابوية والبنديقية ، ولكن لم يكتمل ذلك الحلف وتفككت العصبة ، بعد
أن تحالفت البنديقية مع الدولة العثمانية ١٥٤٠م / ٩٤٧هـ ، والتي فضلت مصالحها
التجارية لدى الدولة العثمانية ، وبدون اسطول البنديقية فان العصبة
المسيحية لا تستطيع مواجهة البحرية العثمانية ، فقرر شارل أن يركـــــز
جميع مصادره وموارده المتاحة فى الغرب ليهزم القبضة القوية للدولـــــة
العثمانية فى الجزائر وبذلك يستكمل برنامجه فى تأمين الجناح الایمـــــن
لامبراطوريته ، وقاد شارل بنفسه حملة على الشمال الافريقى هدفها الجزائر
فى ٩٤٨هـ (١٥٤١م) ، الا أنه لم يحقق هدفه ، وانسحب مرة أخرى لاسبانيا
وكان ذلك آخر محاولاته ، لأن موقف شارل فى البحر المتوسط قد تدهور بسرعة
بعد أن تجددت الحرب مع فرنسا ، وقدمت الدولة العثمانية لحليفها فرنسا
خدمة كبيرة ، كما أن السفن ذات المجاديف الفرنسية دعمت وعززت البحرية
العثمانية ، وتعاون خير الدين بارباروسا فى حصار نيس عام ١٥٤٤م / ٩٤٧هـ
ثم سيطر العثمانيون على طرابلس وكانت قاعدة أخرى لها أهميتها ، كما
سقطت مراكز أخرى فى الشمال الافريقى ، واستمر السلطان فى ارسال اساطيله

القوية للهجوم على مراكز بحرية فى سواحل البحر المتوسط ، وهكذا لم تتح الفرصة لشارل الخامس للدفاع عن الطريق البحرى للإمبراطورية الرومانية المقدسة وبالتالي لم يستطع انجاز حملته الكبيرة ضد القسطنطينية ، والتي كانت حلمه فى سنوات صفره ، كما أضح عدم مقدرة شارل على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا ، لأن القوة البحرية السائدة فى ذلك العصر لا تعتمد على حمولات تعد بسرعة ، بل تعتمد على مجهود شاق فى البناء والتجديد والتدريب وهذا البرنامج لم يتعهده شارل . (١)

الفصل الرابع

(الفصل الرابع)

" الجهاد البحري الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط "

أ - صدي حروب الاسترداد في العالم الاسلامي .

ب - قيام نظام بيلريك في الجزائر ٩٥٤هـ (١٥١٨م) .

ج - دور الحفصيين في تونس ، وبنو وطاس والسعديين في مراكش .

...

كان الجهاد البحرى فى شمال افريقيا قد لفت انظار اوربا المسيحية ولا سيما مجاهدى الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الاوروبية وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر المتوسط ونقلوا معهم الكثير من الأسرى الى موانى شمال افريقيا ، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية لافتكاك هؤلاء الأسرى .

وتعود اصول الجهاد البحرى الجزائرى الى منتصف القرن الرابع عشر بسبب الازمة السياسية والاقتصادية التى عصفت بالمغرب الأوسط (١)، والتى كان من أهم عواملها هجرة قبائل بنى هلال وسليم ، علاوة على ذلك هجرة مسلمى الاندلس الى شمال افريقيا واستقرارهم فى الموانى واسهامهم فى تمويل سفن المجاهدين وتشجيعها بدافع الربح من جهة وبدافع الانتقام ممن طردوهم من موطنهم من جهة أخرى (٢) ، واتخاذهم مواقع الدفاع عن وطنهم الجديد ، وبنائهم السفن والمعدات الحربية للجهاد ضد الأسبان فى البحر والاستيلاء على ما يمكن أن يقع فى أيديهم من أسطول العدو . (٣)

بدأ سكان موانى شمال افريقيا بدورهم يشنون حربا بحرية ضد السفن والموانى الاسبانية ، وكان المسلمون الذين اجبرتهم ظروفهم على البقاء فى اسبانيا واجبروا على التظاهر بتغيير دينهم ، يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدوهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم دون ان يتعرضوا للأخطار . (٤)

ترامت الى مسامع المسلمين فى شمال افريقيا الانتصارات الباهرة التى أحرزتها الدولة العثمانية فى ذلك الوقت فى القارة الأوروبية وآسيا ، وما تخلصها من نجاح السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطينية

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) محمد خير فارس : نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٣) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٤) محمد خير فارس : نفس المرجع ، ص ١٧ .

فاشرأت الأعناق اليه وإلى خلفائه (١)، وكانت نظرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل، و نظروا إلى السلطان العثماني وهو يخوض الحروب تباعا ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرتجى في إعادة مجد الاسلام الغابر، فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية والسلطان العثماني (٢)، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت في نفوس الشعوب الاسلامية في هذا الوقت المبكر من العصور الحديثة .

واصل المجاهدون المسلمون في غرب البحر المتوسط ومعظمهم من أرغموا على الرحيل عن الأندلس تحديهم للسفن والسواحل المسيحية، وكانت القرصنة اسلامية ومسيحية تسود الحياة البحرية في العصور السابقة وان لم تعرقل التجارة (٣)، وفي أواخر القرن الخامس عشر وضع المهاجرون الأندلسيون أساس مدينة تطوان الجديدة، ثم اشتبكوا في حرب مع البرتغال من ناحية سبتة واسروا عساكر لهم وأتوا بالأسرى واستعملوهم في بناء مدينتهم التي سيستقرون بها نهائيا . (٤)

كان المجاهدون العثمانيون طلائع الدولة العثمانية على سواحل شمال افريقيا، وقد هياؤا الظروف لتحرير كل البقاع التي تمتد من الجزائر حتى طرابلس، ويمكن تحديد ذلك بنهاية القرن الخامس عشر، بمعنى أنه اعتبار من نزوح المسلمين عن الأندلس بدأ التدخل العثماني في غرب حوض البحر المتوسط، بل أن مسلمي افريقيا الذين صاروا مهددين بتزايد القوة الاسبانية قد بعثوا يستدعون العثمانيين إلى ثغورهم وطلبوا نجدة السلطان في القسطنطينية (٥)، وفي أوائل القرن السادس عشر وضع حد للتسامح المتبادل

(١) عبدالعزيز الشناوي : مرجع سابق ذكره، ج٢، ص ٩٠١،

٩٠٢

(٢) فائق بكر صواف : مرجع سابق ذكره، ص ٢٣ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص ٩٢ .

(٤) محمد بن تاوويت : تاريخ سبتة، ص ١٨٠ .

(٥) اتوري روسي : مرجع سابق ذكره، ص ١٥٥ .

بين المسلمين والمسيحيين في مجال التجارة والقرصنة ، وذلك نتيجة لطرد المسلمين من الأندلس وتحول الشعور في داخل الدولة العثمانية نتيجة ذلك الطرد . والاضطهاد الدينى ، فظهرت القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط ، وأسس المسلمون المنفيون من اسبانيا مستوطنات على طول سواحل شمالى افريقيا وعقدوا العزم على الانتقام من مضطهديهم ، وذلك بالاغارة على سواحل اسبانيا ومهاجمة السفن المسيحية وبخاصة في مضيق جبل طارق ، والمنطقة البحرية المحيطة بجزيرة مالطة ، وما لبثوا أن حصلوا على مساندة العثمانيين عززت وزادت من حدة الغارات السابقة ، ومن خلال سنوات كانت أغلبية الموانى الممتدة من جزيرة جربة في الشرق الى سالى في الغرب تضم قراصنة اشاروا الرعب في قلوب أوروبا المسيحية . (١)

كان بزوغ العثمانيين في الواقع قد اعطى الاسلام القوة القائدة في العالم ، اذ لم تكن مراکش ولا الجزائر ولا تونس ولا مصر تملك القوة الهجومية الحيوية ، وعندما ضغطت الجيوش الاسلامية بانتصاراتها أبواب فينا ، والقوة المحمدية الذى عاد نشاطها وتحدثت أوروبا في مضيق جبل طارق بدا بسهولة أن العالم الغربى المسيحى قد قبض عليه بين النقطتين بهجوم متلاقى من الشرق والغرب ، وأن أوروبا لا يمكن أن تنقذ نفسها إلا بمقاومة متحدة (٢) ، وكان هذا مستحيلا ، الامر الذى يتيح للدولة العثمانية أن تحقق أهدافها في البحر المتوسط وأن تجعل منه بحيرة اسلامية ، بالإضافة الى تحويل القارة الأوروبية المسيحية للإسلام .

زادت اسبانيا في أوائل القرن السادس عشر من اجراءاتها القمعية على المسلمين في الاندلس وتطاولت الاخبار بما يلقاه المسلمون من الذل في هذه البلاد ، ولم يقتصر الاسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار ، ويرسون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظفرون به منهم وينهبون سفنهم

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ .

2- A.J. Grant : A History of Europe from 1494-1610 P.P. 209-210 .

ويخربون مدنهم، وصارت حركة متبادلة بين المجاهدين المسلمين والقراصنة المسيحيين، ولم يكن الى السلم سبيل بين الجانبين على هذه الحال، وصار النهوض لانقاذ المسلمين في اسبانيا واجبا شرعيا يتحتم على كل مسلم أن يقوم به، وصار لزاما على الدول الاسلامية أن تقابل اعتداءات أساطيل الاسبان (١)، وتقوى الطابع الدينى في ذلك الهجوم المتبادل بين المسلمين والمسيحيين وتحولت السفن الاسلامية المسيحية التي كانت تعمل في شرق البحر المتوسط الى غربه حيث الجهاد تحول الى هذه الناحية نتيجة لاضطهاد المسلمين فى الاندلس والاعتداء على الأراضي الاسلامية في شمال افريقيا التي مهدت الى بسط النفوذ العثماني على المنطقة (٢) .

عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في البحر المتوسط ظهور حركة عامة بين رجال البحر من أبناء المغرب العربي تستهدف في العمل على حماية موانئهم وسواحلهم، وتأمين وصول المهاجرين المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية وقام رؤساء البحر المغاربة بدورهم كاملا، وساعدوا على الاحتفاظ باستقلال أقاليم المغرب العربي (٤)، كان من بين المجاهدين العثمانيين الذين ظهروا في البحر المتوسط عروج وأخيه خير الدين أبناء يعقوب بن يوسف الذي تزوج من إحدى بنات النصرى في جزيرة مدلي ببحر الأرخيل فبعد أن فتحها السلطان محمد الفاتح أستأذن بقايا الفاتحين المجاهدين السلطان محمد الفاتح بالسماح لهم بالزواج من النصرانيات، فسمح لهم السلطان بذلك، وكان من ضمن هؤلاء العسكر يعقوب بن يوسف، وأنجب أربعة أبناء هم اسحاق وعروج وخسرف وخير الدين ومحمد الياس (٥)، وتذكر بعض الروايات أن يعقوب بن يوسف كان متزوجا من سيدة اندلسية أنجبت له أولاده الأربعة، وأن الدم الاندلسي جرى في عروق عروج وخير الدين عن طريق والدتهم، وقادهم ذلك للجهاد في الحوض

(١) حسين مونس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث، ص ٢٩٢ .

(٢) محمد خير فارس: مرجع سبق ذكره، ص ٩٠ .

(٤) محمد عبد المنعم الرائد: مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧ .

(٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد: سيرة خير الدين باشا ق-١، ارجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي، ص ٢١ .

الغربي من البحر المتوسط ، حيث كانت دولة المسلمين تذلل وتهان ، وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم ويشرفهم من ذلك الجحيم الأليم فيقعون غالبا بين أيدي القراصنة الإسبان الذين يستعبدونهم ويغزون بهم اسواق الرقيق (١) .

سافر عروج وأخوه الياس الى طرابلس الشام وعند عودته وقع قتال كبير مع فرسان القديس يوحنا بالقرب من جزيرة رودس ، وقتل الياس بينما وقع في الأسر عروج وسجن في الجزيرة المذكورة (٢) ، اضطر عروج لمفادرة الأرخبييل برفقة أخويه بعد أن تخلص من ذلك الأسر ، واختار غرب المتوسط ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين لما أشتهر به من هجوم على مراكب المسيحيين وخاصة الاسبانية منها ، وبفضل ما حققه من انقاذ لآلاف المسلمين في الاندلس ونقلهم الى شمال افريقيا (٣) .

ألقت الريح بعروج في جزيرة جربة من ناحية المغرب ، وأودع فيها بعض الامتعة ، ثم هاجم المسيحيين في أراضيهم وغنم وسبى سبيا كبيرا ثم دخل مدينة تونس ووجه الى سلطانها الحفصي هدية نفيسة بما احتوت عليه من غنائم ونفائس الأموال ، ووقعت في السلطان الحفصي أحسن موقع ، وأستأذنه عروج أن يقيم في بعض مراسي بلاده ، فأذن له وأشترط عليه أن يعطيه خمس الغنائم التي تحصل بيده من المسيحيين فرضي عروج بذلك (٤) .

كانت الدولة الحفصية في هذا الوقت تعيش آخر رمق في حياتها ، إذ استولى الإسبان على عدة جهات من الساحل الافريقي ، كما كانت الجزائر

-
- (١) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
 - (٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ، ق ٢ - ١ .
 - (٣) شارل أندري جولييان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .
 - (٤) عبد القادر بن عمر بن محمد : نفس المرجع ، ق ٧ - ١ .

غير قادرة على مقاومة الأسبان^(١)، ولذلك رأى السلطان الحفصى أبو عبد الله محمد أن يجعل مما يدفعه عروج وأخيه خسروف من خمس الغنائم موردا ثريا لخزانة الدولة التى كانت تعاني من الأفلاس، بالإضافة لحماية الدين والدولة فأقطعهما مرفأ حلق الواد يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الاسلام. (٢)

ظهر الأخوان عروج وخسروف من حلق الواد بتونس كقوة اسلامية جديدة وكان هذا هو الخيط الأول فى علاقات العثمانيين بالمغرب التى سرعان ما تعددت خيوطها (٣)، وانطلقا من هناك الى ناحية الأندلس ينصران الاسلام، ويمعنوا فى اسطول المسيحيين تقويضا وأسر، هنالك أطلق النصرارى لقب بربروس أى ذى اللحية الشقراء على كل الأخوين الذين صاروا مصدر الرعب والفزع فى البلاد المسيحية المتاخمة وفى بحارها، كما اقترح فضاء الأندلسيين والمغاربة على خسروف أن يغير اسمه وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم خير الدين (٤)، ولعل السبب فى تغيير الاسم أن الروح الساعدة فى ذلك الوقت هو الجهاد، وتغيير الاسم لخير الدين تيمنا بذلك، علاوة على ذلك الانتصارات الساحقة التى حققها الأخوان .

خرج الأخوان عروج وخير الدين من مقرهما الجديد حلق الواد غازيين فى سبيل الله ناحية بلاد النصرارى فغنموا مركبا للمسيحيين وشحنوها بالرجال المجاهدين وبعد ثلاثة أيام، استطاعوا أن يأسروا مركبا آخر وأستمروا فى سفرهم وجهادهم ذلك حتى غنموا مركبا آخر، وتجول الأخوان وعاشوا فى بلاد الكفار مدة عشرين يوما، ثم رجعوا الى تونس، مسرورين بما منحهما الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم فسر ذلك سلطان تونس سرورا عظيما وحصل بيد المجاهدين أموالا كثيرة. (٥)

(١) محمد بيرم التونسي : صفوة الاعتبار، ج٤، ص ٧ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٨ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ .

(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ١٥٨ .

(٥) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٨ .

جهر عروج وخير الدين بعد ذلك ثلاث مراكب، وخرجوا من حلق الواد ،
فالتفوا فى عرض البحر من ناحية نابولى بسفينة حربية متجهة الى اسبانيا
وعلى ظهرها ثلاثمائة جندى ، وكانت السفينة أقوى من السفن الاسلامية من حيث
الحجم وقوة المدفعية ، واندفع الأخوان فى محاولة منهم للاستيلاء على السفينة
وهاجموها عدة مرات حتى تمكنوا منها ، ورجع خير الدين الى تونس بتلك
الغنيمة العظمى وبقي عروج فى البحر . (١)

ملأت اقطار المغرب العربى وبلاد الأندلس أخبار عروج وخير الدين، وصار
فى مدينة حلق الواد يمثّلان قوة اسلامية عظيمة ، تتوجه نحوها الانظار (٢) .
لتخليص أراضيهم من الوجود الاسبانى ، غادرت عمارة عروج وخير الدين مرسى حلق
الواد سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، وتوجهت نحو بجاية ، الا أن أسطولاً اسبانيا مؤلفاً
من خمس عشرة سفينة كان راسياً على مرسى بجاية ، فأعترض فى طريق أسطول
المسلمين أمام المدينة ، وفكر الزعيمان بحيلة ، فتظاهروا بالانسحاب أمام
الأسطول الاسبانى الذى تتبع العمارة الاسلامية ، حتى اقترب من مرمى مدفيعتها
وعندئذ كثر عليه المسلمون ، وهاجموا بعنف الأسطول الاسبانى ، فأستولى عروج
على احدى السفن الاسبانية وغرقت أخرى وأنهزمت بقية السفن (٣) ، بعد ذلك
قرر عروج مهاجمة بجاية عن طريق البر ، فأخذ فى استأصال الاسبان قتلًا ،
حتى اقترب من أحواز المدينة ، فرمى الاسبان عروج فأصيب فى ذراعه وأشتد الامر
عليه بسبب الألم ، فحمله المجاهدون الى أخيه خير الدين ، وقرر الأطباء قطع
يديه ، وساعدهم خير الدين على ذلك ، مفضلاً حياة أخيه عن موته (٤)
فقطعوا يديه . (٤)

-
- (١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ٨ - أ .
، احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٩ .
 - (٢) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ١٦٣ .
 - (٣) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٠ - ب .
، شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .
 - (٤) محمد خير الدين فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

أخذ خير الدين بربروسا في العمل على الجهاد ، فبادر بانقاذ المسلمين في غرناطة ، والذين يعبدون الله خفية ، ولا يجهرون بالأذان ، وظل خير الدين يعمل في الجهاد نحو ثلاثة أشهر ، وانقذ بعض المسلمين من الأندلس وأستطاع أن يغنم من أحوازها كثيرا ، ومن تلك الغنائم سفينة صغيرة كانت محملة بالأموال وباقي السفن الستة أستطاعت الهرب من أمام خير الدين ، وشكس الفارون للملك فرديناند ما حل بهم وما لاقوه من خير الدين ، وأوضحوا أن خير الدين يقطع عليهم البحر ، وتشاورا فيما بينهم في التخلص منه ، وأثناء ذلك ، توجه خير الدين الى ميورقة وهاجمها . (١)

ظهرت أولى الاشارات الى وجود السفن العثمانية سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، وأخذت تهدد طرابلس التي لم يمحض على احتلالها من قبل الاسبان سوى زمن قليل حين بدأ نشاط الأخوين بارباروسا (٢) ، رأى عروج أن محاصرة بجاية ليس بالامر السهل ، كما فكر أن وجوده بتونس يبعده عن أرض المعركة فصمم على فتح مدينة جيجل التي تقع على بعد ١٠٢ كيلو متر غربى بجاية ، وانقأها من يــــد الاستعمار ، وذلك حتى يتخذ منها نقطة انطلاق نحو بجاية ، ويجمع بها رجاله وسلاحه ويجعلها مركز تجمع للمجاهدين (٣) ، الذين صمموا على تطهير الشمال الافريقى من براثن الاستعمار ، حتى يمدوا نفوذهم بعد ذلك نحو الأندلس لاستردادته .

وكانت مدينة جيجل من أوائل المدن التي سقطت بيد المستعمرىــــــ الجنوبىيين الذين جعلوها مركزا تجاريا عظيما (٤) ، كما احتفظ قصر جيجل بعد ذلك بحريته ، بالرغم من محاولات ملوك بجاية وتونس احتلاله ، لأنه يستحيل حصاره . (٥)

-
- (١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٠ ب .
 - (٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ .
 - (٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٥ .
 - (٤) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٨ .
 - (٥) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

رسا الأخوان عروج وخير الدين فى السواحل الجزائرية لقضاء بعض المهام، فأتصل بهما أهالى تلك النواحي ملتجئين منهما دفع الأجانب عنهم وانقاذ شغورهم من تسلطهم عليها، فلبى الأخوان ندائهم وكان أول ما شرعوا فى انقاذه من البلاد الجزائرية هو مدينة جيجل فاحتلوها سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م)^(١) بمساعدة الامير ابن القاضى، وفرض عروج على أهالى جيجل زكاة عشر الحبوب والثمار مما هو معمول به^(٢)، وبفتح مدينة جيجل تم لعروج هدفه المزدوج فى انقاذ مدينة اسلامية، وكانت أول مدينة ينقذها على ساحل البلاد، التى صارت فيما بعد تدعى ضمن البلاد الجزائرية، والاستقرار بمركز منبع من ناحية البر والبحر، كما أنه يساعد المجاهدين على حرية المناورة من اجل تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى، وهكذا استقر عروج مبعلا مكرما بين جماعة المسلمين فى جيجل، وكثرت الاتصالات هنالك بينه وبين مختلف وفود المسلمين من المغرب الأوسط واستمر يعالج فى مقره الجديد ذلك الجرح البليغ الذى أصابه من جراء بتر يديه^(٣)، واخذ عروج متابعة الأحوال فى المغرب الأوسط حيث كان الصراع على اشدّه بين سلاطين بلاد القبائل من بنى عباس وآل القاضى سلاطين كوكو، وبدأ يمد القبائل المجاورة لجيجل التى كانت تعاني المجاعة بالحبوب فحصل على شعبية كبيرة بين هذه القبائل، كما أنه بدأ يتدخل فى الصراع بين زعمائها، وقد تعزز موقفه بتدخله فى الوقت المناسب لصالح بنى عباس المنتصرين^(٤)، كما ألّف المسلمون من ناحية جيجل والجبال المحيطة بعروج ورأوا من ايمانه بالله وأخلاقه ما جعلهم يبايعونه أميراً، وعاهدوه على السير وراءه الى ميادين الجهاد من أجل انقاذ المدن الاسلامية والأندلس وتمكن عروج بذلك من انشاء جيش منظم، وأحسن تشكيله فى كتائب متعددة، ودرّبه على استعمال الأسلحة الجديدة للرماية والتى كانت متقدمة فى هذا المجال واخذ رجال الدين والعلماء يستنفرون الناس الى الجهاد فى سبيل الله، وعمت الدعوة ارجاء البلاد، كما استمر خير الدين فى جمع السفن التى غنمها من

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٨ .

(٢) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٤ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

المسيحيين ، وأرسلها للأندلس ملبياً أصوات الاستغاثة التى جاءت ، حيث —
المستضعفون من الرجال والنساء والولدان ، الذين نكث الأسبان بعهدهم ، وتنكروا
للمواثيق . (١)

كان من حسن سياسة عروج وخير الدين ، واتقيادهما للمبادئ الإسلامية
السامية التى خرجا مجاهدين فى سبيل الله من أجل تحقيقها ، أنهما —
كادا يفتحان مدينة جيجل ويستقران فيها ، ويستحوذان على نفائس الأموال
والبضائع التى ادخرها اهل جنوة المعادين للمسلمين ، علاوة على الفنائم
التي حصلوا عليها من السفن المسيحية التى كانت تجوب البحر المتوسط بعد
الهجوم عليها فى وسط البحر أو فى السواحل الأسبانية — حتى بادر عروج وخير
الدين الى اعداد هدية عظيمة من نفائس الأموال التى غنموها من المسيحيين
وأرسلوها الى السلطان الأعظم سليم فى استانبول ، كما بعثوا الى كل واحد
من خاصته هدية تليق بمكانتهم ، وذلك برفقة محي الدين رئيس الذى وصل الى
تونس ، فاستحسن السلطان العثماني سليم وخاصته هذه الهدايا ، وبالغوا
فى الثناء على عروج وخير الدين ، ودعوا لهما بالتأييد والنصر على اعداء
الله الكفرة ، واجابهما السلطان سليم بخطاب تضمن الدعاء لهما والشكر على
هديتهما ، ووجه اليهما صحة محي الدين بسفينتين مدججة بالسلاح والرجال
المجاهدين (٢) أراد السلطان سليم الذى كان منشغلا فى هذه الفترة بالشرق
حيث الفرس والمماليك كانوا قد بدأوا فى خلق المشاكل فى المنطقة ، أراد أن
يشجع عروج وخير الدين ، فى المضي فى تطهير شمال افريقيا من الوجود الاجنبى
حتى يتحقق لهم بعد ذلك استرداد الأندلس ، والتي توافق استراتيجية الدولة
العثمانية ، ومما لا شك فيه أن رد السلطان العثماني كان له أكبر الأثر
فى نفوس المجاهدين اذ شعروا بمشاركة الدولة العثمانية وعلى رأسها
السلطان وجدانيا وعمليا ، فكانت دفعة قوية لهم نحو تحقيق المريد من
الانتصارات على المسيحيين .

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ .

(٢) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٤ أ .

كان عروج وأخوه خير الدين قد عزموا على السفر الى سبتة ومنها الى الأندلس وذلك فى عشرة سفن فوصلا ناحية بجاية، ورسوا فى بعض المراسى هناك، فسمع بقدومهما أهل تلك الناحية من العلماء والمشايخ، وبعثوا الى عروج وخير الدين خطاب يشكروهم على ما يسر الله لهما من غزواتهما الكبيرة، وفتوحاتهما الشهيرة وأردفوا قائلين أن الله تعالى تكفل بنصرهم حيثما توجهوا، لم تنكسر لهم راية قط فى الجهاد، فكيف يتركان المسلمين فى يد العدو الكافر، فلا يعبدون الله الا فى الخفاء، ولا يقدرّون على اشهار دينهم، وتضرع أهل بجاية غاية التضرع فى ذلك الخطاب واستشفعوا لهم بالنبى صلى الله عليه وسلم، وعندما وصل الخطاب لعروج وخير الدين دخلتهم الحميّة لدين الاسلام فأقتربوا من ساحل بجاية، وكان بالقرب منها قلعة سبــــــــــــــــق وأن شيدها الأسبان فأحتلها المجاهدون، ودخل عروج وخير الدين بأسطولهما الوادى الكبير، وحملوا من هناك على الاسبان حملة شعواء، استأملا فيها الاسبان قتلا وأسرا واستمرت المعركة عدة أيام، أنتصر فيها المجاهدون بقيادة عروج وخير الدين وأنضم اليهم رجال الجزائر المتطوعة وبلغت نحو عشرين ألف مقاتل، فأخذ الاسبان فى استعمال الحيلة، وتمكنوا من حصار المجاهدين نحو أربعة وعشرين يوما، صبر خلالها المسلمون للدفاع عن وطنهم، فنفذ عنهم البارود فلجأ عروج وخير الدين الى طلب المعونة من سلطان تونس، فامتنع وأظهر عداوته للمجاهدين، كما وصلت الامدادات الى الاسبان من مختلف الأنحاء فتقوى العدو ضد المجاهدين، فأضطروا الى الانسحاب ومعهم نحو ستمائة أسير وقبل أن ينصرف عروج أحرق بيده نحو اثنتى عشر سفينة تابعة لهم خشية أن يستعملها العدو فيما بعد، اذ تعذر على المجاهدين ارجاع السفن وذلك بسبب نضوب ماء الوادى الكبير فصعب سحب السفن. (١)

كان السلطان العثمانى سليم مشغولا فى هذه الفترة كما ذكرت بحروب مع الفرس، لكن لا يعنى هذا أن حركة الجهاد الاسلامى فى البحر المتوسط قد

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق، ١٤، ١٥، ٢ ، الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ، ج٢، ص ٣٨ - ٣٩ ، عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ - ٣٨ .

توقفت، بل على العكس فقد ازدادت نشاطا، لأن ذلك العصر هو عصر الجهاد والمجاهدون المسلمون أخذوا يجوبون البحر المتوسط بسفنهم لمحاربة السفن المسيحية والاستيلاء عليها ٤. كما شجع رءوساء البحر العثمانيون المجاهدين على مواصلة حركة الجهاد ضد المسيحيين بل وشاركوهم ذلك، فوصل الى تونس محي الدين رايس الذى سبق وأن أوصل هدية عروج وخير الدين الى استانبول ومعه رأس جليل من رءوساء السلطان يدعى قسوط أوغلى وصالح الدين ريس فى أربعة عشر مركبا، بغرض الجهاد، ومشاركة خير الدين جهاده، وكان خير الدين قد انتشر خبر جهاده فى بلاد الاسلام، وهاجمت هذه القوة سفن المسيحيين واستطاعت أن تغنم أربعين سفينة، أثنى عشر منها تابعة لجنوة، وذهب قسوط أوغلى بتلك المغنم الى تونس لمقابلة خير الدين (١) وهو سبب مجيئة اليها، والتشاور فى أمور الجهاد، ووضع الخطط الاستراتيجية لذلك، وهنا تتحدد قوة التحالف بين المسلمين، لتنفيذ غرض واحد هو محاربة المسيحيين فى حوض البحر المتوسط وتطهير الشمال الافريقى من الوجود الاسبانى، ليتحقق هدف المسلمين فى استرداد الأندلس، فالعقيدة واحدة، وبالتالي الهدف واحد .

بعث أهل الجزائر الى عروج أثناء اقامته فى جيجل خطابا، يشكون فيه سوء حالهم، بعد أن بنى الاسبان قلعتين أمام المدينة، أضرت بهم، وضيقت الخناق عليهم، ورجوا عروج أن يخلص الجزائريين من ذلك، وأنهم لم تعد لديهم قوة واستعداد لتحمل تلك المضايقات، وعندما سمع عروج ذلك أدركته حمية الاسلام وتحركت فى قلبه نخوة الجهاد، فقرر التوجه الى الجزائر .

كان خير الدين فى هذا الوقت بعيدا عن جيجل، فأوصى عروج أهلها بأنه اذا قدم خير الدين يهيا له مدد من الغزاة يستعين بهم على جهاد أهل تلك القلعة فى الجزائر، وبعد مضي فترة من الزمن، رجع خير الدين الى جيجل، فاستقبله أهلها، وأبلغوه وصية أخيه، فأعد خير الدين مائتين وثمانون

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٥ ، ق ١٥ .

رجلا بكامل أسلحتهم وأرسلهم لأخيه في الجزائر ،ففرج بذلك عروج واکرمهمهم ووسع في جرابيته عليهم .(١)

سار عروج أولا نحو مدينة شرشال فاحتلها ،ثم تقدم نحو مدينة الجزائر فانقدها من الاسبان ،ثم حاول القضاء على الحصن المسمى بينون (Penon) (٢) الا أنه أخفق في ذلك ،وعملت الدسائس عملها ،فانقلب ضده حاكم الجزائر وتآمر مع الاسبان ،فصمم عروج على الانتقام من حاكم الجزائر سالم التومى ففضى عليه ،وأعلن نفسه رئيسا ،ولم يواجه من ذلك أى معارضة من قبل الأهالى وذلك لما يجمع بينهم جميعا من أخوة الاسلام ،ورابطة الدفاع عن الاراضى الاسلامية ،وهرب يحيى بن سالم التومى الى وهران مستنجدا بالاسبان وفى ١٨ رجب ٩٢٢هـ (١٨ أغسطس ١٥١٦م) ،وبينما ضربات عروج القوية تدك حصن الصخرة الاسبانى بعث القائد الاسبانى ديقو دو فيرا (Diego de Vera) برسالة الى يحيى بن سالم التومى قال فيها : " .. أيتها الشريف الشجاع والسيد الأمين ،ان مولانا الملك وقداة الكاردينال والى المملكة الاسبانية بلغتهما أنباء موت أبيك الصادق الأمين ..: وللاخذ بالشار ومعاقبة المجرمين فان الأمر صدر لجمع أسطول وجيش عظيم ،ولهذا تهيأ واستعد لمساعدتنا عندما نصل الى مدينة الجزائر حتى نقضى على الأتراك ومن تبعهم الذين كانوا سببا فى قتل أبيك وحتى لا ينجوا أحدهم من البر ،أما من ناحية البحر فسأكفيك شرهم ولن يستطيعوا هروبا دون أن الاحقهم ولو فروا الى اسطنبول .. " (٣)

أبحرت العمارة الاسبانية نحو الجزائر فى أواخر رمضان ٩٢٢هـ/سبتمبر ١٥١٦م بقيادة ديقو دو فيرا (Diego de Vera) مكونة من خمس وثلاثين سفينة وعلى ظهرها ثمانية آلاف رجل مع ما يلزمهم من سلاح ومدافع وذخيرة ونزلت الساحل حيث كان عروج والمجاهدين الملتفين حوله واشتقوا من أنفسهم ،وأخذ كل من الجانبين ينفذ خطه بعناية ودقة ،ودارت المعركة

- (١) محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا ، ق ١٤٥ .
- (٢) احمد جواد مولى: الزهرة النيرة في بيان ما جرى حين أغارت على الجزائر جنوس الكفرة ، ق ١٣ ، ٣ .
- (٣) البينون مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والروءوس الداخلة فى البحر اعتاد الاسبان أن يقيموا عليها قلعا حصينة تهدد سكان الساحل وتمنع فى نفس الوقت وصول سفن المسلمين .
- (٣) عبدالرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ٣، ص ٤٠-٤١ .

ولم تدم الا أياما قليلة ، اذ أندفع المسلمون على الاسبان ، وهم يصيحون صيحات الجهاد ، ويحاربون بذكر الله ، فما كاد الأعراب المحيطون بالمدينة يسمعون نفيير الجهاد وأصوات التهليل والتكبير حتى أقدموا على ميدان المعركة فى جموع متتالية يشدون أزر المسلمين ، ويمعنون فى جهاد العدو الذى أختل نظامه وحاولوا الانسحاب الى أسطولهم بينما أمعن المسلمين فيهم قتلًا وأسرا . (١)

فى هذا الوقت وصل اسحاق الأخ الأكبر لعروج وخير الدين من بلاد الروم الى تونس ، وذلك ليقنع خير الدين بالقدوم الى بلاد الروم ، ولم يوافق خير الدين على الذهاب ، وأقنع أخاه اسحاق بالبقاء معهم . وأرسل خير الدين أخاه اسحاق الى الجزائر مع أربعة سفن وأمر الجنود بالسمع والطاعة ، فوصل اسحاق مع سفنه الى الجزائر ، وقابل أخاه عروج الذى فرج بقدومه ، وبقي خير الدين فى تونس لمقابلة العلماء فى فصل الشتاء (٢) ، بينما سافر قرط أوغلى ومصلح دين ريس الى مصر لمشاركة السلطان سليم فى الاستيلاء عليها وأخذها من السلطان الفورى . (٣)

بدأ المجاهدون المسلمون فى الجزائر من هذا التاريخ ، ومن خلال وجودهم داخل المغرب العربى الكبير فى تأسيس نظام فى غرب البحر المتوسط أخذت على عاتقها استرداد المدن التى سبق وأن سقطت فى يد الاسبان ، ثم استرداد الأندلس وانقاذ المسلمين هناك .

كان هدف عروج وخير الدين أن يطهرا الشمال الافريقى من الاحتلال الأجنبى ، وأن يقوضا على ذلك الاحتلال فى وهران والمرسى الكبير أولا ، وبمنظرة دقيقة أدرك الأخوان أن تلك المنطقة تشكل خطرا بالوجود الأسبانى الذى تسرب

(١) احمد توفيق مدنى مرجع سبق ذكره : ص ١٨٠-١٨٣ ، جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .

محمد أمين : مرجع سبق ذكره ، ق ٤٨ ب .

(٢) احمد جواد موللى : مرجع سبق ذكره ، ق ١٣ ، ٣ ب .

(٣) عبدالقادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١١٦ ، ١٦ ب .

(٤) عبد الرحمان تسانجى : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٦ .

الى مملكة بنى زيان ،ومن وراء الاسبان ومملكة بنى زيان يوجد الخطـبر
(١).
الداهم البرتغالى والغزو الذى لم تتمكن مملكة بنى وطاس المرينية من رده
كل ذلك كان عائقا يقف فى وجه الأخوين بربروسا لتنفيذ خطتهما فى استرداد
الاندلس وانقاذ المسلمين فيها ،لذلك كانت الخطوة التالية بعد تدعيم الموقف
فى الجزائر هو الغرب لمواجهة النفوذ الاسبانى والبرتغالى ليتسنى لهم
استرداد الاندلس ،واقامة ولاية بحرية قوية تابعة للعثمانيين هذا المشروع
لو تحقق لأغلق البحار كلها فى وجه الاوروبيين .

شرع عروج وخير الدين من أجل تحقيق تلك الأهداف فى التوسع علىـ
حساب الامارات المجاورة ،فأستولوا على نتيجة بعد أن هرب حاكمها الى الصحراء
ثم استحوذا على مليانة (٢) وخضع أهلها لهم وفرضوا عليهم الضرائب (٣) ،ثم
استولوا على بلاد القبائل ،ونصب عروج عليها أخاه خير الدين على أن يكون
مركزه ولسى ،وساعد عروج فى السيطرة على تلك النواحي هو ما كان قائما
بين زعماء بنى عباس وأهل جبل كوكو من تنازع واختلاف على السيادة لتلك
النواحي (٤) ، ثم هاجم عروج بجيش مؤلف من ألف تركى وفرق من المجاهدين
الاندلسيين والجزائريين ملبيين داعى الوحدة والجهاد الاسلامى المتأجج
فى قلوب المسلمين وحكم عروج تنسى فى ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وقتل حاكمها
الموالى لاسبان ،بعد ذلك رأى عروج أن يقسم المملكة اداريا الى منطقتين
وذلك حتى يسهل عليه السيطرة على البلاد ،والاضطلاع بأمورها ،منطقة شرقية
يشرف عليها خيرالدين ومقرها ولسى ،وأخرى غربية يشرف عليها عروج بنفسه
ومقرها الجزائر الميناء ،لذلك غادر خير الدين مدينة تنسى ،واتجه نحو
دلسى فافتتحها دون مقاومة تذكر وانتصب بها ممثلا للحكومة الجديدة (٥)

-
- (١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٧ .
 - (٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٢ .
 - (٣) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٥ .
 - (٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٤٢ .
 - (٥) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

وبرفقته جنوده الذين شاركوه الجهاد، وقرر لهم مرتبات وذلك ليستعين بهم على ما تبقى من النواحي كما عين خير الدين في بعض المواطن نوابا عنه ، كان عددهم أربعة نواب. (١)

كان عروج في حاجة الى صيغة شرعية لامتلاكه الامصار والاراضي التي فتحها ، لذلك ربط تلك الفتوحات باسم الدولة العثمانية ، فصار يغزو باسمها وكانت الدولة العثمانية حريصة على مثل هذا العمل بل وتشجعه لتحقيق أهدافها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، أما الاسبان وأحلافهم فقد هالهم الأمر وأستعدوا للقيام بعمل أكبر ، للتصدي لذلك (٢) إذ أن الجهاد الذي مارسه العثمانيون منذ تأسيس دولتهم نوعان : جهاد بحري ، وجهاد بـ————— فالجهاد الأول كان في البحر لا يعرف حدودا سوى حدود الغلبة والهزيمة فهو حرب بكل معنى الكلمة ، كان العثمانيون خلاله يجوبون البحر المتوسط والمحيط الاطلسي وبحر الشمال لفرض حصار حول الأندلس ، ووصلوا بمغامراتهم ومطارداتهم لاعدائهم الى شواطئ افريقيا الغربية وجزر الكناري وشواطئ انكلترا ، وكان هذا الجهاد موجها ضد كل الدول المسيحية التي لا تعقد معاهدة صداقة مع الجزائر ويقتضى ذلك مطاردة سفن العدو في البحر والاستيلاء عليها بما فيها من غنائم وأخذها الى الجزائر. (٣)

كانت تلمسان مسرحا للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة من بنو زيان ، فتنافس أبو حمر الثالث وأبن أخيه أبو زيان أحمد ، فاتجه الأول الى الأسبان مستنجدا بهم ليساعدوه في الوصول الى الحكم ، مما أدى الى ذهاب أبو زيان أحمد الى عروج وذلك لنجدة ، وانقاذ البلاد من التدخل الاسباني الذي اضر بحياة السكان (٤) .

-
- (١) عبد القادر محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١١٨ .
 (٢) محمد العمروس المطوي : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .
 (٣) أبو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٩٤ .
 (٤) شوقي عطا الله : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ .

اندفع عروج نحو تلمسان وقطع عدة مراحل لنجدة أبو زيان أحمد — فأخذ طريقه الى تلمسان بين الهضاب الداخلية ، وذلك حتى لا يصطدم بالاسبان من ناحية وهران ، فيصدوه عن تلمسان ، أو يقطعوا عنه خط الرجعة وعندما وصل الى قلعة بنى راشد " هواره " (١) اتخذها مركزا لحماية مواسلاته ، وترك فيها أخاه اسحاق على رأس فرقة من الجنود ليحفظ موءخرته وخط تراجعهم ، كما أمرهم بالتضييق على الاسبان فى وهران ، وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم العسكرية وحتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان (٢) وعندما اقترب عروج من أحواز تلمسان تدفق أهلها عليه من كل ناحية ، وتلقوه بالطاعة والخدمة ، فلما رأى سلطانها ذلك ، أدرك أنه لا طاقة له لحربه ففر منها بعد أن جمع كل ما وصلت اليه يده من ذخائر وأموال ، ودخل عروج تلمسان (٣) بكل سهولة .

أجلس عروج على كرسى تلمسان السلطان أبو زيان ، بدلا من عمه أبو حمو الثالث ، الذى سبق وأن اغتصب الحكم ، ثم حاول عروج أن يوفق بين رغبته فى توحيد البلاد تحت ادارة مركزية قوية فى مدينة الجزائر والاستعداد العام لمواجهة الاسبان ، وتخليص البلاد من مضايقتهم ، وبين بقاء الحكم لبنى زيان على ناحية تلمسان ، ضمن دولة الجزائر ، لكن التوفيق بين عمليتي التجميع والفرقة أمر صعب ايجاده فلم يستقر الوضع بتلمسان الا قليلا ، فعمادات الاضطرابات والفتن والدسائس ، وشجعها الاسبان من جهة والطامعون فى العرش من جهة أخرى ، وتولى السلطان أبو زيان وأشياع عمه أبو حمو معا (٤) ، كان ذلك بينما كان عروج قد توجه الى المغرب فوصل وجده واخضع بنى يزناسن وشرع فى اجراء مباحثات مع الوطاسيين فى فاس للتعاون معهم ضد الاسبان (٥) ،

(١) هواره أو قلعة بنى راشد : هى قلعة صغيرة من ولاية وهران تبعد عن معسكر بنحو ٢٥ كم وعن مستغانم ٥٥ كم وتعتبر من أغنى البلاد زراعيًا يعتمد عليها الاسبان فى ذلك .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق ١٨ .

(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٥) محمدخير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦ - ٢٧ .

وعندما عاد الى تلمسان قتل أبا زيان الذى سبق وأن نصبه عليها ،بينما توجه أبو حمو الثالث الى وهران ، واجتاز البحر الى اسبانيا لمقابلته ملكها شارل ، متوسلا اليه أن يعينه على أهل تلمسان وعروج (١) ، فأصدر أوامره الى حاكم مدينة وهران بأن يستعمل كل امكانياته لارجاع أبو حمو الثالث الى عرش تلمسان ، وابعاد خطر التوسع التركى عن أنقاض مملكة بنى زيان ، وأمدّه بجيش كبير وعتاد فخرج أبو حمو على رأس جموع من الأعراب ومعه فرقة من الجيش الاسبانى ، فدهموا أول الأمر قلعة بنى راشد ، حيث رابض اسحاق شقيق عروج ، ونارلسوها بقوة وعنف وتمكنوا منها بعد دفاع عظيم ولم يستسلم لهم اسحاق (٢) على الرغم من الحصار الذى فرض عليهم والذى دام ستة أشهر ، بعد ذلك اضطر الإسبان الى ضرب القلعة بالمدافع فأحدثت فجوة فيها ، وأراد الاسبان النفاذ منها ، لكن منعهم من ذلك طائفة من الغزاة ، واشترط اسحاق لتسليم القلعة أن يخرج كافة المسلمين بجميع أشياءهم وأمتعتهم ، فوقع الاتفاق على ذلك ، وعندما خرج المسلمون نقض الاسبان شروطهم وقام قتال شديد قتل أثناءه اسحاق واستمرت البقية فى القتال حتى استشهدوا جميعا ، فاستولى على القلعة أبو حمو الثالث ثم توجه هو ومن معه من العرب والاسبان الى تلمسان فحاصرها ، وخرج اليه عروج وجماعته فلم يزل يقاتله حتى استشهد وكذلك جماعته الذين قاتلوا حتى استشهدوا (٣) وذلك بالقرب من الوادى المالح على مقربة من مدينة وجدة كان ذلك فى جمادى أول ٨٩٢٤هـ / مايو ١٥١٨م ، فسر لقتله الاسبان ، واحتزوا رأسه وأخذوه معهم الى بلادهم وطافوا به الشوارع وحصل ارتياح كبير لدى الاوساط الاسبانية ، التى رأت الفرصة سانحة لاطفاء ما يتأجج فى صدرها من نار طلب الشار من سكان شمال افريقيا المسلمين منذ امتداد حكمهم للاندلس فى العصور السابقة . (٤)

(١) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٩٠ .

(٢) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٤٤٠ .

أعاد الأسبان أبو حمو الثالث ملكا على تلمسان ،على أن يكون حليفهم وقطع على نفسه عهدا ،وهى أن يوءدى للأسبان أتاوة حددت ب ١٢٠٠٠ مثقال من الذهب و ١٢ فرس و ٦ مقور انك ،وظل ملتزما بذلك طوال حياته ،وعندما آل الحكم الى أخيه عبد الله بعد وفاته ،أمتنع عن أداء ما كان يدفعه أبو حمو للأسبان ،وذلك ثقة منه فى مساندة السلطان العثمانى .(١)

من خلال ذلك كله أتضح لنا مدى حروب الاسترداد المسيحية لدى المسلمين الذين أصفوا على حروبهم مع المسيحيين روح الجهاد ،الذى ساد العصر كله ،وهناك تجمع مجاهدون من جميع أنحاء العالم الاسلامى ،وصمموا على استرداد المناطق التى أحتلها المسيحيون فى الشمال الافريقى ،وذلك تمهيدا لارجاع الحكم الاسلامى الى الاندلس ،ووافق ذلك هدف الدولة العثمانية التى قدمت العون للمجاهدين بل وشجعتهم بكل الوسائل لتحقيق أهدافهم على الرغم من مشاغلها فى الجبهة الشرقية والاوروبية ،والمتعاب التى كان يسببها الفرس ،وترقب الخطر البرتغالى القادم من الجنوب .

(١) الحسن بن محمد الوزان مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ١٠ .

تشجعت الحكومة الاسبانية فى الوقوف أمام الجبهة الاسلامية بقيادة خير الدين بربروسا ، ورغبت فى القضاء على تلك القوة الاسلامية والسروح الجهادية التى ظهرت بها ، والتى أخذت تهدد الاستراتيجية الاسبانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والشمال الافريقى ، لتحقيق أهداف الدولة العثمانية فى تلك المنطقة والتى تعتبر مقدمة لاسترداد الاندلس .

جمع شارل ملك اسبانيا جيوشه ، وأخذ فى تجهيز السفن ، لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين فى الجزائر فوصلت تلك الحملة الى وهران واستكملت عدتها هناك ، ثم توجهت الى الجزائر ، هذا بينما أخذ حاكم تلمسان يستعد لمواجهة خير الدين الذى أوعز لسكان الجزائر بأن يستقبلوه أحسن الاستقبال ————— والا يظهروا له عداوتهم ، وبالفعل أستقبل أهالى الجزائر حاكم تلمسان بحفاوة بالغة ، حسب تعليمات خير الدين بربروسا ، ورست السفن الاسبانية على ساحل الجزائر ، كما بعث الاسبان برسالة لخير الدين ، اذ طلبوا منه الجزائر ، واذا لم يتنازل خير الدين عنها ، فسيصيبه ما حل بأخويه عروج واسحاق فى تلمسان ، وما آل أمرهما اليه من الاهانة والقتل (١) وأجابهم خير الدين على ذلك أن أخويه اللذين استشهدا فى سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ، وعندما علم القائد الاسبانى بموقف خير الدين ، تحركت حميته وبدأ فى انزال جنوده على الساحل ، وتم ذلك فى يومين ، بينما نظم خير الدين جنوده ، ووضع خطة حربية لذلك ، وبدأت المعركة التى استمرت يوما واحدا ، اذ أخلص المسلمون فيها نياتهم وهجموا على المسيحيين ، وبعباية الله انتصر المجاهدون ، على الاسبان الذين هربوا الى سفنهم ومن خلفهم المسلمين ، وأسروا أعدادا كبيرة من الاسبان وعاد حاكم تلمسان الى ولايته . (٢)

كان وجود الأسرى مشكلة للمسلمين ، فأقترح أهل الجزائر على خير الدين بأن يقوم هؤلاء الأسرى بعمل ، خاصة وأن القلعة الاسبانية ليست بعيدة عن

(١) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ، ق ٦٢ ،

(٢) احمد جواد موللى : مرجع سبق ذكره ، ق ١٨ ، ١٠ ب .

محمد أمين : نفس المرجع ، ق ١٩٠ ، ٩٠ ب .

معسكر المسلمين ، فأصدر خير الدين أوامره بإنشاء ثلاثة سجون لايوائهم —
 الا أن بعض الأسرى حاولوا الفرار الى القلعة بعد أن قتلوا الحراس المسلمين
 وعندما سمع المسلمون بذلك قاموا بقتل القتلة ، وقامت المفاوضات بين خير
 الدين والاسبان لافتداء هؤلاء الأسرى بمبالغ كبيرة من الاموال ، فرفض خير الدين
 ذلك واستمع لرأى بعض العلماء المسلمين ، الذين أفتوا بقتلهم جميعا ، لانهم
 عندما يعودون لاسبانيا ، فانهم سيعودون الى الجزائر خاصة وانهم القادة
 الاسبان ، فنفذ خير الدين ما جاء فى فتوة هؤلاء العلماء معلقا على ذلك
 بقوله : " أنا فعلت ذلك امتثالا للفتوى لأنه من أمثل للشر فأن الله
 سيجزيه خير الجزاء " ، و أحدث خبر مقتل الأسرى حزنا عميقا فى الاوساط
 الاسبانية . (١)

عزم خير الدين بربروسا على السفر الى اقليم الروم بغرض الغزو
 ومواصلة الجهاد ، فجمع أعيان أهل الجزائر من المشايخ والعلماء ، وأوضح
 لهم عزمه على السفر الى السلطان العثمانى ، بعد أن أمن بلاد الجزائر وصار
 لديهم جنود مجاهدون كما وصل أعداد كبيرة من الاندلسيين علاوة على الاسلحة
 الأمر الذى يقوم به الجهاد ، وأن المسيحيين قد صدوا عن الجزائر ، وصاروا
 لا يطمعون فيها بعد ذلك ، وأنه عندما قدم الى الجزائر لم يكن لــــدى
 الجزائريين مدفع واحد ، وصار لديهم بعد ذلك أربعمائة مدفع ، وعلمــــى
 الجزائريين اختيار واحد منهم ليكون أميرا عليهم ، بعد
 أن انتهت المهمة التى جاء من أجلها . (٢)

ناشد علماء الجزائر خير الدين وقالوا له أيها الأمير يتعين جلوسك
 فى هذه المدينة بغرض حراستها ، ولا رخصة لك فى الذهاب عن الجزائريين
 وتركهم عرضة للعدو الكافر ، وإذا كنت تخشى أن يكون لك أجر فى الجهاد
 ببلاد الروم ، فإن هنالك كثير من يقوم بهم غيرك ، والمصلحة التامة هى اقامتك
 فى مدينة الجزائر من اجل حمايتها ، فلما أكثر العلماء الكلام على خير

(١) احمد جواد مولوى : مرجع سبق ذكره ، ١١١ ، أ ١٣ ، .

(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ، ق ٢٣ ، .

الدين أجابهم بأنه يشعر بالغربة في الجزائر ، إذ أنه من جزيرة مدلسى ، وأنهم رأوا موقف سلطان تلمسان السابق ، وكيف جلب الأسبان على المسلمين لولا عناية الله وكفاهم شرهم وردهم على أعقابهم ، ورجع سلطان تلمسان إلى بلاده بخيبة وخسرة ، بالإضافة إلى موقف سلطان تونس الحفصى ، الذى لم يقدم يد العون والمساعدة. فى جهاد العدو ، وذكر لهم خير الدين بأنه لم يفتصب الجزائر من يد واحد منهما ، وإنما استولى عليها بعناية الله وخلصها من براثن العدو وكذلك كان أخوه عروج ، وكان على سلطان تلمسان وتونس أن يكونوا يد واحدة مع المجاهدين فى الدفاع عن الإسلام والأراضى الإسلامية ، وجهاد أعداء الله . (١)

اقترح خير الدين بربروسا على الجزائريين لحماية مدينتهم ، بأن يمدوا يد الطاعة للسلطان العثمانى وإذا فعلوا ذلك ، فإن السلطان العثمانى سوف يمددهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجون إليه من آلات الجهاد ، ولا يكون ذلك إلا بالدعاء فى الخطبة له وضرب السكة باسمه ، فرضى الجزائريون بذلك واستحسنوا رأيه .

أمر خير الدين سكان الجزائر أن يكتبوا على لسانهم رسالة للسلطان العثمانى يخبرونه بغرض طاعتهم إليه ، وأنهم من جملة من يقام فيهم أحكامه ، ويكتب خير الدين بدوره خطابا مثل خطابهم ، ففعلوا ذلك ، وعيّن خير الدين أربع سفن للسفر إلى حضرة السلطان وعلى رأسها رجل من خواصه اسمه الحاج حسين ، ووجه صحبتهم هدية عظيمة للسلطان سليم ، ومن ذلك أربعة قواد من الأسرى المسيحيين ، فقبل السلطان سليم الهدية ، وأمر بانزال الوفد واجراء النفقة عليهم ، وعندما عزموا على العودة وجه صحبتهم خطابا وسنجا إلى أهل الجزائر بقبول ما كتبوا إليه ، وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته (٢) ، فأرسل السلطان سليم ألفى جندى من قوة سلاح المدفعية

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ، ق ١٢٣ .

(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : نفس المرجع ، ق ٢٣ ، ب ١٢٤ .

العثمانية ، وكانت المدفعية (طوب) العثمانية أقوى مدفعية فى ذلك الوقت ومن أقوى اسلحة الجيش العثمانى (١) ، كما أرسل أربعة آلاف من المتطوعة للجهاد وجند الانكشارية ، وجاء معهم كثير من المهاجرين الاتراك ، وممن هؤلاء الجنود والمهاجرين تكون الأوجاق أو قوة الجزائر الحربية (٢) ، وذلك بعد أن أعطى السلطان سليم للذين يذهبون الى الجزائر كمطوعين امتيازات الانكشارية (٣) ، تشجيعا لهم على الانضمام الى كتائب المجاهدين ، وقد أقبل سكان الاناضول على السفر الى الجزائر والتطوع فى عمليات الجهاد ، كما بادر بمنح خير الدين لقب بيلربك الجزائر ٩٢٤هـ / ١٥١٨م وهو من أعظم ألقاب الدولة العثمانية . (٤)

وكان من دولات بيلربكيه (٥) الجزائر

أن الدولة العثمانية جعلت الجزائر قاعدة حربية ، لتزحف منها الى الاندلس لاستردادها ، من خلال ذلك فقد أعتبرت الجزائر ولاية ممتازة ، واعتبرت قاعدة الحكم العثمانى فى شمال افريقيا ، وفى غرب البحر المتوسط وأشرفت على اخضاع باقى شمال افريقيا للسلطة العثمانية وظلت هى المسئولة عن توجيهات الحكم فى طرابلس وتونس (٦) ، ان منح خير الدين لقب بيلربك الجزائر أى أمير الأمراء ، وهو من أرفع المناصب فى الدولة ، والتى تخول صاحبهما

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره

٢ ، ص ٩١١ .

(٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

(٣) ارجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر

ص ٢٢ .

(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ .

(٥) والبيلربكية فى الدولة العثمانية نظام ادارى ، وتعتبر قاعدة ارتكاز لزحف يتلوها ، ومثال ذلك كانت بغداد بيلربكية سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، ثم صارت البصرة بعد ذلك سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م .

(٦) محمد خير فارس : نفس المرجع ، ص ٥٦ .

اختصاصات ادارية واسعة ،كما تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة في اقليمه ممثلا للسلطان ،دليل على أهمية المواجهة بين الاسلام والمسيحية للسيطرة على البحر المتوسط اذا كانت الأحداث في غربى البحر المتوسط تتطلب وجود شخصية في الجزائر ،كما كانت تقتضى وجود تعاون وثيق بين السلطنة ونوابها في الجزائر ،ذلك أن ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية جرى فى الوقت الذى اتحدت فيه مملكة اسبانيا مع الامبراطورية الرومانية المقدسة بتاج واحد حمله ملك اسبانيا باسم شارل الخامس (١) ،فكان معنى هذا ارتباط موقف اسبانيا بموقف الامبراطور المعادى للدولة العثمانية (٢) ، اذ أن السلطان سليم أثناء وجوده بالقاهرة قد أدرك أهمية الجزائر بالنسبة للجهاد ،وأدرك مدى المسؤولية التى أضطلع بحملها (٣) ،لذلك سعى فى تدعيم وجود الدولة هناك .

عندما سمع أهل طرابلس بانضمام الجزائر الى الدولة العثمانية سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م) ،وشاهدوا الدعم السخى من الدولة وبعد أن عجزوا فى التخلص من الوجود المسيحى فى طرابلس ،بسبب ضعف امكانياتهم الحربية والبشرية وقلة مواردهم المالية ،راوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائـر (٤) ، فبعثوا فى ٩٢٥هـ (١٥١٩م) وفدا الى استانبول يطلب المساعدة لتخليص بلادهم من الوجود المسيحى ،فاستجاب السلطان العثمانى لمطالبهم ،وأمر باسناد اماراة طرابلس الىمراد آغا ،وذلك لمعرفته باللغة العربية ،وبرفقته جنود عثمانيين ،وأقام مراد ادارة فى تاجوراء باسم الدولة العثمانية ، وشيد حصنا ليكون مركز امامى فيما بين طرابلس وتاجوراء ،وبذل جهود كبيرة فى مقاومة فرسان القديس يوحنا ،الذين يتلقون دعما كبيرا من اسبانيا . (٥)

-
- (١) عبدالعزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٩١١ .
 - (٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .
 - (٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٨ .
 - (٤) عبدالعزيز الشناوى : نفس المرجع ص ٩٢٨ - ٩٢٩ .
 - (٥) عزيز سامح : الاثراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية ، ص ٢٢ - ٢٣ ، نجم الدين غالب : مدينة طرابلس عبر التاريخ ، ص ٩١ .

لم يكن بذلك امتداد نفوذ الدولة العثمانية لكل من تونس والجزائر بواسطة غزو عسكري، بل جاء تدخل الدولة نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في أوائل القرن السادس عشر (١) ونتيجة لطلب الأهالي في تلك المناطق، الذين رغبوا في ربط مصيرهم بالدولة العثمانية، لوحدة الهدف فامتلات القلاع والثكنات العسكرية والسفن، وخاضوا حروب الجهاد (٢) بكل قوة واقتدار، كما ساهم سكان تلك المناطق من طرابلس الى مراكش مع الدولة العثمانية بالخبراء الفنيين والبحارة (٣)، وبدأت تلك الحروب غاية في القوة تجسدت فيها كل ملامح التلاحم الاسلامي.

ان اهم مميزات الوجود العثماني في الشمال الافريقي بوجه عام والجزائر بوجه خاص هي استمرارية فكرة الجهاد ضد المسيحية بالمعنى التقليدي للكلمة، وبالمعنى الذي آمن به العثمانيون منذ نشأة امارتهم ثم دولتهم، ومنذ أن صاروا جنودا على حدود الدولة الاسلامية يغيروا على بيزنطة فيستشهدوا أو ينتصروا. هذا المعنى للجهاد وهو الذي جاء به العثمانيون للجزائر أيضا، فهو اذا من تقاليدهم العريقة، وقد انضم اليه جهاد الاندلسيين، وأهل شمال افريقيا، وهم ايضا كانوا يستعملون الجهاد وفي معناه الذي ورثوه عن أجدادهم (٤)، لذا كانت أهمية الدولة العثمانية أنها تجربة فريدة وجريئة في تطبيق النظم الاسلامية، وعلى الأخص في معاملة أهل الذمة في العصور الحديثة (٥)، من هذا المنطلق أخذ المسلمون في الاندلس يسترحمون من الدولة العثمانية القائمة بالاسلام مساعدتهم على الاسبان ووافق ذلك الوقت وفاة السلطان سليم ٩٢٥هـ (١٥٢٠م)، وجلس السلطان سليمان القانوني على العرش، ولما عرضوا عليه الاسترحام المذكور رق قلبه لحال المسلمين ووعده بارسال حملة عسكرية لمساعدتهم وتخليصهم من

(١) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره، ص ١٩ .

(٢) أبو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٣٥ .

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.89 .

(٤) أبو القاسم سعد الله : نفس المرجع، ج ١، ص ١٣٩ .

(٥) محمد البحراوي : التاريخ المعاصر .. مجلة الدارة، العدد (٢)، السنة ١١، ص ٨١ .

الفيــــــــــــــــق . (١)

كان التحاق الجزائر بالباب العالى باعشا قويا لاضطراب الأمور فيها فقد كان على خير الدين أن يحارب فى جبهتين ، الجبهة الخارجية ، وتتمثل فى ذلك الصراع العنيف مع الدول الأوروبية عامة واسبانيا التى ساد الفرع فيها ، عند اعلان انضمام الجزائر للمجموعة الاسلامية العثمانية ، ومن ثم وصول الخطر الاسلامى العثمانى الى هذا الجزء الغربى من البحر المتوسط لاسترداد الاندلس ،والذى يعتبره الاسبان بحكم استيلائهم على أهم المــــــدن الساحلية الجزائرية وعلى جزره الكبرى ومعظم السواحل الايطالية بحــــــرا اسبانيا صميما (٢) ، وهناك الجبهة الداخلية التى تتمثل فى محاولة توحيد بلاد المغرب تحت حكمه ، الا أنه تعرض فى هذا السبيل لموءمات الحفصيين بتونس ، وبنى زيان فى تلمسان ، علاوة على امارات القبائل الصغيرة (٣) ، وذلك خشية امتداد القوة العثمانية الى بلادهم ، ونشر جناح السلطنة على كامل بلاد المغرب العربى ، فأجتهد الحفصيون الزيانيون يومئذ فى العمل على قطع العلاقة بين الجزائر واستانبول ، وسعوا فى ايقاد الفتن والثورات الوطنية ضد السلطة العثمانية ، وأنفقت فى سبيل ذلك أموال طائلة ، وفيهم من أستعان بملوك الاسبان وملوك المغرب الأقصى . (٤)

تضايق سلطان تونس من خيرالدين ، فوجه الى سلطان تلمسان أبـــــو عبد الله الزياني خطابا يقول فيه أنظر الى مملكة الأتراك كيف استقرت بالجزائر ، وأن خير الدين دانت له القلعة ، واتصلت بالمملكة أعوانه ، وأنه أى خير الدين قد فتح عمالة الجزائر بطائفة قليلة من الجنود الذين كانوا يغزون معه فى البحر وأما الآن فان الامدادات وجميع ما يحتاج اليه تأتية

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٣٦١ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٤٧ .

من السلطان العثماني في البحر، وهو يتفرع لى ولك ويسلبنا ملك أبائنا وأجدادنا باقتدار، وقبل أن تتسع تلك الفجوة، يجب أن نكون يد واحدة (١). كان لسلطان تلمسان أبو عبد الله الرياني أخوان وكانا قد هربا إلى صاحب فاس وظل هناك حتى طلبهما أخوهما، ورجعا إليه بعد أن تعهد أبو عبد الله بضمن سلامتهم (٢)، وعندما أقترب الأخوان من نواحي تلمسان توهما من أخيهما شرا، ففر أحدهما إلى وهران والآخر دخل في عمالة خيبر الدين فاستعطفه بمساعدته على أخيه، ووافق خيبر الدين على ذلك، فبعث إلى شيوخ القبائل خطبا يدعوهم فيه إلى خلع صاحب تلمسان أبي عبد الله وبيعة أخيه مسعود، فأجابته كافة القبائل إلى ذلك، واجتمع نحو عشرين ألف رجل مع مسعود، وبعث إليهم خيبر الدين بطائفة من الجنود، فذهب مسعود ويمن معه من رجال القبائل والجنود التي وجهها إليه خيبر الدين إلى تلمسان، فهرب أبو عبد الله ودخلها مسعود، وأقام بها حكمه تحت إشراف خيبر الدين.

عندما عاد جنود خيبر الدين إلى الجزائر، طمع مسعود وحشدته نفسه بالاستقلال بتلمسان، والخروج عن طاعة خيبر الدين، فبعث إلى الأسبان في وهران خطبا طلب فيه أن يكونوا يد واحدة في حرب العثمانيين بقيادة خيبر الدين فعلم بذلك خيبر الدين فوجه إليه خطبا يلومه على ما فعل، ويحذره عاقبة أمره، ويقول له فيه أنك إن تماديت على موالة الأسبان، والانحياز إليهم فلا بد أن انتقم منك غاية الانتقام، وأجعلك حديثا بين الأنام فأنظر لنفسك، وجدد إسلامك وتب إلى الله عز وجل من هذا الذنب العظيم فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وكان خيبر الدين نفسه في نفس الوقت الذي بعث فيه الخطاب المذكور أخذ في الاستعداد لمواجهة إذا لم يستجب لذلك التحذير (٣).

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد: مرجع سبق ذكره، ق ٢٤، ب ١٢٥.

(٢) محمد أمين: مرجع سبق ذكره، ق ٧٩، ب ٨٠، أ.

(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد: نفس المرجع، ق ٢٥، ب ١٢٦.

سمع أبو عبد الله الزياتى بالأحداث السابقة، فطمع بملك تلمسان مرة أخرى، فبعث إلى رجل صالح من صلحاء ذلك الوقت، ليشفع به لدى خير الدين ومن جملة ما قاله أبو عبد الله أن خلصنى خير الدين وردنى إلى ملكى أكون عبدا من عبده. يتصرف بى كيف يشاء، وأنا أعلن توبتى إلى الله من مخالفته والخروج عن أمره، فتوجه ذلك الرجل الصالح إلى خير الدين فى الجرائز بغرض الشفاعة لأبو عبد الله، وقبل خير الدين تلك الوساطة من قبل ذلك الرجل، وبعث خير الدين لأبو عبد الله بالحضور إليه بالجرائز، للتفاوض معه فى أمر تلمسان، فأجابه بخطاب أنه لا يستطيع الحضور للجرائز، خوفا من ترصد أخيه مسعود فى الطريق، وإذا رغب خير الدين أن يحصل على هدفه بخصوص تلمسان، فعليه القدوم إلى مستغانم فبعد فتحها يتم التفاوض على تلمسان.

جهز خير الدين ثمان وعشرين سفينة بجميع ما تحتاج إليه من العدة والعدد، كما جهز جنود من ناحية البر، وذلك لحصار مستغانم برا وبحرا ففتحها وخلصها من مسعود، وعندما استقرت الأوضاع خرج أبو عبد الله من وهران، وعندما سمع ذلك خير الدين سر بهذا النبأ، بينما أتجهت سفن خير الدين والتي ساعدت فى حصار مستغانم إلى الاندلس لانقاذ المسلمين هناك ومساعدتهم فى العبور للجرائز، كما أتجهت القوة البرية إلى قلعة بنى راشد وخلصتها من مسعود، ثم توجهت إلى تلمسان وصحبته عبد الله الزياتى (١)

حاصرت قوة خير الدين تلمسان وسيقوا عليها الخناق، ثم تم فتحها وفر مسعود إلى بلاد القبائل، وعينوا مولاى عبد الله وأعادوه إلى العرش الزياتى تحت إشراف خير الدين، ثم أغارت قوة عثمانية على القبيلة التى تواجد فيها مسعود، وأسطاعوا القبض عليه وسلموه لأخيه عبد الله، الذى أودعه السجن حتى توفى فيه. (٢)

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد: مرجع سبق ذكره، ٢٦، ١٢٧.

(٢) محمد أمين: مرجع سبق ذكره، ١٩٢، ٩٢.

أسى أحمد بن القاضى امارة بجبل كوكو، وعندما تولى خير الدين أمر البلاد أقر أمرته وأستقر ابن القاضى بجبل كوكو (سوق الاربعاء) من بلاد زواده ، الا أن السلطان الحفصى اجتهد فى التفريق بين احمد بن القاضى وخير الدين ، فرفض ابن القاضى سيطرة الحكم العثمانى ، وقام بمناهضة حكمهم فى النواحي الشرقية من الجزائر ، وساعده فى ذلك الحفصيون ^(١) الذين جهزوا عدتهم لمواجهة العثمانيين ، وعندما سمع ذلك خير الدين وجه قواته الى الناحية الشرقية بناحية تيفليس يمليل ، فأنهزم الحفصيون ، وحاصره العثمانيون فى احدى الجبال ، فتقدم احمد بن القاضى وأظهر صداقته وإخلاصه للعثمانيين ، وأشار عليهم بالعود للجبل لاستئصال الحفصيين ، وهناك وعندما وجد العثمانيون الحفصيين بمكان ضيق فى الجبل أرادوا الهجوم على الحفصيين للقضاء عليهم الا أن ابن القاضى وشب على العثمانيين وغلّبهم ثم اخذ ابن القاضى فى الاستيلاء على النواحي الشرقية ، ولم يبق لخير الدين سوى مدينة الجزائر ، فتقدم اليها ابن القاضى بجنود كبيرة وحاصرها حتى ضاق أهل الجزائر بذلك الحصار الذى أجهدهم كثيرا .

دخل فصل الشتاء ، وأراد ابن القاضى رفع الحصار والعودة الى موطنه فمنعه من ذلك العرب الذين معه من نواحي الجزائر قائلين له أنا كنا مع العثمانيين فى أمان وعافية ولم نر منهم الا الخير فراودتنا عن ذلك وغررتنا حتى تحولنا عن طاعتهم وقتلناهم ، فاذا عدت الى حال سبيلك فسوف يقتلوننا، ولم يزلوا به حتى منعه من الذهاب ، فتحير ابن القاضى عند ذلك ورأى مصالحه خير الدين ، فبعث أكابر قومه ومشائخهم الى خير الدين يطلبون منه العفو والمفح ، وكان خير الدين رجلا حليما ، وقبل منهم سياسة منه وهو يعلم ما يكيد ابن القاضى ، وشرط خير الدين أن يردوا اليه جميع الأسرى العثمانيين ، ويدفع ابن القاضى جزية سنوية فرض ابن القاضى وجماعته بذلك ، وسلم لخير الدين جميع الأسرى ، كما دفع جزية ١٦ من الجزية .

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٤٨ .

جهز ابن القاضى حملة أخرى لشقيقه ،ورغب فى ارسالها للجزائر —
 الا ان خير الدين سمع بتلك الاستعدادات فبادر عليهم ،ووجه جنوده اليهم
 (١) بالقرب من الجزائر ،وانتصر العثمانيون ،وفر شقيق ابن القاضى من المعركة
 وكانت فى النواحي الشرقية بعض القلاع والمدن ،سبق وأن أستولى عليها ابن
 القاضى ووقع فيها رجاله ،وبعد أن استقر خير الدين رغب فى تخليص تلك المدن
 والقلاع من يد أبى القاضى ،فجهز حملة بقيادة قره حسن الذى أستطاع تحقيق
 تلك الأهداف وخلص جميع القلاع من يد ابن القاضى وعينه خير الدين بيكـا
 على النواحي الشرقية ،وعندما شاهد ابن القاضى ذلك ،لم يستطع ان يقاوم
 النفوذ العثمانى ،فأخذ فى اشغال الفتنة بين خير الدين وقره حسن ،وبعث
 خطابا الى الأخير ذكر فيه أنه قام بمجهود كبير حتى أستطاع أن يفتح
 تلك النواحي ،وصارت ملكا له ،فمن الأجدر أن أن يستقل عن خير الدين
 ويصير ملكا ويجبى الضرائب لنفسه بدلا من ارسالها لخير الدين ،فسولت
 نفس قره حسن على الخروج عن طاعة خير الدين ،وصارت النواحي الشرقية
 بين احمد ابن القاضى وقره حسن . (٢)

لم يكتف ابن القاضى بذلك ،بل دعى أعيان أهل الجزائر للوثوب على
 خير الدين والخروج عن طاعة الدولة العثمانية فأضطربت الأوضاع فى الجزائر
 وانقسم الجزائريون على أنفسهم بين مؤيد ومعارض ،وحدثت فيه القلاقل
 والفتن مما جعل خير الدين أن يترك العاصمة ويخرج منها الى جيجل . (٣)

كان لذلك العميان من قبل بنو زيان فى تلمسان ،وابن القاضى فى
 النواحي الشرقية ،ودور الحفصيين فى ايقاد الفتنة بين القوى الجزائرية
 ودعوة تلك القوى للخروج عن طاعة الدولة العثمانية ،جميع تلك العوامل
 كان لها تأثير كبير فى اعاقه توطيد نفوذ الدولة فى الشمال الافريقى

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،١٢٨، ٢٨، ١٢٩ .

(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ٩٣ ب .

(٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج ٣ ،ص ٤٨ .

التي جعلت من بيلربكية الجزائر قاعدة ارتكار لتتقدم منها نحو الاندلس فتأخر تحقيق ذلك الهدف، وساعد في ذلك التأخير أن الدولة كانت قادمة على تغيير جديد في أسلوبها، إذ جلس على عرش الدولة السلطان سليمان القانوني بعد وفاة والده السلطان سليم ٩٢٧هـ (١٥٢٠م)، فأشغل السلطان سليمان بأمور الدولة، فهناك الشؤون الداخلية التي لم يتشبع السلطان بمعرفتها، علاوة على ذلك الجبهات الحربية والموزعة على القارات الثلاث كل ذلك يحتاج لوقت لرسم خطة جديدة تسير عليها الدولة، لتحقيق طموحاتها وعندما انتهى السلطان من رسم سياسة الدولة فان جميع الامور عادت الى طبيعتها شأن كل حاكم أو سلطان جديد .

استقر خير الدين بربروا في جيجل للفترة ما بين ٩٢٨-٩٣٢هـ (١٥٢١-١٥٢٥م)، وذلك حتى تنتهى الدولة من تنظيماتها، لتواصل امداداتها العسكرية للجزائر، التي كان خير الدين في حاجة لها، علاوة على ذلك فانه كان يرغب في اعادة تنظيم القوات العثمانية المتواجدة معه في هذا الوقت وريثما تصل الامدادات فقد استأنف من جيجل نشاطه في الجهاد فشرع في مهاجمة سواحل البحر المتوسط الغربية (١)، كما أخذ في مهاجمة السفن المسيحية في عرض البحر المتوسط، وصد هجوما مسيحيا على تونس، وفي هذا الوقت وصل سنان ريس الذي قام من جزيرة جربة وبمعاونة خير الدين بالهجوم على السفن المسيحية، فغنم المسلمين كثيرا، واجتمعت الأعوان على خير الدين، وضاق البحر على المسيحيين، فأخذ في انقاذ المسلمين بالاندلس، بأن حملهم على ظهر سفنه الى الشمال الافريقي (٢)، وكان خير الدين قد سمع أصوات الاستغاثة اليائسة، فلبى نداها وصار يجوب البحر على رأس سفنه حتى بلغ السواحل الاسبانية التي التجأ اليها المسلمون، ولم يجروء اسطول اسبانيا على صده، فأخذ خير الدين يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من أولئك المستضعفين الفارين بدينهم، بل أنه كان يترك أكبر عدد من بحارته

(١) محمد خير فارس: مرجع سبق ذكره، ص ٣٢ .

(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد: مرجع سبق ذكره، ق ٣٣، ب ١٣٤ .

الجزائريين فوق الأرض الأسبانية لكي يحمل مكانهم عددا من اللاجئين، حتى إذا ما وصلوا الى بر الأمان فوق ساحل الجزائر، عاد الى اسبانيا ليأتى بغيرهم، وكرر ذلك عدة مرات، حتى أنقذ أعدادا كبيرة اشتد بهم ساعد المسلمين. (١)

كان خير الدين يرغب في توحيد بلاد الشمال الافريقى تحت اسم الدولة العثمانية، حتى تنطلق منها الدولة لاسترداد الأندلس، فاستولى على مدينة القل ١٥٢٨هـ/ ١٥٢١م وعنابة ١٥٢٩هـ/ ١٥٢٢م وقسطية، واستعان بعد ذلك بسلطان بنى عباس لطرد قبائل الكوكو من الجزائر، بعد أن ساءت سمعتهم بين الناس، واحتل المـتـجـة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) (٢) وتبين للاهالى من خلال سياسة ابن القاضى مدى القتيوة، التى أوغرت عليه قلوب الجزائريين، لذلك عندما دخل خير الدين مدينة الجزائر سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) بناء على طلب من أهلها فان أهل المدينة احتفلوا برجوعه احتفالا عظيما (٣) بينما قام رجال ابن القاضى بقتل زعيمهم وحملوا رأسه الى خير الدين علامة على خضوعهم. (٤)

رأى خير الدين أن يذهب الى قرية حسن، الذى انحاز بمن معه الى مدينة شرشال واتفق مع الاسبان على أخذ الجزائر، وعندما وصلها خير الدين انضم اليه جنود قرية حسن بعد أن طلبوا من خير الدين العفو فعفا عنهم، ثم احضر قرية حسن امامه ووبخه ثم أمر بقتله، واستقر الأمن بعد ذلك فى الناحية الشرقية (٥) ووطد فيها نفوذ الدولة العثمانية ثم أتجه الى مدينة الجزائر.

كان أبو عبد الله الزياني سلطان تلمسان قد سولت له نفسه على

- (١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.
- (٢) شارل اندرى جولييان : مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٢٢٩.
- (٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره، ج٣، ص ٤٩.
- (٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره، ص ٣٢.
- (٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره، ق ١٣٦، ج ٣٦.

الخروج عن طاعة الدولة العثمانية وذلك أثناء انحسار حكم خير الدين الى جيجل ،فحول الخطبة له ،وضرب السكة باسمه ،ونقض العهد الذى أخذه خير الدين عليه ،وامتنع عن ارسال ما هو مقرر عليه من اعانات سنوية للمجاهدين .

بعث خير الدين خطابا الى سلطان تلمسان يحذره من مغبة خروجه على الدولة العثمانية ،وانحيازه للاسبان فى وهران ،ونصحه بالعودة الى عهده ووعده ، وأن ترجع الخطبة وتضرب السكة باسم السلطان العثمانى الا أن أبا عبد الله الزيائى لم يستجب للنصائح التى وجهها خير الدين ،بل جمع أعيان البلاد من بنى عبدالواد ،وذكر لهم بأنه لم يكن دخيلا على حكم تلمسان ،بل هو أحق من خيرالدين الدخيل على البلاد ،فجهز جيشا وتوجه للجزائر لمواجهة خير الدين ،ووقع بينهم قتال كبير ،كانت الكرة فيه على جيش تلمسان ،وهرب أبو عبد الله الزيائى ،وعندما أحس بعدم قدرته فى مواجهة خيرالدين ،عاد مرة أخرى للمداينة ،فبعث الى خير الدين أعيان مملكته يلتمسون منه الصفح والعفو ،بايعدونه بحمل ما هو مقرر على صاحب تلمسان لرسم الجهاد ،ويضاعفون الخراج الذى كانوا يدفعونه بالاضافة الى هدايا أخرى يوجهونها اليه كل سنة ،فرض خير الدين بذلك ،وعاد للجزائر (١) ،فكر خير الدين ببربروسا بعد أن وطد دعائم الدولة العثمانية فى أنحاء الجزائر ،فى الحصن الذى شيده الاسبان أمام مدينة الجزائر وكان هذا الحصن قد بالغ الاسبان فى تشييده وتحصينه وكان كافة المسيحيين يمدونه بالاموال ،اذ فرضوا له نوعا من الضرائب ،لقرض العون ضد المسلمين ،كما أرسلوا لذلك الحصن جميع أنواع السلاح وآلات الحرب والمدافع فتضايق الجزائريون من ذلك الحصن وهذا الاجراء .

أخذ خير الدين فى شراء ما يحتاج اليه من مدافع ،وعندما أكتمل استعداداه أمر بقذف المدفعية عليه بكل كثافة وصمد الاسبان فى قلعتهم

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٣٦، ١٢٧، ٣٧.

وحاولوا المقاومة ،وقذفوا بدورهم مدينة الجزائر ،فهدمت بعض المنازل وأجزاء من الجامع الكبير ،واستمر تبادل اطلاق النار عدة أيام استولى بعدها خير الدين على ذلك الحصن (١)، من ناحية أخرى لم تصل الأخبار لملك اسبانيا بهزيمة جنوده واستسلام القلعة ،فأرسل بدوره سفينة امدادات عسكرية لمساندة القلعة ضد المسلمين ،وعندما وصلت السفينة أمام الجزائر قررت العودة الى اسبانيا اذ لم تجد أثرا للوجود الاسباني هناك ،فهاجم أسطول خير الدين تلك السفينة وأستولى عليها . (٢)

شيد خيرالدين بربر وسا كآسرة أمواج وذلك لتأمين ميناء الجزائر
ترتبط أطلال القلعة والجزيرة بالساحل وبذلك أوجد ميناء حصينا أستعمله
المجاهدون كملجأ لهم فى حالة سوء الجو ،والهجوم البحرى من قبل السفن
المسيحية . (٣)

ان موقع ميناء الجزائر بين صقلية والمدخل الغربى للبحر المتوسط جعلته مكان مراقبة الطرق المتجهه مباشرة الى جبل طارق تجاه غربى البحر المتوسط والى جنوب اسبانيا فى اتجاه جنوب ايطاليا أو صقلية وكذلك التصدى لمن تحدثه نفسه باستعمالها ،مما جعل العثمانيون يتخذون من هذا الميناء الحربى الذى يمتاز بموقعه أكثر مما يمتاز بمرساه قاعدة محصنة وملجأ لاسطولهم . (٤) وصار ميناء الجزائر منذ ٩٣٦هـ (١٥٢٩م) عاصمة كبرى للمغرب الاوسط بل ولكل شمال افريقيا العثمانية (٥) وظلت الجزائر طيلة الحكم العثمانى قوة بحرية يتركز نشاطها وموردها الرئيسيان على البحر ،كما أدخل العثمانيون مفهوم الحدود السياسية فى شمال افريقيا ،ورسموا

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ١٢٨ ، ص ٣٨٠ .

(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ١٢٨ ، ص ١١٢٩ .

(٣) أرجمنت كوران : مرجع سبق ذكره

ص ٢٢ .

(٤) شارل آندرى جولييان : مرجع سبق ذكره ،ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

(٥) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره

للجزائر حدودها الحالية التي لم تتغير منذ ذلك الوقت . (١)

نجح خير الدين بربروسا نجاحا كبيرا في انشاء هيكل بيليريكية قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني والتي مكنته من توجيه ضربات قوية على السواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في انقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا ، فقد قام ٩٣٦هـ ، (١٥٢٩م) بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات الى السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف مسلم ، وغدا . خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط (٢) ، ويفضل مساعدات الدولة العسكرية ، وموارد خزانة الجزائر المتنوعة من ضرائب وصى ومغانم والزكاة والعشور والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام وروءاء القبائل والعشائر من دفع العوائد والهدايا المتنوعة من الاموال والبضائع والخمس من المغانم البحرية المختلفة وغيرها ، وكان مجموع ما يصل للخزينة العامة من ولايات الجزائر أربعمئة وثمان وستون ألف دورو (٣) ، ثم عكف خير الدين في تنظيم الجزائر اداريا ، وذلك لتنظيم أمور الدولة العثمانية وتوطيد نفوذها ، فجعل للجزائر مجلسين استشاريين الى جانب البيلربك وهما مجلس الشورى والديوان ، وكان البيلربك يمارس نفوذه على باشوات تونس وطرابلس وظل على ولائه التام للباب العالي (٤) ، كما كان البيلربك يسيطر على القوتين العسكريتين الانكشارية (القوات البرية) وطائفة الروءاء البحرية (٥) .

غادر خير الدين سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م) الجزائر على رأس عدد من السفن ورسى بتطوان والعراش ، وتزودت ببعض المؤن والعتاد خاصة القمح ، اذ كان

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

2- John Lynch : OP.CIT Vol.2 P.95 .

، عبدالعزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٩١٤ .

(٣) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٢٠ - ٢٢ .

(٤) شارل آندري جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٣٤٠ .

(٥) محمد خير فارس : نفي المرجع ، ص ٥٧ .

قد عم الجزائر جفاف، فقدم أبناء المنطقة لأبناء ملتهم ذلك العون^(١)، ثم بعث خير الدين في السنة التالية سفيرا الى ملك فاس احمد الوطاس، يبلغه بأنه على استعداد للقدوم بمراكبه الحربية، لمهاجمة أى موقع مسيحي يرغبه كما طلب خير الدين من الملك الوطاس بعض ملح البارود، وأمنت طلبات خير الدين بسرعة، وشاعت الأخبار بأن خير الدين وأحمد الوطاس سوف يهاجمون سبتة فأسرع الملك البرتغالي جان الثالث بارسال القوافل المحملة بالذخائر الى مضيق جبل طارق، وبأشتر استعدادته اللازمة هناك، كما أوفد في نفس الوقت القائد دون جورج دى نورنها (Don Gorge De Nornha) الى ملقا (Malaga) لتجميع الجيوش وتسليح السفن، وأبلغ دون لوبي هورنادو (Don Lope Hurtodo)، بأنه يتمنى طرد خير الدين بربروسا من الجزائر، وأنه اذا رغبت اسبانيا في ذلك فان البرتغال مستعدة للمشاركة^(٢).

أخذت سياسة التعاون العثماني الوطاسي توءى شمارها، خاصة بعد أن نجح القائد العثماني العطار في تحرير غصاصة، وطرد الاسبان منها ثم عندما حاصر الوطاسيون مليلة، وصار موقف الاسبان حرجا للغاية اذ أن السفن الاسبانية المتجهة اليها كانت معرضة لخطر المسلمين في غصاصة كان ذلك الموقف في صالح الدولة العثمانية التي أخذت في التمرکز في الساحل الشمالي الافريقي، واتخذت من تلك المراكز قواعد لمحاربة أعدائهم واذا استمر العثمانيون في سياستهم تلك، فانه لا محالة من أن يسيطروا نفوذهم على المغرب بأكمله، ولن يلبثوا أن يتعاونوا مع السعديين، لأن عملية الجهاد ومحاربة أعداء المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين^(٣).

أقلق ذلك التعاون والاتصالات التي قامت بين خير الدين بربروسا، وأحمد الوطاس علاوة على النجاح الذي حققه خير الدين في الجزائر، وموارده المالية

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ص ١٣٦.

عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ص ٥٥.

2- Soucs Inediles de L Historire de Moroc . Espagne Tom .1 P.41.

(٣) عبد الكريم كريم : نفس المرجع ص ٥٥.

الثابتة ، والدعم العثماني ، وتخليصه لحصن الجزائر ، أقلق ذلك كله الأسبان وأنزعجوا لتلك الانجازات ، فتأمروا يومئذ مع فرنسا وجنوه على مهاجمة خير الدين في الجزائر وانهاء الوجود العثماني ، فوجهوا حملة بحرية بقيادة اندريا دوريا ، الذي تحاشى الاشتباك مع خير الدين ببروسا ، وحاول الاستيلاء على شرشال ، لكنه فشل في تحقيق ذلك . (١)

كتب أسقف طليطلة - صاحب النفوذ المطلق بإسبانيا - للإمبراطور شارل الخامس عن مرسى هنين بالجزائر:-

" ... لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد ، أن لمدينة هنيــــــــــــن ومرساها أهمية بالغة ، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة ، ولها قلعة عظيمة ، ولا تبعد عن تلمسان الا ١٢ مرحلة ، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية ، التي يمكن أن نتداولها مع العرب ، كـــــــــــــــــمــــــــــــا أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالآخر ، على إبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا ، فهو لن يفكر في مهاجمتها ، عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة " .

أصدر شارل الخامس نتيجة لذلك أوامره للقائد الإسباني دون الفارو دوبازان (Don AL Varo Bazan) ، بمهاجمة مرسى هنيــــــــــــن واحتلالها ، إذ كان الإمبراطور شارل الخامس ، يرغب في تطويق مملكة الجزائر الجديدة من شرقها وغربها ، بسياج من الحصار ، ويفرض سلطانه بقوة على بنى حفص بتونس وعلى بنى زيان بتلمسان ، الذين كانوا آخذين في الانقراض والاضمحلال .

وقف الاسطول الإسباني المؤلف من احد عشرة سفينة وناقلتين أمام

(١) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨ .

المرسى الذى لم تكن به قوة كافية للدفاع ،فأنزل الجيش الذى به — من اسبانيا ،والفرقة التى أخذها من وهران وأحتل القائد الاسبانى المدينة وتحصن بها ،بعد دفاع من قبل أنبائها .(١)

مما لا شك فيه أن اسبانيا كانت اكثر الدول الاوروبية تضرا بـ ما يحققه خير الدين من نجاح فى الشمال الافريقى ،وكانت اسبانيا كما هو معروف فى ذلك الوقت ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ،والتي كان على رأسها شارل الخامس الذى تعهد على نفسه بالدفاع عن أوروبا المسيحية ضد التقدم العثمانى نحو شرق ووسط أوروبا ،لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيلربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية فى الشمال الافريقى ،لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر ،بل أرسل مبعوثا للتجسس فى شمال افريقيا سنة ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) وهوالضابط (أوشوا دوسلا) الذى طاف بأحساء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس ،وحرر من امتداد النفوذ العثمانى على تونس ،وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على افريقيا (٢) ،ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس ،وهذا ما يخشاه العالم المسيحى .

كانت سياسة المملكة الحفصية فى تونس تسير نحو انحطاط مستمر ،كان السلطان الحفصى الحسن بن محمد بن الحسن قد أساء السيرة فى البلاد وقتل عددا من اخوته ،فاضطربت الاحوال فى تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصى ،وكان أخو الحسن المسمى بالامير الرشيد قد هرب من أخيه خوفا من القتل ولجأ عند العرب فى البادية ،ثم ذهب الى خير الدين فى الجزائر — وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه (٣) فمنحه ذلك خيرالدين ،الذى كان

-
- (١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
 (٢) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢ .
 (٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،ج ١ ،ص ٤١٩ .

مركزا اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التى مزقت الاسرة الحفصية ، كما كان لتونس فى نظره أهمية استراتيجية كبيرة لأشرفها على المضيق المقلى بحيث تسمح له السيطرة عليها فى تهديد وقطع المواصلات بين حوضى المتوسط الشرقى والغربى (١) بالإضافة الى رغبة خير الدين فى توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الاندلس .

عزم السلطان سليمان القانونى بعد أن استولى على بلغراد ، السفر بسائر جنوده الى اسبانيا للاستيلاء عليها ، وبدأ للسلطان سليمان ، أنه لا بد له من رجل يعتمد عليه فى دخول تلك البلاد على أن يكون عالما بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام ، وكثرة هجومه على تلك النواحي ، وما فتحه من بلاد العرب فى الشمال الأفريقى وكيف أقر الحكم العثمانى فيها ، فوجه اليه خطابا يطلبه فيه الى حضرتة ويأمره باستنابة بعض من يأمنه بالجزائر ، وأن لم يجد من يصلح لذلك ، يبعث اليه السلطان نائبا ، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشى ، فوصل الجزائر ، وأوصل خطاب السلطان الى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانا عظيما ، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان أهل البلد ، وقرأ عليهم خطاب السلطان ، الذى وجهه اليهم وأعلمهم انه لا يمكنه التخلف عن أمره ، وعندما سمع اندريا دوريا بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك ، أراد أن يشغل خير الدين من سفره الى حضرة السلطان (٢) ، وأشاع بين الاسرى المسيحيين فى الجزائر ، عن عزم الحكومة الاسبانية فى الهجوم على الجزائر ، وتخليصهم من الاسر ، ففرح الاسرى الاسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين ، الذى رأى أن من المصلحة العامة اعدام أولئك الاسرى ليأمن غائلتهم ، ثم قام بتقوية الاستحكامات فى الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهرها أتم الطاعة

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣ .

(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ، ق ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

للسلطان . (١)

عزم خير الدين على السفر الى استانبول ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، وعين مكانه حسن آغا الطوشي ، وكان رجلا عاقلا ومالكا ، صاحب علم واسع . (٢)

أبحر خير الدين شرقا في البحر المتوسط وبلغته أربع وأربعين سفينة وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة (٣) ، واستمر خير الدين في رحلته ووصل الى مدينة بيروازن ، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا ، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين ، ثم واصل خير الدين سفره ، ورسد مراكبه في قلعة اوارين " اناورنيه " ، فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانوني وفرحوا لذلك ، ثم خرجوا جميعا حتى وصلوا الى قرون ، ثم كتب خير الدين الى السلطان يعلمه بوصله ويستأذنه بالقدوم على حضرة ، فوجه اليه السلطان خطابا يستحثه بالقدوم عليه (٤) ، اقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافرا حتى وصل الى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك ، ومثل خير الدين بحضرة السلطان وقف بين يديه ، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة ، وانزلهم بقصر من قصور الملك وفوض اليه النظر في دار صناعة السفن ، ومنحه لقب قبودان باشا (٥) وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الاندلس .

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٣٦١ .

(٢) محمد أمين : مصدر سبق ذكره ، ق ١٢٧٠ ، ص ٢٧٠ .

(٣) P.97 ، OP.CIT ، Stanford Show : 3-

(٤) محمد أمين : نفس المرجع ، ق ١١٨٩ ، ص ١٩٠ .

(٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مصدر سبق ذكره ، ق ١٥١ ، ص ٥١ .

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدم خير الدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فأشاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطابا للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبرا عن رغبة الصدر الأعظم فأجاب خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجها إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر مقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة، وأركب على فرس مرص بأنواع اليواقيت، وركب من الذهب الخالص، ولجام مثله، وسار الديوان أمامه إلى القصر المعد لتوليته، وجلس بعد ذلك خير الدين بحذاء الصدر الأعظم وأقام عنده ثلاث ليال، ثم أن خير الدين استأذن الصدر الأعظم في العودة إلى استانبول، فأذن له في ذلك، وجيز بجميع ما يحتاج إليه من آلات السفر وخرج من حلب خروج الملوك فدخل إلى مدينة قونية وزارها، ثم سافر إلى بوزية ومنها توجه إلى المدائنية ومنها إلى استانبول ونزل بقصره المعروف باسمه، وعندما علم السلطان بقدمه أحضره بين يديه ثم أن السلطان أشار إليه وإلى نائب الصدر الأعظم أن يتقدما إليه، فقبل خير الدين يده، ومسح السلطان بيده على رأسه، وجعل في عمامته سرهوجا من الذهب تكريما لشأنه وخرج من عند السلطان إلى القصر الذي أعد له، واشتغل بالنظر في أمور دار الصناعة كما رسم له السلطان (١)، بمساعدة بحارته، وذلك ليجهز منهم نواة الاسطول العثماني الجديد، وفي نفس الوقت كان السلطان يقوم فيه بحملته في أذربيجان وفتح العراق. (٢)

خرج خير الدين ببروسا بأسطوله الجديد من الدردنيل متجها نحو

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مصدر سبق ذكره ، ق٥٢، ٥٢٠ .
 أرجمت كوران : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢ .

سواحل إيطاليا الجنوبية ، فاستطاع أن يأسر الكثير منها ، وأغار على مدنها وسواحلها ، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية ، فاسترجع كورون وليبانتو (١) ، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروس بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار استراتيجية الدولة العثمانية ، لتحقيق هدفها نحو استرداد الاندلس ، وتأتى أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافى اذ تقع في منتصف الساحل الشمالى لأفريقيا ، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، ولقربها من إيطاليا التى تعتبر احد جناحى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، بينما يمثل الجناح الآخر اسبانيا ، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقرر فرسان القديس يوحنا حلفاء الامبراطور شارل الخامس ، وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين ، ثم الامكانيات الهائلة التى تتيحها موانئ تونس فى التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط ، وهكذا تضافرت تلك العوامل على اضافة الاهمية العسكرية على تونس . (٢)

كانت المرحلة التالية بالنسبة لخبر الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس ، وذلك لتنفيذ خطة الدولة ، والتى تقتضى تطهير شمال أفريقيا من الاسبان كمقدمة لاستعادة الاندلس ، اذ سبق وأن اشار خير الدين بربروس على السلطان سليمان القانونى فى خطاب —هـ للسلطان الذى بعثه قبيل استدعاء السلطان له فى ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، اذ قال فيه " ... أن هدفى اذا قدر لى شرف الاشتراك هو طرد الاسبان فى أقصر وقت من أفريقيا ، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الاسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجنة ، وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك أننى لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولا سيما أن حروبك فى آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية ، أما هذا الجزء الثالث من العالم فان كل ما اطلبه هو جزء من اسطولك ، وسيكون ذلك كافيا ، لان هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضا ... " (٣)

- (١) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٦ .
 ، احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .
 (٢) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١٥ - ٩١٦ ج ٢ .
 (٣) محمد عبد اللطيف البعراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

وصل الاسطول العثماني تحت قيادة خير الدين الى السواحل التونسية فخرج على مدينة عنابة ، وتزود ببعض الامدادات ، ثم تقدم نحو بنزرت ، ثم اتجه الى حلق الواد ، اذ تمكن منهما بدون صعوبة (١) ، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء ، وأكرموا وتوجهوا الى تونس في نفس الوقت هرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد الى اسبانيا (٢) ثم أقام خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس ، وأعلن ضم تونس للأملك العثمانية ، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي . (٣)

حاصر السلطان السعدي احمد . الأعرج في نفس الوقت مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) ، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدة التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة ، وقد بدا وكأن تعاوننا قد حصل بين العثمانيين والقوى الاسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الافريقي ، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث (Jean III) بوصول الاسطول العثماني في ٣ ربيع الاول ٩٤١هـ (١٣ سبتمبر ١٥٣٤م) بقيادة خير الدين بربروسا الى الشمال الافريقي ، فكر في الجلاء عن بعض المراكز المستولى عليها من قبلهم ، وذلك حتى يركز على المناطق الشمالية في المغرب مثل سبتة وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط ، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الايبيرية ، فبعث الملك يوحنا الثالث استفتاء الى جميع النبلاء والاساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوب المغرب ، وكان المطلوب الاجابة على الاسئلة الآتية : هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة ؟ هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما ؟ واذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول الى حصون للتقليل من حجم المصروفات ؟ ثم ما هي الاضرار الناتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفادها ؟ (٤) .

(١) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٠ .

(٢) محمد أمين : مصدر سبق ذكره ، ق ١٩٨ ب .

(٣) محمد عبد اللطيف الجحراوي : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٨ .

تلقى الملك البرتغالي اجوبة عديدة. بين موءيد فى الابقاء على المناطق الجنوبية فى حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت اجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريبا تضمنت النصح بالتخلّى عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك الى المراكز الشمالية لصد الخطر العثمانى بقيادة خير الدين بروسا، فأسقف (Lemego) ينصح باخلاء سانتاكروز وأسفى وآزمور، لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التى تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن ستة خفا من هجوم خير الدين عليها، أما رئيس (Santiago) كان رأيه قريب من الأول، رأى التخلّى عن المراكز السابقة، واختلف اسقف (AL Grave) نوعا ما فذكر فى جوابه " ... اذا كان الملك يهتم بالدرجة الأولى القضاء على الشريف، فعليه أن يسيطر على سلا، ويجعلها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس... ونصح الملك الى ضرورة الاستعانة بأموال الاكليروس للقيام بمشروعه وعليه أيضا كسب جانب القبائل المغربية القريبة من المراكز البرتغالية وذلك جعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة ثم طلب غزو المغرب واعلاء الصليب " (١)

إن الوجود العثمانى فى الجزائر أشر على موقف الملك البرتغالى فى المغرب اذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما ادخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والامبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدا مباشرا للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته (٢)، فوصل التهديد العثمانى أقصاه فضلا عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وافريقيا (٣).

كان الموقف ملائما بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد فعل عنيف، فقد

1- Sources Inedites de L Histoire du Maroc. Portugal. Tom. // Seconde Parte, 56-662
(٢) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمى غرناطة الى السلطان سليمان القانونى، المجلة التاريخية المغربية عدد (٣) - تونس .

3- J.H. Elliott: Imperial Spain P.43 .

أنشغلت الدولة العثمانية في النزاع مع الفرس، وطفى على الصراع في أوروبا ووعده فرانسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياة - تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربه في شمال إفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجد السلطان الحفصي الحسن بن محمد، والرغبة في عزل استانبول دفعه شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم. (١)

قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة، تكونت من ثلاثين ألف مقاتل إسباني وهولندي والماني ونابولي وقلبي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الامبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قاممت الحروب الشديدة بين الطرفين (٢)، الأمر الذي أعاد السيطرة الإسبانية على تونس في ١٩٤٢هـ (١٥٣٥م) (٣) إذ لم تكن قوة خيرالدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعدادة سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، ثم تونس (٤)، ونصب الأسبان الحسن بن محمد حاكما عليها، وعمل بمنطوق المعاهدة كان مولاي الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن مولاي الحسن لم يستطع الوفاء بعهده، فأشترط الأسبان عليه أن يكون حليفا ومساعدة لفرسان القديس يوحنا في طرابلس (٥)، وأن يقوم بمعادة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي إسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الوادي (Guletta)، وعاد شارل الخامس إلى إسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين، في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب الفرس. (٦)

-
- (١) محمد خير فارس: مرجع سبق ذكره، ص ٣٤.
 (٢) اسماعيل سرهنك: مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ٤٢٠.
 3- Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P.93.
 (٤) أحمد توفيق مدني: مرجع سبق ذكره، ص ٢٣١.
 (٥) عزيز سامح: مرجع سبق ذكره، ص ٣٨، حسن سليمان محمود: مرجع سبق ذكره، ص ١٦٧.
 (٦) محمد عبد اللطيف الجراوي: مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠.

عاد خير الدين الى الجزائر بعد هزيمته فى تونس، واستقر أول الامر بمدينة قسنطنية، ومن هناك اخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان فى الجبهات التى يحددها، وكان لزاما على خير الدين، وقد أستقر مؤقتا بمدينة الجزائر نظرا لالتزاماته التى تفرضها عليه خطته الجديدة. كقبودان باشا لاسطول الاسلامى العثمانى أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فأجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الاراضى الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهترت لتلك الاحداث جميع الاوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذى اعتقد خطأ أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة فى ٩٤٢هـ (١٥٣٥م)^(١)، من ناحية اخرى دخلت الدولة العثمانية فى تحالف رسمى مع فرنسا فى ٩٤٣هـ (١٥٣٦م)، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذى قام به الاسبان على تونس.^(٢)

وبدا وكأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين، مما أدى الى استئناف الحروب بينها من جديد كما صارت اهداف اسبانيا والبرتغال واحدة. وذلك فى احتلال مراكز فى بلاد المغرب بالإضافة الى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبيرية

تلقى الملك احمد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) من السعديين فى موقعة بيسر عقبة قرب وادى العبيد، بسبب تخلى قبائل الخلوط التى كانت تكون القوة الامامية للجيش الوطاسى، ونشرت الفوضى فى سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب احمد الوطاسى من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين فى حروبهم ضد الاسبان، ووقع معهم معاهدة لمدة احد عشر عاما^(٣) تقضى بوضع المقاربة المقيمين فى ضواحي اريزلا وطنجة والقصر الصغير تحت

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ص ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢ .

2- Stanford Show : OP.CIT P.79 .

(٢) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٠ .

السلطة القضائية لملك فاس ، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسى المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الاسلحة والبضائع المحظورة ، واذا وصلت مراكز عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الاسبانيان ولا البرتغاليين الى اراضى برتغالية ، محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشتري منها شيء ، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف آخر ما لم يسمح قوات العدو فى مهاجمتها . (١)

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين ، فبعثوا وفدا الى مراكز للتفاوض مع المولى احمد الاعرج الذى استجاب لذلك ، لانه كان فى حاجة الى تنظيم أمور دولته الناشئة ، سيما بعد الانتصارات التى حققها ضد خصومه الوطاسيين فى موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م ، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينها فى ٢٥ ذى القعدة ٩٤٤هـ / ٢٥ ابريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات ، مع اقامة تبادل تجارى بين رعايا الطرفين . (٢)

كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقى بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى ، لان أى تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الايبيرية فى المغرب ، والاهم من ذلك خوف اسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الايبيرية ، وتحقيق هدفها فى استرداد الأندلس .

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل فى الاسطول العثمانى وبدا نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بينما

1- Sources Indites de L Histoire du Moroc . Espagne Tom./ P.83 .

2- IBID Tom.///P.44.

استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالا بارزا في البطولة والتضحية الاسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الاسلام في الشمال الافريقي فأكتسبت الجزائر بموقفه مهابة وجلالا وجعلت الامم المسيحية تهرع على عاهلها الاكبر الامبراطور شارل الخامس مستنقدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) عقد هدنة مع خير الدين الا انه خاب آمله^(١)، مثل ما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سرا الاعتراف به حاكما لشمال افريقيا مقابل جزية بسيطة، اذ كان شارل الخامس يامل في قيام تحالف اسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال افريقيا عن الباب العالي على أمل أنه اذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال افريقيا ابداء مقاومة قوية ويكون من السهل سقوطها.^(٢)

أنهك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة، ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية^(٣)، فأخضع مدينة مستغانم لدولته، ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصنا وأقام به حامية.^(٤)

ركب الجيش العثماني في شهر جمادى الاولى ٩٤٩ هـ / سبتمبر ١٥٣٩م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجل، على ظهر ثلاث عشرة سفينة وانفجوا في حركة سريعة نحو بلدة جبل طارق، وعلى حين غفلة من أهلها والمدافعين عنها من الاسبان نزل حسن آغا وجيشه الى البر، فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وارزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الاسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الاسبان ويختار من بينهم جماعات من الاسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية

(١) عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سبق ذكره، ج٣، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) محمد خير فارس: مرجع سبق ذكره، ص ٣٥ .

(٣) احمد توفيق مدني: مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٩ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالي: نفس المرجع، ج٣، ص ٦٢ .

الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان وعندما أراد الرجوع للجزائر اعترضت طريقة عمارة اسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين، ومع ذلك كانت خسائر الاسبان في هذه المعركة عظيمة. (١)

عزم شارل الخامس على تجريد حملة للقضاء على حركة الجهاد الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مستغلا فرصة الهدوء النسبي في القارة الاوروبية اثر عقد هدنة نيس في محرم ٩٤٥هـ/يونيه ١٥٣٨م مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات (٢)، فتولى شارل الخامس بنفسه الاشراف على اعداد حملته شارك فيها هرنان كورتيس (Hernon Cortes) قاهر المكسيك (٣)، كما شارك في هذه الحملة نبلاء اسبانيا والمانيا وايطاليا، كما اشترك أخو البابا وفرسان القديس يوحنا، وكانت هذه الحملة من الحملات الكبرى في القرن السادس عشر. (٤)

رسا شارل الخامس امام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرون من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٤٨هـ الموافق الخامس عشر من شهر اكتوبر ١٥٤١م وعندما شاهده حسن أغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر، وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الاسلام والوطن قائلا لهم " ... لقد وصل العدو عليكم ليسبى أبناءكم وبناتكم، فأستشهدوا في سبيل الدين الحنيف .. هذه الأراضى فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل حق .. "، فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن أغا الطوشي في اعداد جيوشه والاستعداد للمعركة (٥)،

(١) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٠ .

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ اوربا الحديث ، ص ٥٨ .

3- John Lynch : Spain under the Habsburg Vol.1 P.96 .

(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

(٥) احمد جواد موللي : مصدر سبق ذكره، ق ١١٤ - ١٥ .

من ناحية أخرى بدأ الأسبان في تحضير متاريسهم ،وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن أغا ،وأراد أن يستهزئ به ،فأمر كاتبه بإعداد خطاب لحسن أغا جاء فيه " ... أنت تعرفني أنا سلطان .. كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلتي سلمنى القلعة مباشرة .. أشقذ نفسك من يدي والا أمرت بانزال أحجار القلعة فى البحارثم لا أبقى عليك ولا سيدلولا الاثراك ،وأخرب كل البلاد .. " ،وصل ذلك الخطاب الى حسن أغا وأجاب عليه " .. أنا خدام السلطان سليمان ... تعال واستلم القلعة ،ولكن لهذه البلاد عادة ،أنه إذا جاءها العدو ،لا يعطى الا الموت " ،فغضب شارل من جواب حسن أغا وتشاور مع مستشاريه مع الاستمرار فى التجهيزات (١) وما كاد الامبراطور ينزل أرض الجزائر حتى هبت عاصفة قوية مرقت اسطول الامبراطور ،كما نفذت موئه ،وصار بارود مدفعيتهم غير صالح لتعرضه للمطر ،وأمام تلك الصعوبات أضطر شارل للانسحاب من أرض الجزائر ،وتتبعهم المسلمين فقتلت أعدادا كبيرة من المسيحيين ،وتلقى شارل هزيمة قاسية لم يتلق مثلها من قبل .(٢)

وصل خير الدين بربروسا الى مدينة الجزائر للاسهام فى الدفاع عنها الا أنه وجد أن قوة الله القاهرة وسواعد المسلمين قد قضت على اسطول الاسبان فأكتفى بتفقد أمور البيلربكية والاطلاع على سير الامور فيها ،ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم ،وانعم السلطان سليمان على حسن أغا الطوشى برتبة الباشوية ،لدوره الفعال فى نصر سنة ٩٤٨هـ (١٥٤١م) وخلقى البحر المتوسط تقريبا من الاساطيل الاسبانية الذى كان يضم جراحه ويحاول استرجاع قوته ،فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفرع تلك النواحي التى بقيت مفتوحة فى وجه العثمانيين ،يتوغلون داخلها ويغنمون ما فيها (٣) ، كما صارت الدول الاوروبية تعمل للعثمانيين حسبا ،فاهتز بذلك مركز الاسبان فوهران وغيرها من مناطق نفوذهم فى الشمال افريقى .(٤)

(١) محمد أمين : مصدر سبق ذكره ،ق ١٢٧٢ ،١٢٧٥ .

(٢) احمد جواد : مصدر سبق ذكره ،ق ١١٨ ،١١٨ .

محمد أمين : نفس المرجع ،ق ١٢٧٧ ،١٢٧٦ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣١٣ .

(٤) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٨ .

حقق السعديون على صعيد آخر نصرا كبيرا على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتا كروز، وما أن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وأزمور بالجلء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشأن الى سفيره بمدير (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة فى الثانى والعشرين رمضان ٩٤٨هـ / ديسمبر سنة ١٥٤١م، يطلع فيها الامبراطور الاسبانى شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتى آسفى وأزمور فبالاضافة الى موقعهما الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدى يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية، وعلى جنود مدربين وقد رأينا كل ذلك عندحصار سانتا كروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرا شاقا وصعبا، ثم أن الجلاء عن آسفى وأزمور ليس معناه التخلّى عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين ماكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة (١)، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية فى تقديم المساعدة للقوى الاسلامية فى المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لان الدولة ترغب فى تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا فى مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالى فى المراكز الجنوبية من المغرب، ثم يعبروا للاندلس، لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور.

استمر حسن أغا فى القيام بواجبه الدينى حتى وفاته ٩٥١هـ (١٥٤٤م) فأجمع اهل الديوان بالجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريشما يعين الباب العالى باستانبول الحاكم الجديد، الذى عين حسن ابن خير الدين وقدم فى نفس السنة (٢).

1- Sources Indeites L'Histoire du Noroc , Portugal . Tom ///P.560.

(٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره . ج٣، ص ٨٤ .

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله ،ليستعد للجهاد ومواجهته
المسيحيين ،فعمل على تحصين مدينة الجزائر ،وذلك فى المناطق التى أظهر
هجوم شارل الخامس عن ضعفها ،كما أخذ يعمل فى توطيد النظام فى الجزائر
وبين صفوف الجيش ،ثم انصرف الى معالجة مشكلة تلمسان ،اذ تبين له أن بقاء
الأسرة الزيانية ووجود الاسبان فى وهران يعيقان حل المشكلة . (١)

كان حاكم تلمسان (ابو زيان) احمد الثانى قد تولى الحكم بدعم
من العثمانيين ،غير أنه ما لبث أن خضع لمؤمرات خارجية وانساق فى تيارها
واخذ يتقرب من الاسبان ،مما أدى الى كره الأهالى له وقرروا خلعهم عن العرش
ومبايعة احد أخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان الى وهران طالباً الدعم
من الاسبان ،مقدماً لهم التعذبات بأن يحافظ على ولائه لهم ،فقرر حاكم وهران
انتهاز هذه الفرصة ،فجهز جيشاً ،وأنضم اليه جموع الخاضعين للاسبان من بنى
عامر وفليطة وبنى راشد وعلى رأسهم القائد المنصور بن بو غنام ،وتقدموا
الى تلمسان لابعاد الحسن ،واعادة تنصيب ابو زيان على عرش المدينة ،وما
أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية ،حتى قاد الجيش الاسلامى
فى تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول الى هدفهم ،وتمكن حسن بن خير الدين
من ذلك ،ودعم حليفه الملك حسن فى تلمسان (٢) الذى اعترف بسلطة الدولة
العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية وتعدادها
مائتى جندي بقيادة القائد محمود فى مدينة المشوار ،الا أنه مع ذلك ظل
نفوذ الدولة العثمانية مهترا خارج تلمسان ،بسبب مضايقات بعض القبائل
المجاورة بقيادة المزوار المنصور بن بو غنام ،الذى يرغب فى مساندة زوج
ابنته الأمير مولاى احمد ،حليف الاسبان . (٣)

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ،ص ٢١ - ٢٢ .

عقدت الدولة العثمانية هدنة مع ملك النمسا سنة ٩٥٤هـ (١٥٤٧م)، لمدة خمس سنوات تعهد فيها الملك النمساوي بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكة مقابل أن يبقى ما تحت يده من بلاد المجر (١)، وعلى أثر ذلك تمكنت الدولة من إرسال جنود عثمانيين وعدد من المورسكيين يقدر عددهم بنحو عشرين ألف رجل إلى الشريف السعدى، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للاستيلاء على إسبانيا، فوافق الشريف السعدى على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم (٢).

أنصرف الشريف السعدى محمد الشيخ فى منازلة خصومه الوطاسيين ومحاولة القضاء عليهم، فتقدم نحو سبتة والقصر الصغير، ورفض فاس وأقسام بالاستيلاء أولا على (Fronteras)، ثم دخل فاس وانهى الحكم الوطاسى وخص محمد الشيخ للملك الوطاسى مقرا يستطيع الإقامة فيه، ثم أقامت مدينة فاس الاحتفالات بمناسبة الحكم الجديد (٣).

استقر البلاط الأسباني بعد استيلاء الشريف السعدى على فاس، فصدرت التعليمات بانتهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش (Cadix)، وأعطى كونت تندبيل (Tendilla) إلى تحصين وتموين مدن الشاطئ الأندلسى، وصدرت الأوامر أيضا لدون دى ميندوزا (Don Juan de Medoza) بزيارة (Fronteras) البرتغالية على المضييق وتفقد أحوالها (٤)، وذلك تحسبا من أى هجوم عثمانى سعى مشترك، الغرض منه استرداد الأندلس.

ان طمع الشريف السعدى محمد الشيخ فى تلمسان جعله يتابع الأحداث

(١) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٨ .

2- Les Sources Indites de L'Histoire du Maroc.Espagne Tom/ P.151.

3- IBID P.151.

4- IBID P.164.

القائمة فيها باهتمام ، وفي ٩٥٦هـ (١٥٤٩م) أوفد الى الشرق فيلق مكون من ٦٠٠٠ خيال احتل جيرسيف (Gurecif) في صفر ٩٥٦هـ (مارس ١٥٤٩م) ، وكان اظهار قوة السعديين قد أدى الى انضمام المديونة وبنى سنـشـاش (Beni Snassen) كما فتحت وجده (Oudjda) في نيدروما (Nedroma) ، وقدم اهالى التارارا (Terara) خضوعهم ، وفي كل مكان كان رجال الشريف يستقبلون كمحررين ، وكما هو الشأن دائما في الازمنة المضطربة كانت أغرب الاخبار المغالى فيها تدور بين الأهالى ، فقليل أن الشريف السعدى سوف يدخل تلمسان ومنها يتجه الى وهران ليطرد المسيحيين منها ، فقدمت قبيلة المديونة نفسها لحصار المدينة ريثما يصل جيش الشريف ، ومن الاخبار الموءدة أكثر من غيرها أن الشريف قدم عرضا لباشا الجزائر حسن بن خير الدين للعمل سويا ضد الاسبان ، غير أن حاكم وهران الذى كان يملك جهاز مخابرات على مستوى عال ، لم يكن ليتأثر بتلك المعلومات ، ومع ذلك أمر بسرعة ترميم أسوار مدينة وهران وطالب بلاط اسبانيا بتعزيزات ومساعدات نظرا للتجمعات الكبيرة للجيش السعدى فى فاس (١)

عين محمد الشيخ ابنه الأكبر محمد الحرار قائدا للحملة الموجهة الى تلمسان ، واصطحب معه شقيقه مولاى عبد القادر ، ومولاى عبد الرحمن وتحركت الحملة فى جمادى الاولى ٩٥٧هـ / أواخر مايو سنة ١٥٥٠م ، ولـم يواجه أى مقاومة أثناء تقدمه ، بل على العكس انضمت اليه فصائل من بنى راشد بقيادة المزوار المنصور ، الذى طالب بعرض تلمسان بعد وفاة ابو زيان احمد ، ومن تلمسان تم لرجال الشريف غزو قبائل دبدو ، وحصل حاكمهم مولاى عمار على اذن بالانسحاب مع رجاله وتوجهوا الى مليلة فوصلها مع حاشيته المكونة من ٣٠٠ شخص فى ٢٦ جمادى الاولى ٩٥٧هـ (١٢ يوليو ١٥٥٠م) ، بعد أن خضعت تلمسان ودبدو ، كان من المنتظر أن يتجه رجال الشريف نحو الشرق الا أن قائد الحملة مرض وعاد الى فاس ، ومعه الجزء الأكبر من الجيش ، الذى انتقل قيادته الى مولاى عبد الرحمن ، فأمر الجنود بالتوجه الى تافيليست ليعمل ضد مولاى احمد الاعرج ، بينما بقى أخيه مولاى عبد الرحمن فى تلمسان

(١) Les sources indites de L;Histoire du Maroc, Espagne Tom I P. 203.

(١)

مع حامية صغيلة .

اغتاز باشا الجزائر حسن بن خير الدين لسقوط تلمسان ، التي كان الشريف يرغب في احتلالها نهائيا ، فجمع جيشا ، بلغ تعداده خمسة آلاف رجل أنضم اليهم فيما بعد خيالة القبائل التي خضعت لحكم العثمانيين ، بالإضافة الى ثلاثين مدفعية خاصة بالحصار والميدان ، وعقد قيادة ذلك الجيش لحسن كورسو ، فتقدم نحو وادي تيلت طاردا . امامه المزوار المنصور ، وجماعة بنى راشد الذين تقهقروا نحو تلمسان .

شعر الامير السعدى محمد . الشيخ بالخطر الذى يتعرض له ابنه مولاى عبد القادر و الذى لا يستطيع مقاومة العثمانيين ، فأمر فى أواخر أغسطس بتجميع القوات ووجه قيادته لآخر ابنائه مولاى عبد الله ، تقدم حسن كورسو لما بعد القليلات ، ووصل أمام تلمسان واحتدمت المعركة بالقرب من وادي جبيـسـده (Zadidja) ، وساء وضع مولاى عبد القادر ، ورد جيشه على أعقابـه داخل المدينة . (٢)

علم حسن كورسو بوصول مولاى عبد الله وجيشه لتدعيم أخيه مولاى عبد الله ، فبادر برفع حصاره فاندفع رجال الشريف وراء العثمانيين ، فأعطى حسن كورسو الى التحصن بأحد المرتفعات ، فخفت حدة العمليات الحربية نوعا ما ، وانسحب العثمانيون نحو الجزائر عن طريق مستغانم ، وعاد ابنـاء الشريف الى تلمسان . (٣)

اعد حسن بن خير الدين جيشا قوامه ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل حاملـى البنادق ، وأربعة آلاف فارس ، وعهد بقيادته الى القائد صفا ، الذى تحرك فى ذو الحجة ٩٥٧هـ (ديسمبر ١٥٥٠م) وضم فى طريقه عددا كبيرا من القبائل من جهة أخرى أمر محمد . الشيخ ابنه مولاى عبد الرحمن بالتحرك من تلمسان نحو تازة (Taza) حتى يكون بالقرب من أخوانه عند اللزوم ، وانتظر أبناء الشريف بكامل قواتهم وصول العثمانيين ، ووقع الاصطدام فى محرم ٩٥٨هـ /

(١) Les sources inédites de L'Histoire du Maroc Espagne Tom P.204.

(٢) IBID P. 205

(٣) IBID P. 205

أوائل فبراير سنة ١٥٥١م ،بالقرب من ترعة أبو عزون على بعد ميل من تلمسان وأصيب رجال الشريف بهزيمة ساحقة ،وأستولى العثمانيون على مخيمهم ،وسقط مولاي عبد القادر في المعركة ،بينما استطاع مولاي عبد الرحمن الهرب مع فرسانه ،وكانت الخسائر السعدية كبيرة للغاية ،وسارع العثمانيون وراء بقايا الجيش السعدى ،أما عن مولاي عبد الله والمزوار المنصور فقد اضطروا الى اللجوء لانصارهم حيث وصلوا الى فاس ساعرين على أقدامهم .

ودخل العثمانيون تلمسان منتصرين ،وعين مولاي عمار احد امراء بنى زيان ملكا عليها ،ومن خلفه القائد صفا ،وكانت نكبة ود بو عزون (Bou Azzon) معناه سقوط أهداف الشريف نحو تلمسان ،وكان من أثرها المباشر التخلّى عن كل البلاد الواقعة بين الوجد (Oudjda) وتازة (Taza) . (١)

يتبين من خلال ذلك مدى الاهمية التى نشأت من أجله بيلربكية الجزائر من أجل تحقيق هدف الدولة العثمانية فى استرداد الاندلس التى واجهتها عدة عوائق ،ومن تلك العوائق الوجود الحفى فى تونس وقد رأينا كيف سعى الحفصيون فى ايقاد نار الفتنة والثورة ضد الدولة العثمانية فى الناحية الشرقية فى جبال الكوكو وتلمسان ،كما أن بعض هؤلاء السلاطين لم يكتفوا بذلك ،وانما ذهبوا الى الاسبان يستجدون بهم لنصرتهم على العثمانيين فكان بهم هؤلاء السلاطين ضمان البقاء فى الحكم والسيادة ،حتى لو كان ذلك على حساب دينهم ورغبة شعبهم فى الجهاد ،فلو استمر الوجود العثمانى فى تونس دون مضايقات ،لكان من الممكن أن تتحكم الدولة فى غرب البحر المتوسط وطرق المواصلات فيه ،فيسهل بذلك التقدم نحو الغرب .

يأتى العائق الثانى فى تلمسان والأسرة الزيانية ،التي لم تتردد فى الاستنجاد بالاسبان فى سبيل الوصول للملك ،وضمان البقاء فيه ،فنجد

الدولة تمت نفوذها فى تلمسان ، لكن بمجرد رجوعها للجزائر ينقلب الوضع فيتعاون الملك الزياني مع الاسبان ، ويذهب مجهود الدولة سدى ، وبذلك لم تستطع الدولة أن تجعل من تلمسان نقطة ارتكاز للتقدم نحو المغرب أو نحو الاندلس مباشرة ، وكان تخوف الحفصيين وبنو زيان من الدولة العثمانية لشعورهم بأن الدولة فاتحة بالجهاد ، فخافوا على مراكزهم ، وانصرف المسلمون عنها .

توالى العواثق على بعضها فظهر الوطاسيون الذين قبلوا التعاون مع الدولة العثمانية فى تحرير الشمال الافريقى من الوجود المسيحى فى الشمال الافريقى بعد أن عرضت الدولة خدماتها ، ونظرا لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الاسبان فى جبهات عديدة ، وتزايد نفوذ السعديين المنافسين للوطاسيين ، رأى الملك الوطاس أن يوقع معاهدة صداقة مع البرتغال من ناحية اخرى بدا السعديون أول الامر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحى فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين ، اذ اعتبروا ذلك شوعا من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك ، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الاندلس ، الا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدى وانتهاء الحكم الوطاسى ، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان ، فأرسل جيوشا كبيرة لانهاء الحكم العثمانى فيها ، وعندما شعر العثمانيون بتلك المطامع وانحراف الشريف السعدى عن الهدف الاسلامى ارسلت له حملات ليعود الى بلاده .

كان كل ذلك عواثق ، أثرت وبشكل واضح على المشروع الاكبر للدولة فى استرداد الاندلس ، لكن مع ذلك تواصل الدولة جهودها لتحقيق ذلك ، طالما أن لديها القدرة ، والقوة اللازمة ، هذا سوف نلمسه فيما هو آت .

الفصل الخامس

(الفصل الخامس)

" تكثيف الجهد _____ود لاستعادة الاندلس "

- أ - دور البحرية العثمانية في عصر سليمان الكبير .
- ب - خطة استعادة الاندلس في عهد صالح ريس بيلريك افريقيه
٩٦٠هـ / ١٥٥٢م .
- ج - أدوار حسن بن خير الديين .
- د - جهود بيلريك قلج على ٩٧٨هـ / ١٥٦٨م .

بعد أن أمن السلطان سليمان الناحية الشرقية بالاستيلاء على رودس، بدأ في مساعدة النظام العثماني في شمال إفريقيا، وذلك بأن أرسل لهم قووات عن طريق البحر، لتساعدهم في حربهم ضد الاسبان^(١) من ناحية أخرى بعث السلطان سليمان الصدر الأعظم ابراهيم باشا في ٩٣١هـ (١٥٢٤م) لتنظيم الادارة العثمانية في سوريا ومصر، فأعاد ابراهيم باشا ترتيب الشؤون البحرية في ميناء السويس، الذي جعلوه قاعدة لعملياتهم في البحر الاحمر والمحيط الهندي، ثم لم يلبث أن أبحر الاسطول في ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) في محاولة لاختراق اليمن للنفوذ العثماني الا أن الحملة لم تحقق ما هو مرسوم لها وكان السلطان سليمان قد أهتم بشن هجوم مضاد قوى ضد الغزو البرتغالي في البحر الأحمر. (٢)

ان المجهود الحربى الذى قام به الامبراطور شارل الخامس والحمولات العسكرية التى أعدها، قد فرض ذلك كله أعباء جسيمة على المجتمع والاقتصاد الاسبانى وتبعثرت الالوف الموءلفة من الجنود والبحارة وأرتفعت الضرائب على طبقة (Pecheros) وهى الطبقات العامة فى اسبانيا ، وذلك لتغطية تكاليف المجهودات، رغم أن طبقة النبلاء ظلت معفية من تلك الضرائب فقد فرضت على الطبقة الوسطى ومع ذلك ظلت احتمالات الضرر بنمو الاقتصاد الاسبانى قائمة. (٣)

استمر المجاهدون فى شمال إفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أرهجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغنى المجاهدون من البربر الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الافريقى، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر امانا بالقرب من رأس كورسيكا، ولكن الاحتلال الفرنسى للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا ايضا الاتصالات بين اسبانيا وايطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل فى الدفاع عن الطرق البحرية لامبراطوريته، وبالتالي لم يستطع انجاز الحملة ضد القسطنطينية التى كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا. (٤)

1- Sir Gerog Clark : Early Modern Europe P.48 .

(٢) السيد رجب حزان : أرييتريا الحديثة ١٥٥٧ - ١٩٤١، ص ٢٨ .

3- Paul Coles : OP.CIT P. 126 .

4- Hohn Lynch : Spain under the Habsburg Val.1 P.97 .

وينتظرون قدوم العثمانيين لحمايتهم من الاسيان ومن حكامهم المحتممين بهم
لذا فان ررغوث احتل المدينة والقلعة بدون مقاومة . (١)

أضطر شارل الخامس أن يعد حملة كبيرة فى أواسط عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م الى
المهدية ، بينما توجه ررغوث الى سواحل اسبانيا تاركا المهدية لقيادة أحد
الربانية ، وكان ررغوث قد دمر سواحل بالنسيه ، ثم توجه الى جزر الباليار
وعندما عاد وجد المهدية مطوقة برا وبحرا من قبل شارل الخامس . (٢)

وصل الى طرابلس الحاكم الجديد فاليس (Gaspare de Vallies)
فى جمادى الاولى ٩٥٨هـ / مايو ١٥٥١م (٣) ، وهو يعلم بأن الاسطول العثمانى
فى طريقه الى طرابلس لتحريرها ، فأخذ فى تقوية الحصون وأبراج وأسوار
طرابلس ، وأستمرخ الفرسان ملوك أوروبا ، وأستجدوهم لدفع خطر المسلمين ضد
المسيحية ولكنهم فشلوا فى مساعدتهم ، ألتقى الأسطول العثمانى فى شرق البحر
المتوسط بقيادة سنان باشا ، بدرغوث باشا فى ١٤ رجب ٩٥٨هـ الموافق
١٨ يونيه ١٥٥١م ، وقاموا باحتلال جزيرة فوزوا احدى جزر مالطة ، وعندما
اكتفوا بتحقيق ذلك ، أبحر الأسطول العثمانى نحو طرابلس (٤) ورسا الاسطول
قرب طرابلس ، ونزلت قوة فى منطقة زواوه ، بينما نزل سنان باشا على
تاجورا ، حيث كان يقيم مراد أغا ، الذى أحضر المدفعية ، وفتحت نيران
المدفعية على طرابلس وسرعان ما بدأ حاكم المدينة دوفاليرز مفاوضات مع
العثمانيين ، وأستجاب لشروطهم وسلم المدينة لهم ، بعد ذلك عين العثمانيون
مراد أغا واليا على تاجوراء وطرابلس ، وصدمت أوروبا بسقوط طرابلس . (٥)

-
- (١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون فى افريقيا ، ص ٢٩، ٣٧، ٣٨ .
 - (٢) عزيز سامح : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
 - (٣) اتورى روسى : مرجع سابق ذكره ، ص ٣٧٣ .
 - (٤) حسن سليمان محمود : مرجع سابق ذكره ، ص ١٧٠ .
 - (٥) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، ص ٩١ .

عمل مراد باشا فى حدود ادراكه لتنظيم ادارة البلاد وتحصينها واعمارها ولم يشر أى حادث مدة حكمه حتى وفاته ثم اسندت الامارة الى درغوث باشا وبذل جهود جبارة فى تحصين طرابلس ، كما جلب عدد من الانكشاريين وجاهد لترسيخ العدالة والطمأنينة فى البلاد (١) ، وامتدت سيطرة درغوث فشملت طرابلس الغرب بأسرها ، وبلغت جنوبا منطقة غريان ، وشرقا منطقة مصراته ، وكان حكمه على غربي طرابلس أكثر توسعا وامتدادا حيث شمل كل الجنوب التونسى من جربه ومفاقس والمونستير وسوسة والقيروان (٢) ، رغب الاسبان تسليم المهديّة لفرسان القديس يوحنا ، بعد خروجهم من طرابلس ، الا أن الفرسان رفضوا ذلك بسبب ادراكهم بعجزهم عن الاحتفاظ بها ، فقام الاسبان بنقل الاسلحة ، وبعد أن دمروا التحصينات أخلوها ورحلوا عنها ، وبذلك ألحقت المهديّة ، كما ربطت فزان بالحكم العثمانى وفرضت عليها ضريبة (٣) .

اشترك سنان باشا ودرغوث فى قيادة اسطول جديد يتجه للغرب ، واستطاعوا بمساعدة الفرنسيين الاغارة على شواطئ نابلى ومقيلية وكورسيكا (٤) ، كما أربح درغوث باشا موانئ (Elba) ، وقطالونيا (Catalonia) وباليبركس (Balearics) . (٥)

قامت عدة محاولات مسيحية لاعادة احتلال طرابلس بعد سيطرة العثمانيين عليها ، فنادى البابا بيوس الرابع الدول المسيحية ، باعداد جيش صليبي ضد العثمانيين ، وقد لقي هذا النداء استجابة ، فقامت مدن ايطاليا ، وكذلك اسبانيا ومقيلية بالتحضير للحملة ، وكان التخطيط المرسوم لها ، أنه سيتم احتلال طرابلس ويترك فيها أسطول مالطة ومقيلية ، وذلك لمنع السفن العثمانية من العبور الى

-
- (١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٣ - ٥٤ .
 (٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩١ .
 (٣) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٥٤ .

غربى خوض البحر المتوسط، وبذلك لا تستطيع الجزائر أن تتلقى النجدة من العاصمة، وتعتمد على قواتها الخاصة، ثم تهاجم الجزائر ويتم اخراج العثمانيين من افريقيا الشمالية، خاصة بعد أن تمكن الاسبان من استمالة حكام المغرب الى جانبهم وقرروا أن يقوموا باحتلال اقاليم الجزائر الغربية، أما تونس فانها كانت تابعة لاسبانيا .

تأكد بيلربك الجزائر من هذه الأخبار ،وبادر بإرسالها الى استانبول فحرك ذلك مخاوف كبيرة ،لأن أمور الدولة غير مستقرة نوعا ما ،اذ بدأ الروس بالزحف فى اتجاه بحر أرؤف والبحر الاسود ،والبرتغاليون دخلوا خليج البصرة والبحر الأحمر ،كما بدأت سفنهم تتجول أمام السواحل العثمانية ،وقامت عصابات صغيرة من القرصاة فى بحر الادرياتيک وايجة بالاعتداء على المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية ،وأمام تلك الأخطار ومع كل ذلك،صدرت أوامر الباب العالى لأمير البحر بيالة باشا بأن يستكمل احتياجاته ،ولمّا كانت رودس تقع فى منطقة خطرة ،فقد أمر شجاع أمير بحر الاسكندرية بالتوجه الى رودس ،وأخذ بعض المراكب من اسطول رودس لمضاعفة قواته وحراسة تلك الجهات ،كما صدرت الأوامر الى على بك حاكم قوجه ايلى والى قورت أوغلى أحمد بك بأن يلتحقوا بأمير البحر بيالة بيك (١) وأمام تلك الاستعدادات العثمانية لمواجهة الحلف الصليبي ،لقى المسيحيون هزيمة ساحقة سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م ،الا أنهم مع ذلك أستطاعوا احتلال جزيرة جربة ،بعد أن ذهبت معظم قواتهم ،عندما تخلى عنهم اسطولهم .(٢)

صار للعثمانيين قاعدة مفيدة في طرابلس، وحلقة أخرى في سلسلة مع الجزائر، كما صار لدى الدولة مواقع ونقط أمامية أخرى على ساحل شمال إفريقيا، وقعت بالتدريج في أيدي المسلمين، وأستمر السلطان يرسل

(١) عزیز سامع : مرجع سبب ذکره ، ص ٥٥ - ٥٨ .

(۲) جون وایت : مرجع سبب ذکره، ص ۹۳.

أساطيله القوية لتهاجم سواحل البحر المتوسط المسيحية ،ولكن كانت هناك نقاط ضعف لم تمكن السلطان من الضغط المتواصل ،ومن تلك النقاط انشغاله بالحرب مع فارس وشعوره بعدم الثقة من التعاون مع فرنسا ،اذ أنه عبرت الأساطيل العثمانية المسافات الواسعة للبحر المتوسط ،ولم تستطيع تلك الأساطيل على تحقيق السيادة والتفوق البحري في غرب المتوسط ،لقد كان عامل المسافة أكسب اسبانيا مهلة واستراحة ^(١) ،ومع ذلك لازال السلطان العثماني يواصل جهوده في تقوية أساطيله البحرية ،التي أثبتت من خلال ما سبق ذكره على مقدراتها في تطوير نفسها ،لتنفيذ ما خطته الدولة في السابق لا سترداد الأندلس ،وسنلاحظ ذلك من خلال الفقرات التالية .

كان حسن بن خير الدين بربوزا بعد أن هزم السعديين فى تلمسان ، ووطد دعائم الحكم العثمانى فيها ١٥٥٩هـ/ ١٥٥٦م (١) ، انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التى كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة ، ساعدت الفرنسيين على الافادة من الامتيازات الاقتصادية التى منحت لها معاهدتها مع استانبول والتى شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية ، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك ، وأعلن عداؤه لفرنسا فى مناسبات عديدة فما كان من فرنسا ألا أن أرسلت سفيرها المعتمد فى استانبول الى الجزائر بهدف معرفة المدى الذى سيميل اليه حسن بن خير الدين فى عداؤه لفرنسا ، وفيما اذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبليريكه الجزائر .

اجتمع سفير فرنسا بالبليريك حسن بن خير الدين ، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية ، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية فى مهاجمة اسبانيا ، ونجدة مسلمى الأندلس ، لكن حسن رفض هذا العرض ، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة مع الدولة العثمانية نفسها ، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هى قضية خاصة بالمسلمين ، فأكد بذلك القاعدة الثابتة وهى عدم الانتصار بكافر على كافر ورجع السفير الفرنسى الى استانبول ، فأوغر صدر الباب العالى بقوله (ان السلطة الواسعة المطلقة التى يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام) (٢) خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة .

رأت الدولة العثمانية أنه لزاما عليها من تغيير سياستها فى المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفا قويا لاسبان ، مما أدى الى قلب الموازين الاستراتيجية رأسا على عقب ، فأتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة ، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانونى بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب ، كما دعا الى الوحدة الاسلامية والى حسن الجوار (١) .

(١) أبى عبد الله السليمانى : اللسان المعرب عن تهافت الاجنبى حول المغرب ص ٩٤ .

(٢) بسام العسلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ - ٣٢ .

(٣) محمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، ص ٩٠-٩١ .

بعث السلطان سليمان القانوني برسالة الى حاكم فــــــــــــــــاس جاء فيها
 ".... ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء ، بولاية الجزائر سابقــــــــــــــــا
 حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف
 ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة
 الدين ، لذلك بدلناهم غيره ، فأنعمننا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا
 العلية وخلاصة خدام اعتابنا الجليلة أمير الامراء الكرام كبير الكبراء
 الفخام ذي الجلال والاحترام صاحب الفرد الاحتشام المختص بمزيد عناية الملك
 الأعلى صالح باشا دام اقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا
 اليه تلك الديار وأمرناه باقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين ، واحياء
 توافر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله
 تعالى وان يكون مع الاهالي الاسلام على اكمل اتحاد واجمل اتفاق مجدا فيمما
 يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مشابرا على دفع أعداء
 الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن اقصى مراد حضرتنا العلية
 احياء مراسم الاسلام واطفاء نــــــــــــــــائرة الكفــــــــــــــــرة والمتمردين
 اللــــــــــــــــئــــــــــــــــام وذلك المــــــــــــــــرام يكــــــــــــــــون
 باتفاق أمراء الاسلام واتحاد أمناء شرع سيد الامام ويتم به النظام وينفــــــــــــــــى
 آثارهم في الشهور والاعوام .

وأمرناه أيضا أن ينظر الى احوال المسلمين بنظر الاشفاق والمراحم
 وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا في أيام دولتنا العادلة
 آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . (١)

(١) خليل الساحلي : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر . المجلة التاريخية
 المغربية ، عدد (٢) ، ص ١٢٩ .

كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر الى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدى ،يمنحه بخلع ،والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه—
 "... هذا مثالنا الشريف .. الخ أصدرناه الى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد .. نخمه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد .

فان الله جلت قدرته وتعالى عظمته منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها ،ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سيدة كالشمس وضحيها .. وامضاء
 سنى سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الفر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه
 وقد سمع سيدتنا العلية حسن أقدامك وكمال دينك وديانتك وخلص طويتك وصفاء سيرتك وقبامك فى الذب عن المسلمين وقمع اعداء الدين ولذلك الشأن حبساك احساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامى الخاقانى فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسج المودة بيننا ،على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالى الاسلام وحماة دين النبى عليه السلام فى أيام دولتنا العادلة فى اكمل الراحة واجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ان شاء الله تعالى .. " (١)

تحريرا فى أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق ييناير ١٥٥٢م ،بمقام أدرنة .

أصدر السلطان سليمان القانوني تعليماته للمسؤولين بأعداد السفن وتجهيزها فقد جاء فى أمره ما يلى " أمرنا أن تسلموا شيئا من البارود الى السفن الخمس المتوجهة الى جزائر الغرب والتي ستمكث هناك ... " (٢) ،لم يكن ينتظر من صالح رايس حسن الجوار مع السعديين ،طالما لا يفضلون لجية—

(١) خليل الساحلى : مرجع ذكره عدد (٢) ، ص ١٣٠ . مع سبق

(٢) خليل الساحلى : نفس المرجع ، ص ١٢٩-١٣٥

العثمانيين ، المنافسين لهم فى زعامة العالم الاسلامى ، وظالما كان السعديون طامعين فى تلمسان ، لكن المصلحة اقتضت المداواة حتى تفزع الحرب اوزارها عمل صالح رايى فى سياسته الداخلية على تحقيق امرين ، أولهما تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر ، وثانيهما ادخال بقية اجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة. حتى يتفرغ للاندلس ، أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمى الى ثلاثة أهداف ، أولها ابعاد الاسبان نهائيا عن اراضى الجزائر ، وثانيهما وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التى تقوم بها الدولة المغربية السعدية ، وثالثهما اعلان نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس . (١)

ابتدأ صالح رايى فى مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية ، وكان فى الجنوب الجزائرى ، امارتان مستقلتان تمردتا على الحكم العثمانى ، فأمارة توقرت كان يتولى أمرها ملوك بنى جلاب يتوارثونها أبا عن جد ، وأمارة بنى وارجلان (ورقلة) يتولى أمرها الشيوخ الاباضيون - احدى طوائف الخوارج ورثة دولة بنى رستم ، ويمتد سلطانها الى قرب وادى ميزاب غربا والى المنيعه جنوبا ، كانت الامارتان قد دخلتا أيام خير الدين بربروسا ضمن الوحدة الجزائرية ، لكن ابتعاد خير الدين ، واشتغال العثمانيين بحوادث تلمسان والمغرب ، قد جعل الامارتين تمتنعان عن دفع الجزية للعثمانيين وتعلنان استقلالهما عن ادارة الجزائر ، وحاول صالح رايى اقناعهما بالليىن الا أنه فشل (٢) فى تحقيق ذلك ، فقرر توجيه حملته اليهم ، مستعينا بصديقه عبد العزيز أمير قلعة بنى عباس حيث أتصل به فى حانة ومعه يومئذ ثمانية آلاف جندى (٣) وسار الجميع نحو توقرت حيث تمت مهاجمة واحات توقرت ، وكانت قوة الصدمة أكبر من أن يحتملها ملك توقرت وجيشه ، وبعد معركة قصيرة وحاسمة أمكن تمفية المقاومة فى توقرت ، والقضاء على حكم بنى جلاب وضم توقرت نهائيا

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٧ .

(٢) بسام العسيلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٣ .

، احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

الى السلطنة العثمانية وتوجه جيش الجزائر بعدها الى بنى وارجلان، واجتمع هنا شيوخ ورقلة وأعلنوا رفضهم لقتال اخوتهم المسلمين وانضمامهم للدولة العثمانية وصاروا منذ ذلك الوقت جزءا لا ينفصل عن الدولة العثمانية وتعهدت لهم الدولة بالمقابل احترام مذهبهم الاباض وحرية ممارستهم لـه والتقاضي بمقتضاه بالنسبة لكل من يعتقونه (١) ولا يعنى أمر السلطنة العثمانية هنا قيام حكم مباشر لان ظاهره الحكم المباشر أصلا فى نظام السلطة العثمانية. (٢) ليس محكا للسيارة داخل انلاكها .

دب الخلاف بين صالح راييس كممثل للدولة العثمانية، وبين عبد العزيز كسلطان لقلعة بنى عباس ومجانة، فالأول كان يرى أنه من الضروري التوحيد المطلق للبلاد، والثانى كان يرى أنه ملك مستقل، وأنه يمد يده للدولة العثمانية كحليف يعينها عندما يرى ذلك، وانما لا يخضع لها، فكان الصدام بين الفكرتين، ووقعت أحداث مؤلمة بين الجانبين، واندحر أثناءها الجيش العثمانى فى محرم سنة ٩٦٠هـ / ديسمبر ١٥٥٢م، كما اندحر مرة أخرى رغم انضمام بلاد كوكو أعداء قلعة بنى عباس التقليديين للعثمانيين. (٣)

حدث أن هرب أحد أفراد أسرة بنى وطاس ابن الحسن على بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بلقب أبو حسون من مراكش وذهب يلتمس مساعدة البرتغاليين والاسبان لامادة أسرته الى الحكم. (٤)

علم مولاي عمر (٥)، بتوجه بو حسون الى اسبانيا مع ابن الامبراطور شارل الخامس لجمع حملة عسكرية وكانت المغرب فى حالة فوضى، فعرض العثمانيون على مولاي عمار تدخلهم، لكن رفض المذكور نظرا للعلاقات التى تربطه بالامبراطور، فلأولد مولاي عمار وفدا الى البلاط لمقابلة بو حسون ويرجوه بالعودة سريعا، وأن يعرض على الامبراطور ويلتمسه المساعدة ضد العثمانيين

-
- (١) بسام العسيلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤ .
 - (٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤١ .
 - (٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٠ .
 - (٤) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧ ، ٩٤٧ .
 - (٥) احد امراء بنى زيان ، عينوه العثمانيين على بلمسان بالاسم ، اذ كانت السلطة الحقيقية فى يد القائد العثمانى .

نظرا لتشابه موقفهم (١).

لم يسفر لقاء بو حسون مع ابن الامبراطور عن النتيجة المنشودة، كما أن محاولته للقاء الامبراطور في ألمانيا قد فشلت أيضا، وأنتهت جهوده التي البرتغال التي وملكها في عام ١٥٥٣م وحصل من ملكها على مساعدة. تمثلت في ست سفن حربية، والتساؤل التاريخي حول سبب رفض الاسبان تقديم العون الى بو حسون وانحصار العون البرتغالي في هذا المدد المحدود، وقد اتجه الى الاخذ باحتمال تحالف بين الاسبان والسعديين، كذلك أو على الاقل الاتصال من اجل تحقيق مثل هذا التحالف (٢).

نزل بو حسون بسفنه الى خليج الحسيمة، غير أن الاسطول العثماني سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين (٣)، وذلك أثناء تجول صالح رايس في البحر لغزو سواحل الامم المسيحية والذي اشتهر بها صالح رايس مدة ولايته، في محاولته الجادة لاسترداد الاندلس (٤)، وكان الجهاد الاسلامي يشمل يومئذ من الناحية الجزائرية بلاد اسبانيا والبرتغال.

حكى بو حسون على صالح رايس قصته، وذكر أنه ذهب أول الأمر الى اسبانيا لطلب العون والمساعدة في استرجاع عرشه، لكن لم تستجب اسبانيا لدعوته وان الامر بهم البرتغاليين فتوجه الى البرتغال التي كانت ترغب في الانتقام من الاشراف السعديين الذين أخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من المغرب الاقصى ومن سواحلهم، فقرر اعانتته، وأمدّه بالسفن، وكانت تلك العمارة التي أسرها صالح رايس (٥).

1- Les Sources Indites Lhistoire Du Maroc . Espagne Tom 1P.591

(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٤، ١٤٥.

3- Les Sources Indites Lhistoire Du Maroc . Espagne Tom 11 P.36.

(٤) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٥) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤١ .

ان العثمانيين قد ادركوا هدفهم من الحلف الاطلسي، الا وهو الوصول بالحكم العثماني نفسه الى الحاضرة المرينية فاس التي مال اهلها آنذاك بكل مشاعرهم نحو بوحسون الوطاس، فهو اصلا ابن مؤسس الاسرة الوطاسية ومن ثم فان هدفه من الحملة العثمانية لم يكن يعنى سوى العودة بهذه الاسرة الى حكم المغرب وان كان تحت السيادة العثمانية. (١)

اتفق صالح رايس مع أبى حسون، تعهد له هذا بأنه يعترف بمجرد جلوسه على فاس بالتبعية للسلطان العثماني، والا ستعداد من قبل الطرفين لتجهيز الجيوش الاسلامية لمباشرة غزو اسبانيا برفقة صالح رايس. (٢)

وصلت القوات العثمانية لنجدة أبو حسون الى بادس حتى تلقى طاعة القبائل المجاورة للمنطقة، وأخذ في اعداد قوات محاربة، كما انضم الى ابو حسون عمر - عمار - ملك دبدو (٣)، وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني - الا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكى يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهى سنة ١٥٥٣/هـ سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالى في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤هـ / ٨ يناير ١٥٥٤م (٤)، وأعلن الباب العالي ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد أن خطب الامام للسلطان العثماني. (٥)

ان الاعتراف الرمزي بالسيادة العثمانية تمثل أخطر مرحلة في تاريخ المغرب منذ الفتح الاسلامي، لأن المغرب أصطدم خلالها باحتلال اسباني وبرتغالي

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره - ص ١٤٤ .

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره - ص ٣٤١ .

(٣) دبدو هي مجموعة من القرى تقع على الهضبة المطلة على ساحل تفرط على القفى اليمنى لنهر ملوية، وكان شيخ هذه القبائل يشمل نفوذه قبائل وادي تازة وفي القرن السادس عشر لقبه الاسبان بلقب ملك .

(٤) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره - ص ٨٠ - ٨١ .

(٥) محمد الفريسي : مرجع سبق ذكره - ص ٩١ .

لقسم كبير من شواطئه ، فكان الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية والحالة هذه ليس من باب الحكمة فقط ، بل وضرورة سياسية كذلك ، لأن العثمانيين احتضنوا الخلافة الاسلامية أولا ، ولأنهم جابهوا الدول الاستعمارية بما فيها الاسبان بسواء في تونس والجزائر ، كما فعلوا ايضا في مساعدتهم للوطناسيين والقوات السعيدية بالمغرب ضد الوجود الاسبانى . (١)

باستقرار مولاي عمار في دبدو وأبي حنون بفاس ، ساد النفوذ العثماني شرق المغرب والمناطق الوسطى ، وازداد فزع الاسبان والبرتغال لروية الاساطيل العثمانية وهى تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التى سيطرها العثمانيون ومن ثم التوجيه للاندلس ، وقد جاء فى الرسالة التى بعثها الملك البرتغالى (جان الثالث) الى الامبراطور شارل الخامس ، ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل فى المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لاقدامهم فى هذه البلاد ، لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الامتتين . (٢)

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية ، وفى خلال تواجده فى فاس ، لم يترك الجهاد ضد الاسبان فأرسل فرقة من جيشه الى الريف المغربى استرجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فاليس كما يدعونها (٣) ، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثماني — أبا حنون بالشريف الادريس الراشدى مولاي بو بكر ، بناء على اقتراح المرابطين الموفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني ، إلا أن ثورة الأهالى اضطرت صالح رايس لاعادة بو حنون الى حكم فاس ، فأذعن بو حنون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني

(١) ابراهيم حركات : التأثير العثماني فى المغرب ، اشغال المؤتمر الاول ،

لتاريخ المغرب وحضارته ، ج٢ ، ص ٩ .

(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٢ .

واقامة حامية عثمانية فى مقر بلاطه (١) تمهيدا للعمل المشترك فى اسـترداد الأندلس .

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شىء الا بمحاربة الاسبان ،ولا يهدف من وراء أى عمل الا جمع القوى الاسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحى ،وكان يرى قبل كل شىء وجوب طرد الاسبان من وهران ،ثم النزول الى الأندلس ،لكن كيف يتسنى له ذلك ولسطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص ولسطان قلعة بنى عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله ،ترامت لصالح رايس يومئذ الانباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة بجاية ،علاوة عن معاناة الحامية بالضيقة فرأى صالح أن يغتنم الفرصة ،وأن يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان قبل أن يظهر الغرب ولعل انقاذ بجاية سيكون له أثر فى عودة ملك بجاية الى حظيرة الوحدة الاسلامية تحت ضغط السكان .

سار صالح رايس فى ربيع اول سنة ٩٦٣هـ/يناير ١٥٥٥م نحو مدينة بجاية على رأس جيش كبير يقدر بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم فى الطريق بالمجاهدين من امارة كوكو ،فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة ،بينما جاء الاسطول العثمانى بحمل الاسلحة والمدافع فرس بجانب الجيش وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة (٢) ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس فى انتزاع بجاية من الاسبان فى ذو القعدة سنة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٥م ،ولم يستطع حاكم نابولى من نجدة حاكمها فى الوقت المناسب (٣) ، كما استسلم الحاكم الاسبانى الونسو دوبييرالتو (ALonso de Perralto للقوات العثمانية . (٤)

سار بوحسون بواجه منافسه المولى محمد الشيخ السعدى الذى جمع قوات من

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ص ١٤٧ .

(٢) احمد توفيق مدنى: مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٤) عبد الرحمن الجلالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٨ .

، شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

الحوز والسوس وأتى يجز جنوده الى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس (١) وكان بو حسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ في اعداد الجيوش وآلات الحرب الى أن قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول الى مراكز ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم واستطاع بو حسون أن يئزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم ارسل بو حسون لمولاي محمد الشيخ وقال له أخرج أنت واولادك الى لقائي وأنا أخرج اليكم بنفسي و نترك المسلمين بدون قتال، فظاهر محمد الشيخ بالموافقة، فخرج بو حسون لمقابلته احد ابناء محمد الشيخ الذي انهزم ورجع الى والده واخوته الستة الذين اجتمعوا على بو حسون فجعل يطاردهم حتى طربه فرسه فسقط فطعنوه فأحترقوا رأسه وأتوا به جيشه، فأنهزموا بلا قتال، واخذ محمد الشيخ فاس (٢) وهكذا مات بو حسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الاولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، الا أن احداث هذه الوقائع كانت تعنى أن الفرصة مازالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المرحلى للمغرب، لاسيما وأن محمد الشيخ السعدى باسم القضاء على الحزب العثمانى بين المغاربة انزل القتل فى اكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلا عن الفقهاء المبرزين أبى محمد عبد الوهاب الزقاق قاضى فاس، و أبى الحسن على حوز خياط فاس. (٣)

ان عودة فاس للسعديين كانت نقطة تحول هامة فى تاريخ الدولة السعدية فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية فى بلاد المغرب، بل والاكثر من ذلك أنه أعلن أثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدى العثمانى على شمال افريقيا، بل وعلى الخلافة الاسلامية كان فى صالح الاسبان والبرتغال، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقاربا بين هؤلاء جميعا ضد العثمانيين. (٤)

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

(٢) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٤) عبد الكريم كريم : نفس المرجع ، ص ٨٣ .

بعث الملك جون الثالث رسالة الى حاكم مازكان البرتغالي الفارو دى كافالو (AL Varo de Carralho) رداً على الطلب الذى تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين كما حددت الرسالة بعض الشروط التى يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين ،كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس وبنيون والعراش ،بالإضافة الى تموين القوات المسيحية التى سيرسلها لمساعدته ،واخيرا يختتم الملك البرتغالى يوحنا الثالث بضرورة اخبار الامبراطور الاسبانى بذلك للتنسيق فى عمل مشترك ضد العثمانيين ،ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغاليين بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك فى مطلع ٩٦٢هـ / ١٥٥٥م ،وظل مفعول هذه الهدنة زمنا طويلا .

اذ كان حاكم مازكان هو الذى قام بدور الوساطة مع السعديين فان المزوارى بوغانم هو الذى كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الاسبانى وأول رسالة للمنصور فى هذا الصدد ،تلك التى بعثها الى حاكم وهران الاسبانى الكونت دى الكودين (Comet de AL Coudet) فى مطلع ربيع اول ٩٦٣هـ / يناير ١٥٥٥م ،وقد اخبر المزوارى الكونت الاسبانى بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله الذين اعربا عن سرورهما لقدم وفد اسبانى للتفاوض معه ،وقد ارسل حاكم وهران بالفعل الى فاس وفدا يتألف من ثلاثة اشخاص جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول اعداد حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد العثمانيين .(١)

وقد جاء فى التقرير الذى رفعه الوفد للكونت الكوديت حاكم وهران الاسبانى الذى اشرف على سير المحادثات " ... بعد أسلمناه الرسائل .. طلب اليينا الملك السعدى أن نقول له شفويا عن سبب المهمة التى قدموا من أجلها الى فاس

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

اننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران ارسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر .

اجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته ، وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا افريقيا ، ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الامبراطور امداده . بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية ، وأنه (اى الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الامبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات ، ذلك لان طرد العثمانيين انما هو عمل تستفيد منه ممالك الامبراطور والمسيحية جمعاء وطالت المذكرات كثيرا واخيرا علمنى القائد برشميدة بأن الشريف قد ادخر كثيرا من المال لمحاربة العثمانيين ، وأنه يسعده أن يعين الامبراطور على ذلك وأن الامر مستعجل جدا " .

" ... جاء ذكر الجزائر ماذا صنع بها بعد احتلالها ، فكان من رأى الملك السعدى تحطيم هذه المدينة وازالتها تماما ، أما أهلها فتؤخذ أموالهم ، وإذا امتنعوا فيقتلوا ، ورفض الملك السعدى أن يؤخذوا عبيدا للمسيحيين ، وذكر الوفد أن الاتراك اجانب عن البلاد وانهم اعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء ، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم فى حالة استسلامهم دون مقاومة . الا أن الملك السعدى أوضح أنه لن يسمح أبدا . بأن يصبح أى عربى عبدا . لان هذا مخالف الشريعة (١)

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدى على العثمانيين ، الذى لم يتورع فى الاستنجاد بالقوى المسيحية اسبانيا والبرتغال فى سبيل تحقيق أهداف شخصية ، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ، ومصالح المسلمين .

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك السى الامير فيليب ابن الامبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه " ... يجب علينا

أن نعتبر انفسنا سعداء جدا في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الإلحد كل جهوده للحصول على اسطول السلطان العثماني ،حتى يهاجم ممتلكات جلالته الامبراطور ،وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الأرض التي يحتلونها في افريقيا ،وذلك فيما اذا قدمنا له اثنى عشر ألف من المقاتلين الاسبان على حسابه ،كذلك يتعهد الشريف السعدى في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائى رهينة لديه ،وان يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة ،وبما أن هذه الصفقة ستجر خيرا عظيما على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد فى قبول طلب الشريف وارسل اليه ابنى رهينة ،حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه ،بل اننى وجميع من حولى مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيدا " (١)

أطلع صالح رايس على تلك المؤامرة التى كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والاسبان والتى كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر ،لأنه طالما أن الدولة فى الجزائر معناه خطر على اسبانيا ،فبعث صالح رايس للباب العالى يخبره بشأن تلك المحادثات ،فكان جواب السلطان سليمان سريعا وحاسما بوجوب مهاجمة وهران ،قبل أن تستمر المحادثات بين الجانبين السعدى والاسبانى عن نتيجة عملية ،فارسل السلطان سليمان أربعين سفينة وعلى ظهرها ستسعة آلاف رجل الى صالح رايس لمساعدته فى الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير ،ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعى من مختلف انحاء الدولة العثمانية هى التى تغذى الأوجاق ،الذى كان تبعا لذلك يتجدد على الدوام .(٢)

استعد صالح رايس لفتح وهران ،وضم اسطوله الى جانب اسطول السلطان

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٨١ .

وصار لديه نحو سبعين سفينة ، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين الفجندى ، وكان ينوى من اتمام زحفه هذا بالمسير الى مراكز للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه ، ولكن القدر لم يمهله فتوفى صالح رايس بالطاعون فى شهر رجب ٩٣٦ هـ / الموافق ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة . (١)

وهكذا لم تستطع الدولة فى تحقيق خطتها فى استعادة الإنديس ، من خلال وجود صالح رايس ، الذى رأى تطهير الشمال الافريقى من الوجود المسيحى أولا ، ثم الوصول الى اقرب نقطة للعبور للأنديس ، لكن كان هناك الوجود السعدى الذى فضل التحالف مع اسبانيا والبرتغال ليكتمل حكمه على المغرب ثم الجزائر ، وكان ذلك عائقا لتقدم الدولة .

ان الدولة العثمانية سعت الى ضم المغرب فى نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات المسيحية ، ذلك ان استقراره فى قواعده بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الاقصى المطلة على المحيط الاطلسى ، يعنى حقيقة الأمر نجاح الاساطيل العثمانية فى اعتراض الطرق البحرية للبرتغال او اسبانيا مع العالم الجديد والشرق ، من هنا نرى ان نجاح الفكرة كان يعتمد اساسا على وصول العثمانيين الى تلك السواحل ليشاركهم فى ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت امرة أمراء البحر العظام ، أمثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح رايس . (٢)

قام القائد يحيى باكمال خطة صالح رايس فابحر نحو زهران وفى الطريق وصلت الاوامر السلطانية بتعيين حسن قورمو لمنصب بيلرباى ، وولت الجيوش البرية والبحرية الى وهران وحوصرت حصارا شديدا ، الا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدة المتواصلة التى كانت

(١) عبد الرحمن الجيالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) عثمان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٣ .

تبعثها اسبانيا الى المدينة المحاصرة . (١)

انتهر الشريف السعدى محمد الشيخ فرصة عودة الاسطول العثمانى الى استانبول ، فأسرع بارسال جيوشه نحو تلمسان ، التى كان رجالها قد انضموا الى صفوف المجاهدين فى محاولتهم لاسترجاع وهران فدخلها الشريف السعدى على غفلة ، ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم قبائل بنى راشد ، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتممين باسبانيا ، اما الحامية العثمانية الموجودة فى تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود فى وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدى . (٢)

ان السعديين كانوا يرون فى ضم تلمسان عاملا قويا فى توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقى لصد كل تدخل عثمانى فى المغرب ، بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون فى التمرکز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب (٣) ، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس ، كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والأسبان .

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين ، عندما بعث السلطان سليمان القانونى برسالة الى سلطان الدولة السعدية يهنته بما أحرزه من انتصارات ، ويعلمه بما كان عليه بنومرين من الهدايا والرد والخدمة والميل اليه ، وأن السلطان فى نصرتهم ، وقد سبق وأن ظهر ذلك مع آخر ملوك دولتهم أبى حسون ، الذى زوده بأربعة آلاف جندى ، كان ذلك فى محاولة من السلطان لتكوين اتحاد اسلامى كبير ، يواجه به الاخطار الخارجية ، غير أن ذلك قوبل بالرفض من قبل السلطان السعدى محمد الشيخ ، الذى رد على مبعوث

(١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) أحمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، ص ١٥٠ .
ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره

(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٥ .

السلطان بقوله " سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان الغرب لابد أن ينازكك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر والسلام " (١)، يظهر من خلال ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بامامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

لقد كان اغتيال محمد الشيخ ١٢٦٤هـ/١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص، بداية تطور هام للاحداث المقبلة بالمغرب، خاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، اذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين انما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الافريقي فحسب، بل ولاهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة الى بلاد اسبانيا والبرتغال. (٢)

اعاد السلطان العثماني حسن بن خير الدين الى الجزائر للمرة الثانية وذلك بعد مصرع حسن قورصو ٩٦٤هـ/١٥٥٧م بعد غيبة ناهزت أربعة أعوام قضاها في الجهاد في ميادين أخرى، وأستبشر الناس خيرا، لما عرفوه عنه من سيرته وما كاد يستقر به المقام حتى أرجع الى الادارة نظامها، والى الجيش انقياده ثم عزم على استئناف الجهاد، وانجاز مشروعات عظيمين، تطهير الشمال الافريقي من الوجود المسيحي، والنزول الى الاراضى الاندلسية. (٣)

تجددت الثورات الانفصالية عن الامارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الاولى ٩٦٥هـ / فبراير ١٥٥٨م، وثورة المولى عمر في دبدو بالشرق في رجب ٩٦٥هـ ابريل ١٥٥٨م، وثورة المولى عبد الموءمن في مراكش في ربيع الاول ٩٦٦هـ / ديسمبر ١٥٥٨م، ثم كانت المذبحة الجديدة التي انزلها عبد الله الغالب

(١) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) عبد الكريم كريم: مرجع سبق ذكره، ص ٨٦ .

(٣) احمد توفيق مدني: مرجع سبق ذكره، ص ٣٧١ .

عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سبق ذكره، ص ٣٠، ٩٠ .

بثلاث من اخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل ،مما اضطر اخوته للهروب الى تلمسان والجزائر ،فهرب المولى عمر والمولى عبد الموءمن وعبد المالك واحمد المنصور ،وذلك خوفا من القتل .(١)

قصد مولاى عبد الله الغالب الى مراکش ثم تارود انت حيث أنتقم من قتلة أبيه ،كما قضى على ثورة السوس التى نزعها المولى عثمان ،ثم عاد سريعا الى فاس لاعداد قواته ،لصد الحملة العسكرية التى يقودها حسن بن خير الدين والذى حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد(٢) وقامت بين الطرفين معركة على وادى اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء الا أن حسن بن خير الدين وملكته انباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة ،فذهب بالجيش العثماني الى مرفاء قصاصة فى الشمال فركب سفنه وعاد للجزائر ،بينما ذهب قائد تلمسان الى حاميتسه استعدادا للحوادث المقبلة .(٣)

كان دو الكوديت (De AL Coudet) حاكم وهران يبدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسبانى تهديدا خطيرا ،فقرر الاستيلاء على مستغانم التى جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران ،وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر(٤) لذلك اعد قوة كبيرة تتكون من اثنى عشر ألف مقاتل ،وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم ،الا أن محاولته باءت بالفشل اذ تكبدت القوات الاسبانية فى ذو القعدة ٩٦٥هـ / أغسطس ١٥٥٨م خسائر فادحة ،وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى ،ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فان العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك فى تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الاسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧٥ .

(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٦ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٢ .

(٤) أبى عبد الله السليمانى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤ ،

محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .

القيام بمساعدة الشائرين ضد الحكام السعديين ، فعندما شار المولى عبد المؤمن فى مراكش فى ربيع الاول ٩٦٦هـ / ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالى الجزائر لم يمهده بأية مساعدة عسكرية بل رحبه فى بلاد الجزائر وزوجه باحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان . (١)

أراد حسن بن خير الدين أن يفتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسبانى فى وهران وأخذ يستعد فى مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة الى جانب الجيش العثمانى ، فجدد عشرة آلاف رجل من زواوة (٢) ، كما أنشأ قوة من العلوج ووضع على رأسها احد اعوان والده القدامى ، وفى الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضى وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى فى الاستعانة بقوة ابن القاضى لمواجهة زعيم قبلى آخر (عبد العزيز بن عباس) الذى أعلن استقلاله فى المغرب (٣) ، بذلك صار اسطول الدولة العثمانية يتردد دائما على مدينتى حجر باديس وطنجة . (٤)

عين حسن بن خير الدين فى ٩٦٥هـ / ١٥٥٨م بو يحيى الرايس (الهراس AL Harraez) (٥) قائدا على بادس ، فقام بتخريب الساحل الاسبانى من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست ، وصار تحت قيادته فى بادس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق ، وقد جاء فى تقرير اسبانى بقلم فرانسسكو دى ايبانير (Francissco de Iborez) أن يحيى يملك أربع سفن حربية الاولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانى ، مسلحين بالسهام والاقواس والمناجيق والسفينة الثانية يقودها قره مامى (Cara Mami) وعلى ظهرها ٨٠ جندي عثمانى مسلحين بنفخ الاسلحة ، والثالثة بقيادة مراد الرايس

(١) عبدالكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ ،
شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧٧ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٤) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩ .

(٥) بو يحيى الرايس تركى الاصل ، اشتغل باعمال الجهاد البحرى من أول ١٥٠٠==

(Morato Arraez) بقوة ٧٠ جندي ، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الاسلحة ، وبالإضافة الى هذه السفن الاربعة العاملة عبر مياه المضيق ، كان في حوزة بو يحيى سفينتان في بادس ويقوم بصنع سفينة اخرى ، ويتصل بنشاط سفن بادس سفن تطوان العرائش وسلا ، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة ، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان ، وفي سلا سفينتان من النوع الأخير ، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بويحي ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الاسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الاندلس والاستيلاء على سفن الهند ودفع تجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكون فيها الفطاع التي تركتها سفن بادس والسفن الاسلامية الاخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية (١) ، ولم تستطع السفن العبور دون اذن من بو يحيى ، فعم الخوف سكان الساحل الاسباني ، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم الا بكل حذر ، وغالبا ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيرا عن الشاطئ . (٢)

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية الى مقاومة الهدف في المغرب ، والاستعانة في سبيل ذلك باعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم ، والمحافظة على احوال السلم معهم وقد دفعته سياسة المهادنة مع المسيحيين الى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الاوروبية ، كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله الى الاميرة أنطونيو دي بربون (Antonie de Bourbon) رسالة يعبر فيها

=== واصله الى الجزائر ، وفي عام ١٥٥٢م اسر عند رأس جاتا (Cap de Gata) وأمضى سنتين ونصف في الأسر ، الى أن افتداه قبطان جنيري ، عاد بعدها الى الجزائر وامتلك سفينة حربية (Galiote) نشط بها ضد سواحل الاندلس .

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٩ ، ١٠٩ ، ٩٠ .
(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ .

عن استعداد المغرب الاستجابة للمطالب الفرنسية ، ثم عقد الامير الفرنسي معاهدة في شوال ٩٦٦هـ / يولييه ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الذى تنازل عن المرس الصغير لفرنسا مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربى ، وارسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب ، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركى الذى سبق وأن اغتال والده محمد الشيخ .

وكانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتو كمبريس (Cateau -Cambresis)

فى ٢١ جمادى الاولى سنة ٩٦٦هـ / ١٣ ابريل ١٥٥٩م مع اسبانيا والتي انتهت الحرب الايطالية ، وأخذت تبحث عن حلفاء يمكن الاعتماد عليهم فى حالة تجدد النزاع مع اسبانيا خصوصا وقد صار لفيليب الثانى الذى خلف والده شارل الخامس نفوذ قوى فى أوروبا ، لان المعاهدة المذكورة قد دعمت نفوذ اسبانيا فى ايطاليا والاراضى المنخفضة مما يهدد فرنسا التى طوقت بالامتلاكات الاسبانية ، لاجل ذلك تقربت فرنسا من بريطانيا عن طريق مشروع زواج الاسرتين الحاكمتين ، كما أخذت فى التقرب من المغرب البلد الاسلامى مستغلة الروابط الحسنة التى تربط فرنسا والسلطان العثمانى ومما لا شك فيه أن فرنسا كانت ترى فى المغرب حليفا يمكن الاعتماد عليه ضد اسبانيا ، كما كانت ترى فى ميناء القصر الصغير الاستراتيجى الذى لا يبعد الا بضعة كيلو مترات عن جبل طارق وعن الاراضى الاسبانية منطقة هامة يمكن اتخاذها لغزو اسبانيا فى اراضيها (١) ولعل ذلك كان سببا فى عدم قيام الدولة العثمانية بموقف ايجابى تجاه المعاهدة ، لانها كانت تأمل فى أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين ، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد فى مسألة الهجوم على اسبانيا وان اختلفت من الناحية العقائدية ، ففرنسا كانت ترغب فى الهجوم على اسبانيا من اجل تحقيق نصر عسكرى لتكون سيدة الموقف فى غرب البحر المتوسط ، بينما الدولة العثمانية تهدف انقاذ المسلمين من الحكم الاسبان ثم استرداد الاراضى الاسلامية فى الاندلس ، حول حسن بن خير الدين انظاره سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لامير قلعة بنى عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجاً وذلك لتثبيت

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ - ٨٨ -

الوجود العثماني هناك ، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي ، ثم غادر حسن بن خير الدين المسيلة متوجها الى بلاد حمزة من أنحاء بربرة ، عندها أنقض أمير قلعة بنى عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية . لقي فيها الأمير عبد العزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه ، وخلفه احمد مقران الذى امتلك نواحي بلاد كوكو ، فأعترف به حسن بن خير الدين . (١)

اشتدت حملة ازعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانى تونس والجزائر وذلك بالاغارة على السفن المسيحية ، كما بعثت تلك الموانى ببعض القسوات العسكرية البرية وجزء من الاسطول ، لمساندة السلطان فى حروبه فى الشرق . (٢)

ترددت الانباء فى أنحاء اوربا عن استعدادات الدولة العثمانية للقيام بحملة لسلب قوة اسبانيا وضرب تحالفها وصادقتها التى قامت بها فى سواحل المغرب ، وبالتالي يسيطرون على طرق الملاحة ، وتتعرض اسبانيا ذاتها للخطر ، أو تقوم القوات العثمانية بالهجوم على مالطة وصقلية ومكان آخر فى ايطاليا . قام الاسطول العثماني بقيادة بيالى باشا بالهجوم على جزيرة جربة فى رمضان سنة ٩٦٧هـ / مايو ١٥٦٠م ، ونجح الاسطول فى تحقيق أهدافه ضد الاسبان (٤) ، الذين لم يجدوا حرجا من الاستنجاد بفرنسا (٥) ، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالى باشا ببعض الغارات فى البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينية ، ولكن درغوث باشا الذى سبق وأن ضايقه الثوار فى الداخل ، اقنع بيالى باشا بالتوجه الى طرابلس لمساعدته فى القضاء على التمرد قرب تاجوراء ، وقد وصل بيالى باشا الى طرابلس ووصل الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام

(١) عبد الرحمن الجليلي : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٩١ .

2- Sir George Clark : Early Modern Europe P.48 .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

4- M.A.Cook : A History of the Ottoman Empire P.101 .

(٥) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ، ص ١٣٨ .

والشارات التى غنمها من الاعداء بينما كانت اعلام الاعداء منكسة فوق سوارى السفن وقا
بيالى باشا بطرابلس اياما قليلة كافية لمعاينة سكان تاجوراء ، ثم اقلع
باسطوله صوب عاصمته . (١)

صار بامكان حسن بن خير الدين متابعة استعداداته لمهاجمة المغرب
فشرع فى تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوى أن يوكل اليها حراسة الجزائر
اشاء غيايه لعدم ثقته بالانكشارية ، الذين احسوا بالخطر ، فقاموا فى صيف
٩٦٩هـ / ١٥٦١م باعتقال حسن باشا وأعوانه وارسلوه مقيدا الى استانبول، ورافق
حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التى
دفعتهم الى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوى القضاء على الاوجاق
والاعتماد على جيش محلى بغرض الاستقلال عن السلطان ، لكن السلطان أرسل أحمد
باشا مع قوة بحرية لمعاينة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح احمد
باشا فى اعتقال زعماء التمرد وارسلهم الى استانبول . (٢)

ان قصر المدة التى تولاها حسن بن خير الدين فى منصب بيلربى
الجزائر ، وذلك بسبب استماع الباب العالى للوشايات التى تحاك ضده ، وخوف
السلطان العثمانى من استقلال حسن بن خير الدين عن الدولة العثمانية ، وبذلك
تتعطل خطة الدولة لاسترداد الاندلس ، وكان هذا فى الواقع عائقا فى تقدم الدولة
العثمانية المباشر نحو الاندلس ، علاوة على ان الحركة البحرية خلال فصل الشتاء
كان لها سببا فى انقطاع الاتصال بين استانبول والقواعد المغيرة ذات المسافة
البعيدة مثل الجزائر وربما كان للحملات التى يقوم بها المجاهدون ضد
المسيحيين مفعول قوى ، لكن ايضا كان موسم الابحار قصير جدا ، بالإضافة لمشاكل
الاتصال والامدادات المعقدة ، كل ذلك كانت عوائق تقلل من امكانية الاستيلاء
على مراكز استراتيجية متقدمة وبعيدة ، لتحقيق منها الدولة العثمانية
اهدافها فى استرداد الاندلس وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية .

(١) اتورى روس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٠ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

ان الاسطول العثماني قاسى من اقوال نجمه جزئيا فى أواخر حياة باوياروسا وبعد موته مباشرة ، وذلك بسبب انتقال قيادة الاسطول ولأسباب سياسية الى قواد الجيوش البرية مثل محمد صوقلى (Mehmet Sokullu) ثم لستانى باشا (Kosa Sinan Pasha) والذي كان مجرد شقيق رستم كما تحدت سلطة أمير البحر بسبب تعيين حكام مستقلين للجزائر ، وانحسار الدخل المالى للاسطول والذي يتعين لأمير البحر الحصول عليهم فى غالبيولسى والاسكندرية ، وانتقلت القيادة الفعلية للاسطول فى هذا الوقت لدرغوث باشا (١) الذى اظهر نجاحا وتمكن من الاحتفاظ على السيطرة العثمانية رغم كل المصاعب

يتبين من خلال ذلك محاولة صالح رايى وحسن بن خير الدين فى استرداد الاندلس ، لكن ظهرت تلك المحاولات بعدم وضوحها نظرا لتحالف القوى المغربية مع المسيحيين ، ويلاحظ أن محاولات خير الدين بربروسا تختلف تماما عن تلك التى قام بها كل من صالح رايى وحسن بن خير الدين ، وذلك لأن خير الدين تولى منصب قبودان باشا بجانب منصب بيلربك الجزائر ، فظهرت محاولاته نظرا لصلاحياته الكبيرة أكثر وضوحا ممن خلفه ، ولكن تنصر الدولة العثمانية فى تحقيق هدفها لاسترداد الاندلس ، وتعود سياستها السابقة فى تخصيص منصب قبودان باشا ، لبيلربك الجزائر باعتباره أعلم القواد العثمانيين بالمنطقة وأكثرهم دراية بأبناء المنطقة ، وهذا ما نلاحظه فى الفقرة التالية عندما يتولى حسن بن خير الدين فى ولايته الثالثة على الجزائر منصب قبودان باشا ويتبعه قلج على .

وهران ، وصدى ذلك لدى الشريف السعدى ، بعث حاكم طنجة البرتغالى برنارد دى كارفالو (Bernard dim de Carvalho) الى سكرتير الدولة بدرو دى الكاسوفا كارتيريو (B.de A. Carneiro) فى ٢٩ جمادى الاول — ١٩٧٠ هـ / ٨ مارس ١٥٦٢ م ، بأن الشريف السعدى يتجه الى حصار مازكان بقبسات عظيمة ، لكن وصلت للشريف اخبار تفيد بأن العثمانيين غادروا الجزائر للهجوم على فاس أو وهران ، فرجع الشريف عن حملته على مازكان لانقاذ الحاضرة المغربية ، ووراء الهجوم العثمانى المرتقب ، ثم توصل الشريف السعدى بأخبار أخرى تفيد عن قيام العثمانيين على حصار وهران بالفعل ، فكان أن أتجه الشريف من جديد لاستئناف حملته على مازكان ، كما بعث حاكم طنجة الس — سبستيان الاول فى ٢١ رجب ٩٧٠ هـ / ٣١ مارس ١٥٦٢ م برسالة أخرى تفيد أن الشريف أجل حصار مازكان لاعتقاده بأن العثمانيين اذا ما فشلوا فى الهجوم على وهران سيتجهون بقواتهم الى فاس . (١)

خرج حسن بن خير الدين فى سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م من مدينة الجزائر نحو الغرب ، يقود جيشا كبيرا مؤلفا من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية ، وألف فارس من الصباحية تحت امرة احمد مقران الزواوى ، وأثنى عشر ألف رجل من زواوة وبنى عباس ، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثمانى الى مدينة مستغانم التى اتخذها قاعدة للعمليات ، وفى ٣ ابريل وصل حسن بن خير الدين بكامل قواته امام مدينة وهران وضرب الحصار حولها ، وكان الاسبان مستعدين لتلقى الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم (٢) ، بعد أن توالت النجسـدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها ، منذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين ، وبينما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما أضرط حسن بن خير الدين الى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هـ — النجسـدات التى اتخذت من مالطة مركزا لتجمعها (٣) وهكذا لم يستطع حسن بن خير

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١١ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧٩ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

الدين من تحقيق هدفه ، ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجا طموحا للاسطول الاسباني ، والبناء البحري في ترسانات ايطاليا وقطالونيا ، كما وردت لخزانة اسبانيا اعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية ، وأقرت وجوب امداد اسبانيا بمعونات مالية ، لتساندها في حربها مع العثمانيين ، وما كانت ثمرة تلك المجهودات واعادة التنظيم لهيكل اسبانيا هزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م. (١)

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة بادس (Penon de Vellez) فدعا بذلك النصر الذي حققه في وهران ، توجه لذلك أسطولا في نفس السنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة ، أضطرت الأسطول الى التراجع والجدير بالذكر أن جزيرة بادس كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق ، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناء هاماً (٢) ، إذ يمكنهم من خلالها العبور للاندلس ، كما يمكنهم التسلل لداخل الاراض الاسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين اطلقوا على انفسهم الغرباء ، وهذا ما دفع الاسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة .

كما كانت جزيرة بادس بالاضافة الى ذلك مشار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب باله ، إذ خاف السلطان ان يخرج الاسطول العثماني من تلك الجزيرة الى المغرب ، فاتفق مع الاسبانيين أن يخلو لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين ، وينقطع اسطول العثمانيين في تلك الناحية (٤) ، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب اذ هاجمها الاسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع الى الجزائر (٥) ، كما عزل بو يحيى

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P. 96 - 97.

- (٢) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ، ص ١٨٣ .
- (٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ .
- (٤) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ، ص ٣٦ .
- (٥) محمد بن عبد السلام بن عيود : تاريخ المغرب ، ص ١٧ .

رايس من منصبه في بادس في اواخر ٩٧١هـ / ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، اذ توجه نشاط الاسطول الحربى الى جزيرة مالطة فى الشرق (١).

كان السلطان العثمانى سليمان القانونى قد عزم على فتح جزيرة مالطة التى كانت اكبر معقل للمسيحيين فى وسط البحر المتوسط، والتى سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثمانى أسطول به قيادة بيالى باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجريه، وحسن بن خير الدين باى لرباى الجزائر، أن يتوجهوا على رأس أسطولييهما الاسلاميين للمشاركة فى عملية مالطة واخضاعها استعدادا لمنازلة بقية المعاقل الاسلامية بعد ذلك فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الاسطول الاسلامى امام جزيرة مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقا شديدا الى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها، ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك فى صقلية، برفقة اسطول تعداد ٢٨ سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الاسطول الاسلامى من الانسحاب فى ١٨ ربيع الاول ٩٧٣هـ / ٨ سبتمبر ١٥٦٥م (٢).

أشد مرض السلطان سليمان القانونى وتوفى فى ٢٠ صفر ٩٧٤هـ، الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦م عن عمر يناهز أربع وسبعين سنة، وكانت مدة حكمه ثمان وأربعين سنة قضاه فى اعلاء كلمة الاسلام والجهاد فى سبيل الله (٣) ونتسائل هنا ماذا كان يحدث أو يتحقق اذا امتدت حياة السلطان سليمان القانونى أو على الأقل وجد وريثا قادرا على استمرار اعماله وانجازاته ؟

توقف النشاط الحربى مؤقتا، اذ كانت الدولة تعاني من مشكلة اقتصادية

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠-١٩١ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٣ .

(٣) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥١ .

ذلك بسبب الزيادة الهائلة في الإنفاق الحكومي خلال حكم سليمان القانوني
اذ كانت الدولة تضم جهاز اداري ضخم ، كما أحاطت بالسلطة بلاط فاخر ، بالإضافة
الى حملات السلطان سليمان القانوني السنوية في أوروبا وآسيا (١) .

خلف السلطان سليمان القانوني ابنه السلطان سليم الثاني ، الذي
استند منصب القائد العام للأسطول العثماني الى حسن بن خير الدين فترك مملكة
الجزائر متوجها الى استانبول سنة ١٥٦٧هـ / ١٥٦٧م (٢) ، ومن هنا يتجدد استمرار
الدولة العثمانية على استرداد الاندلس من خلال اسناد منصب قيودان دوريا الى
بيلربك الجزائر ، العالم بشؤون اسبانيا ، المقدر للموقف في الشمال الافريقي
اذ سبق أن اسندت الدولة ذلك المنصب الى والده خير الدين بربروسا ، وكانت
تلك الهجمات على سواحل أوروبا عامة واسبانيا بصفة خاصة ، وها هي الدولة
الآن ترغب في اعادة تلك الضربات على السواحل المسيحية من خلال تعيين حسن
بن خير الدين اميرا للبحر ، وكان الدولة تريد اعادة بناء الاسطول لتسترد
الاندلس .

تولى منصب بيلر باي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح
رايس ، في ذي الحجة ٩٧٤هـ / يونية ١٥٦٧م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة
والمجاعة ، صحبها تمرد الجند العثماني واضطرب الشعب ، فاضطر الى صرف وقته
في موازنة المصابين ، وتسكين الفتن ، ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل
قسطنطينية المتأثر بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باي وقضى على ثورته
وولى على قسطنطينية القائد رمضان بن تشولاقي ، وفي ربيع الاول سنة ٩٧٥هـ /
سبتمبر ١٥٦٧م ، هاجم الاسبان مدينة الجزائر ، الا أنهم ردوا على اعقابهم ، ثم
لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس ، اذ تعين نقله الى ولاية أخرى في انحاء
الدولة العثمانية (٢)

1- Stanford Shaw : History of the Ottoman Empire P.107.

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٥ .

(٣) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

الادبية (١) وكان الباي لارباى الجديد قلق على على معرفة تامة بالايالة
اذ سبق أن ولى على تلمسان وقاد المقاومة الاسلامية فيها ضد الاسبان ، وشغل
فكره فى انقاذ المسلمين فى الاندلس ، وتدعيم ثوراتهم ضد اضطهاد النصارى . (٢)

اتخذ القلج على خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية هو اعادة
الحكم الاسلامى فى اسبانيا وتحرير المغرب العربى من الجيوب الصليبية
فوجه اهتمامه الى الاسطول أكثر من غيره وصار من بعده مبعث قلق ورهبة
للأوروبيين (٣) ، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار تجارة المرجان بمرکز
القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مفت وتصرفهم
فى المنطقة التى نزلوا فيها تصرف السادة . (٤)

من المؤكد ان القلج على قبل أن يقدم على مشروع استرداد الاندلس
كان على علم تام بالجهود الجبارة التى بذلتها الدولة العثمانية ابان وجود
خير الدين بربروسا وخلفائه فى الجزائر للقضاء على الزحف الصليبي على شمال
افريقيا ، كما كان يعلم مدى النجاح الذى حققه فى طرد الاسبان من بعض
قواعدهم وتحطيم حصن بنيون فى الجزائر وفى تشجيعه بل وفى اسهامه فى انقاذ
آلاف المسلمين فى اسبانيا من الافلات من قبضة الحكومة الاسبانية واللجوء الى
شمال افريقيا . (٥)

صمم قلج على على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية فى تونس ، قبل
أن يبدأ نشاطه فى شبه الجزيرة الايبيرية (٦) ، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٢) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٣٤٦ .

(٣) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع ، ج٣ ، ص ٩٥-٩٦ .

(٥) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٩٢٤ - ٩٢٥ .

(٦) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

والجزائر، وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر (١) لذلك لابد من تأمينها .

كانت اسبانيا تواجه صعوبات داخلية من جراء ثورة المسلمين فـلى غرناطة وثورة الاراضى المنخفضة وحدث خلاف بين السلطان الحفصى ابى العباس احمد ووزيره ابى الطيب الخفسار ، وأحس الوزير بالخطر فأتى بقلج على يحررضه على احتلال تونس ويهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون . (٢)

جهز بيلر بك الجزائر قلج على جيشا موعلفا من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها ابى العباس احمد بباجة ، ثم بعد قتال عنيف انهزم الامير الحفصى وتقدم قلج على بجموعه نحو تونس واخذ بيعـة أهلها للسلطان سليم الثانى ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد الى مقره بالجزائر (٣) ، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الاسبان ، وكانت قوات قلج على لا تكفى وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسبانى ، لذا فانـه كتب الى استانبول يطلب مده بقوة تكفى لتحرير الموقع (٤) ، وكان اهتمام قلج على بشرق الجزائر يأتى مخالفا لاسلافه (٥) ، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب ، ثم التوجه لاندلس ، بعد أن يكون قد خفف من قوة الاسبان فى الشمال الافريقى .

كانت الاعمال البطولية البارعة للمجاهدين المسلمين فى شمال افريقيا ، هيجت المورسكوس وأشارت حفيظتهم على المسيحيين ، كما جعلتهم متململين ، وزاد من توترهم محاصرة العثمانيين لمالطا ، حيث كان الكثير من

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ص ٨٤ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ .

(٣) عبد الرحمن الجيلاى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٤) عزيز سامح : نفس المرجع ص ٨٥ .

(٥) أرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ، ص ٢٤ .

اللاجئين المورسكوس والذين كانوا بارزاً في القوات العثمانية قد تضرروا من القسوة الإسبانية فأشار ذلك تمرد المسلمين في الاندلس على الحكومة الإسبانية (١) التي كانت تعاني من أزمة كبيرة في ادارتها واقتصادها ، نتيجة الهيجان العام في الداخل والحروب الخارجية ، فسادت الاقاليم الإسبانية موجة من الظلم والارهاب والفظائع ، فهذه الحالة المربكة ، وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي اسبانيا في الجنوب ، سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهرياً ، يتأهبون للانقضاض على الحكم الإسباني . (٢)

ساد في اسبانيا اراصات ثورة المسلمين في غرناطة ، فشكل المملك الأسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميليشيات تقيم في كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة بين المورسيكيين ، الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي ، كما تلقى المورسيكيون على مساعدات عثمانية (٣) ، صار الموقف حرجاً بالنسبة لاسبانيا خاصة في غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في انحاء بعيدة ، وحصونه غير معززة ، والسواحل مكشوفة ، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع الثوار .

تعرق وصول المورسيكيين لاسوار غرناطة في الموعد المحدد لذلك فـ في ٥ رجب سنة ٩٧٦هـ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٥٦٨م بسبب كثافة الثلوج المتراكمة فـ في جبال نفادا . وكانوا قد أعلنوا بذلك كمقدمة للثورة ، إلا أن زعيمهم أبو الفرج وصل الى البيلازين على رأس جماعة من المجاهدين يوقظ الناس ، وينادي بأعلى صوته " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، ورنين السلاح يتردد من المآذن ولكن النصراري عندما سمعوا ذلك ، قرعوا أجراس الكنائس طلباً للنجدة ، فرجع المجاهدون

Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.128 .

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ - ٢٠٤ .

من حيث أتوا ، ولكن مع ذلك شاع خبر الثورة بين الاسبان ، فاستعدوا للامــــر
فجمعوا السلاح والجيش وارسلوا الجواسيس فى كل النواحي ليستطلعوا الخبر .

كان اهالى البوشارات يتشوقون بدورهم الى اليوم الذى يعلنون فيه
الثورة على المسيحيين ليتخلصوا من نير الاستعباد ، ونظروا الى غرناطة التى
يشرفون عليها بشوق وحنين ، ومنوا أنفسهم بالعودة اليها لاقامة ملكهم الضائع
لذلك اخذوا بعد فشلهم السابق يتربصون الفرص لتحقيق رغبتهم والوصول اليها .

بعد ان اعميت النمصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية للمورسكيين
وتحويلهم للمسيحية لجأوا الى العنف فحرموا على المورسكوس التحدث بالعربية
والاتصال بالمسلمين فى الشمال الافريقى وفى بعض اقاليم اسبانيا كما حرموا على
النساء الخروج الى الشارع متحجبات وقفل ابواب دورهم وتحطيم الحمامات
واقامة الحفلات حسب تقاليدهم ، كل ذلك كانت من دواعى اشارة الحرب ، وحسب
البوشارات هذه هى أهم حرب او ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط
غرناطة كانت هذه الحرب فى ١٥٦٨م وتزعّمها احد المورسيكوس المتنصر بالظاهر
يدعى فرناندو دى فالور وسمى فيما بعد بمحمد بن أمية . (٢)

بذل السلطان السعدى الغالب بالله الوعود لرسل ثوار البوشارات وذلك
بأن يناصرهم ويقدم جميع ما يحتاجونه فى ثورتهم ، لكن ظل الغالب بالله
فى الواقع محافظا على الروابط الودية التى تربطه مع فيليب الثانى ، ———
وذهب الى ابعد من ذلك فقد عمل فى الخفاء ضد المورسكيين (واما اهــــل
الاندلس وغشاهم وتوريطهم للهلكة فى دينهم وأقوالهم وأولادهم وفى نفوسهم
فأمر مستعظم عند جميع من فى قلبه ذرة من الايمان وادنى مملكة من الاسلام
وذلك أنه لما احتوى عليهم النمصارى ، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه ،

(١) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ .

بقى المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهرهم بكثرة المكس ،فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله فى الاغاثة ،وأكثر كتبهم الى مولاي عبد الله لانه هو القريب الى اراضيهم ،وكان قد قوى سلطانه وصحت اركانه وجندت اجناده وكثرت اعداده فأمرهم غشا منهم بأن يقوموا مع النصرى ليثق بهم فى قولهم بظهور فعلهم ،فلما قاموا على النصرى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلة لملكه الرائل وكانت بينه وبين النصرى مكاتبات فى ذلك ومراسلات ،وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الاندلس الى الناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى صالح ملكه .(١)

تطورت الاحداث سريعا فى اسبانيا ،وبلغ عدد المتمردين فى أوائل سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م أكثر من مائة وخمسين ألف مسلم ،وصادف ذلك التمرد صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية ،اذ كانت غالبية الجيش متقدمة ————— دوق اليا (Duke Of Alba) فى الاراضى المنخفضة ،وأثبتت الدوريات البحرية انها غير قادرة على حرمان الشوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين فى الجزائر .(٢)

بعث محمد بن أمية أخاه عبد الله للجزائر مع هدايا من الرقيق ،بعد أن نظم رجاله بنظام عسكرى دقيق (٣) ،وكانت الجزائر هى الدولة الاسلاميـــــة الوحيدة التى مدت يدها بالاعانة الفعلية للشائرين فى الاندلس من رجال واسلحة وعتاد ،لانها كانت جزء من الدولة العثمانية (٤) وتنفيذا لهذا البرنامج عقد القلج على اتفاقا سريا فى مطلع سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م مع المسلمين المعتمدين بـجبال البشارت ،تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة عارمة ،فى الوقت

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ،ص ٣٧ - ٣٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.128 .

(٣) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .

(٤) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٤ .

الذى تصل فيه القوات الاسلامية من الجزائر الى مناطق معينة على الساحل الاسبانى . (١)

جمع قلع على جيشا عظيما قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفا من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد ، وأرسلهم الى مدينتى مستغانم ومازجران استعدادا للهجوم على وهران ثم النزول فى بلاد الاندلس ، وكان يرافق ذلك الجيش عددا كبيرا من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق .

وفى اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الاسطول العثمانى امام مرسى المرية الاسبانى ، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها ، لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف احد رجال الثورة الاندلسيين اذ انكشف أمره فداهمه الاسبان ، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح (٢) بعد أن نجح قلع على فى انزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسبانى (٣) ، لم تقع الثورة فى اليوم المحدد لها ، وضاعت بذلك فرصة المبادرة .

بعث قلع على فى شعبان سنة ٩٧٦هـ / يناير سنة ١٥٦٩م أسطول الجزائر ، لتأييد الشائرين فى محاولتهم الاولى ، وحاول انزال الجند العثمانى فى الأماكن المتفق عليها ، لكن الاسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد انكشاف المخطط فصدوا قلع على عن النزول ، وكانت الثورة فى عفوانها ، وزواج الشتاء قوية فى البحر فالاسطول الجزائرى صار يقاوم الاعاصير من أجل الوصول الى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب ، الا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح ، وتمكنت ست سفن من انزال شحنتها فوق سواحل الاندلس ، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدين . (٤)

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٩٢٦ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٢-٣٩٣ ،
بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٥٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوى : نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٩٢٦ .

(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ٣٩٣ ،
بسام العسيلي : نفس المرجع ، ص ٦٢ .

تقدم في هذا الوقت القبطان خوان مابيو فلوير (J.M. de Florio) وهو مهندس اسباني تقدم بمشروعه الى فيليب الثاني سنة ١٥٦٩/١٥٧٧م يقضى باغلاق مدخل بحر شيكا (المرسى الجديد Puerto Nuero) ، وبعد أن ترددت اخبار استعدادات استانبول والجزائر من جديد لتمويل الاسطول العثماني بكل ما يلزمه حتى يستعد مع قدوم الربيع التالي لنجدة المورسكيين في غرناطة، وأقترح المهندس الاسباني المذكور في البداية تشييد القلعة عند مدخل الخليج ، وحسن على الحدود مع المسلمين ، الا أن الحكومة الاسبانية لم تأخذ بهذا الاقتراح ، فبعث باقتراح آخر بسد مدخل الخليج وان يكسب ذلك في سرية تامة ، حتى لا يقوم المجاهدون بعمل يعوق تنفيذ المشروع ، الا ان السياسة الاسبانية رأت أن اغلاق الخليج المذكور لن يمنع العثمانيين من أن يفتحوه بدون صعوبة، وأنه من الأفضل تركه مفتوحا مع اتخاذ الوسائل الحربية لتحسينه ، كما كان الامر أيام سيطرة العثمانيين عليه (١) من ذلك يتبين ادراك الاسبان لمقدرة الاسطول العثماني على اختراق الحواجز البحرية وان أسطورة الأسطول الذي لا يقهر لازالت سائدة لدى جميع الأوساط الأوروبية لذلك فان التخوف من محاولة الدولة العثمانية لاسترداد الاندلس لازال عالقا في الازمان .

لم يأبه قلج على للكارثة التي احلت بالدعم العسكري للشوار فلى شعبان ٩٧٦هـ / يناير ١٥٦٩م ، وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الاندلس وتمكن من انزال أربعة آلاف من المجاهدين من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين ، للعمل في مراكز قيادة الثورة وعاد العثمانيون فأرسلوا دعما جديدا من الرجال والسلاح اعانة للثورة الاندلسية ، فصدرت الاوامر الى قلج على بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ / ٣١ مارس ١٥٧٠ " .. عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٤ .

غير جائرة .. " وكان فلج على قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك لكن ما شاع عن تجمع الاسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطرا للبقاء في الجزائر منتظرا للحوادث . (١)

وفي غمرة الثورة الأندلسية كانت خيوط الموءامة تحاك ضد ابن أمية وكان المسوءولون عن تلك الموءامة قد اتهموا محمد بن أمية بالتقاعس في حرب الاسبان ، فهاجموا المتأمرين منزل ابن أمية وخنقوه ، وانتخب احد المتأمرين مكان ابن أمية لتولى قيادة الثورة وهو ديفغو لوبث (Diego Lopez) وأطلق عليه اسم مولاى عبد الله محمد بن عبو ، ووافق على انتخابه قلعج على نائب السلطان في الجزائر ، وبعث لابن عبو بعض التعزيزات ، ونجح الأخير في حملاته الحربية الاولى ضد الاسبان وطوق جيشه مدينة ارجيه (Orjiba) (٢)

ارسلت الحكومة الاسبانية اخا الملك فيليب الثانى الدوق يوحنا الاستيرى - وهو ابن غير شرعى - للإمبراطور شارل ، وقد تولى فيما بعد قيادة الاسطول المسيحى - للقضاء على صورة المسلمين ، فباشر في قمعها سنوات ٩٧٧ - ٩٧٨ هـ / ١٥٦٩ - ١٥٧٠ م ، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال امام عينيه ، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة ، وأنتهى الامر باذعان المورسيكيين ، لكنه اذعان موقت ، اذ لم يلبث مولاى عبد الله ان اعاد الكرة ، فأحتال الاسبان عليه ، حتى قتلوه غيلة ، ونصبوا رأسه منصوبا فوق ابواب غرناطة زمنا طويلا . (٣)

يتبين من خلال ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية بالحالة في الأندلس ومحاولة استعاد

والدخول مرة اخرى في ديار الاسلام ، وتحقيقا لذلك فقد أخذت الدولة تواظب في اسناد منصب قبودان دوريا الى قواد لهم خبرتهم ، وعلمهم في مجال البحر كما اسندت منصب بيلر باى الجزائر الى قلعج على الذى كان لــــه

(١) دفتر الامور المهمة رقم ٩ ، صفحة ٧٧ ، حكم رقم ٢٠٤ ، أرشيف (Basrekalet)

(٢) محمد عبده . حاملة : مرجع سبق ذكره .

ص ٦٧ - ٦٩ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٥ .

دور في المنطقة وفي الهجوم على المراحل الاندلسية وبالفعل حققت الدولة ما هدفت اليه ونجحت في انزال قواتها في الاراضي الاسبانية الا أن انكشاف مخطط الثورة وتخاذل السلطان السعدي الذي كان له دور كبير في ذلك أفشل نجاح الخطة وتبقى مع ذلك محاولات الدولة في استرداد الاندلس قائمة بعد ذلك ، لكن هزيمتها في ليبانتو قد رفعت من معنويات الاوروبيين ، وزالت المخاوف من الاسطول العثماني ويزداد الخطر في البحار الجنوبية ، مما يوعدى الى توجيه اهتمام الدولة لتلك المناطق وهذا ما نلمسه من خلال الفصل التالي .

(١) د. محمد عبد اللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالازمة الحديثة . الدارة ، العدد (٢) ، السنة (١١) ، ص ٨١ .

الفصل السَّادِسُ

(الفصل السادس)

" العوامل المضادة والتحويلات "

أ - الصراع بين العثمانيين والصليبيين في البحار العربية .

ب - موقف الصفويين الشيعة في إيران .

ج - التجمع البحري الصليبي في البحر المتوسط - موقعه ليبانتو
البحرية ٩٨٠هـ / ١٥٧١م .

د - انتهاء عصر بيلر بك افريقية .

النيابات الثلاث : الجزائر - تونس - طرابلس .

هـ - الدفاع عن شبه الجزيرة العربية - تأمين مكة والمدينة .

واستمرت البندقية من ناحية اخرى فى القيام باعمالها العدوانية ضد العثمانيين، متخذة من قبرص قاعدة لها على الرغم من المعاهدة التى عقدت مرالنمسا فى رمضان ٦ ١٥٦٨م^(١)، وقد ذكر السلطان سليم الثانى ذلك الاعتداء فى خطابــــه للموريكيين فى ٢٤ شوال ٩٧٧هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩م قوله " .. ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالك المحروسة والتي كانت على العهد والامان، منذ زمان اجدادى العظام ،انا الله براهيمهم ، الا أنهم نقضوا تلك العهود واخذوا بالتعدي على التجار واهل الاسلام ، والمسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلوة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والظفیان ،لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه ،وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله تعالى اجمعين فقد استقرت نيتى الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المذكورة فى الربيع الاخير القادم ونضرع الى عتبة الحق جلا وعلا ان ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان ييسر ايدينا عليها حتى تأخذ بأهل الاسلام كما كانت عليه وحتى تقام بها شعائــــر الشرع الشريف وحتى يامن التجار ويسلموا فى غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء وثبات ومجد وربعة الدولة ... " (٢)

استعدت الدولة العثمانية لخوض غمار الحرب ضد البندقية وفتح قبرص فتعذر على الدولة ارسال الاسلحة للمسلمين فى الاندلس وبعث السلطان سليم الثانى خطابا لهم فى ٣ صفر ٩٧٩هـ / ٢٧ يونية ١٥٧١م جاء فيه " .. ارسلتم الى سدة سعادتنا خطابا تعربون فيه عن عدم وصول الاسلحة المرسله وانكم اصبحتم تواجهون ضائقة فى الذخيرة وان الكفار تمكنوا من السيطرة على تلك الجوانب لذا تعلمون عن حاجتكم عن ارسال المعونة .

اننا نلاحظ اهمية ارسال الاسطول الهاميونى لنجدتكم غير ان ذلك لم يتيسر نظر لتوقع غزو البندقية لمالكن فى هذه السنة ،هذا الى جانب مهمة فتح قبرص . وقد ارسل حكم همايونى الى على دام اقباله امير امراء الجزائر بشأن توجهه الى طرर्फكم على رأس بضعة قطع من الاسطول لمعاونتكم اذا سحت الظروف المذكورة بذلك فى هذا العام ... " (٣)

اصدرت الدولة توجيهاتها الى قلج على بيلربك الجزائر ليستعــــد فى معاونة الاسطول العثمانى لفتح جزيرة قبرص كما وضعت الخطة اللازمة لذلك

(١) بسام العسيلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٢) دفتر الامور المهمة ، رقم ٩ ، صفحة ٨٩ ، حكم رقم ٢٣١ ، أرشيف (Basrekalet)

(٣) دفتر الامور المهمة ، رقم ١٤ ، صفحة ١٩٩ ، حكم رقم ٢٨٣ ، بارشيف الوثائق السابع

لرئاسة الوزراء . (Basrekalet)

اذ جاء فى الامر السلطانى الصادر فى ٣ صفر سنة ٩٧٩هـ / الموافق ٢٧ يونيه ١٥٧١م ، ما يلى : " ٠٠٠ حال وصول (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا اتحد الاسبانيون مع البنادقة وتعرس انفصالك عن اسطولى الهايمنى فعليك بالتشاور بالامر مع وزيرى برتو باشا آدام الله تعالى اجلاله ، لبذل قدراتك فى الخدمات اللازمة فى كلا الحالتين ، وحسبما تقتضيه الظروف ، اما اذا لم يكن ثمة خطر من اسطول الكفار اصابهم الدمار ، وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار ، والحاقهم الضرر بتلك الديار ، فعليك بالتشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما فى حوزتك من سفن اللوند ، وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبودانى دام اقباله ايضا .

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك فى سبيل دفع ورفع ضرر وفساد الاعداء عن المسلمين ، وعليك ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه ، اخذا بمشورة المومى اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك و اظهار جلاذك وشهامتك المتأصلة فى ذاتك سواء كنت توءدى خدماتك فى اسطولى الهايمنى أو فى العمل على دفع الاذى عن المسلمين فى تلك الديار ، ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما اقدمت عليه ، وعليك بتتبع افكار وتحركات الكفار ، وأبعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموشوقة " (١)

كانت ايطاليا واسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع فى اوربا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شئ فى حينه لانقاذ قبرص من العثمانيين - الذين نزلوا بقوة كاسحة ، نفذت الى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا (Famagosta) الحصينة امام العثمانيين بقيادة باجليون (Baglione) وبراغادينو (Bragadino) ، الذين واجهوا القوة العثمانية التى وصلت مائة الف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة ، من حفر للخنادق ، وزرع للالغام ولم ينتج أى تأثير على الحامية ، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة ، لصار

(١) دفتر الامور المهمة ، رقم ١٤ ، صفحة ٢٠٠ ، حكم رقم ٢٨٤ ، بارشيف الوثائق التابع لرئاسة الوزراء .

العثمانيين في خطر ، إلا أن المجاعة قامت بعملها ، واستسلمت المدينة فـسـ
ربيع الثاني ٩٧٩هـ / أغسطس ١٥٧١ . (١)

نقلت الدولة العثمانية بعد احتلالها لقبرص عددا كبيرا من سكان
الاناضول الذين لا يزال احفادهم مقيمين في الجزيرة ، ورغم ترحيب القبارصة
الاثوذكس بالحكم العثماني ، الذي انقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي
مارسته البندقية لعدة قرون ، إلا أن احتلال العثمانيين أشار الدول الكاثوليكية
(٢)

رسى الاسطول العثماني بعد انتهاء مهمته في اينانجنى (Lepant)
وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء ، حيث تتوقف ساحة المعارك
في مثل هذا الوقت من السنة ، والاستعداد للسنة المقبلة . (٣)

عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية
البندقية معاهدة في اوائل ٩٧٩هـ / الموافق مايو ١٥٧١م ، تعهدوا فيه القيام
بهجوم بحري ضد العثمانيين الذي يرجع لهم الفضل في احياء مجد الاسـلام
وتأسيس دولة اسلامية واسعة الارحاء تضم قسما كبيرا من اوربا ومعظم الحوض
الشرقى من البحر المتوسط والذين ما فتئو يهددون المسيحية في عقر دارها
لجهودهم المتواصلة الى اتمام السيطرة على الحوض الغربى من البحر المتوسط
حتى يسهل عليهم تطويق اوربا الغربية وانزال الضربة الحاسمة بهــ

1- A.G.Grant : A History of Europe from 1494-1610 P.222.

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٦-١٤٧ .

(٣) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٢ .

ويستردوا الاندلس. (١)

شارك فى الحلف كذلك بعض المدن الإيطالية ، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف ، اذ ارتبطت توسكانى (Tuscany) وجنوة ، وسافوى (Savoy) وبعض الإيطاليين فى الحلف المقدس ، بينما حافظت فرنسا على مفهوم علاقاتها الحسنة مع السلطان العثمانى كما كان شارل التاسع ملك فرنسا مشغولا بالحروب الاهلية فى بلاده ، لذلك لم يكن قادرا على تقديم اى مساعدة للعثمانيين .

حددت المعاهدة عدد السفن والبحارة والجنود والاموال التى يقدمها الاطراف المتعاهدة فى الحلف المقدس ، وعين دون جون (Don John) وهو ابن غير شرعى للامبراطور شارل الخامس ، قائدا لاسطول الحلف (٢) ، وذلك بعد ان اقترح اخاه فيليب الثانى على العصابة بتعيينه وذلك فور انتهاء دون جون من قمع ثورة المورييسكيين فى الجنوب ، غير ان الاخبار التى كانت ترد من مناطق الثورة لم تكن مشجعة والمقاومة العنيفة التى أبداهـا الاندلسيون يمكن أن تستمر فترة طويلة وقد يضطر دون جون الى البقاء فى الجنوب مما سيضيع الفرصة عليه وهنا أوعز فيليب الى أخيه فتح حوار مع الاندلسيين . (٣)

صارت مقومات احراز نصر مسيحي كما ينبغي ، فعزز دون جون نفسه باستقدام الاميرال الاسبانى سانتا كروز ، كما تقدمت البندقية بقائـد اسطولها بـبريجو (Barbarigo) ، وكان مجموع الاسطول المسيحي مقاربا لاسطول العثماني . (٤)

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

2- A.G.Grant : History of Europe from 1494-1610 P.222-223.

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

4- A.G.Grant : IBID 1494-1610 P.223.

سار دون جون الى البحر الادرياتيكي ،حتى وصل الى الجزء الضيق من خليج كورنث (Corinth) ،بالقرب من باتراس (Patras) ،وليسست ببعيدة عن ليبانتو والذي اسمها اعطى للمعركة (١).

كان من رأى قادة الاسطول الاسلامى الافادة من تحصين الخليج وعهدم الاشتباك بالاسطول الصليبي ،غير أن القاعد العام على باشا صمم على الخروج للمعركة معتمدا على تفوقه فى عدد سفنه ،ونظم على باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال الى الجنوب ،بحيث كانت ميمنتها تستند الى مرفأ ليبانتو ،وميسرتها فى عرض البحر ،وقد قسمها على باشا الى جناحين وقلب فكان هو فى القلب وسيروكو فى الجناح الايمن وبقي الجناح الايسر بقيادة قلج علي .

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الاسلامى ووضع جناحه الايمن بقيادة دوربا مقابل قلج على ،واسند قيادة جناحه الايسر الى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون جون نفسه لقيادة القلب ،وترك احتياطيا بقيادة سانت كروز .(٢)

احتدمت المعركة فى ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩هـ / ١٧ اكتوبر ١٥٧١م ،احاط الاسطول الاسلامى بالاسطول المسمى وأوغل العثمانيون بين سفن العدو ،ودارت معركة قاسية اظهر فيها الفريقان عنادا كبيرا ،غير أن المعركة انقلبت على العثمانيين ،وانتهت بتحطيم عدد كبير من اسطولهم ،واستطاع قلج على انقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التى غنمها ومن بينها السفينة التى تحمل علم البابا ،رجع بها لاستنبول ،التى استقبلته استقبال الفاتحين ،رغم الشعور بمرارة الهزيمة (٣) ،وبادر السلطان سليم

1- A.G.Grant : History of Europe from 1494-1610 P.223.

(٢) بسام العسلى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧-٣٨.

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

الشانى اشر ذلك بترفيه قلج على الى رتبة قائد البحرية العثمانية (قبودان باشا) ، مع الاستمرار فى منصبه كباى لرباى للجرائر . (١)

احتفلت القارة الاوروبية بنصر ليبانتو ، فـلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين (٢) فهلل الاوروبيون وكبروا لذلك الانتصار واقامت معالم الزينات فى كل مكان وافرطت فى التسبيح بـحمـد دون جون أمير الاساطيل المتحدة ، الذى احرز هذا الانتصار ، الى حد أن البابا لم يتورع عن القول اثناء الاحتفال فى كنيسة القديس بطرس ، بمناسبة هذا النصر (ان الانجيل قد عنى دون جون نفسه ، حين بشر بمجىء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحى وموؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحرى ، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر شغل ليبانت ، الا وتذكر معه دون جون المشار اليه على اعتبار انقد المسيحية من خطر كان يحيق بها . (٣)

ان نتيجة معركة ليبانتو ، كانت مخيبة لامال العثمانيين ، فقد زال خطر السيادة العثمانية فى البحر المتوسط ومع زوال الخطر ، زال الخوف الذى كان قويا ، للمحافظة على حلف مقدس دائم ، واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية .

ان اهمية ليبانتو كانت عظيمة واسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للموجود شانية على اقل تقدير فى البحر ، وازيح ذلك الخوف عن قلوب حكام ايطاليا ، واسانيا ، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لاوروبا ، اذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة فى كل من المجال الغربية لالبرى ، والمجال البحرى (٤) ، كما أن الانتصار المسيحى فى

(١) أرجمنت كوران : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

(٣) محمد جميل بيهب : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

ليبانتيو ١٥٧١ كان اشارة لتحضير حاسم فى ميزان القوة البحرية فى البحر المتوسط ، كما أنه أنهى عصرا من عصور العمليات البحرية الطموحة فى البحر المتوسط ، والتي تكاليفها باهظة . (١)

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة فى اضافة حلقة اخرى الى سلسلة امجادهم البحرية (٢) ، اذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية . (٣)

كانت معركة ليبانتيو فرصة مواتية لاطهار طمع فرنسا نحو المغرب الاسلامى ، اذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الاسطول العثمانى فى تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعا الى السلطان العثمانى (١٥٧٢م / ٩٨٠هـ) ، وذلك بواسطة سفيره باستانبول ، يتضمن طلب الترخيص لحكومته فى بسط نفوذها على الجزائر ، بدعوى الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين بها وان فرنسا مستعدة فى مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالى ، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسى ولم يهتم به ، ومع ذلك أوغلت فرنسا فى طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل الى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة ، حتى تحصلت على امتيازات خاصة ، فى السقالة واماكن اخرى على الساحل الجزائرى ، وتصريح من السلطان باقامة مراكز تجارية . (٤)

اقبل القسبودان باشا قلج على ، بهمة ونشاط متزايد ، على تجديد الاسطول العثمانى ، وتعويض ما فقد منه ، وما حل صيف ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م ، حتى قعد هيا مائتان وخمسون سفينة جديدة ، وخرج قلج على بأسطوله فى البحر وارتاعت

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.97 .

محمد البجراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمة الحديثة الدارة ، العدد الثانى ، السنة ١١ ، محرم ١٤٠٦هـ ، ص ٨١ .

(٢) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

(٣) محمد جميل بيهم : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

البندقية من هذا الاستعداد البحرى ، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية ، بشروط مخزية اذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص ، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكة (١) ، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التى تسبق فتنة الاحتضار البحرى ذلك لان الدولة انصرفت الى حروب متواصلة ، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة ، وبينها وبين فارس من جهة اخرى كما أنها انشغلت باخماد الثورات الداخلية المستمرة . (٢)

انهار الحلف المقدس بعد انسحاب البندقية ، واذا كان الحلف لم يستفد من انتصاره فى ليبرتو بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد العثمانيين ، فان الاسبان والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمال افريقيا (٣) ، وحسب هذا المخطط شرع فيليب الثانى فى اعداد حملة كبيرة ، وأسند قيادتها للامير دون جون النمساوى (٤) ، وكان فيليب الثانى قد تشجع لذلك بسبب لجوء السلطان الحفصى ابي العباس الثانى ، الذى حكم تونس ٩٤٢ - ١٠٣٥/١٥٧٢م الى فيليب الثانى ، وطلبه المساعدة فى اخماد الثورات القائمة ، الا أن شروط الاسبان كانت قاسية تقضى باعطاءهم امتيازات كبيرة ، وتتيح لهم سكن جميع انحاء تونس ، وتتنازل عن عناية وينزرت وحلق الواد (٥) ، فرفض أبو العباس الشروط لكن أخاه محمد بن الحسن قبلها (٦) بعد ذلك .

خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية فى رجب ٩٨١هـ / اكتوبر ١٥٧٣م ، على رأس اسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرون ألف مقاتل ، ونزل بقلعة حلق الواد التى كانت تحتلها اسبانيا ، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج اهلهابوادي تونس فارين بدينهم وشرفهم (٧) ، كما انسحب

- (١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٩ .
- (٢) محمد جميل بيهيم : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٢ .
- (٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .
- (٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ .
- (٥) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٧ .
- (٦) محمد خير فارس : نفس المرجع .
- (٧) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ، عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ .

قلج على بالاستعداد للتوجه الى تونس، لفتحها نهائيا ، واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها (١) كما صدرت نفس الاوامر والتوجيهات لبقية الاقاليم بتحضير الجنود والذخيرة ، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الاحجام ، كما اكد على المكلفين بالخدمة فى الاناضولى والروم يلى بالاشتراك فى السفر بحرا ، كما احضر المجدفين اللازمين للاسطول ، وانذر من لا يحضر من المجدفين بالفعل من مناصبهم على ان لا يسند اليهم فى المستقبل اى عمل (٢) وبينما كان الاسطول يتأهب ، اخذ حيدر باشا الحاكم العثمانى فى تونس والذى انسحب للقبيروان فى حشد المجاهدين من الاهالى الذين التفوا من حوله . (٣)

ابحر الاسطول العثمانى بقيادة سنان باشا وقلج على فى ٢٣ محرم ٩٨٢هـ / ١٤ مايو ١٥٧٤م ، فخرج من المضائق ونشر اشرعته فى البحر الابيض ، فقاموا بضرب ساحل كالابريا ، مسينا ، واستطاع العثمانيون ان يستولوا على سفينة مسيحية وبعد أن نقلوا الغنائم احرقوها ومن هناك قطعوا عرض البحر فى خمسة ايام (٤) ، فى هذا الوقت وصل الحاكم العثمانى فى تونس حيدر باشا ، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا ، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا ، كما وصل ثمة متطوعين من مصر (٥) .

بدأ القتال فى ربيع سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٤م ، ونجح العثمانيون فى الاستيلاء على حلق الواد ، بعد أن حوصر حصارا محكما (٦) ، وقامت قوات اخرى بمحاصرة مدينة تونس ، ففر الاسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصى محمد بن الحسن

-
- (١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٤٢١ .
 - (٢) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٨ .
 - (٣) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٥١ .
 - (٤) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٠ .
 - (٥) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٠ ،
 - عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٥٣ .
 - (٦) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥١ .

الى البستيون (١) التى بالغ الاسبان فى تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون فى الشمال الافريقى (٢) .

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم الى حصار البستيون ، وضيّق العثمانيون الخناق على أهله من كل ناحية وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى انه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من فى البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود ، فعرفه احد امراء الجنود فقال له : ما هذا أيها الوزير ؟ نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك ، فقال له سنان لا تحرمنى من الثواب .

وشدد سنان باشا فى حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه (٣) ، وقد شارك سنان باشا فى الحصار الاميرين السعديين عبد الملك واخيه أحمد اللذان كانا قد توجهوا الى استانبول طالبين المعونة لفتح المغرب لخلع ابن اخيهما المتوكل ، وقد ساعدهما الحظ فى أن يكونا أول من أبلغ السلطان نبأ النصر (٤) .

لجأ الحفصيون الى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتفترعات لملوك اسبانيا سعيا لاسترداد ملكهم ، واتخذهم الاسبان آلات حيطة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم (٥) وقضى سقوط تونس على الامال الاسبانية فى افريقيا وضعفت سيطرتها تدريجيا حتى اقتصرت على بعض الموانى مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو اقامة دولة اسبانية فى شمال افريقيا وضاع بين الرمال (٦) ، اذ كان من

(١) البستيون قلعة بناها الاسبان بجانب تونس .

(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب فى سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، ص ١٩٥ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠١ .

(٤) عبد الله كنون : النبوغ المغربى فى الادب العربى ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٥) محمد الهادى العامرى : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

المنتظر رد فعل اسباني قوى، ولكن فيليب الثانى خيب ظن الجميع، ويعود هذا الى شخصية فيليب التى تختلف عن شخصية والده. شارل الخامس، ذلك أن فيليب لم يمارس قط قيادة جيش ولم يظهر فى ساحة معركة، وكان ملكا اداريا يعانى آنذاك من ضائقة مالية وثورات فى ايطاليا والاراضى المنخفضة ومشاكل سياسية مع انكلترة وفرنسا، وكانت نظاره تتجه نحو عرشها، كل هذا يفسر انصراف فيليب الثانى عن البحر المتوسط وشمال افريقيا (١)، وكان بإمكان الدولة العثمانية انتهاز ذلك، الا أنها كانت قد حولت كل مجهوداتها نحو فارس، وفى المجر ضد آل هابسبرج، لكنها لم تتوج تلك الحروب بانتصارات ساحقة كما هو الحال فى السابق (٢)، الامر الذى جعل العثمانيون يفكرون فى مفاوضات للسلام وهى التى بدأت (٣)، على الرغم من التماس قلج على لدى الشريف السعدى فى مراکش عبد الملك، بتدخله لدى الباب العالى للحيلولة دون عقد الملح بين السلطنة العثمانية واسبانيا، وما يترتب على هذا الملح من آثار سلبية على النشاط الجهادى على طريق الملاحة عبر المضيق (٤).

مضت الدولة العثمانية فى مفاوضات السلام مع الحكومة الاسبانية فى ١٥٧٧م / ٩٨٥هـ، ثم تم ابرام هدنة رسمية بعد اربع سنوات تحددت بعد ثلاث سنوات مرة اخرى كانت خلالها الدولة تتسم بمنزلة سامية فى البحر المتوسط الشرقى، بالاضافة الى امتلاكها للقواعد الافريقية الشمالية الرئيسية مثل الجزائر وطرابلس وتونس التى ظلت فى حيازتها (٥).

يتبين من خلال ذلك بداية التحول فى سياسة الدولة بعد معركة ليبانو التى تعتبر نقطة البداية نحو تحولات كبيرة وتوقف الامتداد العثمانى بعد

(١) محمد خير فارس: مرجع سبق ذكره، ص ٥١.

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P. 167 .

3- IBID P. 98 .

(٤) ابراهيم شحاته حسن: مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٠.

5- Paul Coles : IBID P.P.98, 102.

ذلك ، اتجهت الدولة في سياستها الى المحافظة بقدر الامكان على ما بحوزتها
خاصة الاماكن المقدسة الإسلامية •

.....

كانت الحكومة الاسبانية قد سحبت قواتها من تونس وطرابلس والجزائر تدريجيا ، بعد استقرار العثمانيين في تونس سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م ، وذلك بسبب قيام المنازعات بين السلطتين العسكرية والمدنية حول ادارة تلك الجيوب بالاضافة الى صعوبة تمويل تلك المدن الساحلية ، نظرا لامتناع السكان عن التعاون مع الغزاة المسيحيين ، مما أدى الى اضطراب الحكومة الاسبانية الى نقل المؤن عبر البحر المتوسط ، فصارت تلك الحاميات عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة ، لذلك كان طلب فيليب الثانى توقيع الهدنة مع الباب العالي ، ولكن النزاع بين اسبانيا ونيابة الجزائر تجدد بعد ذلك (١) وذلك لخوف اسبانيا من أن تعود الجزائر مركزا لاسترداد الاندلس ، خاصة بعد تحول الدولة فى سياستها تجاه الشمال الافريقى .

اكتسب نجاح العثمانيين فى البقاء بتونس اهمية ، ذلك ان وجودهم صار شرعيا ، فقد ربطت ولاية تونس بالمركز مباشرة ، و طبق نفس النظام المعمول به فى الجزائر بعد معركة ليبانتو (٢) ، اذ قسمت تونس الى تقسيمات ادارية أسوة بالايالات العثمانية ، و طبق نظام التيمارات والزعامات والوقف (٣) ، كما انتفع العثمانيون فى نفس الوقت بالنظم المتبعة فى العهد السابق (٤) ، فظل النظام الجبائى السابق على ما كان عليه ، وذلك فى استخلاص الجباية بالمحلات العسكرية فى الصيف والشتاء ، وان كان قد جرى عليها بعض التغييرات ، وذلك فى اسماء فرق المحلات العسكرية ، فبعد أن كانت التشكيلات يطلق عليها الموحيدين او الزمازمة ، صارت تسمى الجوانب او الصباحية والمزارقة ، وألحقوا بالمحلة قاضيا حقيقيا كالحفصيين ، وكان هذا القاضى تعيينه الدولة من الاثراك (٥)

-
- (١) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦ - ٢٧ .
 (٢) عبد الرحمن تشانجى : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٩ .
 (٣) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٩ .
 (٤) صلاح العقاد : نفس المرجع ، ص ٣٣ .
 (٥) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٦ .

أرسل لها قادة، كما عين حسين أفندي أحد كبار العلماء، قاضيا للقضاة للعمل بالأحكام الشرعية، وأوفد لكل الجهات قضاة ونواب، وتحدت مرتبات الجنود والحكام والكتاب ووظائف الديوان .

وكان الانكشاريون في عهد حيدر باشا، شأنهم في كل مكان، يقومون بمشاغبات، وكان الباشا يسعى لإصلاحهم وتنظيمهم، ولما كان التونسيون لهم يالفلوا بعد الإدارة العثمانية، فإن كثيرا من المفسدين حرصا منهم على مكاسبهم الخاصة - يسعون لهم إلى صوفهم في العمل للاتحاد مع المسيحيين ولما عرف حيدر باشا بعض هؤلاء المفسدين استخدمهم ضد الآخرين منتهجا، بذلك سياسة اضعافهم وتصفيتهم (١) .

اصاب الفقر تونس، وصغرت كثيرا ،وبما أن التمرد استمر في هذا الاقليم ،فقد تعذر جباية الضرائب ،كما أن اعتداءات الاساطيل المسيحية قد زاد من صعوبة الجباية ،لذا فقد كانت الواردات عبارة عن واردات مدينتي تونســــــــــــــــــــــس .

ولما كان حيدر باشا يبذل جهوده للمزيد من التحسينات من بنسـرت وتونس، إلا أنه كان يفتقر للمال فكتب للباب العالي يعرض عليه ، أن ولاية تونس لم تسلم اليه وهى عامرة ، بل كانت محتاجة للاعمار ، وأنه عندما وصل لادارتها لم يجد بارة واحدة فى خزينتها ، وأنه بذل كل جهوده لاعمارها ولما كانت سواحل العدو قريبة فهو مضطر للانفاق على عدد كبير من الجنود وبما أن الجنود الكثيرين يحتاجون لمصاريف كبيرة ، فقد زادت نفقاتهم لذلك استرحم حيدر باشا من الباب العالي بالحاق القيروان والمنستير بتونس .

استجاب الباب العالي الى طلب حيدر باشا ، وأمر بإعطاء القيروان ،
والمستنير الى تونس ، على أن تقدر وارداتها ، وبعد تنزيل المصاريف
يرسل الباقي للاستانة . (١)

لم يال جهدا حاكم قفصة ذو النون في بث الفتنة والفساد في انحاء
تونس ، فانتشرت اقواله الداعية لاشارة العربان ، وعت الفوضى بينهم ، لذلك
باش حيدر باشا بنفسه ردع حاكم قفصة ، فقد وصلت له الاوامر من الباب العالي
بذلك ، كما ارسل له من طرابلس ألف جندي ومدافع عن طريق البر ، وشحنت
اسلحة ومدافع بسفينة خفيفة بقيادة حاكم المنستير ، وزحف الوالي السابق
رجب باشا ايضا على رأس اكثر من خمسمائة فارس ، وامام تلك القوات لم يستطع
ذو النون الصمود في قفصة ، فأنهزم مع بعض اعوانة ولجأوا الى قلعة
نفعه التي كان بها في السابق . (٢)

استولت القوات التابعة لحيدر باشا على قفصة ، وارسل محمود بك حاكم
فزان على رأس الف فارس في اثر ذي النون ، الذي تسلل من حصار نفعه أيضا
وانسحب الى جبال تبغة ، بعد ذلك قام حيدر باشا بالاستيلاء على عدة قلاع ومدن
وقتل الفا من المتمردين ورحل الباقون فعين الى تونس وجربة وطرابلس . (٣)

انفصلت طرابلس عن تونس في ١٨ ربيع الاول ٩٨٥هـ / ٨ يوليه ١٥٧٧ م ،
وصارت ولايتين وأوفد النشاقرجي حسن باشا من الديوان السامي معيناً لامارة
طرابلس وبقي حيدر باشا على تونس فقط ، اذ صدر اليه الامر الاتي :

يوءمر أمير أمراء تونس حيدر باشا :

" فصلت الان امارة امراء طرابلس الغرب ووجهت في ١٨ ربيع الاول
سنة ٩٨٥هـ الى تشاقرجي باشا المقام السامي الذي هو حسن باشا دام اقباله
وتقرر أن تبقى امارة امراء تونس لك بنفس المخصصات المذكورة في مرسوم

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٤ .

(٢) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .

(٣) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .

وتعنيك لها فوالسابق وعليك ان لا تغمضي طرفك عن حراسة طرابلس الغرب
والمحافظة عليها الى ان يعمل الممرمرا اليه لذلك الجانب " .

في ١٨ ربيع الاول سنة ٩٨٥ هـ. (١)

ان طرابلس الغرب بالنسبة الى تونس والجزائر بلاد فقيرة ،والاماكن
المسكونة منها هى الواحات والسفوح الشمالية للجبال والوديان ،وكانت
الارض التى تزرع وتحصد قليلة ،وكانت القواعد التى وضعتها الحكومة هناك
لجباية الضرائب هى نفس تلك فى الولايات الاخرى ، اذ يخرج الجنود مرتين
فى العام للجباية . (٢)

اشتكى اهالى تونس حيدر باشا ووجهت شكاوى كثيرة للاستانة ، الذى صدر امرها بنقل حيدر باشا الى طرابلس الغرب وتعيين رمضان باشا ، نائب قلج على فى الجزائر. (٣)

استقرت الامور فى تونس وصارت اكثر هدوءا وتنظيما ، اذ منحت الحرية
للزوايا الدينية ، والمدارس التونسية بناء على تعليمات الباب العالمى
بأن لا يتعرض احد لهذه الموءسسات وكان اشراف واعيان تونس قد بعثوا تقريراً
للاستانة يشنون فيها على خدمات رمضان باشا ، ويطلبون بعدم تعرض احد لتلك
الموءسسات .

ظل رمضان باشا فى منصبه بتونس التى يعرفها جيدا. عدة سنوات ، الا أنه فى الثامن من شهر رمضان سنة ١٩٨٧هـ الموافق أكتوبر ١٩٧٩م، عين حاكما للواء تلمسان ان تعيين رمضان باشا من منصب امير امراء تونى الى حاكما للواء ، يعـــد
(٥)
انتقاصا لمكانته ، الا أن ذلك من الموءكد انه مكلف باعمال تتعلق بفاس ومراكش

- | | | | |
|-----|-------------|------------------------------------|--------|
| (١) | عزیز سامح : | مرجع سبـــــــــــــــــــــق ذکرہ | ص ۸۹۔ |
| (٢) | عزیز سامح : | نفس المرجــــــــــــع | ص ۹۱۔ |
| (٣) | عزیز سامح : | نفس المرجــــــــــــع | ص ۲۷۰۔ |
| (٤) | عزیز سامح : | نفس المرجــــــــــــع | ص ۳۳۸۔ |
| (٥) | عزیز سامح : | نفس المرجــــــــــــع | ص ۲۷۰۔ |

قام حسن فنزيانو نائب قلع علي في الجزائر بالهجوم على الاراضى الاسبانية وجزر البليار، وبعد أن قضى حسن فنزيانو ثلاث سنوات ، استدعى الى استانبول وسافر اليها سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، وعين بدلا منه جعفر باشا وفى عهده بلغ وحدات الاسطول العثمانى فى الجزائر ستين قطعة منها خمس وثلاثون بارجة وعشرون مركب حربى .

استطاع جعفر باشا أن يخمد الثورات التى قامت فى انحاء الجزائر ثم ادخل بعض الاصلاحات فى الادارة العسكرية وانشأ قلعة الكيفان الموجودة شرق الجزائر . (١)

تولى امر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذى كان يضر الشر لعميه عبد الملك ابى مروان واحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثمانى يستنجدا به (٢) ، وما من شك فى أن انتصار العثمانيين فى تونس ضد الاسبان واستياب الامر فيها ، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربى ، لبسط نفوذهم على البلاد ، ولأن الاستيلاء على المغرب يوء من الحدود الغربية للدولة العثمانية ، ويوطاقدام العثمانيين فى مجموع الشمال الافريقى ، علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب فى قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان فى استانبول . (٣)

تابع المتوكل على الله خطة والده فى التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين ، حيث لم يعد لديه شك فى أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقا مع انجلترا ، التى كانت ترغب فى تنمية تجارتها مع المغرب للفوائد التى تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك ، زيادة

(١) عبد الرحمن الجيلاى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ١٠٠-١٠١ .

(٢) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٥ .

(٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ .

لادموند هوجان ، احد كبار تجار لندن ، قام ببيع كمية كبيرة من قنابل المدافع الى الحاكم السعدى عبد الملك ، وقد حمل الانجليز مقابل ذلك من المغاربة على كمية من نترات البوتاسيوم وكان هذا بمثابة تنازل هام ، لان حكام المغرب السعديين كانوا قد منعوا تصدير هذه المادة ، وقصروا استخدامها على قواتهم .

وكان عبد الملك فى حاجة الى قنابل المدافع ، خاصة وانه كان قد اشتبك قبل ذلك بقليل فى قتال ابن اخيه محمد المتوكل ، وقد سعى بعد ذلك القتال الى تدعيم مركزه فى مراكش وكان ما ابداه من استعداد لتقديم نترات البوتاسيوم الى النصارى انما يعبر عن تلك الحاجة ، ذلك ان المسلمين الحقيقيين كانوا يستنكرون مثل هذا العمل شأنهم فى ذلك المسيحيين الذين اذادوا بيع السلاح والذخيرة الى المسلمين (١) ، الجدير بالذكر أنه كان من اسباب توثيق العلاقات الانجليزية مع الملوك السعديين فى هذا الوقت تلك العداوة المشتركة من جانبهما تجاه اسبانيا ، ذلك ان الملكة اليزابيث والحكام السعديين قد تخوفوا من الروح الصليبية لفيليب الثانى وكانت نتيجة ذلك توثق العلاقات الودية بين الملكة البروتستنتية والملوك المسلمين . (٢)

وكان السلطان السعدى محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان (Sebastian) ، واتفق معه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب ، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب ، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربى . (٣)

انتقل المتوكل الى سبتة واقام بها أربعة شهور ، ومنها اتجه الى

(١) ب ج ٠ روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ، ص ٤٢ .

(٢) ب ج ٠ روجرز : نفس المرجع ، ص ٤٨ .

(٣) محمد عبدالسلام بن عبود : مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٩ .

طنجة فى انتظار دون سيستيان على رأس القوات العسكرية ،ومن هنا وجــــه المتوكل كتابا الى علماء المغرب يبرر فيه عمله ،الا أن العلماء استنكروا تصرفاته واجابوه بخطاب طويل وهام .

وبالتجاء المتوكل الى طنجة حيث الحامية البرتغالية خضعت معظم البلاد لعمه عبد الملك ،ولم يبق خارجا عنه غير منطقة الغرب التى تضم القصر الكبير واصيلا والعرائش ،والتي كانت تحت حكم عبدالكريم ابن تودة صهر المتوكل، الذى طلب النجدة من البرتغال مقدما لهم مدينة اصيلا التى سرعان ما وقع احتلالها من طرف البرتغال .(١)

ان تمادى ملك البرتغال دون سيستيان فى خطته الرامية الى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة ،جعل ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان منشغلا باحداث اوروبا الغربية ونزاعه مع بريطانيا ،يبعث الى قريبه دون سيستيان عدة سفارات يحذره من مغبة اعماله ومن السفارات التى وجهها فيليب الثانى الى لشبونة (Don Juan de Silba ثم Don Luis de Silba) كما بعث اليه سفيرا فوق العادة هو (Don Medina Sidonia) ،ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل ،لاصرار ملك البرتغال على اغتنام الفرصة للتدخل فى المغرب ،واستعادة نفوذ بلاده .(٢)

وفى اثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوشوب على المغرب ،واخضاعه بالكامل ،ارسل العثمانيون مدربين واسلحة متنوعة ،واشفعوا فى ذلك بغيلق عسكرى (٣) ،حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية فى الدفاع عن

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) عبدالكريم كريم : نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

(٣) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

عقيدتهم ،لأن المعركة هنا تهم الدولة العثمانية ،التي كانت تحمل غلى عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم ،بعيدة. عن المصالح المادية .

تقدم دون سبستيان ملك البرتغال مدفوعا بروح صليبية الى المغرب مستهدفا اخراج شعبه عن الاسلام (١) ، وذلك على رأس قوات جرارة ، وارتست جميع قطع الاسطول بمدينة اصيلا ، التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب ، وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم ٦ جمادى الاولى ٩٨٦هـ / الاثنين ١٢ يوليو ١٥٧٨م ، حيث عسكرت بضواحي مدينة اصيلا ، وعلاوة على قوات المتوكل ، اما المولى عبد الملك الذى كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة فى ١٨ ربيع الثانى ٩٨٦هـ / ٢٥ يونيو ١٥٧٨م ، فقد خرج من مراكش فى اليوم التالى وقصد مدينة سوس ، وذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية ثم عاد الى مراكش وخرج منها باتجاه الشمال حيث عسكر فى منطقة الخميس ثم تحرك ووصل تاسنا فسلا فالمعمورة ، ونصب بها بعض قطع المدفعية لكنه أدرك هنا بنزول الحملة فى اصيلا ، والتقى الجمعان قرب وادى المخازن ، وجرت معركة حاسمة فى تاريخ المغرب يوم الاثنين ٣٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨م عرفت بمعركة وادى المخازن (٢) ، ان معركة وادى المخازن التي تعد أعظم حدث عسكرى فى تاريخ المغرب الاسلامى ، لم تسل فيها دماء الاتراك الى جانب المغاربة فحسب ، بل دبرت فيها خطط عسكرية بالغة الدقة على يد القواد العثمانيين (٣) الذين استطاعوا الحاق الهزيمة بالقوات البرتغالية ، سقط بها آلاف القتلى وعلى رأسهم دون سبستيان ، والمتوكل (٤) ، وبذلك صار شمال افريقيا كله فى دائرية النفوذ العثمانى وحانت الفرصة الحقيقية لتحقيق ذلك لو قدر لها أن تكون فى ضمايرهم .

-
- (١) ب ج ٠ روجرز: مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .
 (٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .
 (٣) ابراهيم حركات : التأثير العثمانى فى المغرب ، اشغال الموءتمرات الاولى لتاريخ المغرب وحضارته ، ج٢ ، ص ١٣ .
 (٤) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧ ، عبد الله كنون: مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ٢٣٦ .

اعتلى احمد المنصور عرش المغرب بعد مقتل اخيه عبد الملك المعتصم فاعدم غالبية القواد الاندلسيين وذلك بعد ان اتضح وجود اتفاق بين المورسكيين والأتراك لقلب نظام الحكم وتأسيس دولة اندلسية تحت الحماية العثمانية . (١)

استقبل احمد المنصور عددا من السفراء الذين قدموا لتهنئته ، وكان من بين هؤلاء سفير البرتغال ، والوفد العثماني الذي قدم هديته الى المنصور عبارة عن سيف مرصع ، الا أن المنصور ، بدرت منه جفوة تجاه الوفد العثماني كان كافيا لقيام الحرب بين البلدين (٢) ، فحاول قلج علي وزير البحرية تحريض السلطان لارسال حملة الى المغرب ، لكن المنصور السعدى ارسل وفدا مغربيا لاسترضاء السلطان برئاسة احمد بن يحيى الهوزلي ، كما حمل رسالة خاصة الى باشا الجزائر حسن البندقي . (٣)

بدأت القوات الاسبانية فى اكتساح الاراضى البرتغالية ، ولم يستطع الامير البرتغالى دون انطونيو (Don Antonio) مقاومة تلك القوات الاسبانية ، التى ضمت اراضيه سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، عند ذلك اقتصرح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على اساس امداده باسطول حربى وقوات عسكرية فبعث برسالتين فى رجب ٩٨٨هـ / سبتمبر ١٥٨٠م ، قال فيها " ... فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتغال ، أو كاد وأنه جعل اهلها فى الاغلال والاصفاد ، وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية .. لظهار الالفة الازلية أن تتخذ عهدا ونوءد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحوض المعظمة فاذا تم هذا الشأن .. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها انشاء الله بلاد الاندلس ... "

(١) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

(٢) ابراهيم حركات : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٣ ، ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٦ .

كما قبل فى نفس الوقت السلطان العثمانى زواج المنصور من احدى بناته
 " عهدنا الى امير الامراء .. أن يصهر لكم على احدى بناتنا .. اسعافاً
 لغرضك المنيف .. " غير أن المنصور تردد فى جوابه . (١)

عقدت الدولة العثمانية نتيجة للتطور للاحداث فى الاناضول وفارس واوروبا
 هدنة فى ١٨ ذو الحجة ٩٨٨هـ / ٢٥ يناير ١٥٨١م مع اسبانيا (٢) وحتى تهيب
 الدولة نفسها لفرض نفوذها على المغرب .

كان قلق على بعد استقرار الدولة العثمانية فى تونس بدأت انظاره
 تتطلع الى المغرب (٣)، واخذ يعمل فى توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب
 الاسلامى ، لضمه الى الدولة العثمانية (٤) خاصة بعد تذبذب موقف المولى
 احمد المنصور الاخير من الدولة .

صدرت الاوامر الى قلع على قائد الاسطول العثمانى بالتوجه الى المغرب
 لضمه للدولة العثمانية ، فوصل قلع على الى الجزائر فى جمادى الثانية ٩٨٩هـ /
 يونية ١٥٨١م بينما كان المنصور يربط بقواته عند نهر تانسيفت ، وكانت
 القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثمانى ، اذ جهز المنصور جنوده
 وتقدم بها حتى حدود بلاده ، كما سد مداخل مملكته ، وحصن الشفور ، والى جانب
 تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لاستانبول ، وذلك بعد أن توصل الى
 شبه اتفاق عسكرى مع الملك الاسبانى الذى انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة
 البرتغالية لشبونة فى ٢٧ جمادى الثانى ٩٨٩هـ / ٣١ يوليو ١٥٨١م ، على اساس
 تقديم المساعدة العسكرية للمغرب ، لمواجهة التدخل العثمانى ، مقابل التنازل عن
 مدينة العرائش وامتيازات اخرى وامام تطور الاحداث لم يجد السلطان العثمانى
 بداً من قبول الامر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بان امر قلع على (٥) ،

- (١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١١١-١١٢ .
- (٢) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.98
- (٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .
- (٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع ، ص ١٠١ .
- (٥) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

وجعفر باشا نائب قلج على في الجزائر ، بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال الى الشرق ، حيث اضطرت الامور بالحجاز فتخلي قلج على عن هدفه الطموح فأسس استرداد الاندلس ، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الاسلامي . (١)

شجع المولى احمد المنصور السعدى التجارة مع انجلترا وذلك لحاجته الى انواع جديدة من الاخشاب المتوفرة في اوربا لبناء اسطول جديد لمواجهة العثمانيين ، غير أن انجلترا كانت حريصة على الاحتفاظ بتلك الانواع من الاخشاب لبناء اسطولها ، ومع ذلك فانه عندما قدم احد التجار لانجلترا واحمد المتعاملين مع المغرب ويدعى جون سيمبكتس ، ضامنا للملكة اليزابيث في جمادى الاولى ٩٨٩هـ / يونية ١٥٨١م ، بأنه سوف يستبدل الاخشاب بنترات البوتاسيوم اعطته تصريحاً بقطع ستمائة طن من النوع المطلوب من الاخشاب في كل من سسكسي وهامبشير لتصديرها الى المغرب . (٢)

كان لتراجع الدولة العثمانية عن مشروعها في المغرب وشبه الجزيرة اليبيرية ، والاتفاق القائم بين ملك اسبانيا فيليب الثانى والمولى السعدى المنصور كان لذلك اثره في حياة الموريسكيين الذين فقدوا كل الامل لتلقى المساعدات ، فقامت الحكومة الاسبانية بمحاولاتها نحو فصل الموريسكيين عن حلفائهم في شمال افريقيا ، وذلك بمنعهم من الدخول الى المناطق البحرية في الاندلس وفالينسيا ، واعلنت الحكومة الاسبانية رسمياً " بأنه ينبغي حصر جميع المورسكيين ، الذين لا يخفون عداوتهم عند الحكومة وحيث ان المورسكيين قد تجردوا في انسانيتهم بسبب المعاملة القاسية لذلك تناقص عددهم ، وتحولوا الى الجريمة وقطع الطريق كاسلوب لحياتهم ... " (٣)

جهز الوالى العثماني في الجزائر اسطوله في سنة ١٥٨٢م/ ٩٩٠هـ ، لمحاربة

(١) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

(٢) بهج . روجرز : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

اسبانيا فوق ارضها ، فنزل المجاهدون المسلمون فى برثلونه ، فأعملوا فيها تدميرا ، ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكنارى التى تحتلها اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها ولم يكن الاسطول العثمانى يذهب للاندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشاتهم ، بل كان يهدف بالدرجة الاولى انقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون اثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم احيانا . (١)

ازدادت تطاول الانكشافية فى الجزائر على الاهالى ، فى الوقت الذى انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحرى على نطاق واسع (٢) ، لذلك حضر حسم فنزيانو من نشاطه البحرى ، الذى بادر الى عودته الى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود ، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية ، وفرض طاعته على الرعية وذلك فى ربيع الثانى سنة ٩٩١هـ / ابريل ١٥٨٣م ولم يعارض الباب العالى فى توليه ، لما كان له من الفضل فى حسم الخلاف واطفاء نار الفتنة واستتباب الامن بالجزائر .

بأمر حسن فنزيانو تسيير الادارة بما عهد منه من نشاط وحزم ، فانه لم يترك قيادة الاسطول العثمانى بالجزائر لغيره ، وكثرت فى ايامه المقانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس ، وبما كان يستولى عليه من الاسرى ومغانم البلاد فى غزواته .

وفى ٩٩٢هـ / ١٥٩٤م أبحر حسن فنزيانو باسطوله على شغل بلنسية وحمل اعدادا كبيرة من الموريسكيين ، اذ أنقذهم من اضطهاد الاسبان ، كما استطاع فى السنة التالية انقاذ جميع سكان كالوسا ، اذ حملهم الى الجزائر وفى السنة بعدها توغل مراد رابى فى المحيط الاطلسى فأغار على جزر الكنارى

(١) بسام العسيلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣ .

(٢) محمد خير فارس مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩ .

وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر ،وبقى حـــــــســــن قنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر الى ان استدعاه السلطان الى استانبول ليتولى منصب امارة البحر " قيودان دوريا " (١) وذلك بعد وفاة قلعج على سنة ٩٩٥هـ / ١٥٨٧م وبوفاة قلعج على انتهى في الجزائر نظام البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكا واسعى السلطة والنفوذ واستعفى عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس (٢) ،ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني تخوف السلطان العثماني في ان يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال .

وكان الباشا موظف ترسله الاستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند اساسي او سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد (٣) ويكون الباشا في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلا للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة استانبول . (٤)

كانت احداث ما بعد ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م في النيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطة فيها على حساب سلطة الباشا الا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية ،مــــع امساك السلطنة العثمانية بسلطة اصدار القرامانات ،قد ضمنا تحقيق الاهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الضريبة سنويا والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلا أعلى للسلطان في حكم النياابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية . (٥)

(١) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٠ .

(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(٤) محمد الهادي العامري : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .

(٥) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

كان ذلك هو التحول الذى جرى فى الدولة نحو الشمال الإفريقى ، اشر
 معركة ليبانتو سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧١م ، فبعد أن كان الشمال الإفريقى تحت
 مسوؤلية البيلربك الموجود فى الجزائر ، انقسمت المنطقة الى ثلاث ولايات
 هى طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات
 العثمانية الاخرى ، مع الابقاء على خطة استرداد الاندلس وانقاذ المسلمين
 فيها ، اذا ما سحت الفرصة لذلك ، وقد ظهر ذلك فيما سبق ، الا أن موقف
 السعديين من جهة وتصرف بعض الانكشاريين فى الدولة من جهة اخرى ، جعل الدولة
 العثمانية تصرف نظرها عن تلك الخطة الطموحة .

.....

الكتاب

ظهرت نزعة الجهاد الاسلامى واضحة جلية فى كل الخطوات التى قام بها العثمانيون منذ بداية تكوينهم ، وخاصة فى جهادهم ضد المسيحيين وفى دفاعهم عن بلاد المسلمين ، من هذا المنطلق كان زحف القبائل التركية التى اعتنقت الاسلام غربا .

قامت تلك القبائل التركية باحتلال المقاطعات الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية غربا ، وسجلت انتصارات كبيرة على المسيحيين ، من أهمها معركة ملاذكرد ، عند ذلك تمكنت القبائل التركية المسلمة من تثبيت أقدامها فى بلاد آسيا الصغرى بعد أن دمرت تحصينات الحدود البيزنطية .

تطورت الأوضاع السياسية فى المشرق الاسلامى بعد الغزو المغولى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م ، فهاجرت جماعات تركية نحو الغرب ، وتركزت هجرة تلك القبائل على الحدود البيزنطية فى مناطق الأناضول الغربية حيث السهول الخصبة ، والمراعى الغنية .

ازداد تجمع المسلمين الاثراك على مناطق الحدود الاسلامية ، وحث زعماء تلك المناطق رجالهم على الغزو ضد الممالك المسيحية ، على أن ذلك الجهاد اسلامى ، وتجمع هؤلاء الرجال المحاربون حول زعماء الجهاد الذين نظموا هذه الجماعات ، وصارت الغارات الاسلامية على الاقاليم الغربية المسيحية اكثر ضراوة وشدة ، وتأسست بعد ذلك امارات اسلامية مستقلة فى غرب الأناضول

لم تشأ تلك الجماعات التركية المسلمة ، أن تتجه بغزواتها نحو المشرق الاسلامى وذلك نظرا لوجود الممالك الاسلامية القديمة والقائمة بحماية المسلمين وأراضيهم ، لذلك فان الوضع الطبيعى لمد نفوذهم هو الغرب المسيحى لان ذلك هو الجهاد الحق ونشر لواء الاسلام فوق أراضى لم يسبق الوصول اليها .

كان من ضمن تلك القبائل التركية والتى تزعمت الجهاد الاسلامى قبيلة

قباى اسلاف العثمانيين وظهر اطرغل بن سليمان شاه ،ومن بعده ابنه عثمان ،والذى برز كأمير فى شمال غرب الاناضول ،يرأس قوة تزعمت الجهاد ضد بيزنطة فى تلك المنطقة .

وفر الغازى عثمان لنفسه قاعدة ،ينطلق منها نحو الغرب ،وكانت تلك القاعدة مدينة بنى شهر ،القريبة من بروسة ونيقية أهم المدن فى غرب الاناضول ،ومن تلك القاعدة ارسل عثمان حملاته على المدن المجاورة واستولى على عدد من حصونها ،واستمرت تلك الحملات حتى اقترب عثمان من بروسة ونيقية ،عند ذلك شيد قلعتين بجوارهما لتمكنه من فرض الحصار .

لما بعث الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا ، استطاع الغازى عثمان ايقافه وهزيمته فى بافيون (Baphaeon) وذاعت شهرة عثمان فى الأفاق واخذت بعض الامارات الاخرى اسمه وصاروا معروفين بالعثمانيين وطد عثمان أمور امارته الداخلية ونظم شؤونها ،ثم عزم على فتح بروسة فأرسل ابنه أورخان الذى تمكن منها ،وجعلها عاصمة جديدة لدولته الناشئة وكانت تلك خطوة هامة حققها العثمانيون الى الامام ،اذ تحولت املاكهم من امارة حدود الى دولة اسلامية .

سار اورخان على نهج اجداده القويم ،فى الجهاد فى سبيل الله والتوسع نحو الغرب حيث الاقاليم المسيحية ،فأعلن الحرب على بلاد الروم اذ ارسل جيشا فتح ازميد ثم تقدم اورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة ،ثم قام بعمليات عسكرية هامة منها الاستيلاء على ازنك (İznik) ،وعلى بعض الاراضى البيزنطية حتى صاروا على مقربة من أوروبا .

ومن اقدار الله العظمى أن الاتراك العثمانيين اعتنقوا الاسلام على المذهب السنى ،ويروى المؤرخون فى ذلك قصة معروفة متكررة ولكننا

تضيف أن المذهب السنن الوهيين هو الذى صااف القبول لى الاتراك ،ومن ثم لم يستهوهف المذهب الشيعى على الرغم من اختراق القبائل التركىة مناطق الشيعة فى زحفها من وسط آسيا الى غربها ،وذلك امر على جانب كبر من الاهمية فى تاريخ الاسلام الحديث .

لم يتردد العثمانيون فى العبور الى القارة الاوروبية عندمما سحت لهم الفرمة ،طالما أن ذلك يحقق اهدافهم فى الامتداد نحو الغرب لانقاذ المسلمين فى الاندلس والتى اخذت املاكهم تتساقط فى ايى المسيحيين ويستمر الجهاد ضدهم لتبقى كلمة الاسلام هى العليا ،ولان دولة الاسلام لابد أن تكون فى حالة جهاد دائم .

تحرك العثمانيون داخل القارة الاوروبية كفاتحين وداعين للاسلام ففتحوا الساحل الاوروبى من بحر مرمة ،وهاجموا تراس (Trace) ، وموريا (Morea) ، ثم زحفوا على بلاد الرومللى فى جنوب شرق أوروبا وكان تأسيسهم قاعدة لهم فى جزيرة غالليپولى (Gallipoli) حدث له ما بعده ،ليزحفوا منها نحو قلب أوروبا ،ثم نقل سليمان بن أورخان مسلمى الاناضول الى أوروبا لاسيما البىو منهم ،ليكونوا داعين للاسلام وسفراء له هناك ،مما يوفر للعثمانيين الكثير من الجهد ،وذلك بانضمام المسيحيين الذين يعتنقون الاسلام عن اقتناع .

ان الاجل لم يمهل اورخان ليبلغ امنيته ،لكنه اوجد قاعدة للتوسع فى أوروبا وجهاز الدولة بوسائل للقيام بمزيد من الفتوح ،وهو الذى اوجد يكى جرى (الانكشارية) ورباهم تربية اسلامية اهلتهم لاكتساح شرق أوروبا ،وخلفه ابنه السلطان مراد ،الذى قيض له أن يقود الجيوش العثمانية صوب نهر الدانوب ،ففى ٧٦٣هـ / ١٣٦١م سقطت أدرنة (Adrianople) ، شانى مينة فى الامبراطورية البيزنطية بعد القسطنطية ،ثم قليوبوليس وبذلك تحولت مقدونيا وتراقيا - او الرومىللى بالمصطلح الحديث - الى

أراضى عثمانية •

اعترف الامبراطور البيزنطى سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٣م بالامتلاكات العثمانية ومن تلك المواقع الممتازة انتشر العثمانيون داخل الفراغ الذى تركته السلطة المنهارة فى الجنوب الشرقى من اوروبا وبمجرد التوغل غربا فى وسط المجتمع الاوروبى صار العثمانيون مبعث خوف وقلق لاوروبا المسيحية ومن ثم اخذت المسألة الشرقية طابعا جديدا ، وساهم تقدم الاسلحة العثمانية والتي لم تجد مقاومة فى خلق روح التقدم العثمانى ، مقابل روح التشاؤم التى كانت من سمات سيكولوجية العصر لدى الاوروبيين •

لم يرق للصليبيين ذلك التقدم العثمانى فى اوروبا فجمعوا الجموع لحملة صليبية دعا اليها البابا أوربانوس وجرى اللقاء الاول بين العثمانيين ومسيحي الشمال على ضفاف نهر مارتزا بالقرب من أدرنه ، بعد أن تقدم ملك المجر وبولنده وأمراء البوسنة والصرب وولاشيا للقضاء على الوجود العثمانى فى اوروبا ، الا أن العثمانيين اوقعوا بهذا الحلف البلقانى المسيحي هزيمة منكرة ، ضم العثمانيون اثرها جنوب جبال البلقان وعرفت اوروبا أن الاسلام قوة ثابتة الدعائم فى شرق اوروبا فى مطلع العصر الحديث •

اخذ السلطان مراد فى تنظيم الاقاليم والبلدان المفتوحة ، كما هو شأن الفاتح الحكيم الذى لا يكتفى بفتح البلاد وكان ينهج فى ذلك منوال اجداده ويستريح ويرتب جيوشه ويكمل ما نقص منها ، ولما عظم شأن الدولة خشيها مجاوروها ، فأرسلت جمهورية راجوزه (Raguse) - على شاطئ البحر الادرياتيكي وفى سنة ٨٧٠هـ ١٤٦٥م الى السلطان مراد رسلا امضوا معه معاهدة ودبة وتجارية ، تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكة ذهب ، وهذه اول معاهدة امضيت بين العثمانيين والدول المسيحية . (١)

افراد الحملة بمائة الف مقاتل وكان التفاهل يغمر قلوب الصليبيين حتى خيل اليهم بأنهم سوف ينهون الدولة العثمانية ويستولوا على بلاد فارس وسوريا ويخلصوا بيت المقدس من ايدي المسلمين .

اتخذت الحملة معسكرها تحت اسوار مدينة نيقوبولس ، بعد استيلائها على بضعة مدن تابعة للعثمانيين في جهات الدانوب وتشجع القادة المسيحيون في بداية الامر بالانتصارات التي احرزوها ، ولم يهتموا لنداء التحذيرات من الخطر العثماني العسكري الذي بات قريب منهم ، بل انهم ضحكوا من فرسان الاستطلاع الذين اخبروهم بأن السلطان بايزيد الاول صار على مسيرة ساعات من نيقوبولس والاغرب من ذلك انه اتهم احد الجنرالات الفرنسيين حاملي الانباء بتلفيق الاخبار ، وهدد ببترا اذان مروجيها .

في هذا الوقت هجم السلطان بايزيد على الجموع المسيحية وقتلهم قتالا عنيفا في ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٩٨هـ / ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦م .

شدد بعد ذلك السلطان بايزيد حصاره على مدينة القسطنطينية الا أنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها ، وذلك بسبب اقتراب الخطر المفقولى من آسيا الصغرى ، اذ ان الامور مرهونة بأوقاتها ، فاكثف بابرهم الصلح بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنويا ، وأن يسمح للمسلمين ببناء جامعا لاقامة شعائر الدين الحنيف .

شاهد القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر ميلادى بدء تكوين العثمانيين كأمة ودولة ، فاذا كان عثمان وأورخان قد وضعوا اساس الامة والدولة العثمانية فلا شك أن مراد وبايزيد قد جعلوا من هذه الدولة نواة لدولة مترامية الاطراف ، اذ وجهوا كل جهدهم لنشر لواء الاسلام وفتح أوروبا من شرقها الى غربها ، ولانقاذ المسلمين فى الاندلس وتمكنوا

بالفعل في اخذ بلاد البلقان وبلاد المجر والكثير من بلاد النمسا ،وجنوب روسيا حول البحر الاسود ،ولولا نعمة الله التي احلت على المسلمين من جديد ،متقزمة في شخصية المغرب تيمور لنك سليل جنكيز خان وهولاكو ،على رأس جيوش من قبائل المغول ،وحارب تيمور لنك السلطان بايزيد ،وانتصر عليه عام ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م ،ولولا ما عقب ذلك من فترة اضطراب وتحولات فسي احياء المقاومة ضد العثمانيين مما اعاقهم في التقدم وأخل ببرنامج فتوحاتهم وجهادهم مدة خمسين سنة ،لبلغت الدولة العثمانية مبلغا عظيما من فتوحاتها ولتمكنت من الوصول الى هدفها لانقاذ المسلمين في الاندلس قبل فوات الاوان ،وذلك قبل أن توحد أوروبا جهودها وقبل أن تستعد للمقاومة المستميتة .

قضى السلطان محمد جبلى الفارزى مدة حكمه في اعادة وحدة البلاد التي انفرط عقدها بعد هجوم تيمور لنك على آسيا الصغرى ،كما أدخل اصلاحات للجيش اذ أدرك السلطان محمد أنه لا بقاء لدولته الا بالتفوق الحربى فقد سبق وأن حقق اجداده امجادا عسكرية يفخر بها الاسلام ومن ثم كان الجيش بوجه خاص أهم ما عنوا به وقد بقى السلاطين يملكون الجيش الشابت النظامى الوحيد الذى له اعتبار فى اوربا وبفضل الجيش استطاع العثمانيون ان يكونوا قوة رهيبه فى أعين رعاياهم وجيرانهم ،كما كانت منشآت السلاطين العسكرية فى المدفعية والهندسة العسكرية وشؤون الامدادات والتمويل فوق مستوى عصرهم ،كما لم يكن فى وسع اى دولة من دول غرب اوربا تقاوم فرق السباهية ويكى جرى (الانكشارية) ،واستطاع السلطان محمد جبلى أن يستعيد اجزاء كبيرة من الاناضول ،كما تمكن من تقويم جيشه واعادة رهبته وقوته .

تهيا الجو للسلطان مراد الثانى ٨٢٥هـ - ٨٥٥هـ ١٤٢١-١٤٥١م ،أن يستأنف عمليات الجهاد والفتح على الجهات الأوروبية ،ففتح سلانيك ،ثم اتجه لفتح ما بقى من بلاد المرب والبانبا والفلاخ قبل أن يعيد الكرة

على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير ، فوجه اهتمامه
أولا الى بلاد البانيا فأطاعه سكان يانيه (Jarina) وسكان اغلب
باقى البلاد ، وفى ٨٣٧هـ إلى ١٤٣٣م أعترف امير الفلاح بسيادة الباب العالى
عليه تخلصا من الحرب ، ثم فتح السلطان مراد مدينة سمندرية بالقرب من
مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب .

هرع الامبراطور البيزنطى جون الشامن ٨٢٩-٩٥٢هـ / ١٤٢٥-١٤٤٨م ، للغرب
طالب المساعدات العسكرية عن طريق البابوية ، وكان البابا آنــــــذاك
يوجينيوس الرابع الذى رأى الفرصة مناسبة لمساومة الامبراطور على كره
منه أن يوافق على ذلك فى مؤتمر فلورنس سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م ، واعتبرت
الكنيسة الارثوذكسية خطوة الامبراطور تلك خيانة عظمى بالنسبة لمذاهبها
وعلى كل فقد أعلن البابا دعوة لتشكيل حملة صليبية ، وأرسل نائبه
الكاردينال جوليان بفرقة عسكرية فرنسية للمجر للاسهام فى المعركة
ضد العثمانيين مع كل من الصرب فى عهد جورج برنكوفيتش (George
Brankovich) وملك المجر والقائد المجرى والاسقف البولندى ، وتمكنت
هذه الحملة من الانتصار على مراد الثانى فى بداية الامر سنة ٨٤٤هـ ١٤٤٣م
الا ان السلطان مراد لم يلبث أن كر على الصليبيين واستطاع أن يهزمهم
فى موقعة فارنا سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، ولم تعد هناك عقبات امام العثمانيين
بعد موقعة فارنا فى الجهات البلقانية (١) .

كان السلطان محمد الثانى حصيفا فى تفكيره وتقديره عندما ارتقى
عرش الدولة العثمانية عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م اذ أدرك بأن الوقت حان للقضاء
نهائيا على الامبراطورية البيزنطية ، وأن دولته لابد وأن ترث الدولة
البيزنطية فى ممتلكاتها ، اذ أن عداء أوروبا لبيزنطة ، قد اختلف ، ففى
السابق كانت أوروبا الشرقية أرثوذكسية ، والآن تدعم فيها الاسلام .

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٤٨ .

تمكنت قوات السلطان محمد الثانى من اقتحام حصون القسطنطينية بعد حصار دام ٥٤ يوما ٢٣ جماد أول - نهاية جماد ثان سنة ٨٥٨هـ / ١٦ أبريل ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م ، محطمة بذلك وهما كبيرا سيطر على الازدهان طوال العمور الوسطى ألا وهو استحالة سقوطها .

وبذلك حرمت أوروبا من قاعدة كان وجودها يشكل قوة دفاعية فعالة اذ كانت القسطنطينية تعتبر رمزا للمقاومة المسيحية وان سقوطها كان تحذيرا للدول الأوروبية بأن هناك مظهرا جديدا من الجهاد فى العالم الاسلامى ، كما أن الاستيلاء على هذا المركز التجارى الادارى العسكرى العظيم سهل السيطرة والدفاع بالنسبة لفتوحات السلطان ، بينما شكل التحكم فى الممرات المائية بين بحر البلقان والبحر المتوسط قبضة قوية خانقصة على التجارة الأوروبية مع البلدان الساحلية الواقعة فى الشمال والشرق وفرت للسلطان دخلا كبيرا ومتجددا . لا يستهان به (١) ، ولكن اهم من ذلك بالنسبة لموضوعنا هو أن فتح القسطنطينية اعطى زعامة العالم الاسلامى للعثمانيين وأكسبهم الثقة فى النفس بالنسبة للمشروعات الطموحة وممن أهمها انقاذ الاندلس .

حول العثمانيون كنيسة ابيا صوفيا الشهيرة الى مسجد ، ووجدت عاصمة الكنيسة الشرقية نفسها تحت رحمة العثمانيين المسلمين ، وربما لم يكن سقوط المدينة يعنى الكثير بالنسبة للكنيسة الغربية فى روما لان الكنيستين انفصلتا عن بعضهما رسميا قبل سقوط القسطنطينية بأربعة قرون ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ ، الا أن نهوض العثمانيين على هذه الصورة بعد الهزيمة الماحقة التى ألحقها بهم تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م هو الذى جعل العرب يدب فى الشمال والغرب وسرت خشية رهيبة فيما بعد من أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو أوروبا فيستولون على ايطاليا ثم الاندلس كما استولوا على اليونان خاصة بعد أن تدفق اللاجئين للدولة ، مما أدى الى سواد الخوف والقنوط فى كل مكان من العالم المسيحى وكان استمــــرار

الفتوحات العثمانية في أوروبا شيئا واردا ومضمون في ذلك الوقت وذلك بزوال القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التي تمكن العالم المسيحي من استخدامها ضد الاتراك العثمانيين .

ومن هذا التاريخ يمكن القول بأن عصر تحول الدولة الى دولة برية وبحرية وذلك ببدا عصر البحرية العثمانية الزاهر ، ورثوا اعظم ترسانات بحرية وهى دور صناعة السفن فى القسطنطينية بالاضافة الى أن التقدم العثمانى فى البلقان قد وفر أهم المواد اللازمة لصناعة السفن ، كما أن الدولة أخذت تسيطر على اقاليم هى أهم النماذج الجغرافية للبيئة البحرية ، مما جعل جهود الدولة لانقاذ الاندلس واسترداده أمرا واردا .

اعترف العالم الاسلامى على اثر فتح القسطنطينية بالسلطان محمد الثانى قائدا للجهاد الاسلامى ضد المسيحية ، وتفوق على جميع الحكام المسلمين كما اعتبر نفسه حامى العالم الاسلامى وقد ورد ذلك فى رسالة بعث بها الى سلطان المماليك قائلا له " .. ان مسئوليتك أن تحفظ طرق الحج مفتوحة للمسلمين وواجبنا هو مدها بالغزاة الفاتحين ... " (١) ، ثم اخذ الفاتح يؤكد صلات القربى بين الابطاطة والاتراك القدامى فى اواسط آسييا مشجعا تدوين الالقاب القديمة التى توضح أن أسرته كانت تنحدر من سلالة (Oguz Har) ، منافسا بذلك طموحات غريمه الرئيسى أوزون حسن ، لكل ذلك اعتبر محمد الفاتح نفسه وريثا لامبراطورية الرومانية الشرقية وللدولة عالمية شاسعة المساحات واخذ العلماء البيزنطيين المحيطين به يشجعون لديه الافكار البراقة للسيطرة على العالم . (٢)

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ١٠٣ .

2- Stanford Shaw : History of the Ottoman Empire P.P. 60-61.

صارت القسطنطينية بعد الفتح الاسلامى عاصمة الدولة العثمانية وتحول وجهها النصرانى وطابعها البيزنطى الى طابع اسلامى جميل ، وتحولت الكنائس الى مساجد وساد الامن وانتشر العدل وهاجر المسلمون وعلماءهم اليها وصارت المدينة ملاذ العالم ومأمن الخائف ، ولجأ اليها بعض من بلاد الاندلس ، الذين أوضحوا للسلطان العثمانى المآسى الكبرى التى يعانونها من قبل الحكام المسيحيين فى شبه الجزيرة الاسبانية .

بدأ الكيان العثمانى يتبلور فى ذهن محمد الفاتح بعد أن استقرت الاحوال فى العاصمة الجديدة القسطنطينية وقرر بأنه لابد وأن تتمركز دولته فى كل من الاناضول والبلقان وهى نفس الاقاليم التى تركزت فيها الامبراطورية البيزنطية وبناء على تخطيط محمد الثانى للكيان العثمانى نجد أنه حينما شرع فى التنفيذ كان واضعا نصب عينيه اتمام السيطرة على الاناضول ودعم النفوذ العثمانى فى البلقان لتكون منطلقا له نحو وسط اوربا ليتسنى له التقدم للاندلس لانقاذ المسلمين من نير التسلط المسيحى .

تفاقت المخاوف المسيحية مع زيادة القوة العثمانية وكان من الطبيعى أن تعمل بابوية روما على حث اوربا على قتال العثمانيين ، اذ دعى البابا لحرب مقدسة ضدهم ، ضمن محاولة لانتزاع بيت المقدس ، ووجدت دعوة البابا استجابة من المجر وصربيا حيث سبق لهاتين الدولتين استئناف الحرب ضد العثمانيين ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م ، وبالرغم من أن هذه الحملة تمكنت من تحقيق انتصار على العثمانيين فى معركة بلغراد ٨٦١هـ / ١٤٥٦م فى فكهم الحصار العثمانى عنها ، الا أن الحملة جاءت الى نهايتها عند وفاة ملك صربيا وبذلك تمهد الطريق امام العثمانيين من اجل القضاء على المقاومة السلافية الجنوبية بشكل حاسم ، حيث جعلت صربيا ولاية عثمانية سنة ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م وكذلك بوسنيا سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م ، عند ذلك أبدى البابا بايوس (Pius) الثانى رغبته فى قيادة الحملة شخصيا واعلن

الحملة رسميا في ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م وراح دعائها من الفرنسيين والدومينيكان يكرسون الجهود لتحريك الجماهير عاطفيا ،ولبت النداء مجموعات من الفرسان تقاطرت على الموانئ الإيطالية ،الا أنها لم تجد وسائل النقل البحري ،اما الباب فقد التحق فعلا بالجموع في انكونا الا أنه توفي بعد شهرين من وصوله اليها سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م ففرقت الحشود .(١)

شدد محمد الفاتح هجومه على ألبانيا وأثينا وسانتو وصارت معظم شبه جزيرة البلقان تحت الحكم العثماني ولم يبق الا جيوب مسيحية صغيرة على الساحل الغربي في يوغسلافيا شمال ألبانيا والتابعة للبندقية وواصل العثمانيون فتوحاتهم الى (WALLACHIA) ،وهناك توقفوا لانهم وجدوا مقاومة عنيفة ضدهم فاتجهوا ناحية الجنوب والغرب .

كان الجنوبيون يعتبرون البحر الاسود منطقة نفوذ لهم ،كما كان البنادقة يعتبرون البحر المتوسط ملكا لهم ولكل منهم اسطول كبير وادراكا من السلطان لتأمين ظهره في البحر الاسود ،وانصرف محمد الفاتح لتعزيز القوى البحرية تعزيزا عظيما حتى اذا اعتمد عليها وجهها الى البحر الاسود ،فأستولت سفنه على ميناء (Caffa) مركز طليعة الجيش الجنوي الرئيسي علاوة على موانئ اخرى رئيسية على البحر الاسود ،واضطر تثار كريميا القاطنين من وراء الساحل حتى الشمال الى ان يتأقلموا مع العثمانيين .

توجه السلطان الفاتح بعد ذلك الى البحر المتوسط غير متهيئ لجمهورية البندقية ،والتي كانت اعظم دولة بحرية وتجارية ،فأستولى على جزيرة فجيرون التي كانت مركزا استراتيجيا للبنادقة في الارخبيل

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٠ .

وأتبعها بجزر اليونان ، ثم هاجم جزيرة رودس والتي كان فرسانها قد عاقوا العثمانيين للوصول الى البحر المتوسط وشكلوا تحت امرة البابا حرسا صليبيًا ، ثم غزا العثمانيون جنوب إيطاليا ، وحاصروا اوترانتو (Otranto) فى شبه الجزيرة الابيطالية عام ١٤٨٥-١٤٨٦هـ / ١٤٨٠-١٤٨١م ، وكان ذلك بمثابة تهديد مباشر للكاثوليكية ، ولولا وفاة الفاتح آنذاك لثم الاستيلاء على إيطاليا ولتغير وجه التاريخ .

تولى بايزيد الثانى - اكبر ابناء السلطان محمد الفاتح - العرش بعد وفاة والده ، وهاجمت قواته بلاد المورة (Morea) ، وكانت تحت سيطرة البندقية ، وهزم اسطولها واضطرت أن تنجس الى السلام مع العثمانيين ، الذين منحوا البندقية امتيازات تجارية ، مقابل أن تتخلى الدولة العثمانية على موانئ المورة ومن ضمنها ميناء ليبانتو (Lepanto) ، وأثبتت هذه الحرب التى تحالف فيها مع البندقية ملك هنغاريا ، أن الاسطول العثمانى قد نمت قوته الى حد القدرة على تحدى البندقية فى البحار المفتوحة ومعنى ذلك تأهيل البحرية العثمانية لمشروع الاندلس .

استولت القوات العثمانية على ولاية الهرسك ، حيث استسلمت دون مقاومة تذكر و وضمت الى املاك الدولة العثمانية ، ثم نفذ السلطان بايزيد عملياته الحربية فى البلقان ، مثبتا وممكنا النفوذ العثمانى على المناطق التى لم يسبق فتحها ، ثم قام بايزيد بشن غاراته على الهابسبرج ليوء من حدوده ، ثم شق طريقه بغزو مولداڤيا (Moldavia) ، ثم ارسل جيشه الى غاليسيا (Galicia) الا ان هذا الغزو توقف بسبب الطقس الشتوى الصعب ، ووعورة الطرق .

فزعت اوروبا كلها من التقدم السريع وتسامع اهلها بسقوط عواصم اوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الاخرى ، وسرت خشية رهيبه من

أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو أوروبا فيستولوا على إيطاليا كما استولوا على اليونان ويهددوا الكاثوليكية في عقر دارها ، وساور الأوروبيين القلق على مستقبلهم وبدأ الملوك والأمراء يفكرون في بذل المعونة والوقوف في وجه التقدم العثماني الإسلامي ، إذ استفاقت المسيحية من ثبات نومها ، فإذا بها تقف أمام الخطر الكبير الذي هدد كيائها في الشرق الأوروبي واحتست به الشعوب الأوروبية احساسا دينيا بسبب ما كانت تعلنه الكنيسة في ذلك الوقت من حرب صليبية عنيفة على المسلمين في اسبانيا وتحثهم على شن الحرب الأخيرة ضد غرناطة ، وحماية الجناح الغربى للعالم المسيحي ولاسيما بعد أن سيطر العثمانيون على شرق البحر المتوسط وظهور طلائع المجاهدين العثمانيين في حوضه الغربى ، وذلك من أجل انقاذ اخوانهم في الاندلس .

لم يحمل الاتباع الاوائل للنبي العقيدة الاسلامية للشام وآسيا الصغرى فقط ، ولكن حملوها الى السواحل الشمالية لأفريقية ، مكتسحة امامها الحضارة التى تركتها روما هناك ، ثم عبرت مضيق جبل طارق وتغلغت على اسبانيا وهددت فرنسا ، هذا التيار الاسلامى قد فقد قوته (١) وحيويته عندما بدأت الممالك المسيحية تتحد فيما بينها مكونة ما يعرف باسم الدولة الحديثة فاتحدت قشتالة واراغون فى مملكة واحدة - اسبانيا - كما أوضحنا من قبل ، ووجهوا اهتمامهم نحو انتهاء الوجود الاسلامى فأخذت الممالك الاسلامية تتساقط فى ايديهم تباعا ، ما عدا غرناطة التى قاومت المسيحية زمنا ليس بالقصير .

لعل من اهم الاسباب التى أدت الى زيادة التدهور فى غرناطة هو النزاع بين امراء الاسرة الحاكمة مما أفسح المجال لتدخلات ملوك قشتالة ومناصرة فريق على آخر والعمل على اضعاف الفريقين .

1- A.J.Grant : A History of Europe from 1494-1610 P.209.

وما كادت غرناطة تسقط بيد فرديناند وايزابيلا حتى بدأت موجة الاضطهاد العنيفة ضد السكان فقد اصدرت السلطات الاسبانية قرارها بأن يفادر اليهود الذين لم يتنصروا اراضى قشتالة خلال اربعة شهور وعوقب المخالفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصرهم ولقى المسلمون فى نواحي قشتالة واراغوان نفس المصير فى وقت سابق ثم جاء دور سكان غرناطة الاضطهادى بعد ذلك حيث اكره السكان على تغيير معتقداتهم وانيطت مهمة من يتهم بالزيغ والمروق الى محاكم التفتيش الدينية التى ملأت بهم السجون حيث التعذيب الوحش والتى تقذف بهم جموعا اثر جموع فى محارق النيران .

اراد الملكان الكاثوليكيان انهاء الوجود الاسلامى فى شبه الجزيرة اليبيرية وذلك بدمج المورسكيين بالمسيحيين ولكن ذلك الشئ صعب تحقيقه فمثلا من الصعب على موريسكى وسيدة مسيحية أن تعايشا معا تحت سقف واحد حتى لو كانا متحدين برباط الزواج ذلك ان المسيحى يعرف جيدا المعتقدات السرية لقربنه ولن يتردد تحت ضغط محاكم التفتيش أن يكشف عن جريمة الكفر .

وتوجد ملابس اخرى تجعل من الصعب على الموريسكيين والمسيحيين التعايش معا ، ونعنى بذلك محيط السجن ، ذلك ان الاختلاط نفسه يعنى أنه يمر شئ دون ان يشاهد من طرف الاخرين فى السجن الجماعى وحيث يعتبر كل شئ سببا للإشارة وهذا ما لوحظ باحد السجون حيث تكونت وبصورة تلقائية مجموعتان متنافستان تبحثان دوما عن اشارة النزاع فقد كان الموريسكيون، يسحبون القش من فراشهم ويضعوه على شكل صليب ويرموه فيم بعد تحت اقدامهم مظهرين الازدراء والاحتقار ، اما المسيحيون فانهم يجدون من ناحيتهم متعة بقلى واكل لحم الخنزير علانية ، ونتيجة لذلك فان الطرف الموريسكى ينشغل بالحديث فيما بينهم حتى لا يشاهد اكل الخنزير

وانه كلما شوى هذا اللحم فانهم يسدون انوفهم حتى لا يستنشقوا رائحته
(١)
وتصل هذه الاخبار الى علم محاكم التفتيش فتزيد فى تعذيب المورييسكيين.

تبيين من خلال ذلك مدى تمسك المسلمين بدينهم وعقيدتهم على الرغم
من محاولة السلطات الاسبانية صهر المسلمين فى بوتقة المسيحية ،وكان
لتلك الاحداث صاها فى الدولة العثمانية ،اذ تغيرت استراتيجيتها
فبعد أن كانت تهدف الى انقاذ المسلمين فى الاندلس ،والذين كانوا يلاقون
التعذيب من قبل السلطات المسيحية ،بالاضافة الى نشر لواء الاسلام
فى القارة الاوروبية اثناء عبورهم الاندلس تحولت تلك الاستراتيجية بعد
سقوط غرناطة وصارتمهمة الدولة استرداد الاندلس وعلى ضوء ذلك اخذ
المسؤولون فى الحكومة العثمانية يضعون الخطة اللازمة لذلك .

اتفق السلطان بايزيد الثانى والاشرف قيتباى لتوحيد الجهود من
اجل استرداد الاندلس ووضع خطة مشتركة وذلك بأن ترسل الدولة العثمانية
اساطيلها لغزو مقلية الاسبانية ليهدد فيها فرديناند وايزابيلا، وأن تقوم
الجيوش البرية المصرية بعبور البحر من جبل طارق الى اسبانيا .

وبعث السلطان بايزيد باسطوله الى الشواطىء الاسبانية بقيادة
كمال رايس الذى انزل الرعب فى الاساطيل المسيحية ،كما شجع السلطان
بايزيد المجاهدين المتجهين للاندلس لمناصرة اخوانهم على العدو المشترك
بينما اكتفى السلطان المملوكى بارسال خطابات الى البابا فى روم
والملكان الكاثوليكىان فرديناند وايزابيلا ،يطلب منهم رفع الاذى عن
المسلمين ،الا أن السياسة الاسبانية سارت فى طريقها المرسوم ولم تمنعها
رسائل السلطان المملوكى ولعل فى هذا رد على هؤلاء الذين يزعمون
أن الدولة لم تسع الى التعاون مع الدولة المملوكية .

(١) لوى كاردياك : المورييسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، ص ٢٠ - ٢١ .

لما كانت البرتغال تملك شاطئاً كبيراً يبلغ طوله حوالى ثلاثمائة ميل به كثير من الموانئ العميقة المحمية فقد توفرت لدى البرتغاليين الفرصة لبناء مجد بحرى لهم وللمسيحية بصفة عامة (١).

توجهت الجهود البرتغالية آنذاك لمواصلة الحرب المقدسة بالاغارة على السواحل الافريقية فقد كان من أهداف البرتغاليين الاحاطة بحـمرا بالمغاربة ومواصلة القتال ضد المسلمين والاتصال بالملك المسيحى فى الحيشة (Presto Joan) لمعاونتهم فى تحقيق أغراضهم السياسية والتجارية والدينية فقد كان من أعز أمنيتهم نشر المسيحية والتبشير لها.

وكان الغرض الاخير جاعلا المستكشفين البرتغاليين يتركون أشارا تدل عليهم وتدل عليه فى نفس الوقت فقد كانوا يقيمون صلبانا أو أعمدة تحمل صلبانا وحيانا كانوا يحفرون هذه الصلبان فى قشور الاشجار وعلى جزوعها أو يقيمون أعمدة من الاحجار ثم يحفرون الصلبان فيها ، كما كانت كتاباتهم على هذه الشواهد تنتهى بصليب فى اعلاها .

ولعل نظرة فحصى دقيقة فى ذلك اللقب الذى حمله ملوك البرتغال انفسهم فى ذلك العصر تظهر لنا الاهداف الرئيسية المختلفة التى وضعها هؤلاء نصب أعينهم ، اذ كان الملك يتلقب بلقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة فى جزيرة العرب) .

(Lord of the Navigation conquest and commerce of Aribia)
وفى الكلمات الاخيرة يكمن الهدف الدينى .

كان استيلاء الامير هنرى الملاح على ميناء سبتة ، حملة صليبية بالمعنى المحدود وامتدادا لما سبقها من حملات متشابهة ، وداعت خياله

(١) محمد عبد اللطيف البجراوى : فتح العثمانيين عدن ، ص ٥٣ .

مشاريع خطيرة ، اذ كان يأمل الاطباق على العالم الاسلامى عن طريق قيام تحالف مع الحبشة ، يهدف الى قيام الاحباش بهجوم من الجنوب فى الوقت الذى تزحف فيه قواته من الشمال ، ولكن بقى اقتراحه فى عداد الامنيات .

ان عزم الامير هنرى الملاح فى مواصلة كفاحه الدينى قاده الى الامر باستطلاع الساحل الغربى للقارة الافريقية املا فى الوصول من هناك الى المشرق الاسلامى لفزوه روحيا وماديا واستمرت السلطات البرتغالية فى السير على منهج هنرى الملاح فى ذلك المجال بعد وفاته كما أوضحنا .

وهكذا ما كادت شمس القرن العاشر الهجرى ، الخامس عشر الميلادى توءن بالمغيب حتى كانت الافاق مفتحة والاذهان مستنيرة ، وأشرف العالم على تنافس قاتل فى ارتياد البحار وارتبطت مشروعات البرتغاليين الصليبية بالحبشة ارتباطا وثيقا .

ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ادى الى نتائج خطيرة فى علاقات الشرق والغرب فى اوائل القرن السادس عشر فبالاضافة الى الأهمية الاقتصادية فانه فتح فعلا جديدا فى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، اذ تمكن البرتغاليون من انزال خسائر جسيمة فى الاسطول المملوكى ولعل من اهم حوادث الصراع بين البرتغال والمماليك هو انتصار القوات المملوكية على البحرية البرتغالية فى أول الامر ، الا أن المماليك لم يلبثوا أن تلقوا هزيمة قاسية من البحرية البرتغالية فى ديو ، وتمكن البرتغاليون على اثرها من توطيد نفوذهم على نقاط على الساحل الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربيه وبعض المراكز فى القرن الافريقى ، ومن تلك النقاط المسيحية اخذ البرتغاليون فى الاتصال بالحبشة ، كما قاموا بعدة محاولات لتهديد الاماكن المقدسة الاسلامية فى مكة والمدينة ووصل الخطر الصليبي لأول مرة فى التاريخ على الحدود الجنوبية للعالم الاسلامى .

استولى الصفويون على العراق، وقام الشاه اسماعيل الصفوى باضهاد اهل السنة واخذ يبحث عن التحالف مع البرتغاليين ، اذ عرض عليهم تقديم كل العون والتأييد فى احتلال بعض المناطق فى الخليج ، مقابل أن تمتد البرتغال الشاه بالاسلحة المتطورة ليمنع العثمانيين من التقدم فى المشرق ولم يكتف الصفويون بذلك بل تحالفوا مع البندقية للهجوم سوا على الاناضول لانهاء الوجود العثمانى هناك وليعم المذهب الشيعى تلك المنطقة .

امام تلك الاخطار التى احدثت بالعالم الاسلامى من حدوده الجنوبية وقفت الدولة العثمانية فى مفترق الطرق ، هل تستمر الدولة العثمانية فى خطتها الاساسية بالتقدم فى القارة الاوروبية لنشر لواء الاسلام فيها ، ومن ثم استرداد الاندلس وانهاء دولة اسبانيا والبرتغال ؟ لكن سبق وان صادف الجيوش العثمانية عوائق كبيرة منها صعوبة الطقس ووعورة الطرق مما شكل عائقا نحو التقدم العثمانى ، لذلك لابد من ايجاد طريق آخر ، اذا رغبت الدولة الاستمرار فى خطتها لاسترداد الاندلس ، او تترك ذلك المشروع ، على الاقل مؤقتا لتواجه الاخطار الجسيمة التى أخذت تحيط بالعالم الاسلامى بتهديده من حدوده الجنوبية ؟ لقد كان موقفا حرجا واختيارا صعبا واجهه السلطان العثمانى فى ذلك الوقت .

لقد اعتبر العثمانيون انفسهم جزءا من العالم الاسلامى وان واجبههم بالاضافة الى نشر الاسلام ، الدفاع عن الاقاليم الاسلامية ضد الاخطار والهجمات الخارجية ، واعتقدوا أنهم أقدر من الممالك الاسلامية الاخرى مثل الصفويين والمماليك على الدفاع عن المنطقة وتوحيدها فى صف واحد قوى ، واستخدم العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد العالم الاسلامى بأقاليمه فى دولة واحدة اى ان المسألة قد وصلت الى مرحلة معركة حول قيادة المنطقة ووحدتها .

تقدم الاتراك العثمانيون بقيادة السلطان سليم الاول زاحفين نحو الشرق فهزموا القوات الفارسية فى موقعة تشالديران ١٥٢٠هـ / ١٥١٤م، ودخلوا

عاصمتهم تبريز ، ولكن السلطان لم يرغب فى القضاء على قوة الصفويين نهائيا نظرا للارتباط الدينى الذى يربطهم كما أنه لا يريد التوسع الصفوى ان يسيطر على بقية الاقاليم العربية ، وخاصة الاماكن المقدسة الاسلامية فى مكة والمدينة والقدس ، ومن ثم يعم المذهب الشيعى ارجاء العالم الاسلامى ويكون المذهب نفسه المسيطر على الحياة العامة للمسلمين .

دخل الاتراك العثمانيون بعد ذلك القاهرة عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وكان ذلك فى حد ذاته يمثل تحولا جديدا فى تطور الاحداث التاريخية فى القرن السادس عشر الميلادى داخل العالم العربى وعلى الرغم من كافة الاسباب التى ذكرها المؤرخون فى تفسيرهم لاسباب تحول العثمانيين من اوربا الى المشرق العربى ، الا اننا نستطيع أن نؤكد أن وصول الاتراك الى مصر والشام امر كان لابد منه فى هذه الظروف ، ذلك لان الدولة العثمانية قد هدت اوربا فى الشرق ، وبوصول البرتغاليين للمحيط الهندى ، صار العالم الاسلامى كله مهددا من الناحية الجنوبية وكان على الدولة العثمانية ضرورة حماية هذا العالم ممن طرقت ابوابه الجنوبية ، ولن يتطرق بنا الحديث لتفسير ما حدث بين العثمانيين والمماليك ، فمجمال القول ان العالم الاسلامى كان يحتاج فى تلك الفترة الى قوة تنبج بالحوية والنشاط ، لتحميمه من تلك الاخطار .

ومعنى هذا ان الدولة العثمانية تحولت نحو الشرق العربى لتحميمه من الاستعمار الاوروبى وكان ضمها للشام ومصر والحجاز وبقية هذا المشرق هو بناء حزام امن حول الحرمين الشريفين وهنا نتساءل كيف جروء بعض المؤرخين على تفسير ذلك بأنه استعمار عثمانى ، مع ان الدولة أتت للمشرق العربى لحمايته من الاستعمار الاوروبى .

ونضيف الى ذلك سوء ال نتجه به الى هؤلاء المؤرخين وهو ما معنى الاستعمار ؟

والاجابة على ذلك السوء ال هو الاستغلال واستعباد الشعوب لتحقيق هذا الاستغلال فهل كانت الدولة العثمانية فى كل فتوحاتها تهدف الى الاستغلال ؟

ان الاجابة على ذلك هي من واقع النظم العثمانية التى تؤكد بمـ
لا يدع مجالا للشك ، أن الدولة فى كل تحركاتها كانت تهدف فقط الى نشر
الاسلام ، او استرداد جزء من ممتلكاتها المفقودة او حماية اجزاء هدهما
الاستعمار الاوروبى .

كان المغرب العربى يقياس فى نفس الفترة التى امتدت فيها
انتصارات العثمانيين فى البلقان والمشرق العربى من هزات عنيفة
اصابته فى الاندلس وعلى سواحل الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربى
للبحر المتوسط ، لقد كان سقوط غرناطة فى ايدي المسيحيين نقطة تحول
خطيرة فى تاريخ هذا الاقليم الاسلامى ، اذ تطور الاضطهاد المسيحى للمسلمين
فى الاندلس وزادت قسوته فحرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والاحجار
الكريمة وامروا ان يسجدوا فى الشوارع عند مرور كبير الاحبار وسلطت
عليهم اقصى انواع العقوبات اذا لوحظ عليهم بعض الولاء الى ماضيهم
او التعلق بدينهم فى ابسط مظاهره وعاداته ، استمرت تلك المحنة سنوات
طويلة ، وتوالى هجرات الاندلسيين الى بلاد المغرب العربى والمشرق الاسلامى
خلال تلك الايام السوداء ناقلة معها فى اول الامر علمها وفنها وأدبها
واختصاصها وناقلة فى آخر الامر بؤسها وشقاءها .

تتبعته الحكومة الاسبانية الموريكيين فى مهجرهم الجديد فى الشمال
الافريقى وذلك خوفا من تلقيهم مساعدات حربية من اخوانهم فى الدين سكان
الشمال الافريقى ومن ثم يعملون على الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم
من ديارهم ، لذلك قام الاسبان بالنزول على السواحل الافريقية الشمالية
للانتقام من مراسيها .

كما أن التعصب الدينى والرغبة الجامحة فى محاولة تنصير
المسلمين والرغبة فى ابعاد حدود الاسلام كل ذلك حذا بالاسبانيين الى غزو
البلاد الاسلامية فى الشمال الافريقى فاصطبغت حروبهم بصيغة الصليبية

وذلك نظرا للدور البارز الذى قام بأدائه رجال الكنيسة من اجلها فالكنيسة باسبانيا قد اهتمت بجميع ما لديها من الحماس بهذه المعركة ضد المسلمين بل ان الكنيسة قد ارادت فى الكثير من الاحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها (١)

فشلت القرصنة المسيحية فى آداء مهمتها فى غرب البحر المتوسط كما فشلت فى الاستيلاء على مراكز الفارات الاسلامية فى الشمال الافريقى وذلك بسبب نشاط المجاهدين المسلمين ونجاحهم فى الدفاع عن اراضيهم كما اتضح ذلك فى الفصول السابقة ، ولم يكن ذلك الفشل بسبب طبيعة الارض وقلة كفاءة الجيوش الاسبانية ذلك لانه بالامكان التغلب على المعوقات الطبيعية الكبيرة ، اذا اخذت قتالة وسيلة اخرى اكثر فعالية فى محاربة شمال افريقيا فمن الناحية العملية اتجه الوضع الى اعتبار هذه الحرب امتدادا لحرب غرناطة ، وهذا يدل أن الاسبان اعتبروا الحرب الموجهة للشمال الافريقى حملة تآديبية ، الغرض منها الاستيلاء على الغنائم واقامة المراكز الحربية ، ولم تكن لديهم خطة مدروسة لمشاريع استعمارية ومع كل ذلك كان شمال افريقية طوال القرن السادس عشر الميلادى جوهره ثمينه تهفو اليها اسبانيا عبر البحار ، واختفى ذلك الفشل فى شمال افريقيا عند استبداله بنوع آخر من الحرب التقليدية بعد أن حقق للاسبان نجاح باهر فى مشروع اكثر روعة ألا وهو الانتشار فى عالم جديد . (٢)

ان النجاح السريع الذى عرفته الدولة العثمانية فى كل من اوروبا وآسيا وافريقيا ومدى الانتصارات الحربية التى حققها السلاطين العثمانيون على الجيوش الأوروبية المتحالفة آنذاك وسقوط عدد من العواصم الأوروبية

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٨١ .

الاجنبى قد طبعاً الحكم العثمانى بالحذر الدائم من الخارج وكان لهذا اثره على الحياة العامة فرغم تصفية الوجود الاسبانى من مدينة الجزائر وجبجل وبجاية وعناية ومستغانم ودلس فانه ظل قائماً فى وهران والمرسى الكبير اذ عمل الاسبان على تدعيم وجودهم هناك بالتحصينات والعدد والعدة ، وكان الاسبان بعد ان فشلوا فى تحالفهم مع آخر ملوك بنى زيان واستيلاء العثمانيين على تلمسان بعد ذلك قد بدأوا فى التحالف مع بعض الجزائريين المقيمين حول مدينة وهران كبنى عامر ، والذين اجبرتهم الظروف الاقتصادية على التعامل مع الاسبان وكان هذا نوعاً من محاولة لمد النفوذ الاسبانى داخل البلاد مما اقلق السلطة العثمانية والسكان فظهر الجهاد البرى الخاص الى جانب الجهاد البحرى .

كان الموريسكيون قد ازدادوا خطرهم بعد اتمالهم بالعثمانيين فى الجزائر وتلقيهم مساعدات عسكرية فاخذوا يغيرون معا على الموانى الاسبانية كما قاموا بمساعدة العثمانيين على اختطاف ابناء المسيحيين للدخول فى الانكشارية فيما بعد (١) كل ذلك جعل الاسبان يصرون على ملاحقة المسلمين اينما كانوا وذلك من خلال الحملات المتعددة وتشديد الحصون المعروفة باسم (Pegnon) أو (Torre) على ارض افريقيا الشمالية لوضع حد للغارات الاسلامية ولمراقبة الحركة البحرية العثمانية وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتئ المجاهدون القيام بها بنجاح لانقاذ المورسكيين من الاراضى الاسبانية كما كان هؤلاء يتملصون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم سرا بالمعلومات اللازمة للقيام بحملاتهم بنجاح (٢) ، وخوفاً من انتقال منافع الموريسكيين الى الاراضى الجديدة فى امريكا الوسطى والجنوبية ، وتحسباً فى محاولة اعاقا اعتناق

(١) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

(٢) عبد الجليل التميمي : مرجع سبق ذكره ، المجلة التاريخية

المغربية ، العدد (٣) ، ص ٣٩ .

الهنود الحمر للدين المسيحي فقد منع شارل الخامس الموريكيين من دخول منطقة الهنود ولم يسمح لهم ولا لذريتهم ان يستقروا بالعالم الجديد ، دون ان يتحصلوا على اذن من الملك ومع ذلك فان الاسانيين الذين حلوا بامريكا قد جلبوا معهم عبيدهم وتغافلوا عن التصريح بانهم من العرب العبيد . (١)

اشتدت الحرب ضراوة بين الدولة العثمانية واوروبا بزعماء اسبانيا واشتدت من جراء ذلك الحرب البحرية فزادت رغبة العثمانيين فى تحقيق هدفهم لاسترداد الاندلس ، ولتحقيق ذلك فقد بادر السلطان العثمانى سليمان القانونى باسناد خطة قبودان باشا الى خير الدين باربروسا وبذلك كان اول وزير للبحرية العثمانية وفى هذا ايضا برهان على اهتمام الدولة باسترداد الاندلس ، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية .

نظم خير الدين بربروسا ومن خلال منصبه الجديد الاساطيل العثمانية واخذ فى ادخال العديد من التحسينات على السفن الحربية وزاد فى عددها وكانت البحرية العثمانية فى هذه الحقبة فى عصرها الذهبى ، بعد ذلك شن غارات منظمة على جزر البليار لانقاذ المورسكيين وتقديم المساعدات العسكرية لهم ثم عمل فى تحرير عدد من الموانئ الاسلامية فى شمال افريقيا مستعينا بقاعدته فى الجزائر لذلك قام شارل الخامس بعدة محاولات للاستيلاء على بعض الحصون فى تونس والجزائر مستغلا انحياز بعض السلاطين الحفصيين بجانبه الا انه لم يفلح فى تحقيق هدفه امام اصرار المجاهدين المسلمين بقيادة خير الدين الذى اخذ فى الاغارة على سواحل اوروبا الجنوبية مهددا الجزر الايطالية بعاصمتها روما ، ثم استولى على طولون ونيس فى طريقه نحو الاندلس فاقلق هذا العمل المسيحية جمعاء وفى مقدمتهم اسبانيا وظل خير الدين مجاهدا للمسلمين حتى وفاته .

(١) لوى كارويك : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧ ، ١٥١ .

استد السلطان العثماني سليمان القانوني رتبة باي لرباي السى
ابن خير الدين بربروسا حسن الذى ولد فى الجزائر من ام جزائريّة
وتشقف على يد علماء الجزائر وكان حسن بن خير الدين محبوبا بيــــن
السكان (١) ، لذلك بادر السلطان باسناد ذلك المنصب الهام اليه وتقديرا
لاعمال والده .

استطاع حسن بن خير الدين ان يسجل انتصارا كبيرا فى بدايــــة
حكمه على الاسبان فى مستغانم ، وبعد استقراره فى الجزائر ،جهز حسن بن
خير الدين جيشا كبيرا ليخلص وهران من يد الاسبان وليفتح بذلك الطريق
الى الاندلس ،وفى طريقه نحو وهران استولى الملك السعدى محمد المهدي
مدينة تلمسان ثم اتجه نحو مستغانم ، واحتلها ثم اتجه نحو الجزائرــــ
وهدهدا تهديدا مباشرا .

غير المجاهدون العثمانيون وجهة طريقهم فوجوا نيرانهم نحوــــ
السعديين والتقى الجيشان العثماني والسعدى عند نهر الشلف ،واستطاع
العثمانيون الحاق هزيمة ساحقة بالسعديين ،واسترجعوا مستغانم ثم تلمسان .

كانت سياسة حسن بن خير الدين قد سارت على نفس نهج والده ،والتى
كانت ترمى الى وحدة البلاد وارساء اركان الدولة على اسن متينة وتحصين
الثقور لصد العدو ثم العمل على استرجاع المدن الجزائرية بجابــــة
ووهران من يد الاسبان لتسير بعد ذلك جماعات المجاهدين ويكونوا مددا
لبقيا مسلمى الاندلس ليقهروا اسبانيا لاقامة دولة اسلامية جديدة .

اخذ حسن بن خير الدين يعمل نحو تحقيق تلك الاهداف فهباً الاسطول
الاسلامى لمهاجمة اسبانيا ،وبينما هو كذلك وصل السفير الفرنسى وعرض
على حسن اعانة فرنسا له باسطولها ورجالها من اجل غزو اسبانيــــة

(١) ابو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ١٣٨-١٣٩ .

لكن حسن بن خير الدين رفض هذا الغرض ، موضحا انها قضية جهاد اسلامى
لا يدخل فيها غير المسلمين .

قرر السلطان العثمانى دعوة حسن بن خير الدين الى استانبول
وعين مكانه صالح رايس وكان صالح رايس معروفا لدى المجاهدين العثمانيين
فهو من الرجال الذين رافقوا عروج وخير الدين ببربوسا فى جهادهم ضد
المسيحية وامتاز بحسن قيادته فى البحر وبمواقفه البطولية بالاضافة
الى دقة نظره فيما يتعلق بنظام الادارة ، وقوبلت توليته منصب بيلربك
سابتهاج عام .

هدفت سياسة صالح رايس الداخلية الى تحقيق الوحدة بصفة تامة بين
كل اجزاء الجزائر ، وادخال بقية الاجزاء الصحراوية فيما يلى الزيبان
ضمن هذه الوحدة ، اما سياسته الخارجية فقد استهدفت الى ابعاد
الاسبان نهائيا عن الشمال الافريقى ووضع حد فاصل لاعتداءات السلاطين
السعديين الذين لم يتورعوا بالاستعانة بالقوى المسيحية فى سبيل تحقيق
مصالحهم الشخصية اى ازالة اهم العوائق التى تعوق الاسترداد ، ثم اعلان
نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد
الاندلس ، وهى التعليمات التى تلقاها من السلطان العثمانى فى بدايته
توليه منصب باى لرباى الجزائر .

بدأ صالح رايس اولا بتوحيد الجبهة الداخلية ، فضم من جديد الى
الوحدة الجزائرية امارة توقرت ، وامارة بنى وارجلان (ورقلة) ، ثم
اتجه الى غزو اسبانيا وفى اثناء ذلك ظهر ابو حسون الوطاسى الذى تعهد
بالاعتراف بالدولة العثمانية ومساعدة العثمانيين فى تجهيز الجيوش
لمباشرة غزو اسبانيا مع صالح رايس ، مقابل ارجاعه الى حكم مملكته .

جهز صالح رايس الجيوش العثمانية وسار فى مقدمتها نحو فاس فدخلها

ومكث بها اربعة شهور بعد ان رتب امورها ثم اتجه بعد ذلك نحو بجاية واستطاع ان يخلصها من الاسبان كما خلص مدينة التل بعدها وظهر اثره الاحتلال الاسبانى من الساحل الشرقى الجزائرى .

وجه صالح رايس ومن معه من المجاهدين اهتمامهم الى ناحية وهران وما حولها لانقاذها من يد الاسبان ثم الاستعداد للوشية الكبرى نحو الاندلس، لكن الشريف السعدى قويت شوكته واستطاع أن يستعيد فاس، ثم عمل مع الاسبان ضد الدولة العثمانية وذلك لاجراج العثمانيين من الجزائر وتقسيم الممتلكات العثمانية هناك .

علم السلطان سليمان القانونى بتلك المفاوضات بين السعديين واسبانيا وقرر مهاجمة وهران واحتلالها فارسل الى صالح رايس مددا بحريا مؤلفا من اربعين سفينة وعلى ظهرها آلاف المجاهدين وذلك اعانة على هذا الزحف فسارت جيوش المجاهدين نحو وهران ، الا أن صالح رايس توفى فى تلك الاثناء وحمل الراية من بعده القائد يحيى الذى واصل زحفه وابحار به نحو وهران ، الا أنه لم تفتح وهران رغم شدة الحصار الذى فرضه العثمانيون .

اسرع السلطان السعدى اثناء عودة الجيوش العثمانية من وهران وارسل جموعه نحو تلمسان واحتلها منتهزا فرصة غياب الجيوش العثمانية واضطر السلطان العثمانى الى اعادة حسن بن خير الدين الى الجزائر فارجع الى الادارة نظامها ثم عزم على استئناف الجهاد وانجاز مشروعات عظيمين ، تطهير الجزائر من الاسبان ، والاتجاه الى الاندلس .

فسار أولا بجيشه الى تلمسان لارجاع السعديين الى حدود بلادهم ونجح فى ذلك ووصل الى مدينة فاس ثم اضطر الى العودة خوفا من ان يقطع الطريق عليه بعد أن سمع بتحرك الاسبان فى وهران ، ثم استطاع حسن ان يحقق انتصارا كبيرا على الاسبان فى مستغانم وأراد بعد ذلك أن يستغل فرصة ذلك الانتصار ، لتصفية وهران ، وجرت معارك كبيرة انتهت

بعدم تحقيق العثمانيين لهدفهم وفى تلك الاثناء استطاع العثمانيون من تحرير جزيرة جربة ومن قبلها طرابلس الغرب .

وهكذا تعددت العواقب امام بيلربكية الجزائر العثمانية واخذت هذه العواقب تنمو بمضى الزمن والدولة تحاول جاهدة ان تتخطاها لتحقيق هذا المشروع العظيم . استرداد الاندلس .

ومع ذلك قامت عدة محاولات محدودة من قبل عثمانيين هى اشبه بما نسميه اليوم حروب العصابات ، بمساعدة المورييسكيين تنقلت بها بعض المصادر ومن ذلك أنه فى ربيع اول ٩٧٤هـ / سبتمبر ١٥٦٦م كان جابى محاكم التفتيش والمأمور القضاى بجيوبون اسقفية قاوش (Cadis) والمرية (Meria) لايقاف المتهمين ثم قضاوا ليلتهم فى احد بيوت مدينة طابرنـــــــــــــــــاس (Tabernas) وفى معيتهم احد المورييسكيان الموقوفين ، وفى الصباح استفاقوا على صوت طبل تركى وابواق وطلقات مدفعية ، واقتربت الاصوات من مسكنهم ، وكان يرشد العثمانيين احد مواطنى القرية حيث صاح فيهم " ان اصحاب محاكم التفتيش موجودون هنا " ، ولم يكن للجوابــــــــــــــــى ومرافقه الا الهرب من اعلى المنزل فقادرا بعدها العثمانيون حاملين معهم اسلحتهم ، وانضم اليهم عددا من المورييسكيين وكذلك عدد من الاســـــــــــــــــرى المسيحيين (١) ولعل ذلك يوضح مدى العلاقة بين المورييسكيين والعثمانيين الذين يعملوا دائما نحو انقاذ المسلمين مهما كلف ذلك من تضحيــــــــــــــــة واستمرت الدولة على ذلك النهج حتى وفاة السلطان سليمان القانونى .

كانت السنوات الاخيرة من حكم السلطان سليمان القانونى قد شهدت بداية المشاكل الاقتصادية فأثارت الخوف خلال ما تبقى من القرن السادس

(١) لوى كاردياك : المورييسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، ص ٨٥ .

عشر على الرغم من مقاومة السلطان لمحاولات البرتغاليين اغلاق ابواب التجارة الدولية عبر المشرق العربى ،بينما كان نقص المعادن النفيسة يوءدى الى انخفاض فى قيمة العملة المعدنية ،واكثر ما يثير الاعجاب هو أن النقص كان تأثيره على اوروبا اكثر بكثير من تأثيره على الدولة العثمانية وبالتالى فان النقص فى اوروبا رفع اسعار الذهب والفضة فى جميع انحاء القارة (١) ارتفاعا هائلا ،وكان لهذا صداه فى الدولة وعلى الاخص فى ممتلكاتها الاوروبية

ومن اسباب المشاكل الاقتصادية ايضا والتى وقعت فيها الدول العثمانية هو ان الدولة كانت تضبط ميزانيتها اعتبارا من النوروز وهى اول السنة المالية اذ يقوم الدفتر دار بتخليص موارد الخزانة ومخارجها من الرونامجة (اى الدفتر اليومى) ،ومن باقى حسابات الاقلام التابعة له ثم ترتيب الموارد والمصاريف لمدة سنة مالية وبما أن الميزانية (او اجمالى الايرادات والمصروفات للخزانة حسبما يسميها الديوان) ميزانية سنة الدخل اى السنة الشمسية فانها اطول من السنة القمرية التى تعتبر اساسا للمصاريف لذلك كانت الدولة العثمانية كل ثلاث وثلاثين سنة تجد نفسها امام ميزانية اقرت فيها المصاريف فقط وليس لها دخل آخر لمواجهة تمويلاتها (٢) بمعنى اخر انه يوجد عجز مالى يبلغ مدفوعات سنة كاملة ،لذلك كانت الدولة تتجه احيانا الى انقاص قيمة العملة ،وكثرت المضاربات وتدفقت العملة الفضية الرخيصة من اوروبا الى الدولة العثمانية لاعادة بيعها نظير مكسب باهظ وثلت الحركة التجارية واستنزف الذهب من الدولة ونتج عن ذلك متاعب ،كما أدى الى ثورات الجنود ، مما يضاف الى عوائق نجاح خطط الدولة المستمرة لاسترداد الاندلس .

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.107 .

(٢) تقوم الارض بدورتها حول الشمس فى سنة شمسية تعد ٣٦٥ يوما وخمس ساعات و٤٩ دقيقة ،اما السنة القمرية فتتركب من ١٢ شهرا قمريا ،تكون بالتداول ما بين ٢٩ يوما و ٣٠ يوما توألف فى مجموعها ٣٥٤ يوما و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة ،ويكون الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية ١١ يوما ينتج منه خلال ٣٢ سنة : $32 \times 11 = 352$ يوما اى ما يعادل سنة قمرية كاملة .

(٣) خليل الساحلى: سنو الازدلاف أو أزمان الامبراطورية العثمانية ،المجلة التاريخية المغربية ،العدد (١٢) ،ص ١٤٣ - ١٧٢ .

لم تكن هذه الامور قاصرة على الدولة العثمانية لان الطرف الاخر وهو اسبانيا ،على الرغم من تدفق الفضة عليها من العالم الجديد فقد كان الامبراطور شارل الخامس قد فشل فى التحرر من اغلال النضال ضد الاسرة الحاكمة الفرنسية كما فشل فى النزاع الدينى السياسى فى المانيــــــــــــا علاوة على مشكلة ربط المستعمرات الامريكية باسبانيا لذلك واجه خلفه فيليب الثانى تلك المشاكل ،بالاضافة الى تمرد بلاد الاراضى المنخفضة اغنى الممتلكات الاسبانية الامر الذى اجبره على سحب افضل الوحدات العسكرية من البحر المتوسط سنة ٩٧٤- ٩٧٥ هـ / ١٥٦٦ - ١٥٦٧ م ،لمواجهته ذلك التمرد (١) ،ثم انشغل فيليب بالمشاكل الاقتصادية والتى تركها والده شارل الخامس نتيجة حروبه ضد الدولة العثمانية وضد البروتستانتية فاضطر فيليب الثانى الى عقد معاهدة سلام مع فرنسا ثم حول جميع الديون والمتراكمة على الحكومة الاسبانية الى سندات مالية بفائدة . (٢)

تصدرت القضية الدينية قائمة اهتمامات فيليب الثانى فقد قاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية وكان يهدف من وراء ذلك الى الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية ،لمواجهة المسلمين المتحدين فى الهدف والدين وكان هذا هو المحرك الرئيسى لكل اعمال فيليب الثانى اما فيما يتعلق بمسلمى الاندلس فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم او تهجيرهم داخل شبه الجزيرة اليبيرية . (٣)

شدد فيليب الثانى فى تنفيذ الاوامر ضد المورييسكيين وعزز الامر الصادر بهذا الشأن والمتعلق بتغيير الزى واللغة لاجل منع الطهارة

(١) 1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.78 .

2- H.G.Korigsberber and Georg L. Mosse : Europe in the sixteenth century P. 51 .

(٣) محمد عبده ،حتماله : التهجير القسرى لمسلمى الاندلس فى عهد فيليب

التي هي من سنن الاسلام وذلك بأن اخذ يهدم الحمامات ، كما اخذ المسيحيون في التعرض للنساء المسلمات فأشار ذلك المسلمين ، واستطار شرمهم ، وعمت الثورة كل انحاء جبال البشرات سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م ، ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى واوعرها مسلكا كان تدويخ سكانها من اصعب الامور منالا ، وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت حولين كاملين اذ لعبت التنبؤات دورا هاما في تهئية حرب البشرات ، ذلك لان الموريكيين كانوا متأكدين من مساعدة السلطان العثماني . (١)

كان السلطان العثماني قد بعث الى الاندلسيين في ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩م برسالة يطلب منهم عدم التراخي مع الاسبانين " .. اننا نتوخى من خلال حميتكم الاسلامية المتأملة في جلبيتكم عدم التراخي عن اظهار غيرتكم على الدين المتين ، فلتظهروا انواع اقدامكم واصناف اهتمامكم في الحرب والقتال ضد الكفار الاذلاء ... ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واطواق تلك الديار " (٢) ، كما وجه السلطان العثماني في نفس الوقت اوامره الى بيلربك الجزائر قلج على وذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ / ١٩ مارس ١٥٦٩م بآمره بمساعدة الاندلسيين " .. وعليك ان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير جائزة فلتكن على بصيرة من الامر ، ولتظهر انصواع اقدامك واصناف اهتمامك في سبيل الامور المتعلقة بالدين المبين ، ودولتي الابدية ولا تتوانى في اعلامنا باحوال واطواق تلك الديار " (٣)

بعث قلج على اسطول الجزائر لمساندة المسلمين في الاندلس وحاول انزال الجند العثمانيين في الاماكن المتفق عليها ، لكن الاسبانيين كانوا قد عرفوا ذلك من قبل فصددوه عن النزول ، لم يأبه بذلك قلج على

-
- (١) لوى كاردياك : الموريكيون الاندلسيون والمسيحيون ، ص ٦١ .
 (٢) دفتر المهمة رقم (٩) ص ٨٩ حكم رقم ٢٣١ ، ارشيف رئاسة الوزراء العثماني .
 (٣) " " " " ٧٧ " " ٢٠٤ " " " " .

وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمى الاندلس، وتمكن من انزال اربعة آلاف جندى بأسلحتهم، بالإضافة الى ذخائر كبيرة، وبعض القادة. العثمانيين، كما ارسل قلع على مددا. جديدا. من الرجال والسلاح اعانة للثورة الاندلسية، وكان قلع على يرغب الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك، لكن اوامر السلطان العثمانى اقتضت بقاءه فى الجزائر استعدادا للحوادث المقبلة. (١)

كان المسلمون فى غرناطة يأملون كثيرا فى استرداد بلادهم ويوضحون ذلك لمحاكم التفتيش " ... لقد كانوا مسلمين وذكرت كتبهم وقصصهم ان هذه الارض (اسبانيا) سوف تفتح من جديد وان عرب المغرب سوف يفتحونها، أن ساعة النجاة قريبة وسوف تأتى من شمال افريقيا، وبجاية ووهران وسبتة سوف تفتح أولا ثم بعد ذلك سيتم من جديد غزو اسبانيا منتهجين نهج طارق، وانه فى مضيق جبل طارق سيظهر جسر وبواسطته يجتاز العرب ويتمكنون من غزو اسبانيا حتى غاليسيا (Galicia) .

ان هذه التنبؤات تعبر عن اصل دينى وهى تؤكد ايضا الايمان بمصير سياسى محدد، وهذان العنصران سوف يدمجان ليصلا الى حد الاقتناع بقرب انتصار الاسلام على المسيحية " ... ان الاثراك بمعية جيوشهم سوف يتحولون الى روما وسوف لا يتم الا انقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد، اما الآخرون فسوف يوءسرون او يقتلون "، ومن جهة اخرى ذكرت تنبؤات اخرى كذلك انه ستقع فضائح وسيتم تحالف بين عقيدة العرب وعقيدة المسيحيين، والناس جميعا سوف يرجعون الى دين العرب " (٢).

شجعت تلك التنبؤات المسلمين فى البشراى ورفعى من معنوياتهم، لذلك

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٣ .

(٢) لوى كادرياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ص ٦١، ٦٢، ٦٤ .

ارسلت الحكومة الاسبانية لتدويخ الشوار فى البشرات الدون جون
 آخ فيليب الثانى فباش القتال فى شتاء ٩٧٧ - ٩٧٨/٩٧٩-١٥٧٠م وأتسى
 من الفطائع ما بخلت بتنديده كتب الوقائع ،فذبح النساء والاطفال امام
 عينه ،واحرق المساكن ودمر البلاد ،وكانت شعاره (لا هواة) ،وانتهى
 الامر باذعان الموريكيين^(١) ،ولكن العوائق الاخذة فى النمو كما ذكرنا
 اعاقت الدولة عن انجاز مشروع استرداد الاندلس .

قامت الدولة العثمانية بغزو قبرص فى عام ٩٧٨-٩٧٩/١٥٧٠-١٥٧١م،وبعد
 ذلك آخر الانتصارات العظمى للعثمانيين ،فالاستيلاء على هذه الجزيرة الحصينة
 جدا. قد استلزم قطع خطوط المواصلات اقوى الاساطيل المسيحية فى البحر
 المتوسط ونقل جيش ضخم الى الجزيرة والاحتفاظ به فى اراضيها ،هذا التصرف
 قد تحقق بالتعاون بين الانكشارية والبحرية ،وكان من اعظم انجازات الاسلحة
 المشتركة العثمانية ، وهذا الانتصار المحدود للدولة فى شرق البحر
 المتوسط قوى من الامل لدى الموريكيين بينما زاد من خوف الاسبان ومن
 اضهادهم لهم فى نفس الوقت .

ادرك البابا فى روما الخطر الاسلامى العظيم الذى يتهدد البــــلاد
 الاوروبية ،من جراء تدفق العثمانيين برا وبحرا واصرار الدولة على دخول
 اوروبا من جنوبها الغربى الى جانب تواجدهم فى جنوبها الشرقى ،فاخذ يسعى
 من جديد لجمع البلاد الاوروبية وتوحيد قواها تحت راية البابوية
 من اجل الوقوف فى وجه الاسلام واستطاع من جمع اسطولى اسبانيا والبندقية
 وبقية الجمهوريات والمانيا بالاضافة الى اسطول البابوية ،وتم عقد هذا
 الحلف فى كاتدرائية القديس بطرس .

استعدت المسيحية قاطبة ،تحت راية البابوية للقيام بمعركتها الحاسمة
 فاستندت قياداة اساطيلها الى الاميرال يوحنا الاستيرى ،فسار الى البحر
 (١) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ،ص ٢٩٨ .

الإديباتيك وإمام مدينة ليبانت اليونانية ، احتدمت نيران المعركة — وكانت نتيجتها في غير صالح المسلمين واستطاع قلع على ان يبنقذ عدداً من سفن المسلمين وبادر السلطان العثماني على اثرها باسناد خطة قبودان باشا الى قلع على مع بقاءه على منصبه كبيلربك للجزائر مثله في ذلك خير الدين بربروسا وابنه حسن ، وكان هذا يدل دلالة واضحة على مدى رغبة الدولة في استرداد الإندلس ، لان بيلربك الجزائر هم اعلم الناس باسبانيا واقدرهم على معرفة ظروف البحر المتوسط وتنفيذ خطة الدولة تجاه الإندلس .

اقبل قلع على بهمة ونشاط على تجديد الاسطول الاسلامي وتعويض ما فقد منه حتى ارتاعت البندقية من هذا الاستعداد فطلبت الملح من الدولة العثمانية وتنازلت لها عن جزيرة قبرص ، ودفعت غرامة حربية كبيرة .

اذا كانت نكسة ليبانت (Lepante) قد احزنت الموريسكيين فان فتح تونس وحلق الوادي من طرف العثمانيين عام ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م ، قد سرهم وكانوا يعلقون على هذه الاحداث حتى في القرى النائية في باراقوان وقشالة ، كان الموريسكيون يتابعونها باهمية بالغة ، ففي تقرير لمحاكم ودواوين التفتيش ، لوحظ أنه في كارينانا (Carinena) وضواحيها أن الموريسكيين أبدوا فرحهم ومورهم عندما سئل احد الموريسكيين : لماذا أنتم في غاية الفرح ؟ رد الموريسكي أن ذلك بسبب نجاح استيلاء العثمانيين على احد قلاع ملك اسبانيا ، ونتيجة لذلك الشعور فان هناك اعدادا من الموريسكيين كانوا قد عذبوا بسبب الشك الذي شاع حول احتمال علاقتهم بالعثمانيين ، كما أن الموريسكيين المسجونيين صرحوا برغبتهم في النـزوح الى المغرب ، حيث كان هناك شعور قوى بهجوم عثماني على اسبانيا .

ان هجمات المجاهدين على السواحل الاسبانية هو في الغالب من عمل الموريسكيين الذين لجأوا الى الجزائر وكانوا يصنعون في شارشـال (Sargel) بعض السفن الشراعية ، ونظرا لكونهم اصلا من اسبانيا ، فانهم

كانوا يعرفون السواحل ويستطيعون استعمال كثير من الدبل لانجاح حركتهم وكانوا فى الغالب على اتصال باقربائهم أو اصدقائهم الذين تركوهم ——— باسبانيا وكانوا ينزلون ليلا بعد أن يخفوا سفنهم الشراعية ——— ينزلون مرتدين لباسا مسيحيا حيث لا يتعرف عليهم وهذا بسبب اتقانهم ——— اللغة القشتالية وكانوا بذلك يفاجئون المسيحيين وبأهذونهم كاسرى . (١)

لاحظ القبودان باشا قلج على الاخطار التى تهدد الاراضى الاسلاميه واضطراب تجارتها نتيجة لاستقرار الاوروبيين على سواحل امريكا والهند والخليج العربى فاقنع السلطان بوجوب فتح قنال بحرى يمل بين ميناء السويس والبحر المتوسط وذلك لتأمين الحدود الجنوبية أولا واختصار طريق القوافل البحرية فتسترجع مصر وبلاد العرب اهميتها ولا تفقد موانئ البحر المتوسط مكانتها الاقتصادية واقتنع السلطان بذلك وابتدأ العمل الذى لم يلبث أن توقف بعد فترة لموت قلج على (٢) ولا شك أن انفتاح الميدان الجنوبى واتساعه وما اقترن به من تحول للتجارة العالمية كان من اهم العوائق التى عاقت الدولة عن استرداد الاندلس .

ضعف الامل بعد ذلك لدى الدولة العثمانية فى القضاء على الخطر البرتغالى فى المحيط الهندى عن طريق اغلاق الباب المتمثل فى الشاطئ الغربى لافريقيا وبذلك ختم الصراع بين المسلمين بقيادة الدولة العثمانية والبرتغاليين ، بنجاح المسلمين فى تأمين البحر الاحمر وحماية الاماكن المقدسة الاسلامية من الخطر الملبى البرتغالى وذلك باقامة حزام امن حول الحرمين الشريفين . (٣)

(١) لوى كاردياك: الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٤١٠ .

(٣) عمر بابكور : حزام الامن العثمانى حول الحرمين الشريفين ، رسالة ماجستير

لم تتشعر بعد .

بدأت اسبانيا تفكر فى تغيير سياستها تجاه شمال افريقيا وتونس بصفة خاصة بعد أن ظهرت المشاكل الاقتصادية فى البلاد ، وتراكم الديون على فيليب الثانى حتى توقف عن سدادها ورات الحكومة الاسبانية ان تهتم بأوروبا فنقلت معظم القواد العسكريين الذين قادوا المعارك فى البحر المتوسط الى الاراضى المنخفضة وتبدلت بذلك السياسة الإسبانية التى انصرفت عن التفكير فى تجريد الحملات لغزو شمال افريقيا واخذت تبحث مسألة عقد هدنة فى اواخر القرن السادس عشر مع الدولة العثمانية وقابل ذلك انشغال الدولة العثمانية بحروبها مع الفرس تلك الحروب التى ملأت الجزء الاخير من هذا القرن .

ومعنى ذلك ان الصراع العثمانى الاسبانى ، او الصراع الاسلامى الاوروبى حول الاندلس قد دخل فى طور جديد يمكن ان يلحظه المؤرخ المدقق وكأننا بالدولتين العثمانية والاسبانية قد بدأت تعطى ظهرها لهذا الموضوع فالدولة العثمانية اخذت تتجه أكثر للمشرق، بينما اخذت اسبانيا تتجه اكثر للعالم الجديد ، أو بمعنى آخر لم تعد الاندلس فى موضع الصدارة فى سياسة الدولتين .

كان تدفق الفضة بالقدر الكبير على اسبانيا من العالم الجديد كما أوضحنا عمل على ارباك النظام المالى الاوروبى وطرده الذهب من دائرة التداول ولما ظل الانتاج الزراعى والصناعى ثابتا ، ولم يزداد مثل معدل العملات وارتفعت الاسعار وساد التنصر فى اوروبا وشعرت اسبانيا أولا بالصدمة ، حيث كان لديها احتكار واردات الفضة من العالم الجديد ، ولكن تورط اسبانيا الدائم فى السياسات الاوروبية وموقف الدولة العثمانية من حيث اصرارها على استرداد الاندلس ، ومشكلة الديون تعنى ان الفضة مع تضخم واردها كانت تتسرب من اسبانيا الى بقية انحاء اوروبا (١) وهذا ايضا مما جعل اسبانيا تولى ظهرها فى الحقبة الاخيرة من القرن السادس عشر الميلادى للصراع مع الدولة العثمانية .

انطلقت السفن الحربية الاسبانية عام ١٥٨٨/١٥٩٧م باتجاه الشواطىء الانجليزية ولكن ردائة الطقس وبراعة القباطنة الانجليز ، أدت الى اخفاق عملية الغزو مما ساهم ذلك فى التقليل من هيبة اسبانيا فى تلك الحقبة من الصراع الدولى بالاضافة الى انها كانت عملية باهظة النفقات كلفت الخزينة الكثير من الاموال (٢) ، هذه التطورات الاخيرة قللت من الخطر الاسبانى الى حد كبير على شمال افريقية العثمانية مما اوحى للدولة العثمانية بتقليل تركيزها على مشروعاتها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، تحسنت ضغط التطورات فى الميدان الجنوبى ، اى فى البحار العربية ، وفى الميدان الشرقى مع فارس .

كلف السلطان العثمانى احد المدجنين ويدعى الكسندر كاستالانو (Alexander Costellano) من (Calando) ، للتأكد من بعض العلامات بـقشتالة وبلنسية ، ومعرفة ما اذا كانت تلك العلامات ملائمة لما نصت عليه احدى التنبؤات التى شاعت فى انحاء الدولة ، والتى تتعلق بـزمن اعادة فتح اسبانيا ، وقد ذكر الكسندر كاستالانو ، أن زمن فتح اسبانيا من طرف العثمانيين قد اقترب ، ذلك ان العلاقات التى احتوتها احدى التنبؤات قد تمت وانه فى منطقة سيارا دو قاليـنيـرا (Syerros de Gallinera) من مملكة بلنسية ، ظهر شاب فى مقتبل العمر ، يختلف كثيرا عن اقاربه وانه خلال مدة قصيرة سيكون يتيم

1- James Anthony Froude: English Seaman in the sixteenth century, P.205.

(٢) عادل سعيد بشتاوى : الاندلسيون المواركة ، ص ١٢٧ .

الأب ثم يغزو الموريسكيون هذه المنطقة وينتصرون في الحرب (١)، ليس غريبا ان يصدق السلطان تلك التنبؤات فقد كان الفلك والتنجيم لهما اهميتهما وكان منجم باشي من كبار الموظفين في قصر السلطان (٢)، مما يدل على المناخ السائد في كل انحاء الدولة عن مشروع استرداد الاندلس .

كان المنصور السعدى مودعا للسلطين العثمانيين فارسل اليهم بالهدايا وكانوا يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد الثالث كتب اليه قائلا : " لك على العهد ان لا امد يدى اليك الا للمصافحة ، وان خاطرى لا ينوى لك الا الخير والمسامحة (٣) و كان المنصور قد تراجع عن موقفه المعادى للدولة العثمانية بعد هزيمة الارمادا سنة ١٥٨٨/٩٩٧ م ، وكان السلطان العثمانى مراد الثالث قد رغب فى انتهاز الموقف لعقد حلف مع السعديين فى المغرب ، يستهدف فى الدرجة الاولى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس " ... ولما وصل لمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتغال أو كاد وانه جعل اهلها فى الاغلال والاصفاد وانه جار وعدو مضرار ، حركتنا الحمية الاسلامية لاطهار الالفة الازلية ان نتخذ عهدا ونوء كـد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحوضـة المعظمة فاذا تم هذا الشأن نوجه اليكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصره وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس ... " ، ولعل السلطان كان صادقا فى تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة امام انجلترا فى ١٥٨٨ / ٩٩٧ هـ هبطت الى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة آنذاك ، فصار من الممكن القيام بعمل ضدها سيما اذا كان من الحجم الذى تصوره السلطان مراد الثالث الذى كان يدرك ايضا مدى الصداقة القوية بين المغرب وانجلترا واتصال البلدين فى موضوع اسبانيا بالذات، مما جعل موضوع استرداد الاندلس باقيا لدى العثمانيين حتى بعد انتهاء عصر

(١) لوى كاديك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، ص ٦٤ .

(٢) محمد عبد اللطيف البجراوى : حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ، ص ٤٤ .

(٣) ابراهيم حركات : التأثير العثمانى فى المغرب ، اشغال المؤتمرات الاولى لتاريخ المغرب ، ج٢ ، ص ١٤ .

سليمان الاول .

كان جواب المنصور " ... لعل في ذلك اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن أن ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين: عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين .. " وجاء فى رسالة اخرى " ... فمآربكم بهذا الجانب الرفيع مقبولة واسباب التسيير ان شاء الله موصولة واشارتكم الى ما لجنا بنا العلوى من الجلال، بالمثابة العثمانية الطاهرة الخفال، نعم انها الرحم اسلامية وموءاخة دينية — تزداد خلوصها .. " ، وفى رسالة منه للبيلىريك العثمانى فى الجرائر — " ... اعلموا ان آنستم فى جانب الكفرة دمرهم الله عمارة تنشأ أو اسطولا يوءم ناحيتكم واحتجتم اليينا فنحن بحمد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودون بنصرتكم على اتم اهبة واستعداد ... " .

تردد السفراء بين الاستانة وفاس فتوجهت سفارات احمد بن ودة والشاطبى والشاطمى وابى الحسن على بن محمد التمكنوتى بين عامى ١٥٨٨/٩٧٩م ، ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م ، واستقبل احمد المنصور سقيرا عثمانيا فى ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م . (١)

لم تتحقق رغبة السلطان العثمانى فى التحالف مع السعديين لاسترداد الاندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الايرانيين — والهاسبى فى وسط اوربا ، بالإضافة الى واجبها نحو حماية الاماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز ، وتدعيم حزامه الامنى .

كانت الدولة العثمانية قد ضمت جميع الاقاليم الغربية من ايران بين القوقاز ونهاوند وذلك فى الفترة فيما بين سنتى ٩٨٦-٩٩٩هـ / ١٥٧٨-١٥٩٠م ، كما نجح عبد الله بك خان الحليف العثمانى فى وسط آسيا من غـ خراسان ، كما حصل القائد العثمانى فى غرب ايران (عثمان باشا) على

(١) محمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، ص ٩٥-٩٧ .

مساعدة حربية من القرم ، وحاول تشييد اسطول في بحر قزوين ، غير ان هجمات الروس في شمال القوقاز على التعزيزات المرسله من القرم وتجدد الصلات الدبلوماسية الروسية الايرانية اثار الانتباه لدى العثمانيين الذين عقدوا هدنة مع الايرانيين سنة ١٥٩٩هـ / ١٥٩٠م .

نشبت الحرب بين الهابسبرج والعثمانيين في عام ١٥٠٢هـ / ١٥٩٣م، هذه الحرب والتي استغرقت وقتا طويلا ، أظهرت كيف أن كثيرا من الظروف الدولية قد تحولت ضد العثمانيين ،ففى شرق اوربا حصل البابا على حلفاء اقوياء للنمساويين فى الافلاق والبغدان وترانسلفانيا كى يثوروا ضد العثمانيين ويحاربوا الى جانب النمساويين فضلا على هجوم قبائل قوساك الدينبر على العثمانيين وذلك فى جبهة متسعة فى البر والبحر وفى هذه المعارك بسذل العثمانيون جهودا ضخمة واحرز جيشهم فى هنغاريا بقيادة السلطان نفسه على نصر عظيم فى ميزوكرزت (Mezokereszet) اكتوبر ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م ، ولكن دون حسم مما اضطر الى مواصلة الهجوم والزحف حتى حاصر بودا (Buda) وتستمر تلك الحرب الاستنزافية على الجبهة الاوربية زمنا ليس بالقصير وحالما تتوقف تلك الجبهة ينتقل العثمانيون الى الجبهة الفارسية وترتك العلاقات المغربية العثمانية كى تكون من هذا الوقت علاقات حدود بين دولتين اسلاميتين متجاورين هذا ،وكان السلطان احمد المنصور السعدي قد بدأ فى الخروج بالمغرب من اطار الامارة الناشئة المدافعة عن حدودها الى اطار الدولة الاسلامية الكبرى الثانية فى علاقات المغرب الاسلامى .

أرسل الشاه الصفوى عام ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م سفراء الى أوروبا لعقد مباحثات عسكرية واقتصادية ذات صيغة معادية للعثمانيين ففى فيينا استقبل الامبراطور النمساوى السفارة الايرانية بحرارة واخبر اعضاءها برغبته فى تأليف حلف مضاد للعثمانيين مع الروس والجورجيين فى الشرق وأنه فى سبيل توحيد الملوك المسيحيين فى أوروبا للقيام بحملة طليبية مقدسة ،وفى ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م اتجه الشاه الى استئناف الهجوم الفارسى على العثمانيين بهذا واجهت الدولة الحرب فى وقتواحد على جبهتين غربية

وشرقية بالإضافة الى الاضطرابات الداخلية التى اخذت تهرز أرجاء الدولة العثمانية .

ومع ان الدولة العثمانية خالفت قواعد التاريخ المعروفة من حيث اشتباكها فى جهاد أو حروب فى اكثر من ميدان الا أن اشتعال الميادين الاربعة : الغربى والشرقى والجنوبى وبدء ثقل جديد على الدولة من الشمال كل ذلك مثل عائقا ضخما بالنسبة لاهداف الدولة فى شبه الجزيرة الايبيرية .

استمر المجاهدون ومعهم حلفاؤهم العثمانيون فى القيام بالاعمال الحربية ضد اسبانيا لتشكل ضغطا مستمرا على اسبانيا فى غرب البحر المتوسط اذ تعرضت البحرية الاسبانية الى هجوم مستمر ، كما كان هناك عدد من الاسرى المسيحيين لدى سكان شمال افريقيا يحتاجون الى فدية وامام ذلك الضغط الاسلامى الصارم قامت البحرية الاسبانية بنشاط مضاد محققا بعض النجاح مما دعى المورييسكيين الى شن الحرب داخل المعسكر الاسبانى فى الفترة من ١٠١٠ - ١٠٢٥هـ / ١٦٠١ - ١٦١٦م (١).

لم تكن هناك فى البداية حملة ضخمة لطرد وابعاد المورييسكيين من اسبانيا ، صحيح رأى المسيحيون فى الاسلام عدوا عنيدا للعقيدة الكاثوليكية ولاسبانيا بسبب حماسة العثمانيين ونشاطهم الذى لم يفتقر ، ولكن العداء نحو المورييسكيين كان اقل من ذلك ، لذلك لا توجد دوافع ملحة لدى العامة لطردهم .

احتدت المناقشة بين رجال الدولة والكنيسة وانقسم رأيهم حول الاجابة على تساؤل فحواه : هل يمكن ان يندمج بعض المورييسكيين فى العقيدة المسيحية والمجتمع ؟ ، وقام عدد من رجال الدين بالدفاع عن المورييسكيين

ولكن كانت توصياتهم غير ذى قيمة امام اغلبيه الاصوات المتعصبة والذين طالبوا الملك الاسبانى والحكومة الاسبانية بطردهم فورا من التراب الاسبانى على اعتبارهم كفره وبذلك يستفاد من ممتلكاتهم كما يجب استبعادهم عن العمل فى السفن المسيحية والمناجم ويجب بيع هؤلاء الموريكيين فى خارج اسبانيا وعلى الصعيد الحكومى ، وكان هناك ايضا انقسام فى رأى ، بين مؤيد لعملية الطرد ومعارض لذلك وكان المعارضون اصحاب مصالح شخصية من الطبقة الارستقراطية والذين رأوا فى الموريكيين كقوة عاملة يمكن الاستفادة منهم او من استعمار اراضيهم بقيمة منخفضة لكن كان الفلاحون الاسبان ينظرون الى خصومهم ومنافسيهم الموريكيين بالحسد واعتبروهم تابعين للطبقة الارستقراطية ملاك الاراضى ولذلك طالبوا بطرد الموريكيين ، وكان الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الايبيرية يعيش فى خطر حقيقى وذلك من جراء النمو السكانى السريع للموريكيين فى فالينسيا (Valencia) والاراغوان (Aragon) وكان هذا يهدد ميزان القوة بين المجتمعين وربما فى النهاية ترجح الكفة لصالح الاسلام وبناء على ذلك فان ابعاد وطرد الموريكيين يعتبر عمل من اعمال حروب الاسترداد المسيحية .

ناقش المجلس الاسبانى تلك الامور وبدأ يوصى بابعاد الموريكيين وذلك على اعتبار أن أمن اسبانيا لا يتحقق الا بتلك الطريقة ، وفى ٢٠ محرم ١٠١٨هـ / ١٤ ابريل سنة ١٦٠٩م اوصى المجلس وبشدة الملك بضرورة الابعاد ، وقبل الملك الاسبانى فيليب الثالث تلك النميحة وتقرر طرد وابعاد جميع الموريكيين من اسبانيا على أن يبدأ ذلك من فالينسيا أولا .

كانت مشكلة الموريكيين تعتبر من اقوى المشاكل حدة بسبب كثرة عددهم وتمركزهم فى الجبال المنيعه ولموقعهم بالقرب من الخط الساحلى والسهل الوصول اليه من شمال افريقيا ، وكان من المنطق أن يطردوا من فالينسيا أولا ، قبل أن ينظموا دفاعهم او يطلبوا مساعدة خارجية وبدأت الاستعدادات فى منتهى واقصى السرية وتجمعت السفن بالمجاذيف فى البحر المتوسط كما احضر الاسطول المرباط فى الاطلس وحشدت الوحدات العسكرية وفى سبتمبر اخذت القوات البحرية مواقعها فى ثلاث موانى ، ثم انسحبت ثلاث

وحدات من إيطاليا واخذت مواقع استراتيجية فى شمال وجنوب فالينسيا ———— ،
وامر ماركيز كارازينا (Carazena) اعلان قرار الطرد والابعاد
الذى شمل جميع المورسكيين باستثناء الاطفال الذين تقل اعمارهم عن خمس
سنوات وارتفع بعد ذلك الى اربعة عشر عاما ، اذا وافق آباؤهم على ————
بقائهم (١) واستمرت عملية الطرد فى فالينسيا حتى ١٥١٩هـ / ١٦٦٠م ، ثم جاء
دور ارغوان بعد ذلك ثم تشمل جميع انحاء اسبانيا واستغرقت تلك العملية
حتى ١٥٢٥هـ / ١٦٦٦م .

لم تكن الحالة فى الدولة العثمانية تسمح بالتدخل فى قرار الطرد
ولكن استطاع الباب العالى ان يستغل صداقاته مع فرنسا وبريطانيا والبنديقية
فضلا عن السلايات العثمانية بافريقيا والمغرب الاقصى وطلب من هاته الحكومات
مساعدة الموريسكيين على الهجرة وتسهيل مهمتهم والتدخل لدى الحكومات
الاسبانية للتخفيف من القوانين الجائرة والمسلطة على المسلمين .

سعى السلطان احمد الاول على تدعيم علاقاته مع المغرب الاقصى الذى
يعتبر البلد الاسلامى المتمثل مباشرة باسبانيا والاندلسيين وفى شعبان
١٥٢٣هـ / سبتمبر ١٦١٣م وصل خليل باشا الى المغرب فى مهمة الظاهر منها
توطيد العلاقات مع السعديين وتبديل السفراء غير ان المتتبع والمتأمل
فى سياسة الباب العالى فى هذا الوقت ، لا ينفى ان تكون مهمة لها علاقة
مباشرة بقضية الموريسكيين هاته القضية التى اهتم بها المسلمين فى المشرق
والمغرب ثم تأتى زيارة خليل باشا الى طرابلس الغرب لنفس المهمة والغرض .

كما قام السلطان العثمانى بمساعى اخرى حثيثة لدى بريطانيا ————
وفرنسا والبنديقية لمساعدة الموريسكيين وانقاذهم وتسهيل تحويلهم الى
الاراضى العثمانية فكلف السلطان احمد الاول الحاج ابراهيم اغا احمد
خواص الخدمة العثمانية بالسفر الى لندن ومقابلة ملكها ————
الاول (Jecques I) ، وطلب مساعدته فى احتضان الموريسكيين

الذين غادروا اسبانيا وتسهيل نقلهم الى الاراضى العثمانية الا ان بريطانيا
التي عقدت معاهدة سلم مع اسبانيا لم تستجب لطلب السلطان العثمانى .

اما فرنسا حيث كانت علاقات الدولة العثمانية ودية معها فـــــــ
ارسل احمد الاول الى الملكة مارى دى ميدسيس (Marei de Medesis)
الوصية على ابنها لويس الثالث عشر رسالة يطلب منها ان تساعد الموريسكيين
الذين نزلوا بجنوب فرنسا وتوفير عدد من السفن ليتم نقلهم الى اراضى
الدولة العثمانية ، وقد استجابت الملكة لنداء السلطان وامرت باخراج
المسلمين واركابهم سفنا فرنسية من سواحلها الى حيث يرغبون من البلاد
الاسلامية .

كذلك ناشد السلطان احمد الاول دوج البندقية تقديم كل اعانة لهؤلاء
الموريسكيين كما طلب منه : " ... فلا تسمحوا لاحد ان يتدخل فى امورهم
او يتعرض لهم ولازاقهم واموالهم ودوابهم خلافا للعهد والامان (بيننا)
وهذا اثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعاير ليصلوها آمنين سالمين
وقد سبق واتضح لنا حسن اهتمامكم وتيقنوا أن مساعدتكم لهؤلاء المساكين
بدخولهم بلادنا التى هى دار الامان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب
لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة فاهتموا واسعوا ، بناء على هذا
ان يمرروا ويعبروا راضين عن حالهم مرفعى البال " (١) تحريرا فى اواسط
شهر جمادى الاول سنة ١٠٢٣هـ / الموافق ما بين ١٩ ، ٢٩ يونية ١٦١٤م .

نتبين من خلال ذلك مدى الاهتمام البالغ الذى اظهرته الدولة العثمانية
لقضية الموريسكيين مع الحكومات الاوروبية حتى يبدو وكأن قضية الموريسكيين
قد غطت على الهدف الاسمى الذى شغل الدولة فى القرن السابق ، وسبق لنا
ان وضعنا اهتمام الدولة والسلطين العثمانيين فى محاولات عديدة لاسترداد

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة من السلطان العثمانى احمد الاول الى دوج
البندقية حول الموريسكيين ، المجله التاريخية المغربية العدد ٧ ، ٨ ،

الاندلس وكادت تلك المحاولات أن تأتي بثمارها لولا الظروف التي تعرضت لها
والعوائق التي أضعفها .

اتضح جلياً أن أمل أوروبا عامة وإسبانيا خاصة في سقوط الدولة
العثمانية مبالغ فيه ، وأفاد تاريخ الدولة العثمانية بأن العثمانيين
امتازوا بنشاط خاص وعبقريّة فذة مكنتهم أكثر من مرة وقف مراحل السقوط
وظهرت من أوائل القرن الحادى عشر الهجرى / القرن السابع عشر الميلادى علامات
استعادة الزحف العثماني وتجدهد فى سنوات لاحقة اتسعت الحدود العثمانية
فى أوروبا بشكل يزيد عن الماضى واستطاع العثمانيون حصار فينا للمرة
الثانية (١) ، مما جعل المؤرخين يتساوّلون عن سر تلك القوة الكامنة
والتي لم تتوفّر لدى الامبراطوريات الأخرى ؟ فهى تتعرض للسقوط عدة مرات
على مدار الأربعة قرون لكن تأتي قوة خفية تنقّذها من ذلك السقوط ويتجدد نشاط
الدولة ، ولم يجد هؤلاء المؤرخين جواباً على ذلك التساؤل ولكننا نجيب
على ذلك التساؤل بأنه الاسلام والروح الجهادية وطبيعة الدولة منذ نشأتها .

وكما طال عمر الدولة وطال عصرها الاول ، عصر المجد والعظمة والفتح
والجهاد فقد طال مسعى الدولة سعياً صادقاً دؤوباً وراء تحقيق استرداد
الاندلس ، بيد أن اتساع الدولة وامتداد اطرافها وانشغالها فى أكثر من
ميدان ، وظهور العوائق ونموها ، وخاصة خروج الأوروبيين الى المحيط الهندى
والعالم الجديد وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ، وما أعقب
ذلك من تطورات خطيرة فى الميدان الشرقى ، كل ذلك أعاق استرداد الاندلس
على ايدي العثمانيين .

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P.159-160.

الملاحق

ملحق رقم (١)

(المصــــادر والمراجعــــــــع)

.....

وشيقة عربية :-

١ - رسالة اهل الجزيرة بعد استيلاء اهل الكفر على جميعها الى السلطان بايزيد ، المكتبة الوطنية بالجزائر / رقم ١٦٢٠ .

٢ - زين الدين الملبارى : تحفة المجاهدين

عاش المؤلف الكثير من الاحداث التى ذكرها ، ومع صغر المخطوطة اذ لا تزيد عن سبع وأربعين ورقة ، الا انها مفيدة جدا فى التعرف على مجىء البرتغاليين الى السواحل الهندية ونشاطاتهم واعمال القرصنة البحرية التى كانوا يقومون بها ويركز المؤلف على كفاح حكام كالى كوت ، ضد الهيمنة البرتغالية كما تتضمن الرسالة الاخبار المتعلقة بالبرتغاليين منذ مجيئهم الى كالى كوت فى مطلع العصر الحديث وحتى سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م .

المخطوط محفوظ ضمن مجموعة فى مكتبة جامعة برستن بمدينة نيوجرسى الامريكية تحت رقم ٣٩٢٠ ، وتوجد نسخة مصورة على ميكروفلم ، فى المكتبة التابعة لمركز البحث العلمى واهياء التراث الاسلامى فى كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة ام القرى ، بمكة المكرمة تحت رقم ٥٧٥) تاريخ وتراجـم (.

٣ - عبد القادر ابن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا .

يقع المخطوط فى ٧٣ ورقة ومحفوظ بالمتحف البريطانى قسم الدراسات الشرقية تحت رقم ٣٢٧٠ .

٤ - الحسن بن محمد الوزان القاسى : وصف افريقيا

الشركة المغربية للناشرين المتحددين ، الرباط ، الطبعة الاولى

١٩٨٢م

الكتاب عبارة عن رحلة قام بها المؤلف ، تحدث فى القسم الرابع عن

مملكة تلمسان ، والخامس عن مملكة بجاية وتونس .

- ٥ - شهاب الدين احمد المقرئ : ازدهار الرياض فى اخبار عياض
الرباط ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م .
يقع الكتاب فى خمسة اجزاء ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ،
عبد الحفيظ شلبى .
- ٦ - شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ : نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب
دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
الكتاب يقع فى ثمانية اجزاء ، تحقيق احسان عباس ، ينقسم الكتاب
الى قسمين ، قسم خاص بالاندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين الخطيب ومما
يتعلق به من شئون .
- ٧ - محمد بن أحمد بن ابياس : بدائع الزهور
فى وقائع الدهور
مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
- ٨ - قطب الدين محمد بن احمد النهروالى المكي : البرق اليمانى
فى الفتح العثمانى
دار اليمامة ، الرياض الطبعة الاولى ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
يتحدث الكتاب عن تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى ، مع التوسع
فى أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر .
- ٩ - يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على : غاية الامانى فى
اخبار القطر اليمانى .
دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، يقع الكتاب فى جزأين ، وهو
عبارة عن حوليات لأخبار اليمن .

- ١٠- مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية .
الرباط ، ١٩٣٤م .

المراجع العربية :

- ١١- ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية
قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون
(١٥١٠ - ١٩٤٧ م) .
منشأة المعارف ، الاسكندرية ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م .
الفصل الثانى : الامبراطورية العثمانية ومراحل الغزو والتوسع فى تاريخها .
الفصل الخامس : ابيالة الجزائر والعلاقات بينها وبين المغرب .
- ١٢- ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر
الهجرى الى الرابع عشر الهجرى (١٦-٢٠م)
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١م .
جزئين الجزء الاول ، الفصل الثانى ، تحدث عن العلاقات بين الجزائريين
والعثمانيين .
- ١٣ - أجييه يونان جرجس : البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربى
والصراع العالمى .
مكتبة غريب ، القاهرة ،
تحدثت المؤلفة عن أهمية البحر الاحمر خلال العصور التاريخية ، ثم
التنافس الدولى للسيطرة على مداخل البحر الاحمر .
- ١٤- احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا
١٤٩٢ - ١٧٩٢م .
المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م .

ويوضح الكتاب الغزو الصليبي الاستعماري الاسياني للجزائر ، وما كان
لذلك الغزو من اسباب ونتائج وما اقترن به طيلة ثلاثة قرون (١٤٩٢-١٧٩٢ م)
من ملايسات وتطورات .

١٥ - احمد عبد الرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى

دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

الفصل الاول : اصل الاتراك العثمانيين ، الفصل الرابع : نظام الحكم
العثمانى ، الفصل الخامس : مرحلة الانتقال بين الدولة بعد سليمان القانونى .

١٦- اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار .

المطبعة الاميرية ، ببلاق ، مصر ، الطبعة الاولى ، ١٣١٢ هـ .

المؤلف كان ناظر المدارس الحربية ، يقع الكتاب فى جزء اول وجزء ثان ،
الجزء الاول أربعة عشر بابا - ابتداء بذكر الملاحة فى الازمة القديمة
حتى وصل لتاريخ الدولة العثمانية من تأسيسها حتى سقوطها . ثم كتــــب
عن الادارة البحرية .

١٧ - بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث

والمعاصر .

مكتبة رأى العام التجارية ، الكويت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ م .

الجزء الاول : الفترة الزمنية الممتدة ما بين مطلع القرن السادس عشر
وبداية القرن التاسع عشــــر .

١٨ - بسام العسلى : الجزائر والحملات الصليبية

(١٥٤٧ - ١٧٩١ م) .

دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م .

الفصل الاول : الجزائر المجاهدة ، الموقف على الجبهة الاسلامية فى المشرق

معركة ليبانتى ١٥٧١ ، الجهاد على الجبهة الاوروبية .

- ١٩- جلال يحيى : العالم العربى الحديث
دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤م .
- الباب الاول : امتداد الحكم العثمانى ، تحول الطرق والتجارة ، الغزو العثمانى
فى الشرق الادنى ، الدولة العثمانية والمغرب العربى .
- ٢٠- جلال يحيى : المغرب الكبير ، العصور الحديثة ، وهجوم الاستعمار
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١٩٦٦م .
- الجزء الثالث : الفصل الثالث : الدولة السعدية فى مشكلات المغرب الاقصى ،
الفصل الرابع : تركيز الاوضاع واستمرار الجهاد البحرى .
- ٢١- جلال يحيى ، جاد طه : معالم التاريخ الاوروبى الحديث
منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣م .
- الكتاب عبارة عن دراسة لتطور الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية
فى القارة الاوروبية وعلاقتها مع العالم .
- ٢٢- حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر
مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢م .
- الباب الثالث : ليبيا فى العصور الحديثة (٩٥٨هـ / ١٣٨٠م) (١٥٥١-١٩٦١م) .
- ٢٣- حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث
لجنة الجامعيين لنشر العلم ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .
- القسم الاول : مقدمات العصر الحديث ، الاثراك يعيدون وحدة الاسلام .
نهضة اوروبا وانتقال الصراع الى البحر ،
حركة الكشف الجغرافى .
- ٢٤- السيد رجب حراز : ارتريا الحديثة (١٥٥٧ - ١٥٤١)
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
- يتكون الكتاب من ستة فصول فى الفصل الثانى تحدث عن ارتيريا تحت الحكم
العثمانى .

- ٢٥- زاهر رياضي : الاسلام في اثيوبيا في العصور الوسطى
دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٤م .
- ٢٦- سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي
دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢م .
الفصل الثالث : عرب الخليج يقاومون الغزو البرتغالي .
- ٢٧ - شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث
(ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب)
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧م .
الباب الاول : اتجاه المطامع الاجنبية الى المغرب العربي .
الباب الثاني : المغرب الاقصى منذ بداية القرن السادس عشر .
- ٢٨- الأمير شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس
دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
الفصل السادس : في سقوط غرناطة ، الفصل السابع : حال مسلمي الاندلس
فيما بعد ملكهم .
- ٢٩- صلاح العقاد : المغرب العربي (الجزائر - تونس - المغرب الاقصى) .
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩م .
القسم الاول : المغرب في العصر الحديث احوال المغرب قبيل القرن
السادس عشر .
- ٣٠- عادل سعيد بشتاوي : الاندلسيون المواركة
طبع بمطابع انترناشيونال ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٣م .
الكتاب عبارة عن دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة .

- ٣١- عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦م .
يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول : تحدث عن الحالة السياسية في
المغرب ، كما تحدث عن الحالة عند السعديين .
- ٣٢- عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث من عصر النهضة إلى
مؤتمرات فيينا .
مطابع جامعة الرياض / الرياض .
الفصل الثالث : التوسع الأوروبي وحركة الكشوف الجغرافية ، ثم تحدث عن
الصراع الديني في أوروبا .
- ٣٣- عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الإندلسي من الفتح الإسلامي
حتى سقوط غرناطة
دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
الفصل الثامن : مملكة غرناطة ، حالة إسبانيا النصرانية ، الصراع بين
غرناطة وسلطات إسبانيا النصرانية ، محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة
ومحاكم التفتيش .
- ٣٤- عبدالرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام
دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠م .
الجزء الثالث : الدولة الجزائرية التركية العثمانية .
- ٣٥- عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة
مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٥م .
يتناول هذا الكتاب - في جزأين الأول والثاني - تاريخ أوروبا منذ عصر
النهضة حتى إبرام معاهدة وستاليا ١٦٤٨م .

٣٦- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية

مفتى عليها

مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

يقع الكتاب فى ثلاثة اجزاء ، تحدث عن الدولة العثمانية ، ونشأتها وحملات التشهير بها ثم تحدث عن الخصائص العامة لها ، وعن سياستها العليا .

٣٧- عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين

الحادى عشر والخامس عشر

المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ط ١٩٦٩م .

الفصل الحادى عشر : تصارع القوى فى العالم الاسلامى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

٣٨- عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية

شركة الطبع والنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٧٧م .

الفصل التاسع : التقارب السعدى البرتغالى - الاسبانى .

٣٩- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية

المكتب الاسلامى ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

تحدث الكتاب عن نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها وعن السلطان محمد الفاتح كما تحدث عن الدولة فى اوج قوتها ، وعن عوامل الضعف والانحطاط وعن الدولة خلال تلك المرحلة .

٤٠- على حسون : العثمانيون والروس

المكتب الاسلامى ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م .

ثمانية ابواب اولاهما عن نشأة العثمانيون والروس حتى فتح القسطنطينية الباب الثالث على مصادر العداء العثمانى الروس .

٤١- عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر
دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠م .
القسم الاول : تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ١٥١٧ - ١٩٥٢م) .

٤٢- فاروق عثمان اباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر
١٨٣٩ - ١٩١٨م .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
المقدمة : الملامح العامة المميزة لمنطقة البحر الاحمر ولميناء عدن الهام
الفصل الاول : الاوضاع القائمة في منطقة البحر الاحمر قبيل احتلال
بريطانيا لعدن في سنة ١٨٣٩م .

٤٣- فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز
في القرن ما بين ١٢٩٣-١٣٣٢هـ / ١٨٧٦-١٩١٦م .
مطبعة سجل العرب ، القاهرة ، ١٣٧٨م .
الفصل الثالث : امتيازات ولاية الحجاز .

٤٤- قدرى قلجى : الخليج العربى
دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٤٥- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى
١٥١٤ - ١٥١٤م) .

مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة
تحدث عن بناء الدولة العثمانية فى اوربا ، كما تحدث عن الفتوحات
العثمانية فى الشرق العربى .

٤٦- محمد بيرم الخامس التونسى : صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار
دار صادر ، بيروت

٤ أجزاء ، الجزء الاول : مراكش ، الجزء الرابع : مملكة مراكش .

- ٤٧- محمد بن تاويت : تاريخ سبتــــــــــــة
دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م .
تحدث عن تاريخ سبتة من الفتح الاسلامى لسبتة سنة ٨٩ هـ ،
الباب السابع : سبتة فى عهد الاحتلال البغيض .
- ٤٨- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى
اسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها
شركة فرج الله للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٥٤م .
الفصل الثالث : القوى الحربية " القوى البرية ، القوى البحرية " .
- ٤٩- محمد حجيى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين
دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، المغرب ، ١٩٧٦م .
يقع الكتاب فى جزئين .
- ٥٠ - محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديثـــــــــــــــــــــث
من الفتح العثمانى الى الاحتلال الفرنسى
مكتبة دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م .
الفصل الاول : التدخل الاجنبى فى شمال افريقية ، التدخل الاسبانى ، التدخل
العثمانــــــــــــــــى .
الفصل الثانى : الجزائر العثمانيــــــــــــــــة .
- ٥١- محمد بن الشريف أبى عبد الله السيد محمد السليمانى :
اللسان المعرب عن تهافت الاجنبى حول المغرب
مطبعة الامنية ، الرباط ، الطبعة الاولى ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م .
- ٥٢- محمد عبده حتاملة : التنصير القسرى لمسلمى الاندلس فى عهــــــــــــد
الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤ - ١٥١٦ م) .
شركة المطابع النموذجية ، عمان ، الاردن ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م .

٥٣ - محمد عبده. حتملة : التهجير القسري لمسلمي الاندس فى عهد ———
 فيليب الثانى (١٥٢٧ - ١٥٩٨م) .
 عمان ، الاردن ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م .

٥٤ - محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ———
 دار الطباعة المغربية ، تطوان ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧م .
 جزاين ، الجزء الثانى : عصر السعديين حتى انتهاء عصر الحماية

٥٥ - محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الاصلاح العثمانى ———
 عصر السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) .
 دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨م .
 الفصل الاول : الدولة العثمانية قبل حركة الاصلاح .

٥٦ - محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيون عدن وانتقال التوازن
 الدولى من البر الى البحر
 دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩م .
 مقدمة وسبعة فصول وتحليل ونتائج ، الفصل الخامس : الاسباب التى حملت
 العثمانيين على فتح عدن .

٥٧ - محمد الهروسى المظوى / الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب
 دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .
 الفصل الرابع عشر : الصراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيين .

٥٨ - محمد عبدالمنعم السيد الراقد : الغزو العثمانى لمصر ونتائجـه
 على العالم العربى

مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ——— ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .
 الفصل الثانى : اسباب الغزو - الاتجاه نحو اوربا ، الاتجاه نحو المشرق .
 الفصل الرابع : نتائج الغزو العثمانى - سيطرة العثمانيين على شمال افريقيا .

٥٩ - د. محمد المغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي
الدار الوطنية للتوزيع والنشر بغداد ، ١٩٨٢ .

٦٠ - محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية

دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م .

تحقيق الدكتور / احسان حقى ، يتطرق الكتاب الى تاريخ الدولة العثمانية
بالتسلسل الزمني لكل سلطان حتى ينتهى بآخر السلاطين .

٦١ - محمد قشتيلو : محنة الموريسكوس في اسبانيا

مطبعة الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٠ م .

سقوط غرناطة آخر دولة اسلامية بشبه الجزيرة اليبيرية ، كارلوس الاول - فيليب
الثانى - حرب البوشار واسبابها .

٦٢ - محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

بدء المؤلف بالحديث عن توسع الدولة العثمانية ١٢٣٢ هـ / ١٥١٢ م وانتهى
بالحديث عن البلقان والحرب العالمية الثانية ١٩٣٨ - ١٩٤١ م .

٦٣ - محمد مرسى ابو الليل : الهند ، تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها

مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

يقع الكتاب في أربعة أبواب ، الفصل الرابع من الباب الثانى تحدث عن
الهند في عصر الاستعمار .

٦٤ - محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين .

مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة

١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٦٥ - محمد مظفر الادهمى : دراسات في التاريخ الاوروبى الحديث

عصر النهضة - الثورة الفرنسية

مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٤ م .

٦٦ - محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين

الازدهار والذبول

الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤م .

يبدأ الكتاب بالدولة الحفصية الموحدية بتونس ، وينتهي بعصر الاحتلال

الفرنسي .

٦٧ - مديحة احمد درويش : سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع

عشر

دار الشروق للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الاولى

الفصل الاول : عمان قبل القرن الثامن عشر .

٦٨ - نبيل عبد الحى رضوان : الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية

بعد افتتاح قناة السويس ،

(١٢٨٦ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٦٩ - ١٩٠٨ م)

رسالة ماجستير

تهامة ، جدة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٦٩ - نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب

(اواخر العصور الوسطى)

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

الفصل الاول : نظرة سياسية عامة فى اصول دول البحر المتوسط من سقوط

القسطنطينية ١٤٥٣ م - الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧ م .

الخاتمة : كشف طريق رأس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك .

٧٠ - نوال حمزة صيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى

فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى

بحث نالت به درجة الماجستير فى التاريخ الاسلامى

دائرة الملك عبد العزيز ، الرياض ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

المراجع الأجنبية المترجمة :

- ٧١ - اتورى روسى : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١م
تعريب وتقديم خليفة محمد التليسى .
دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤م .
القسم الثانى : الفصل الاول : سيطرة الاسبان وفرسان مالطا على طرابلس .
الفصل الثانى : الحكم العثمانى
- ٧٢ - ارجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر
ترجمة : د. عبد الجليل التيمى +
منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، ١٩٧٠م .
قدم هذا العمل فى سنة ١٩٥٣م الى كلية الاداب بجامعة استانبول كرسالة
دكتوراه .
- ٧٣ - ارنولدت . ويلسون : الخليج العربى
مجمل تاريخى من أقدم الازمنة حتى اوائل
القرن العشرين .
ترجمة د . عيد القادر يوسف
مكتبة الامل ، الكويت ، السالمية .
- ٧٤ - باذل دافدن : افريقيا تحت اضواء جديدة
ترجمة جمال م. . أحمد .
دار الثقافة ، بيروت ، لبنان
الفصل السادس : تجار المحيط الهندى

- ٧٥ - ب . ج . د . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية - المغربية حتى عام ١٩٠٠م
ترجمة ودراسة وتعليق : د. يونان لبيب رزق
دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١م .
يتكون الكتاب من تسعة فصول . الفصل الثانى : التجارة والسياسة على عهد
اليزابيث .
- ٧٦ - جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور
ترجمة عبدالحفيظ الميار ، واحمد البازورى .
دار الفرجانى ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٢م .
تحدث عن الاتراك والقرنة منليون .
- ٧٧ - سبنسر ترمينجهام : الاسلام فى شرق افريقيا
ترجمة وتعليق : محمد عاطف النواوى .
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣م .
القسم الاول : ذكر الاستعمار البرتغالى لشرق افريقيا .
- ٧٨ - ستيفن هيملسن لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث
ترجمة : جعفر الخياط
بغداد ، الطبعة الخامسة
يقع الكتاب فى اثنى عشر فصلا ، بدأ من الدخول التركى للعراق ، وحتى أواخر
القرن التاسع عشر .
- ٧٩ - شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية
(تونس - الجزائر - المغرب الاقصى)
من الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠م .
تعريب : محمد مزالى ، البشير بن سلامة .
الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م .
جزأين ، الجزء الثانى ، الباب السادس ، الحروب الصليبية الاسبانية

٨٤ - ك.م. باننيكار : آسيا والسيطرة الغربية

ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد

دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

سنة اقسام ، القسم الاول : عصر التوسع ١٤٩٨ - ١٧٥٠م .
رسائل علمية :

٨٥ - عمر بابكور : حزام الامن حول الحرمين الشريفين

رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من جامعة ام القرى ، لم تنشر .

٨٦ - غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر

رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك

عبد العزيز في مكة المكرمة عام ١٤٠٠هـ / ١٤٠١هـ .

٨٧ - نصير احمد نور احمد : عصر اكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية

في الهند

رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي الحديث ، قدمت لكلية الشريعة

والدراسات الاسلامية بجامعة ام القرى - عام ١٩٨٤م .

٨٨ - هشام محمد علي عجيبي : قلعة المويلح

دراسات معمارية حضارية

رسالة ماجستير من كلية الشريعة بجامعة ام القرى

الدوريات والمجلات العلمية :

٨٩ - اشغال الموءتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته
سلسلة الدراسات التاريخية ، ١٩٧٩م ، تونس .

٩٠ - مجلة اوراق ، مجلة ثقافية يصدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة
العدد الثالث ، ١٩٨٠م .

٩١ - المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، الاعداد الثانى والثالث ، والسادس
والسابع والثامن والثانى عشر .

٩٢ - مجلة الدارة ، العدد الثانى السنة ١١ .

٩٣ - مجلة كلية الاداب بفاس ، العدد الثانى والثالث .
الوثائق التركية :

٩٤ - مهمة دفترى رقم ٩ صفحة ٧٧ رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ١٩٧٧ . ارشيف رئاسة الوزراء .

٩٥ -	"	"	"	"	٩	"	٧٩	"	٢٣١	"	٢٤	"	٩٩٧٧ هـ	"	"	"
٩٦ -	"	"	"	"	١٤	"	١٩٩	"	٢٨٣	"	٣	مفر	٩٩٧٩ هـ	"	"	"
٩٧ -	"	"	"	"	١٤	"	٢٠٠	"	٢٨٤	"	٣	مفر	٩٩٧٩ هـ	"	"	"

المخطوطات التركيبية :

٩٨ - احمد جواد موللى : الزهرة النيرة فى بيان ما جرى حين اغارت على الجزائر
اجناس الكفرة .

يقع المخطوط فى ٥٢ ورقة . ذكر خلالها هجمات الاسبان على الجزائر وعددها
ثمان هجمات .

مخطوط محفوظ بالمتحف البريطانى . قسم الدراسات الشرقية

() ويحمل رقم () .

المصادر الأجنبية :

- 100- - Les Sources inedites de L'Histoire du Maroc
Archives et Bibliothèques D'Espagne
T.1 Par. H. De Casterie
Paris et Madrid 1921 .
T.2 Par. Robert Ricord et Chantal de la Veronne
Paris . 1956

Archives et Bibliothèques de Portugal

T.2 Seconde Partie

Par. Pierre de Cenival ,
David Lopes et Robert Ricord
Paris 1946.

T.3 Par. Robert Ricord
Paris 1948 .

المجموعة الكبرى للوثائق المغربية .

المطبوعة تحت عنوان : المصادر الأصلية لتاريخ المغرب

- 101- - Les Sources inedites de L'Histoire du Maroc -

وبيان هذه المجموعة كلها كالآتي :-

Archives et Bibliothèques
de Portugal .

١ - محفوظات ومكتبات البرتغال :

المجلد الاول	باريس ١٩٢٤	من سنة ١٤٨٦ - ١٥١٦
المجلد الثاني	أ - باريس ١٩٣٩	= = ١٥١٦ - ١٥٢٦
= =	ب - باريس ١٩٤٩	= = ١٥٢٧ - ١٥٣٤
= الثالث	باريس ١٩٤٨	= = ١٥٣٥ - ١٥٤١
= الرابع	باريس ١٩٥١	= = ١٥٤٢ - ١٥٥٠
= الخامس	باريس ١٩٥٣	= = ١٥٥٢ - ١٥٨٠

Archives et Bibliotheque de L'Espagne : محفوظات ومكتبات اسبانيا : ٢

المجلد الاول	باريس - مدريد ١٩٢١	من سنة ١٥٣١-١٥٥٢
=	باريس ١٩٥٦	= = ١٥٦٠-١٥٥١
=	باريس ١٩٦١	= = ١٥٧٨-١٥٦٠

Archives et Bibliotheque Franc : محفوظات ومكتبات فرنسا : ٣

المجلد الاول	باريس ١٩٠٥	من سنة ١٥٣٣ - ١٥٧٨
=	باريس ١٩٠٩	= = ١٦١٤ - ١٥٧٨
=	باريس ١٩١١	= = ١٦٦٥ - ١٦١٧

Archives et Bibliothques Angletere : محفوظات ومكتبات انجلترا : ٤

المجلد الاول	باريس - لندن ١٩١٨	من سنة ١٥٤٠ - ١٥٨٩
=	باريس ١٩٢٥	= = ١٦٢٥ - ١٥٩٠
=	باريس ١٩٣٦	= = ١٦٦٠ - ١٦٢٦

Archives et Bibliothques Pays Bas : محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة : ٥

المجلد الاول	باريس ١٩٠٦	من سنة ١٥٧٨ - ١٦١١
=	باريس لاهاي ١٩٠٧	= = ١٦١٦ - ١٦١٢
=	باريس لاهاي ١٩١٢	= = ١٦٢٣ - ١٦١٧
=	باريس لاهاي ١٩١٣	= = ١٦٤١ - ١٦٢٤
=	باريس لاهاي ١٩٢٠	= = ١٦٥٤ - ١٦٤٢
=	باريس لاهاي ١٩٢٣	= = ١٦٦٠ - ١٦٥٥

المراجع الاجنبية :

- 102 - A.J. Grant : A history of Europe from 1494 to 1610.
Methuen & Coltd . London .
- 103 - Dan O'Sullivan : The Age of Discovery
1400 - 1550
Longman . London and New York .
- 104 - George Clark : Early Modern Europe
From about 1450 to about 1720
Oxford University Press. London . 1966 .
- 105 - Halil Inalcik : The Ottoman Empire. *Empire*
The classical Age 1300 - 1600
Weidnfeld and Nicolson . London
- 106 - H.V. Livermone : A New History of Portugal
Combridge University Press. London . New York, Melbourne
- 107 - H.G. Koenigsberger and George .L. Mosse
Europe in the Sixteenth Century
Longman .London . New York .
- 108 - James Anthony Froude : English Seaman in the sixteenth century
Longman , Grean . and CO. Bombay and Calcutta . 1912.
- 109 - J.H. Elliott : Imperial Spain
1469 - 1716
Edward Arnold .London . 1981 .
- 110 - J.M. Gomez Tabanera : A Concise History of Spain
Madrid , 1966 .
- 111 - John Lynch : Spain under the Habsburgs
Basil Blackweel . Oxford .

- 112 - J.M. Thompson : Lectures on Foreign History .
Basil Blackweel . Exford . 1965 .
- 113 - M.A. Cook : A History of the Ottoman Empire to 1730 .
Combridge Undversity Press . London . New York .
- 114 - Paul Coles : The Ottoman Empact on Europe
Thames and Hudson . London . 1968 .
- 115 - Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon Europe
1470 - 1720
Longman . London . New York . 1982.
- 116 - Stanford Show : History of the Ottoman Empire and
Modern Turkey
Cambridge Univerisity Press . London . New York ,
Melbourne .
- 117 - S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf
Frank Cass & Co. LTD London . 1966 .

ملحــــــــــــــــق رقم (٢)

(وﺷﺎﺋﻖ ﻣﺨﺘﺎﺭﺓ)

.....

مهمة دفتری رقم ١٤ صفحة ٢٠٠ حکم رقم ٢٨٤ بتاريخ ٣ صفر ٩٧٦هـ / ٢٧ يونيو ١٥٧١م

حکم الى امير امر ٦١ جزائر الغرب

ارسل اعيان مندجل بخطاب الى سدة سعادتنا معربين فيه عن (—————)

والان ينبغي ان نظل عينا ساهرة واذانا صاغية تجاه ذلك الجانب حيث ان معانتههم ومظاهرتهم بما يمكن تقديمه وحسبما يقتضيه الوضع اصبح امرا مهما لذا امرت :

حال وصوله (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا اتحـــــد

الاسبانيون واتفقوا مع البندقانيين وتعسر انفصالك عن اسطولى الهمايوني فعليك

بالتشاور بالامر مع وزيرى برتو باشا ادام الله تعالى اجلاله لبذل قدراتك فى الخدمات

اللازمة فى كلا الحالتين وحسبما تقتضيه الظروف اما اذا لم يكن شمة خطر من اسطوا.

الكفار اصابهم الدماء، وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار والحاquem الضرر بتلك الديار

(الجزائر) فعليك بعد التشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما فى حوزتك

من السفن اللوند وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبودانى دام اقباله ايضا .

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك فى سبيل دفع ورفع ضرر وفساد اعدا المسلمين

وعليك ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه اخذا بمشورة المومى

اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك واظهار جلادتك وشهامتك المتأصلة فى ذاتك سواء كنت

تؤدى خدماتك فى اسطول الهمايوني او فى العمل على دفع الاذى عن المسلمين فى تلك

الديار ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما أقدمت عليه وعليك بتتبع افكار

وتحركات الكفار وابعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموشوقة .

.....

مهمة دفترى رقم ٩ صفحة ٧٧ حكم رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ٩٧٧هـ (١٩ مارس ١٥٥٩م)

٢٣ برهماد ١٢٨٥

اعطى الى خليل جارش الجزائر فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ

حكم الى على باشا امير امراء جزائر الغرب

وصل الى بابنا المعلا خطابك الذى علمنا من خلاله بأن الامان يعم ولايتك وان
الرعايا والبرايا فى احسن حال وعلى ما يرام وانك قمت بتعمير الاماكن الواجب
ترميمها وان طائفة لطران قد حشدت حشودها وقامت بالاغارة ونهب الاجزاء المجاورة
لها من اسبانيا وتمكنت من ضم تلك الاجزاء وان الهلع قد حل بالكفار اصابهم الدمار
منذ بدأ اهل الاسلام فى الاندلس برفع هاماتهم وتمكنهم من صد هجماتهم والانتصار عليهم
بارسال العتاد والرجال وعلمنا بان الاغارة على ولايات الكفار اصابهم الدمار غير
منقطعة .

وقد عرض بالتفصيل على سرير دولتنا كل ما ذكرته واحاط علمى الشريف وشمل كل
ذلك ولقد كان بنيتى ارسال اطولى الهمايونى لتلك الاطراف ولعانة ومظاهرة اهل
الاسلام لكن كفر جزيرة قبرص القريبة من ممالك المحروسة نقضوا العهد وبدأوا بالتعدى
على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا قاصدين طواف بيت الله الحرام وزيارة تربة
حضرة سيد الانام عليه افضل الصلوة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم
مصرون على العصيان والطفيان لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق
سبحانه وتعالى والتوسل والاستناد الى المعجزات الكثيرة البركات لغفر الموجودات
صلوات الله عليه وسلامه وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام رضوان
الله تعالى عليهم (وسلامه) اجمعين ، فقد استقرت نيتى الملوكية على فتح وتسخير
الجزيرة المزبورة فى الربيع الاخير القادم ونضرع الى عتبة الحق جل وعلا أن ييسر
لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان نبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام
كما كانت عليه وكى تقام فيها شعائر الشرع الشريف وحتى يامن الزوار والتجار
ويسلمون فى غدوهم ورواحهم وينصرفون للدعاء بدوام وثبات ومجد ورفعة الدولة .

وبما اوتيت من قوة أسوأ كان ذلك بارسال الجند او بارسال العتاد امرت :

عليك بالتنفيذ بما جاء فى هذا الحكم حال وصوله وان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين
بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير جائزة فلتكن على
بصيرة من الامر ولتظهر انواع اقدامك واصناف اهتمامك فى سبيل الامور المتعلقة بالدين
المبين ودولتى الابدية الكروانية ولا تتوانى فى اعلامنا باحوال وازواضع تلك الديار .

تعريب محمد داود التميمي

11/11/11	9
89	

مهمة دفتری رقم ١٤ حکم رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٤ شوال ١٩٧٧ هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩ م

اعطى الى خليل جاش في ١٠ ذى القعدة

حکم الى اهالى الاندلس

وصل الى آستانة سعادتنا عرض حالکم الذى جاء فيه ان الکفار اصابهم الدمار وجعل الضلالة لهم شعار قد سلبوكم اسلحتکم ومنعوکم من تحدث العربية وانهم يتعرضون لفسادکم ويمارسون كل انواع الظلم والتعدى علیکم وتعلمون انه يوجد حاليا لديکم ٢٠ الف رجل مسلح كما ان هناك ١٠٠ الف رجل قادر على حمل السلاح وعلمنا باستلامکم مقدارا من السلاح من الجزائر وان ذلك قد ربط على قلوبکم وتمکنتم بذلك من تکبید الکفار العدید من الخسائر فالحمد لله على نصر اهل الاسلام ويکتب لهم الفيوز الدائم على الکفار جعل الضلالة لهم ضار *

وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء فى عرض حالکم من تحریرات وتقیررات على سريـر سعادتنا واحاط علمى الشریف الملوکی وشمل كل ما يتعلق باحوالکم واخبارکم وان ، انظارى منصرفة دائما نحوکم ولكن کفرة جزيرة قبرص القریبة من ممالکی المحروسة والتي كانت على العهد والامان منذ زمان اجدادى العظام انار الله براهینهم الا انهم نقضوا تلك العهد واخذوا بالتعدى على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا لطواف بیت الله الحرام وزيارة تربة حاضرة سيد الانام علیه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصیان والطغيان لذا فبعد التوکل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البرکات لفخر الموجودات صلوات الله علیه وسلامه وكذلك بالاستعداد بالارواح الطاهرة لساكنات لصحابة الکرام علیهم رضوان الله تعالى اجمعين فقد استقرت نیتی الملوکیه على فتح وتسخير الجزيرة المزورة فى الربيع الاخير القادم ونضع الى عتبة حاضرة الحق جل وعلا ان یيسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان یبسط ايدينا علیها حتى تأهل بأهل الاسلام وكما كانت علیه وكى تقام فیها شعائر الشرع الشریف وحتى یأمن التجار فسی غدوهم ورواحهم ونیصرفوا للدعاء وثبات ومجد ورفعة الدولة وبما أن الوضع على هذا الحال فان ارسال الاسطول الهمايونی المظفر لحمايتکم سیتأخر ریثما يتم ایصال المراكب للفاکس المنصرفة للجزيرة المزورة وسيتم ذلك اثر انتهاء الاسطول لمهمته بعناية الحق وقد ارسل امری الهمايونی، المؤكد الى امیر امراء الجزائر الذى تتجه انظاره وافئدته نحوکم لارسال النجدة والمعونة لکم اما بارسال العساكر المظفرة او بارسال العدة والعتاد وبموجب امری الشریف فان امیر امراء الجزائر سیکون خیر معین وظهير لکم *

كما اننى نتوخى من خلال حمیتکم الاسلامیة المتأصلة فى حلیتکم عدم التراخي عن اظهار غیرتکم على الدين المتین فلتظهروا انواع اقدامکم واصناف اهتمامکم فى الحرب والقتال والجدال وضد الکفار الاذلاء والمأمول الا یضن علماء وطلحاء وسائر اهل الاسلام فى تآك الديار بالدعاء لیل نهار بتیسیر الفتح والنصر للفرقة المظفرة ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واطواق تلك الديار *

تعريب محمد داود التمیمی

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
فاتحة القول	٧
- الدولة العثمانية واوروبا	
أ - طبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد .	
ب - فتح اوروبا واختراقها من شرقها الى اقصى جنوبها الغربى	
الفصل الاول :	٢٢
شبه جزيرة ايبيريا فى اواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .	
أ - الدولة الحديثة فى البرتغال واسبانيا .	
ب - قيام دولة اسبانيا الموحدة	
ج - حروب الاسترداد	
د - سقوط غرناطة ٨٩٢هـ / ١٤٩٢م .	
الفصل الثانى :	٧٩
الدولة العثمانية فى مفترق الطرق	
أ - أهمية التقدم الشمالى الدانوب والدوران حوى البحر الاسود	
ب - عوائق الزحف العثمانى فى وسط اوروبا	
ج - استنجد غرناطة بالدولة العثمانية	
د - وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى - تهديد الحدود الجنوبية للعالم الاسلامى لأول مرة فى التاريخ .	
هـ - تحول التجارة .	
الفصل الثالث :	١٦٩
شارل الخامس والامبراطورية الرومانية المقدسة	
أ - الاستعمار الاسبانى فى امريكا الوسطى والجنوبية - تدفق الفضة على اسبانيا .	

- ب - اثر ظهور البروتستنتية فى شمال اوروبا .
- النشاط الكاثوليكي المضاد - الروح الصليبية
- ج - الجيوب الصليبية على الساحل الافريقى الغربى الشمالى .
- د - اهداف شارل الخامس الصليبية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

٢٤٥

الفصل الرابع:

الجهاد البحرى الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط

- أ - صدى حروب الاسترداد فى العالم الاسلامى
- ب - قيام نظام بيلربك فى الجزائر ٩٥٤ هـ / ١٥١٨ م
- ج - دور الحفصيين فى تونس وبنى وطاسى والسعديين فى مراكش

٣٠٤

الفصل الخامس:

تكثيف الجهود لاستعادة الاندلس

- أ - دور البحرية العثمانية فى عصر سليمان الكبير
- ب - خطة استعادة الاندلس فى عهد صالح ريس بيلربك افريقية ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م
- ج - ادوار حسن بن خير الدين
- د - جهود بيلربك قلع على ٩٧٨ هـ / ١٥٦٨ م .

٣٦٨

الفصل السادس:

العوامل المضادة والتحولات

- أ - الصراع بين العثمانيين والصليبيين فى البحار العربية
- ب - موقف الصفويين الشيعة فى ايران
- ج - التجمع البحرى الصليبي فى البحر المتوسط - موقعة ليبانتو البحرية ٩٨٠ هـ - ١٥٧١ م .
- د - انتهاء عصر بيلربك افريقية
- هـ - النيابات الثلاث - الجزائر ، تونس ، طرابلس .
- هـ - الدفاع عن شبه الجزيرة العربية - تأمين مكة والمدينة

٤٥٠ الخاتمة

الملاحق :

٥٠١ ملحق رقم (١) المصادر والمراجع

٥٢٥ ملحق رقم (٢) وشائق مختارة

